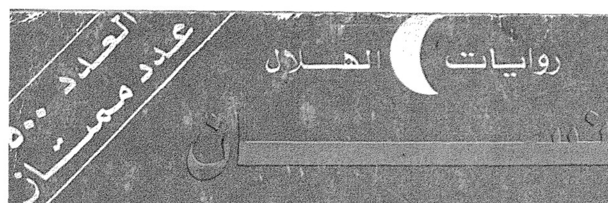


أوريانا فالاتشي

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٥٠٠ اغسطس ١٩٩٠
محرم ١٤١١ هـ
NO. 500 AU. 1990

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربي والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

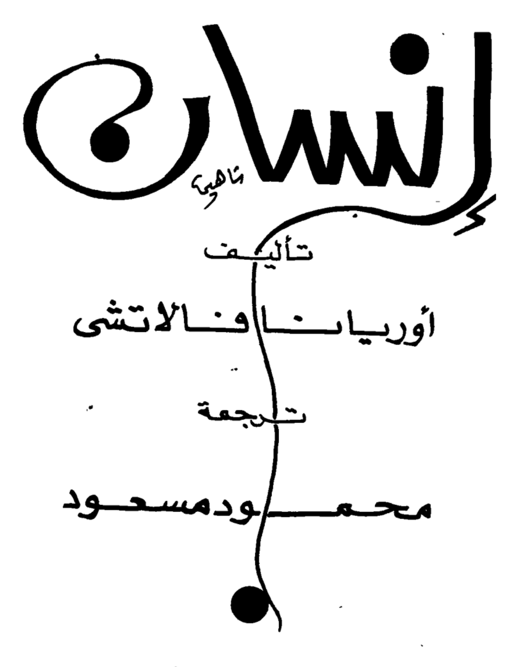
أسعار البيع للعدد ٥٠٠ فئة ٣٥٠ قرشا :ـ

لبنان ١٠٠٠ ليرة الاردن ١ دينار الكويت ٨٥٠ فلسا العراق ٢ دينار السعودية ١٠ ريالات الدوحة ١٠ ريالات دبى ١٠ دراهم ابو ظبى ١٠ دراهم مسقط ١ ريال غزة والضفة ٢ دولار البحرين ١٢٠٠ فلس لندن ٢ جك

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.
Fax : 3625442.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين



تأليف

أوريانا فالاتشي

ترجمة

محمود مسعود

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية
A MAN
مترجمة عن الانجليزية للكاتبة
ORIANA FALLACI

قبـــل أن تقـــرأ

اذا كان هناك رجل واحد يصنع امراة عظيمة فى هذا الزمان . . فان كتابا واحدا قد يصنع كاتبة من طراز أوريانافالاتشى .

التجربة هنا تختلف ، لأن الرجل الذى صنع الكاتبة أوريانا هو نفسه الذى تحدثت عنه فى كتابها « انسان » الذى نشرته عام ١٩٨٣ ومن يومها اختفت عن الأنظار كامراة مبدعة . لأنها لن تعيش تجربة عظيمة بنفس المقاييس . ليس فيها نفس الاحاسيس خاصة أن حبيبها وزوجها ــ بطل الرواية ــ كان مناضلا سياسيا فى اليونان .

وعندما يتتبع الناقد عالم أوريانا فالاتشى ــ ٥٨ عاما ــ فانه يجد نفسه أمام صحيفة ناجحة . عاشت سنوات عمرها تفكر بعقلها وتضع قلبها جانبا . حتى حبها لباتا جوليس كان عقلانيا فى المقام الأول ، امراة مارست مهنة الصحافة بعشق . عرفت رجال السياســة ، وقابلتهم ثم صادقت بعضهم . ومثلما تذهب ملايين المقالات الصحفية ويبقى الابداع شاهداً . فان كتابها « انسان » قد بقى . وهاهى الترجمة العربية منه تصدر لتؤكد ان التجربة الحية الصادقة خير مدخل الى الفنان . ولم تكن أوريانا فنانة . لكن التجربة الانسانية فجرت ، فجأة ، فيها كل ابداع وعطاء العالم . فقد ترجمت الرواية عقب صدورها الى العديد من اللغات الحية . واتفقت معها أكثر من شركة سينمائية على انتاجها . ليس لاهمية صاحبها . بقدر الاهمية التى يتمتع بها الكاتب نفسه .

قدمت أوريانا للمكتبة مجموعة من الكتب السياسية والاجتماعية منها : « الجنس الدائم » ، « بنبليوبى فى الحرب » ، « الانانية » و « حين تموت الشمس » و « حوار مع التاريخ » ثم « رسالة الى طفل لم يولد أبداً » وفى شهر أغسطس ١٩٩٠ صدرت لها روايتهـــا الثانية « انشالله » ألتى تدور أحداثها بين لبنان والعديد من دول العالم الثالث .

سميت أوريانا فى السنوات الأخيرة بـ « آل فالاتشى » وتوضع أداة التعريف هنا كتكريم جاد تستحقه امراة عبرت المدن والقارات لتلتقى مع كثير من رجالات العصر من مختلفى المذاهب ، فقد عقدت لقاءات صحفية مطولة مع هنرى كيسنجر ودنج سياو بنج مع شـــاه ايران

وآية الله الخمينى ، مع ذو الفقار على بوتو وانديرا غاندى ، مع ريجان وجورباتشوف والسادات .

وما دمنا نتحدث عن روايتها . فليس لنا ان نتحدث عن هـذه الاحاديث الصحفية العديدة التى كشفت فيها ديكتاتورية العديد من الزعماء الذين التقت بهم . ودافعت فى المقالات التى كتبتها عن شعوب فقيرة مثل دول أمريكا اللاتينية وباكستان والهند . ولكننا سـوف نتناول روايتها . فهى عالم آخر غير أحاديثها . وأكثر روعة وان كانت تحمل نفس سمات صاحبتها .

تعتبر رواية « انسان » بمثابة سيرة ذاتية بالغة الجوانية لتجربة عاشتها أوريانا مع المناضل اليونانى أليكوباتا جوليس الذى تزوجته فى أحلى سنوات عمرها .. ويمكن ان نتناول هذه الرواية من عدة مناظير ، فهى تنتمى الى الأدب السياسى من ناحيـة . والى الأدب النسوى من ناحية أخرى . فالرجل هنا شخصية سياسية وللمرأة ايضا فكرها السياسى تجاه قضايا العالم الحديث . فاللقاء الذى تم بين الاثنين لقاء مناضل سياسى وامرأة تؤمن بما ينادى به وسرعان ما يتم الاقتران بين المناضل والصحفية . لكن الزواج محاط بمخاطر لا تنتهى . لأن حياة المناضل فى توتر دائم . وبالفعل فان اليكو يموت فى حادث مدبر . وتبقى المرأة تجتر ذكرياتها وتروى قصة هذا الحب العظيم .. تكتب كل دقائق قصتها مع الرجل : وعندما مات اليكو شعرت اننى مدانة . كانت المرة الأولى التى اتركه وحده منذ أن التقينا أول مرة ، لو كنت معه لحاولت أن اجعل الموت لا يقترب منه » .

وكنت أود ان أموت معه . كنت فى نيويورك . اما هو فبقى فى أثينا. دق جرس الهاتف . جاءنى صوته بعيدا . بدا الصوت يائسا . فهمت انه فى خطر . اقلعت فى أول طائرة . عندما وصلته كان قد مات . لقد نسيت كل علاقتى بالعمل خلال سنوات حبنا الثلاث . اهملت حوادث جساما مثل فضيحة ووترجيت وموت سـلفادور الليـنـدى واندلاع الثورة فى البرتغال . والحروب فى الشرق الأوسط . لقد وجـدت انسانى واخترت ان أنشـغل به . وان اكـون ملاكـه الحـارس . وبيجماليون الذى انتمى اليه » .

وتصوغ اوريانا فالاتشي روايتها « انسان » فى صورة خطاب موجه الى حبيبها الراحل ، وتنتقل من الشعور الخاص الى الشعور العام . فتهاجم نظام بابا دوبلوس الذى أصدر حكما بالاعدام على حبيبهـا

المتمرد . وفى السجن قرر الرجل ان ينتحر لأنه لم يعد يجد لنفسه مكانا . لقد مات الرجل كى يتكلم . لكن أوريانا تخاطب روحه فى عتاب رقيق قائلة : « حبيبى .. لقد اخطأت . فالموتى يسكنون للأبد .. وعندما نشعر انهم يتكلمون فان الأحياء هم الذين يجعلونهم يتكلمون ».

التقت أوريانا باليكو لأول مرة فى شهر اغسطس عام ١٩٧٣ عقب خروجه من السجن . حيث ذهبت لتعقد معه لقاء صحفيا فى اليونان ضمن قائمة لقاءاتها الصحفية المعنونة « مقابلة مع التاريخ » . تقول عن هذا اللقاء : « كان له وجه نوراني . هذا الوجه الذى بدا طيلة عشر سنوات أكبر سنا من عمره الحقيقى . كان فى الرابعة والثلاثين . شاحب الجبين . وبين رموشه السوداء تبدو عيناه مليئتين بالكآبة والغضب » .

وينتمى اليكو بانا جوليس الى أسرة يونانية لم تتوقف عن افراز المناضلين . كان أبوه كولونيلا حاملا للعديد من أوسمة الشرف . أما أخوه فربان سفينة . درس اليكو فى مدرسة الصناعات الزخرفية . احب علوم الرياضيات مثلما احب الشعر . كتب أرق اغانى المقاومة التى قام بتلحينها الملحن اليونانى المعروف تيودور راكيس صاحب لحن « زوربا » .

لم يكن يمكنه أن يحتمل النظام الديكتاتورى للكولونيلات . اشترك فى تنظيم أول محاولة لاغتيال بابا دوبلوس . كلفته هذه المحاولة الكثير . حكم عليه بالاعدام . مثل أمام حبل المشنقة اكثر من مرة . ظل سجينا طوال عشرة أشهر ينتظر حكم الاعدام . وكتب الكثير من القصائد وهو مصفد الأغلال :

عود ثقاب من اجل ريشة
تسرى دماء فوق الأرض من اجل نقطة حبر
المظروف المهجور مقابل وقود ومقعد
ولكن .. ماذا اكتب
ربما لدى الوقت لأكتب عنوانى
حبر غريب يتجمع
اكتب لك من مخبىء فى اليونان

حاول الهروب من السجن اكثر من مرة . ونجح مرة فى الافلات . لكن تم القبض عليه واعيد الى السجن مرة اخرى بعد أن وشى به من اختبأ فى دارهم .

فى حوار مع اوريانا عقده الكاتب الصحفى والروائى الفرنسى لارتوجى حول هذه الرواية تقول أنه كتاب « نسوى » . لكن لا يمكن لها أن تكون امرأة وصحفية وعاشقة وروائية فى نفس الوقت » .

« لو كنت رجلا . لكتبت نفس الكتاب . فهذه الوقائع حدثت بالفعل . نفس الاسماء والتواريخ . ولكننى اخترت صياغة الاحداث فى بناء روائى . طريقة القص . كنت اريد ان اظهر الوضعية الانسانية والتاريخية لأليكو . نظامه اليومى الذى جعل منه شخصية عالمية » .

« كل ما فى كتابى واقع . بالنسبة لى على الأقل ، فبالنسبة لى فان اليكو قد ولد لأول مرة وهو فى الثلاثين من عمره . عندما وضع قنبلة لاغتيال بابا دوبلوس . لم اود ان أعرف شيئا عن حياته قبل هذه الفترة . ولا عن هذا الطاغية الذى ود أن يقتله . ولا عن نظام الكولونيلات الذى استولى على السلطة . أريد أن يسمى بطلى بكل بساطة باليكو . ولد هذا الكتاب من مشهد حب . كنت استطيع أن اكتب قصة عن رجل من شيلى يريد أن يقتل بينوكيه . أو عن زنجى يحاول قتل بوكاسا . لكل كل هذا لن يكون بالنسبة لى صادقا بنفس الصدق الذى اعرفه عن اليكو » .

وعن آخر اشعاره تقول :

وجدت أشعاره الاخيرة فوق وسادته ، كتبها على عجالة قبل ثمان واربعين ساعة من وفاته . سطرها بسرعة خوفا من أن تضيع كلماته فى الطريق . من هذه الأشعار كتب :

كم انا شديد الثراء
اقل وحدة
عندما أكون فى زنزانتى

كان يعرف أن الناس بالخارج يفكرون فيه وانه وحده .. للأسف وحده .

فى السجن كان يعيش فى حلم . وعندما خرج منه اكتشف الحقيقة . كان يريد أن يبدأ رحلة كفاح أخرى . هنا أدركت ان عليه مغادرة اليونان . والا تعرض للاغتيال .

عندما سقطت الحكومة . عاد الجميع الى اليونان . كل المعارضين والذين عرفوا المنفى فى اوروبا والولايات المتحدة . كانت منهم ميلينا ميركورى . استقبلوا استقبال المنتصرين . ظل ينتظر يوم الثالث عشر من اغسطس . عيد ميلاد اغتياله . لم اود ان أحضر الاحتفال معه .

رحلت أختى الى أثينا . لم يكن هناك احد ينتظرها . لعله نسى الحضور . فقد تهشمت رأسه على أرض الواقع فى يوم مصرعه .

وعن كتبها تقول : « كنا نحن الاثنين اشبه بدون كيشوت فيما يتعلق بالمسائل السياسية والعاطفية . مغامراتنا المتقاربة والفوضوية!. أضف أنه عندما يجب ان يصف كاتب احدى الشخصيات العظيمة فعليه أن يعرف ما كان يتمتع به اليكو . لقد فهمت اليكولاننى كنت احب اليكو » .

الجدير بالذكر ـ أوريانا فالاتشى قد اعتكفت عن العمل بعد أن وضعت كل عصارتها فى كتاب عن « انسان » حياتها .. واذا كان اليكو قد ولد يوم لقائها به .. فانها قد ماتت يوم أن مات . وما بقى منها الان هو حطام امرأة .. تكتب أحيانا .. وفاء لذكرى اليكس . لذا طلعت هذا الشهر على قارئها بروايتها الجديدة « انشالله » اعتبرت مفاجأة أول أعوام التسعينات . وقد ارتفعت أرقام مبيعاتها فور صدورها بشكل يناهز ما حدث مع روايتها الأولى « انسان »

« رواية الهلال »

ارتفع فوق المدينة هدير قوامه الأسى والاهتياج مدويا مجلجلا ، مستحوذا مطبقا ، لا يلين ولا ينثني ، مكتسحا كل ما عداه من الاصوات ، مرددا الاكذوبة الكبرى ، هو حى ، هو حى ، هو حى ! ... انه هدير لا يمت بشبه الى عالم البشر .. والحق انه لم يرتفع من كائنات بشرية ، من مخلوقات ذوات ذراعين وساقين وعقل لصيق بها ــ بل كان يرتفع من وحش هائل بلا عقل ، هو الجماهير الحاشدة، هو الاخطبوط الذى اجتاح وقت الظهيرة ، متلاصقا بقبضات مطبقة، ووجوه متقلصة ، وافواه مزمومة ، ميدان الكاتدرائية الارثوذكسيه ، ثم امتدت ذؤاباته تنتشر فى الشوارع المجاورة ، يسدها سدا ، ويغمرها غمرا ، مطبقا كالحمم البركانية التى تجتاح وتلتهم كل عقبة فى طريقها ، تصم الاذان وتصك الاسماع بهتافاتها : هو حى ، هوحى، هو حى ! .. كان الافلات منها بلا أمل ... بعض الناس حاولوا ... اعتصموا داخل البيوت والمحال والمكاتب ، فى حينما لاح امكان العثور على ملاذ ، او على الاقل ليكونوا بمنجاة من سماع الهدير ... بيد انه فى تسربه من خلال الأبواب والنوافذ والجدران ، ما برح يبلغ مسامعهم ، واذا هم بعد قليل يذعنون هم كذلك لاستهوائه ... ثم اذا هم يزعم القاء نظرة ، لا يلبثون أن يبرزوا خارجين ، متلمسين متحسسين ، فسرعان ما ينغمرون فى الطوفان ليصبحوا قبضات مطبقة ، ووجوها متقلصة ، وأفواها مزمومة ، هاتفة : هو حى ، هو حى ، هو حى ... ثم اذا الاخطبوط يتضخم ويتعاظم بوثبات مباغتة ، فى كل وثبة الف من الخلائق ، ثم عشرة آلاف أخرى، ثم مائة الف جديدة ... وما أن حلت الساعة الثانية بعد الظهيرة حتى كانوا خمسمائة الف ، وبحلول الثالثة بلغوا مليونا ، وما أن أوفت على الرابعة حتى صاروا مليونا ونصف المليون ، وعند الخامسة استعصوا على الحصر ! ... أنهم لم يقدموا من المدينة وحدها ، من أثينا ــ بل كانوا يتقاطرون من كل فج قصى ، بالقطارات ، والزوارق ، وبالحافلات ، ومن الريف والاقاليم ، من أتيكا ، ومن ابيروس ، ومن جزر بحرايجة ، ومن قرى البليبونيز ، ومن تسالبا : مخلوقات ذوات ذراعين ، وساقين وعقل لصيق بها ، فلا تلبث أن يبتلعها الاخطبوط

المهول ! ... فلاحون وصيادو أسماك فى ملابس يوم الاحد ... عمال فى أردية المصانع والمعامل ، نساء يصطحبن أطفالهن ... انهم الشعب ... ذلك الشعب الذى كان حتى الأمس يتجنبك ، والذى نبـــذك وحيدا كأنك كلب مشاكس ، متجاهلا اياك حين قلت لهم : « لا تسمحوا لانفسكم بأن تنساقوا خلف المذاهب المعلنة والشعارات المرسومة ... لا تنخدعوا من جانب أولئك الذين يقودونكم ، والذين يمنونكم بالوعود، والذين يسلطون عليكم سيف الارهاب والتخويف ، والذين يريدون استبدال سيد بسيد ؟ .. لا تكونوا قطيعا من الأغنام بحق السماء !.. لا تختفوا تحت مظلة من يريد أن يلقى عليكم التبعة ويحملكم وزرها!.. فكروا بعقولكم الذاتية ! ... تذكروا أن كل فرد منكم هو شخصيته بذاتها ، كائن له قدره ، مسئول ، صاحب القول الفصل فى نفسه!.. دافعوا عن وجودكم ، الذى هو لب الحرية وجوهرها ... الحـرية هى واجب ، وأجب أكثر حتى من كونها حقا ! .. » ...

الان ها هم أولاد ينصتون اليك ، الان وقد اصـــبحت فى علاء الأصوات ... لقد اندمجوا فى الاخطبوط الهائل وهم يرفعون صورك، ولافتات تتضمن التهديد والوعيد والتحدى وهم يحملون أكاليـــل الزهور بمختلف أنواعها ، منها ما صيغ بالحروف الأولى من اسمك : اليكوس ياناجوليس ، وحتى بعبارات الهتاف المدوى : هو حى ، هو حى ، هو حى ! ... ولقد كانت الحرارة تخنق الأنفاس فى يـوم الاربعاء هذا الخامس من شهر مايو عام ١٩٧٦ ، حتى كان عطن الأوراق المحترقة بلظى القيظ يفسد الهواء ويسلبنى أنفاسى ... بل كان يؤكد يقينى بان كل هذا لن يدوم أكثر من يوم ، ثم لا يلبث الهدير أن يخمد، والاسى أن يستحيل الى اللامبالاة ، واهتياج الغضب الى خنـوع ، ولا تلبث المياه أن تعود الى هدوئها من جديد ، ساكنة ، وآنية ، يلفها النسيان فوق دوامة سفينتك المفرقة ! ... ولن تلبث القوة أن تنتصر من جديد ، القوة الأزلية التى لا تموت أبدا ، ولا تســـقط دائما ألا لتنهض من رمادها ! ... ربما تظن انك قهرتها بثورة أو بمعجزة ينعتونها بثورة ــ وبدلا من ذلك هاهى ذى تعود سيرتها الاولى، مكتملة غير منقوصة ، فى لون متغير ولا شىء غير ذلك ، سوداء هنا ، أن صفراء أو خضراء أو وردية ، فى حين يتقبل الشعب أو يخضـــع أو يلملم ... فهل من أجل هذا كنت تبتسم تلك الابتسامة اليسيرة ، ابتسامة المرارة والتهكم ؟ ..

انى وقفت منحجرة قرب التابوت ذى الغطاء الزجاجى الـذى

تبدى فيه التمثال المرمرى : جثمانك ، وعيناى مسمرتان على تلك الابتسامة المريرة المتهكمة التى قوست شفتيك ... وكنت انتظر تلك اللحظة عندما يتدفق الاخطبوط الى داخل الكاتدرائية لكى يصب فوقك محبته المتأخرة ، وقد اجتاحنى الرعب ممزوجا بالأسى والضنى ... كانت الأبواب الكبرى موصدة ، مدعمة بقضبان جديدة تشد ازرها ، بيد أن ضربات غاضبة انهالت عليها وهزتها هزا عنيفا ، ومن خلال فرجات غير مرئية أخذت اطراف الاخطبوط تتسلل الى الداخل .. جعلوا يتعلقون بأعمدة الاروقة المقنطرة ، وراحوا يتدلون من سياجات جناح النساء ومن حواجز مجمع صور القديسين والايقونات ... ومن حول التابوت افسح فراغ يسير ، ولكنه بدا يضيق ويضيق بمضى الدقائق ... ولكى افلت من الضغط المتزايد على جانبى وظهرى ، اضطررت الى الانحناء فوق الغطاء الزجاجى ... وكان هذا عذابا لى خوفا من أن يؤدى ذلك الى تهشم الزجاج والسقوط فوقك والاحساس من جديد بالبرودة التى لدغت يدى فى المشرحة ، عندما وضعت حول اصبعك الخاتم الذى كنت قد وضعته حول أصبعى واضع حول اصبعى الخاتم ألذى كنت قد وضعته حول اصبعك ذينك الخاتمين اللذين تبادلناهما بغيرماقوانين ولا تعاقدات ، فى يوم فرحتنا ، منذ ثلاث سنوات الآن ، ولكن لم أجد شيئا أتعلق به الآن فقد تلاشى حتى ذلك الحبل الذى كان يحف بالتابوت كآخر علامة تحت موجات الافواج المتدافعة من طلاب الاثارة والمتطلعين والجوارح الكاسرة التى تتلهف للعثور على موضع فى الصف الامامى وليكون لها دور تلعبه فى المسرحية — وخاصة خدام القوة والسلطان ، وممثلى اكابر الهيئات الثقافية ، والبريطانية ، ممن خفوا الى موضع التابوت فى سهولة ويسر لأن الاخطبوط يفسح لهم الطريق حين يترجلون من سياراتهم الليموزين مرددا : « من هنا ياصاحب الفخامة ، تفضل بالدخول فورا ! » ... انظر اليهم الآن وهم وقوف متالقين ببذلاتهم الرمادية ذات الصدور المحشوة ، وقمصانهم الفاخرة ، وأيديهم ذات الأظافر المنمقة ، واحتشامهم المقزز ... ثم جاء الكذابون يتدافعون — الكذابون الذين يقولون للناس كيف يقاومون القوة والسلطان ، الديماجوجيون ماجورو السياسات ومنافعهم ، الذين جاءوا الى هنا يشقون الطريق ويتدافعون ليس لأن الاخطبوط ابى ان يفسح لهم الطريق ، بل لانه كان يريد ان يحتويهم ! ... انظر اليهم وقد وضعوا على وجوههم مسحة

الحداد ، تخالطها نظرات جانبية للتأكد من أن المصورين على استعداد لالتقاط صورهم الفوتوغرافية ، وتراهم ينحنون الى الامـــام لكي يسبغوا على التابوت مداهنة يهوذا ، ناشرين فوق سطح الزجـــاج خبثهم القوقعي .. ومن بعدهم أولئك الذين درجت أنت على نعتهم بالثوريين الكاذبين ، الحواريين المستقبليين للمتعصبين ، القتلة الذي يطلقون المسدسات باسم البروليتاريا والطبقة العاملة ، مضـــيفين مسبات جديدة للقديم منها ، ومعرات جديدة لما سبقها ، وهم أيضـــا من السلطة ... انظر اليهم وهم يرفعون قبضاتهم ، وهـــم أهـــل النفاق ، وقد أصطنعوا لانفسهم لحى المخربين واقنعه البورجوازيين تأهبا لتقلد ادوار البيروقراطيين وسادة المستقبل ... وفي النهـــاية جاء القساوسة ، الجوهر المركب في كل سلطة ، حاضرا وماضـــيا ومستقبلا ، وفي كل سطوة وصولة ، وفي كل دكتاتورية ... انظر اليهم وهم يختالون في أرديتهم السوداء ، بشـــعاراتهم الخاوية ، ومباخرهم التي تغشي سحائبها الاعين والعقول ... وقام في صميمهم الكاهن الأكبر ، بطريق الكنيسة الارثوذكسية ، الذي انشا وهو مجمل بالحرير الوردي ، يقطر ذهبا وعقودا ، وصلبانا نفيسة من اليواقيت زرقاء وحمراء ومن الزمرد — الذي انشا يرتل دعاء يقول فيه : « ادعو لك بخلود الذكرى ... بيد ان أحدا لم يكن يستطيع له سمعا ، لان الدق الغاضب على الأبواب غدا الآن مختلطا بالواح الزجاج المهشـــمة وصرير الاقفال التي لم تقو على احتمال الزخم المقترن بشجار المحتجين والصخب المستطير في الميدان حيث استحال الهدير الى غليان متفجر ، واخذ الاخطبوط المسمر فوق جدران الكنيسة يطالب بصـــبر نافد أن يحملوك الى الخارج ! ...

وفجاة حدث خبط مروع ، واذا البـــاب الرئيسي ينخـــلع ، والاخطبوط يتدفق الى الداخل ، مرغيا مزبدا ، قاذفا نفثا وحمما ... فانبعثت صيحات الخوف مجلجلة ، وتصـــاعدت صرخات الاستغاثة ، وضاق الحيز حول التابوت حتى صار دوامة طوحت بي فوقه وتكاد تدفنني تحت الوطأة الرهيبة وتغيبني في ظلمة لا اكاد استبين فيها وجهك الشاحب وذراعيك المشبكتين فوق صـــدرك وبريق خاتمك ... ومن تحتي اخذ التابوت يتمايل ، وانبعث صرير للغطاء الزجاجي ، ولو تزايدت الوطأة لتهشم تهشما كما خفت أن يقع ... وصاح صائح بهذه الكلمات : « ارجعوا الى الوراء ياحيوانات! ... هل تريدون ان تأكلوه ؟ ... ؟ .. ثم أعقبه من يقول : « الى

العربة ! .. بسرعة ! .. الى العربة ! » .. وعندئذ غدا الزخم اخف وطأة ، ومن خلال فرجة تسرب شعاع من الضوء .. واقتحم ستة من المتطوعين الدوامة ورفعوا التابوت الى موضع آمن ، وساروا باخراجه من باب جانبي الى العربة المحتبسة لدى الباب الأمامي ... بيد ان الوحش المائج خرج الآن عن كل سيطرة ، وما كاد يلمح الجثة المكشوفة بادية بوضوح من خلال الغطاء الشفاف حتى جن جنونه .. وكانما لم يكتف بالهدير ، وكانما يريد أن ياكلك اكلا لما ، فقد تضام بطوله ، وهوى بكلكله على حملةالتابوت، الذين احتبسوا في صميم الهجمة وعجزوا عن التقدم اماما أو خلفا ، فاخذوا يتطاوحون وينزلقون وهم يهتفون مبتهلين : « افسحوا الطريق بالله ، افسحوا الطريق ! .. » ... وكان التابوت يرتفع آنة فوق أكتافهم ، ثم يهوى آنة اجرى ، متقلبا مثل لوح عائم يتقاذفه بحر عاصف ، يرجك أماما وخلفا ، ويكاد يقلبك قلبا ... فحاولت افساح الطريق ركلا وضربا وقد ذهب بلبي التفكير في أن حملة التابوت الستة قد يفقدون توازنهم ويتخلون عنك الى الجموع التي فقدت صوابها ، وهكذا رحت أصرخ يأسا : « حاذر يا اليكوس ! ... حاذر ! » وعبثا حاولت ، فقد اندفعت موجة اخرى واخذت تسحبك بعيدا عن العربة ، بدلا من أن تأتي بي الى جوارنا ، بل جعلت تتباعد وتتباعد ... وبدا كان دهرا تعاقب قبلما أستقر التابوت في العربة منحرفا عن مساره ، وتلاه دهر آخر قبلما أغلق باب العربة ليقوم سدا دون المخالب التي كانت تريد أن تفتحه مرة اخرى بين تدافع الاقدام وخمش الاظافر ... بل انصرم دهر جديد قبلما استطعت ان انزلق الى جانب العربة شبرا شبرا ثم أجلس الى جانب السائق المروع الذي كان مشلولا لعلمه أن هذه هي البداية فقط ، لانه كان يتعين علينا أن نتجه الى المقبرة ...

يالتلك الرحلة التيلا نهاية لها، وفيها كان التابوت يتقلبوينحرف، وجثمانك معروض عرضا قبيحا وكانه سلعة في (فترينة) محل ، وكانه دعوة مغرية للفرجة ولكن دون اللمس ... ويا لهذا الكابوس الذي لا ينتهي في العربة ! ... احتباس تحت وطأة الحمم ، وعجز عن التقدم ... وكانت العربة اذا تقدمت بارودة لا تلبث أن تفقدها على الاثر ... وكان علينا أن نقضي ثلاث ساعات في أجتياز مسافة لا تستغرق في المعتاد الا عشر دقائق : في شارع متروبوليوس ، وآوتونوس ، وأماليا ، ودباكو ، وآنابافسيوس ... وكانت الشرطة

التى عهد اليها بحراسة الموكب قد ذابت من فورها فى بحر اللحم البشرى بعد اصابة العديدين من افرادها بالجروح أو الضرب ... وكان عشرات الشباب الذين كان المفروض أن يساهموا فى المحافظة على النظام قد اكتسحتهم الجماهير اكتساحا ، ولم يبق منهم سوى خمسة او ستة افراد اصروا رغم جروحهم على حماية نوافذ العربة المحطمة ... وبامكانك أن ترى هذا فى الصور الفوتوغرافية الجوية ، حيث بدت العربة رقعة غائمة ، غارقة فى خضم الكتل المتلاصقة ، فى حميم الاعصار الاخطبوطى ... كان الاخطبوط لا مفر منه ولا مهرب ... كان لصيقا بنا الى الحد الذى لم نعد نستطيع فيه تبين الشـــارع الذى نسلكه ، ولا البعد الذى يفصلنا عن المقبرة ... ثم كان انهمار الزهور التى كانت تنزلق على الزجاج الامامى للعربة فتسدل ستارا من الظلال كان شبيها بتلك الظلمة التى دفنتنى فى الكاتدرائية عندما طوح بى الى ما فوق التابوت ... وأحيانا كان الستار ينزاح ، فيتيح بصيصا من الضوء أستطيع أن اتميز فيه أشياء حيرتنى باسئلة لم اقدر لها على جواب ... فهل تراهم قد استفاقوا فجأة ، عفويا ، ولم يعودوا يتصرفون مثل قطيع يذهب الى حيث يريد لهم الذين يأمرون أن يذهبوا ــ الذين يعدون ، الذين يخوفون ويرهبون ؟ ... وماذا لو سيقوا من جديد ، صفوفا مطواعة لصالح واحد من أبنـاء آوى يريد استغلال صوتك ؟ ... غير أننى استطعت أن أتبين أيضـا أشياء بددت الشكوك من نفسى ودفأت قلبى ... هم تجمعات من الناس اعتلوا أعمدة الانارة وتعلقوا بالاشجار ، وغيرهم ممن اطلوا من النوافذ وتراصوا فوق الاسطح ، أو اقتعدوا الأرصفة فى جمـــوع متراصة ... وسرى الى سمعى بكاء امرأة نادتنى بقولها وهى تبكى: « لا تبكَ ! » ... وأخرى صرخت نحوى باستماتة : « تشجعى ! » ... ورأيت صبيا فى قميص ممزق يشق طريقه فى غمار الجمـــاهير الحاشدة ويناولنى مفكرة لكَ من عهد الدراسة ، وهى بالقطع تذكار نفيس لديه ، قائلا : « أننى اهديك هذه خصيصا ! » ... ولوحت امرأة عجوز بمنديلها مرات وقالت منتحبة : « الوداع ياولدى ! ... الوداع ! .. » ... ورأيت اثنين من الفلاحين بلحى بيضاء وقبعات سوداء راكعين على الاسفلت فى طريق العربة يرفعان ايقونة من فضة هاتفين : « صلوا من أجلنا ! .. صلوا من أجلنا ! .. » .. وكادت العربة تدهمهما ، حين صرخ فيهما الناس قائلين : « ابتعـــدا عن الطريق ، يامغفلين ! .. ابتعدا عن الطريق ! .. » .. غير انهمــا لبثا على قارعة الطريق رافعين الايقونة ..

وظل الحال كذلك الى ان همس صوت يقول : « وصلنا » ومن حولنا انفسح حيز طولي وتوقف السائق وجذب بعضهم التابوت الذى كان مرفوعا على الاكتاف ، واخذنا نتقدم ببطء شديد على امتداد هذا المجاز الضيق يلفنا صمت مطبق .. وفجأة لم يعد الاخطبــوط يهدر هديره القاصف أو يتلاطم أو يتضاغط ... ومع ذلك فقد كان ماثلا لا يريم ولا يفتر ... وبحركة كماشة امتدت بعض أذرعة تسبق التابوت ، وتكأكأت عشرات الألوف من جوفه تنحشر الى داخـــل المقبرة وفيما حول المدفن ولكن فى هدوء ... وفى الداخـــل غطت جموعهم كل حجر ، كل معلم ، وملأوا كل حوض زهور ، وطوقوا كل شجرة سرو ، وكل نصب قائم ــ ولكن فى هدوء ... وفى غمـار هذا السكون المطبق ، وعلى امتداد ذلك المجاز الذى انفتح بســـكون لكى يسمح لنا بالنفاذ منه ، مالبث أن انطبق خلفنا مرة أخرى بسكون ... واخذت أمشي متجهة الى القبر الذى لم يكن تستطاع رؤيتــه ... ثم فجاةرايته : ضيقا ، عميقا ، بئرا فاغرا من تحت قدمى ... الفيتنى أترنح .. وامتدت يد تمسكني وتقيمني ثم تجلســـنى فوق الافريز الصغير للقبر المجاور .. ثم بدأ الدفن : عملية أخيرة مستحيلة ... فمن حول أطراف البئر اقام الاخطبوط سدا من الاجساد ، ولامكان ادلاء جثمانك كما يجب ان يدلى بحيث يكون راسكعندموضع الصليب وقدماك لدى المشي ــ كان لابد أن يدار التابوت فيما حول المكان ، بيد أن السد البشرى كان راسخا ، صلبا كالاسمنت ... وعبثا راح الحفارون يقولون للناس : « ارجعوا الى الوراء بالله ، ارجعوا ! » .. وتعين عليهم أن يدفنوك على حالك : راسك فى اتجاه المشي ، وقد مال عند الموضع الذى سيقام فيه الصليب ... وفى مبلغ علمى ، كنت انت الميت الوحيد الذى يوضع الصــليب لدى قدميه ... وعندما صرت فى قاع البئر ، ومن حيث لا يعلم الا الله كيف ادلوك ، برز القس الاكبر فى مسوحه الحريرية القرمزية ذات الذهب وعقود اليواقيت والعقيق من الزمرد . وفى ابهته الســامقة وهو يرفع عصاه الكنسية لكى يمنح البركة القدسية ، ما لبث أن هوى على الأثر منكسا فى البئر محطما غطاء التابوت الزجاجى ، ثاويا على صدرك .. لقد لبث هكذا ثوانى قلائل ، محمر الوجه ارتباكا ، نابى المشهد ، يستجمع حليه ويلتمس موطىء قدم لكى يصعد الى مافوق ، وعندئذ صادوه واصعدوه ، فاختفى من فوره مهيضا متأذيا ونسى أن يمنح البركة القدسية ... ثم اهيلت فوقك أولى حفنات الثرى

... كانت تسقط فى هوى مكتوم رتيب ، ومع ذلك رنت فى اسماع الاخطبوط من أدناه الى أقصاه ... وسرت فيه رعدة كأنها من شحنة كهربائية ، واذا ألصمت يتلاشى ، يمزقه هدير منبعث من أعماق النفس ، حتى راح بعضهم يصيح : « انه لم يمت ! .. اليكوس لم يمت ! » ... وآخرون صاحوا بكلمات لم استطع سماعها غيرانني فهمتها فيما بعد : فقد هتفوا باسمى ، مرددين أمرا : « اكتبى ! .. احكى القصة كلها ! .. اكتبيها ! » .. وفيما كانت حفنات الثرى تتهاوى من المجارف ، كأنها ضربات المطارق فوق روحى ، مغطية رويدا رويدا التمثال المرمرى ، والابتسامة المريرة الساخرة ، والاعلام تهتز بوميض أحمر باهت ــ اذا الهدير يبدأ من جديد ، بلا هوادة ، مدويا فى الاسماع ، مستحوذا ، مكتسحا كل صوت عداه .. مرددا الاكذوبة الكبرى : هو حى ! .. هو حى ! .. هو حى ! ..

لقد احتملت كل هذا صابرة مرابطة الى ان ملىء البئر واصبح هرما من الأكاليل الذاوية ، والاوراق التى تسلب الانفاس ... وبعدها انطلقت هاربة ... كفى اكاذيب ! .. كفى مهرجانات ، مدبرة أو عفوية ! .. كفى مظاهر المحبه لتى فات أوانها ! .. كفى طوالع الاحزان والغضب التى يصرخون بها ليوم واحد لا اكثر ... غير أننى كلما ابتعدت هربا كلما زدت رفضا ، بل كلما كان الهدير اللعين يطاردنى باصداء الذكرى ، والشك ، ثم الأمل ، يعزينى ويلازمنى بأشد الحاح وكأنه « تكتكة » ساعة بلا عقارب : هى حى ! .. ! .. هو حى ! .. هو حى ، هو حى ! .. هو حى ! .. هو حى ! .. وحتى بعد أن نسيك الاخطبوط ، واستحال مرة اخرى الى مطيع يسير فى الاتجاه الذى يريده أولئك الذين يأمرون والذين يعدون ، والذين يخوفون ويرهبون ، وحتى بعد أن تحول انحدارك الى نصر آبد لاولئك الذين يامرون والذين يعدون والذين يخوفون ويرهبون ــ فان الهدير استمر دراكا لا ينقطع ، كشبح تعلق بشعاب ذهنى ، متخذا عشه فى حنايا ضميرى ، غلابا حتى لو صددته بالمنطق أو الفكر السليم أو التشكك .. وكذلك اخذت أقول لنفسى ، عند نقطة معينة ، انه ربما كان ذلك صحيحا ... لكن ان لم يكن صحيحا ، فلابد من عمل شىء لجعله يبدو صحيحا ، أو يغدو صحيحا ..

★★★

وهكذا تحقق لى باتباع مشارب واضحة أحيانا وأحيانا أخرى معتمة بالضباب ، احيانا مكشوفة سافرة وأحيانا تعترضها الاشواك

والنباتات المتسلقة ، وهما وجها الحياة التي بدونهما لا يمكن أن يكون لها وجود ، ومستعيدة مسالك معروفة لي لاننا قطعناها سويا، أو تكاد تكون غير معروفة لانني لم أعرفها الا من خلال الحلقات التي كنت قد أخبرتني بها ـ هكذا تحقق لي شروعي في أعداد قصتك ... انها الاسطورة المعهودة للبطل الذي يقاتل وحده، مركولا بالأقدام، محقرا ، مساء فهمه ... القصة المعهودة للرجل الذي يأبى أن ينحني امـــام المعـــابد ، والانمـــاط المقررة ، والمذاهب الايديولوجية ، والقواعد المطلقة من اية وجهة جاءت ، وفي اية الوان صيغت وشكلت ـ الرجل الذي يبشر بالحرية ... بل هي المأساة المعهودة للفرد الذي لا يرتمي في الصف المرسوم والذي لن يذعن ويستكين ، والذي يفكر بعقله هو ، ومن ثم يلقى الموت ، ذبحا بأيدي الجميع ! ... ها هي ذي اذن قصتك ، وأنت فيها كليمي الوحيد ، موسدا تحت أطبـاق الثرى ، فيما الساعة التي لا عقارب لها تشير الى رحلة الذاكرة .

القسم الأول

فى الليلة الفائتة راودك ذلك الحلم ... طائر نورس كان يحلق فى الفجر ، وكان طائرا جميلا ... ذهب يطير وحيدا وبعزم فوق المدينة النائمة ، وبدت السماء كأنها له ، مثل فكرة الحياة ذاتها ... وفجأة استدار هابطا ، لكى يغوص فى البحر ... فقد شق البحر ، رافعا نافورة من الضياء ... وفى نفس اللحظة اشتعلت التلال بالنيران ، وفتحت النوافذ على سعتها ، ومن داخلها راح الناس يرفعون عقائرهم بالنبأ العظيم ... وتدفقت الألوف الى الميادين للاحتفاء باستعادة حريتهم : « النورس !! النورس قد انتصر !! » ... غير انك كنت تعرف انهم كانوا مخطئين ، كلهم جميعا ، وان النورس قد انهزم ... فبعد أن غاص فى البحر هاجمته ألوف الأسماك ، تعض عينيه ، وتمزق جناحه ، ونشب قتال مروع لا منجاة فيه ولا بصيص للافلات ... وعبثا راح يدافع عن نفسه بمهارة وشجاعة ، معملا منقاره بضراوة ، مندفعا فى وثبات كانت تثير رشاشا فوارا وزبدا هائلا وتدفع الامواج الى الشواطىء الصخرية : فقد كانت الاسماك فوق كل حصر ، وكان هو وحيدا وحدة مطبقة ... لقد مزق جناحاه شر ممزق ، واثخن جسده بالجراح ، وتضعضع راسه ، ونزف المزيد والمزيد من دمائه ، وجعل يكافح ويجالد بضعف متزايد ، وفى النهاية غاص فى صيحة اليمة ، وغاص معه الضياء ... وفوق التلال خمدت النيران ، وفى الظلام عادت المدينة الى النوم وكأنه لم يحدث شىء ! ..

انك رحت تتفصد عرقا لمجرد التفكير فى هذا ... فان الحلم بالاسماك كان عندك دائما دلالة سيئة، نذير سوء ... وفى الليلة المقررة لقيامه (بالضربة) ، راودك أيضا حلم الاسماك ... اسماك القرش المفترسة ... لقد تفصدت عرقا وادركت أن هزيمة طائر النورس كانت بمثابة تحذير لك ، ربما لكى يتعين عليك أن ترجئها مدى اسبوع ، أو يوم ، وان تتحقق مرة اخرى من الالغام تحت القناة المقبوة ، وان تتأكد من انك لم تفرط فى شىء ولم تخطىء فى تدبير ...

لكن العد التنازلي كان قد بدأ في الليلة السابقة ، وانه في الساعة الثامنة صباحا لابد أن تنفجر ايضا القنابل المبثوثة في الحديقة العامة وفي الاستاد ، وان الحرائق ستشب في الغابات النائمة فوق التلال كما بدا في الحلم وان الرفاق المكلفين بهذه المهام لابد أن يكونوا الآن قد تمكنوا من الافلات ... وحتى لو حدث غير هذا ، فما الذي كنت تستطيع أن تقوله لهم ؟ .. أكنت تقول انك حلمت بطائر نورس افترسته الاسماك وان الاسماك عندك فأل سوء ؟ .. اذن لضحكوا وحسبوك جزوعا هلوعا ... فلم يكن امامك من خيار سوى ان تلبس وتمضي .. وهكذا لبست ثوب السباحة والقميص والبنطلون القصير .. كان الوقت في شهر اغسطس ، وفي اللحظة التى تصل فيها الى هناك كان عليك أن تخلع القميص والبنطلون القصير وتبقى في ثوب السباحة : ولو شاهدك احد لظن انك شخص غريب الاطوار يحب الخروج للسباحة عند الفجر .. فمن ذا الذي يمكن أن يفكر في الشروع في اغتيال دكتاتور طاغية وهو غير مرتد سوى ثوب سباحة ؟ ... وكنت تلبس حذاء نعله من حبل مضفور ، ذلك لأن الصخور كانت حادة والأفضل ان تظل بهذا الحذاء .. أم لعل الأمر كان غير هذا ؟ .. كلا ! .. ما كنت بحاجة الى حذاء في المنطقة الصخرية فيما بين الطريق والشاطىء لانك ما أن تنتهى من العملية حتى تغطس في مياه البحر وتسبح الى موضع الزورق البخاري ... ولقد اخذت معك حافظتك وبها النقود والأوراق الشخصية المزورة ، مثبتة في حزام ثوب الاستحمام ، ثم ما لبثت أن غيرت رأيك واخرجتها مرة اخرى ... فلا وثائق هوية صحيحة كانت أو مزورة ... اذ لو أن الاسماك امسكت بطائر النورس لما استطاعت أن تحدد أية هوية لك ... وماذا يكون من الأمر لو أنهم قتلوك ؟ .. لو قتلوك فأغلب الظن ان الصحف ستقول ببساطة انها جثة انتشلت على امتداد شاطىء سونيون ... وعن عمر صاحبها فهو يناهز الثلاثين ... والطول متر واربعة وسبعون سنتيمترا ... والوزن حوالى سبعين كيلو جراما ... والبنية متينة .. والشعر اسود .. والبشرة شديدة البياض .. فأما العلامات المميزة فليست اكثر من شارب .. لكن عديد الرجال في اليونان ذوو شوارب ..

وتنظر الى ساعتك : فتجدها تشرف على السادسة ... سرعان ما يناديك نيكوس بنفخة من البوق ، وفيما انت في انتظار هذا الصوت تخامرك ذكرى الشهور القلائل الماضية ، فتعذبك عذابا ملهبا ...

فى اليوم الذى هربت فيه من خدمة الجيش ، ايثارا لعدم الخدمة تحت سلطان الطاغية ، ذهبت تتصيد البيوت بيتا بيتا التماسا لأى شخص يؤويك ، لكن ما من أحد ارتضى ايواءك ، وما من احد قبل مساعدتك ... ومن ساعة لساعة كانت الشرطة تضيق الشبكة حولك حتى لكدت تشعر بانفاسهم تلفح رقبتك ، ومع دبيب الخور الى قوة ارادتك جعلت تسأل نفسك : المعاناة ، والكفاح ، من أجل من ، وفيم هما ؟ ... ويوم أن ادركت أن خوف الناس واستكانة الناس واذعان الناس كفيل بأن يدمرك ، فقد تعين عليك مبارحة البلاد والفرار بحثا عن بيوت أخرى يمكن أن تؤويك ، ، وهكذا ركبت طائرة بجواز مزور فى مطار اثينا ووصلت الى قبرص ـ فقط لكى تلاحقك الشرطة الى هناك وتشعر مرة اخرى بانفاسهم تلفح رقبتك ، فيدب اليك الضعف من جديد وتسائل نفسك : المعاناة والكفاح من أجل من ، وفيم هما ؟ .. فى اليوم الذى كنت تدرك فيه هذا ما كان يمكن أن تحقق شيئا وانت هناك ايضا ، ذلك وكان وزير الداخلية جورجازيس دائبا فى تعقبك لتسليمك الى حكومة الانقلاب ، فكان عليك أن تعود الى الهروب من جديد وأنت جائع ومقرور تنام ليلا فى كوخ مهجور ، وفى النهار تسرق الفاكهة من الحقول لكى تقتات ، وتكرر لنفسك : المعاناة ، والكفاح ، ومن اجل من ، وفيم هما ؟ ... ثم ذلك اليوم الذى قادك فيه القدر الى الرجل الوحيد الذى كان يمكنه انقاذك ، الرئيس مكاريوس ، وقد منحك جواز مرور للوصول الى ايطاليا بامان، وأبلغك ان تذهب الى الوزير جورجازيس الذى سيعتمده بتوقيعه، فذهبت وقلبك يدق عنيفا ، ودخلت الى مكتبه متوقعا فخا أعد لك ، مستعدا للصياح فى وجهه : « لا بأس .. اقبض على .. ما الفائدة على أى حال من المعاناة والكفاح ، وبنو البشر لا يعرفون ماذا يفعلون بالحرية ؟ .. » .. واذ رفع اليك وجهه الساهم الذى تحف به لحية فاحمة السواد ، مثل غطاء يخفى كل شىء سوى العينين النفاذتين ، ابتسم لك وقال : « هذا انت ؟ .. ذات الرجل الذى كنت أحاول القبض عليه منذ شهور ! .. هل تدرك المخاطر التى سأستهدف لها اذ أساعدك ؟ » ، « لا تساعدنى اذن ... سلمنى الى الشرطة ... ما الفائدة على أى حال ـ » ...

« ... من المعاناة والكفاح ؟ .. انهما معدان لنا على الحياة ياولدى ... ان الرجل الذى يستسلم لا يحيا ، بل هو مجرد باق على قيد الحياة .. » ... ثم بعد ذلك قال لك : « ما الذى يدور

فى راسك ياولدى ؟ » ... « شىء واحد : قليل من الحرية » ... « هل تعرف كيف تطلق الرصاص ؟ كيف تصوب الى الهدف ؟ » ... « كلا » ... « هل تعرف كيف تصنع قنبلة ؟ » ... « كلا » .. « هل انت على استعداد للموت ؟ » ... « نعم » ... « ويحك » ! .. الموت أسهل من الحياة ... لكننى سأساعدك » ... وهو قد ساعدك فعلا .. فقد علمك كل شىء عرفه » ... وبدونه ما كنت تستطيع قط صنع اللغمين اللذين كانا الآن تحت القناة المقبوة ، فيما وراء المنعطف ... خمسة كيلو جرامات من مادة (تى - أن - تى) ، وكيلو جرام ونصف من البلاستيك ، وكيلو جرامان من السكر ... « السكر ؟ » « نعم . انه يضاعف الاحتراق » ... كم تسليت وتفكهت وانت تتبع ارشاداته ، كما لو كانت لعبة تمارسها : « هل ستكون ذات حلاوة كافية ؟ .. لنضيف ملعقة سكر أخرى طافحة ! » ... أما الآن فكنت ترتعد وانت تفكر انها ليست لعبة ، وانما عملية قتل رجل ... مادار فى خلدك قط ان بوسعك قتل رجل ... بل لم تكن قادرا حتى على قتل حيوان ... فهذه النملة مثلا : كانت النملة تزحف على ذراعك ، فالتقطتها بانامل رقيقة ووضعتها فوق الخوان ؟ .. ثم اذا بوق السيارة ينبعث ...

هنالك راجعت الوقت : تمام السادسة صباحا ... وفى عزم وتصميم هبطت السلالم للقاء نيكوس ، الذى كان ينتظر لدى عجلة القيادة فى سيارة الأجرة ... فجلست فى المقعد الخلفى لكى تبدو مثل راكب عادى ... كان نيكوس ابن عمك وسائق سيارة أجرة .. ولقد اخترته لانه ابن عمك وكان لك أن تثق فيه وتأتمنه ، ولانه ايضا سائق تاكسى .. ان التاكسى أقل تعرضا لما يثير الريبة ، وأى شرطى يمكن ان يتصور أن رجلين يمكن أن ينفذا عملية اغتيال فى سيارة اجرة ؟ .. وفضلا عن هذا فلم يكن عندك من المال ما يكفى لشراء أو استئجار سيارة خاصة ... لكى يتهيأ لك مثل هذا القدر من المال فلابد أن ينتمى المرء الى حزب ، وإذا لم تكن معززا بضمان شارة حزبية فمن ذا الذى يعيرك أى اهتمام ، ومن ذا الذى سوف يمولك ؟ .. فى روما ، حيث التجأت بعد مغادرتك قبرص ، لم يمنحك السياسيون المحترفون شيئا سوى الكلام ... لا شىء سوى الصدقة ... رفيق هنا ، ورفيق هناك ، لتحيا الحرية والاممية ، وربما غرفة تنام فيها ومقهى رخيص حيث يمكنك أن تأكل بين حين وحين ولكن هذا كل شىء ! .. وفى فترة معينة استقبلك احد اقطاب الاشتراكية ،

وهو واحد من أولئك الرجال الذين يجيدون فن البروز والتصـــدر مرتسما على وجهه ، والذين لديهم المقدرة على (لولبة) جاره ، بل هو احد أولئك الذين من المحتم ان يصبح زعيم حزب ، وانه راح يتفرس فى وجهك من خلف نظارته السميكة لقصر نظره ، وهو سمين مثـل خنزير ، وقد وعدك بالسماء والأرض ، ورفيق هنا ورفيق هنـــاك ولتحيا الحرية والاممية ! .. ومع ذلك فقد غادرت روما وأنت خالى الوفاض صفر اليدين ، ولم يصل الى جيبك قط دراخمة واحـــدة فيما بعد ... أما عن مواطنيك الذين كان يجب أن يساعدوك ، مثل ذلك الذى كان يعد نفسه الرئيس الأعلى لجناح اليسار فى المنفى ، فانك قد عرفتهم جميعا تمام المعرفة ... ايورطون انفسهم مع مجنون يريد مع حفنة من مجانين آخرين قتل الطاغية ؟ .. ابدا قط ! .. اذا نجح الاغتيال فمن الطبيعى أن يتهافتوا جميعا عليك تهافت جراد على حقل قمح ، وأن يتقلدوا أدوار الشركاء والمؤيدين ، لكنهم الآن لم يقدموا لك شيئا سوى كأس من الكونيـــاك : « اشرب يابنى ، وليحالفك حسن الطالع ! » .. ولقد سالك نيكوس : هل أكلت فى الليلة الماضية ؟ » .. « نعم ، فى الليلة الماضية ، نعم » ... «وأين؟» ... « فى مطعم » ... « هل اظهرت نفسك فى مطعم ؟ » .. فهززت كتفيك ... ثم أخذت تتدبر فيما اذا كان ثمة وقت للمرور بالسيارة أمام ضاحية جليفادا ، لكى ترى البيت الذى به أشجار البرتقـال والليمون ؟ ... فى ربوعه أمضيت سنى مراهقتك ومستهل رجولتك ... وفيه يقيم أبواك ... فى عودتك الى أثينا بذلت جهدا جبـارا لكى تبقى بعيدا عنهما ... فقد قال جورجازيس : « لا تستسـلم قط لمثل هذه المشاعر الرومانسية » ... رومانسية ؟! ربما ... لكن الرجل انسان أيضا لأنه يستجيب للمشاعر الرومانسية ... وهكذا قلت لنيكوس آمرا : « قد السيارة مرورا بجليفـادا ... « جليفادا ؟ . لكن الوقت متأخرا ! .. » .. « افعل ما قلت لك » .. فمر نيكوس بالمكان بسرعة تصوى ، حتى لم يكد يتوفر لك وقت لكى تلمح نافذة الغرفة التى كان أبوك نائما فيها ، والحديقة التى كانت بها امرأة عجوز فى ثوب أسود تروى الورود ... ان حقيقة ان أمك لم تتخل عن عادتها فى الاستيقاظ عند الفجر لرى الورود قد حركت مشاعرك ، والتفكير فى ان اباك كان راقدا قد اعتصر قلبك ، حتى لقد استدرت بقوة لالقاء نظرة ثانية ، غير ان نيكوس كان قد انعطف بالسيارة فعلا ، وسرعان ما استوت السيارة على الطريق المجـاور

للبحر .. الطريق الذى كان الطاغية يسلكه صباح كل يوم ، فى سيارته اللنكولن المصفحة ، لكى يذهب من مقر سكنه فى لاجونيسى الى اثينا ... فى تلك الأسابيع الأخيرة كم قطعت هذا الطريق عشرات المرات ، باحثا عن افضل موضع لبث الالغام ، وكان اختيارك المفضل عند قنطرة طبيعية : فقد كنت تود أن تقصفه من أعلى ، مثل صاعقة من سماء (زيوس) ، فتكون عقابا قدسيا ... غير ان هذا ما كان ليجدى، لان الديناميت يعمل من أسفل ، وكان عليك أن تقنع بالقنطرة القائمة وراء منعطف فى الطريق ... انها لم تكن بالقنطرة مثلما كانت كهفا صغيرا من الاسمنت ، مربعا وعميقا ، من فوقه يمر اسفلت الطريق بسمك لا يزيد عن خمسين سنتيمتراً ... وكانت المسافة فيما بين قاع الكهف واسفلت الطريق لا يتجاوز ثمانين سنتيمترا ، وهكذا ما كان يمكن اختراع أكثر من هذا الموضع ملاءمة للغرض ... وبوضع الالغام فيه فانها ستفتح ثغرات بسعة ثلاثة أو أربعة أمتار ، وستكون شدة الانفجار هائلة ... وكانت المشكلة الوحيدة هى كيفية الافلات فى وضح النهار ... فى هذا قال جورجازيس : « لم يكن من المصادفات ان عمليات الاغتيال تقع فى الظلام ... فلا شىء يحالف الافلات افضل من الظلام » ... لكن ماذا يكون لو شاهدوك وانت تهرب ؟ ... الا تبا لهذا وسحقا ! .. فى هذا المقام انت لا تحب الظلام ! .. ان الخفافيش تتحرك فى الظلام ، والاخلاد ، والجواسيس ، وليس الرجال الذين يكافحون الطغاة من أجل الحرية ! ..

لقد وصلت الى القنطرة المقبوة فى الساعة السابعة الا الربع ... واسرع نيكوس ففتح حقيبة السيارة لكى يعطيك السلك الذى توصله باللغم ، وسرعان ما هتفت سابا لاعنا ... فان اللفافة كانت متشابكة، مجموعة من العقد .. « ماذا فعلت يا أحمق ؟ .. ماذا فعلت ؟ » .. « أنا ؟ .. لا شىء .. انني .. » .. لكن لم يكن ثمة وقت للجدال او اصلاح الامور ، وهكذا خلعت ملابسك ، وقدمت الى نيكوس القميص والبنطلون القصير والحذاء ، وجريت حافيا ولا يسترك سوى ثوب السباحة الى الكهف ، ضاما الى صدرك لفافة السلك المتشابكة ..

★★★

ان الكهف لم يعد له وجود .. فقد ملأوه بالاتربة عندما قاموا بتوسيع الطريق وازالوا المنعطف المجاور ... ولو رجعت يوما الى مكانه فلن تتعرف حتى على الموضع الذى وقفت عنده اذ ذاك ...

غير أننى أتذكره تماما لاننى شاهدته عندما صحبتنى الى هناك ، كما أتذكر جيدا ما أخبرتنى به عن ذلك الصباح : بداية اسطورتك ، بداية مأساتك ، بداية كل شيء ... لقد كان البحر متــلاطما ذلك الصباح ، وكانت الأمواج العاتية تتكسر على امتداد الشاطىء ، وكان البرد يجمد الاطراف أو يكاد ... أم انك كنت تشعر بوطأة البـرد بسبب تعقد السلك ؟ ... لم يكن بوسعك أن تتخلص من تأثير هـذا عليك ، ولم يكن بمستطاعك أن تعرف كيف حدث هذا .. ربما كان نيكوس قد طوح بالسلك بعنف ، وربما نسى ان يحكم ربطه فتسبب اهتزاز السيارة المتزايد فى حدوث الكارثة .. الكارثة .. على أى وجه حدث هذا فان لفافة المائتى متر من السلك الناعم قد اســتحالت الآن الى عقد متشابكة ، وكنت اذا فككت عقدة منها قامت مكانها عقدة أشد وثاقا وتشابكا ، فان حللتها واجهك المزيد من العقد ! .. وفى سخط وحنق أخذت تسب وتلعن ... ولم تلبث أن جذبت الجزء السليم من السلك وقسته ، فلم تتمالك أن لعنت مرة أخرى ... لم يكن هذا الجزء أكثر من اربعين مترا ، أى خمس الطول اللازم ! .. كانت الصخرة التى اخترتها لتفجير اللغم تبعد مائتى متر ، فكيف يمكنك تغيير الخطط الآن ؟ .. لقد أخترت تلك الصخرة بعد اختبارات متواصلة لأنها كانت تهيىء لك مرقبا كاملا فى كل ما حــولك ... وكانت هناك لحظة معينة ــ عندما تمضى سيارة اللنكولن السوداء فى المسافة بين المنعطف والكهف ويبقى غطاء (الكبوت) نصف محجوب خلف لوحة اعلانية ــ فتكون هذه طبقا لتقديراتك ، اللحظة المضبوطة التى يتعين أن تفجر فيها اللغم ... وفضلا عن هذا فان الصــخرة كانت قريبة من مياه البحر حيث يمكنك أن تقفز فيها وتغطس بسرعة ... أما اذا قمت بالتفجير من مسافة مائة وستين مترا قبل الوصول الى المياه ! ..

وكان معنى هذا أيضا وجوب أجراء حسابات جديدة : فمن مسافة اربعين مترا ، ما الذى يكون بوسعك أن تراه ؟ لقد أوصــلت طرف السلك باللغم ، ممسكا بالطرف الآخر فى يدك ، وذهبت لكى ترى الى أى بعد يمكن أن يصل .. الا تبا وسحقا ! .. لقد وصل الى بقعة كان عندها الطريق غير مرئى بسبب حاجز الرصيف ، واســوا من هذا كنت فى هذه البقعة مكشوفا تماما للعيان ! .. لقد عـدت ادراجك : فمثل هذا السلك القصير لم يكن ثمة ما تفعله ســوى ان تجعل موضعك أسفل الجسر مباشرة ، على قيد عشرة أمتار أو

نحوها من الكهف ، مستهدفا لخطر نسفك أنت أيضا مع الانفجار ! ..
وهذا هو الانتحار بعينه ! .. لكن لم يكن ثمة حل آخر ، وعلى أى
حال فان لهذا ميزته ! .. ميزة ! اية ميزة ؟ .. لكى تبصر بوضوح
لابد لك أن تحلق البصر من فوق حافة الأسفلت ، ويااللعنة ! ..
مرة أخرى بدت حساباتك ولاغناء فيها ! . لا مفر لك من تقدير
حسابات جديدة ، بمسافات جديدة ، واختيار لحظة مختلفة للتفجير ،
ويتعين عليك أن تحسب الضربة بالثوانى ، فلا اختلالاً فى جزء من
الثانية يمكن أن يفضي الى ضياع الهدف ... فالى العمل اذن ! ..
وبسرعة ! .. بسرعة قصوى ! .. ان اللنكولن السوداء تمر فوق
الكهف عادة فى الساعة الثامنة ، وكان الوقت يناهز السابعة وخمسا
واربعين دقيقة ...

لقد راح ذهنك يعمل بسرعة كومبيوتر : أن السيارة تسير دائما
بسرعة مائة كيلو متر فى الساعة ، ومعنى مائة كيلو متر مائة الف متر ،
والساعة بها ثلاثة آلاف وستمائة ثانية ، وبقسمة مائة الف على
ثلاثة آلاف وستمائة فالتاريخ حوالى سبع وعشرين ، واذن فان سيارة
اللنكونى تسير بسرعة سبعة وعشرين متراً فى الثانية ... وكل عشر من
الثانية توازى مترين وسبعين ... لكن كيف يمكن حساب هذا العشر
من الثانية ؟ .. ان جورجازيس اعتاد أن يقول : « عد بصوت مسموع :
الف وواحد .. الف واثنان .. الف وثلاثة » .. بديع ! .. هذا
ما يجب أن تفعله .. لقد رحت تكرر العد مراراً ، لكى تحسب
الفواصل بين الف وواحد والف واثنين ، وبين الف واثنين والف
وثلاثة ، ثم القيت نظرة مميزة على اللغم ، ثم أوصلت السلك ،
واصبحت على استعداد ... الساعة السابعة وخمس وخمسون
دقيقة ... هناك خمس دقائق للاسترخاء ، لكى تسائل نفسك :
« ان اسمه جورج بابا دوبولوس ، الرجل الذى تنوى قتله فى مدى
خمس دقائق ، والذى تحتمل أن تنسف انت معه .. ترى أى رجل
يمكن أن يكونه ، برؤيتك له عيانا عن كثب ، بلحمه ودمه ؟ .. انك
لم تشاهده قط بلحمه ودمه ، الا فى الصور الفوتوغرافية .. فى الصور
الفوتوغرافية بدا مثل عنكبوت صغير ، بصورة هزلية : ذلك الشارب
الصغير المتصلب ، وتانك العينان الضيقتان البارقتان ! .. لكن
الدكتاتورين يبدون دائما صورة هزلية ، ولهم دائما عيون ضيقة
بارقة ... انهم يفتحونها على سعتها وكانما يريدون تخويف الاطفال
ـ أطيعوا والا عاقبتكم ! .. ذات مرة وانت تفحص صورته الفوتوغرافية ،

قلت لنفسك : بودي أن أشاهده وجها لوجه .. بيد ان هذا كان قبل الإعداد للاغتيال ، وبعدها لم تقل هذا قط لنفسك مرة اخرى ... وفى الاسبوعين الغائبين الاخيرين ، مثلا ، عندما اتخذت موقفك فى ذلك الطريق لضبط التوقيت والمسيرة ، للتاكد من الوقت المضبوط لخروجه من الفيللا التى يقيم بها فى لاجونيسى وسرعة سيارته وعدد السيارات فى موكبه - كان بامكانك أن تشفى تلك الرغبة فى رؤيته وجها لوجه .. ولكن بدلا من ذلك ، ما أن اقتربت سيارة اللنكولن السوداء ، حتى أدرت ظهرك .. فعلت هذا لئلا يعرفوك ، وهو بعض السبب ، ولكن أكثر منه لأنك لم ترد أن تراه مواجهة ... فعندما تنظر الى عدو لك مواجهة وتدرك انه على الرغم من كل شيء فهو انسان مثلك ، لا تلبث أن تنسى ما يمثله فى نظرك : فيصبح قتله صعبا عسيرا ... والأفضل أن تخادع نفسك وتتخيل أنك ستقتل سيارة! .. وحتى عندما كنت قائما باعداد اللغم ، وعندما كنت تدرس مسائل التوقيت والمسافات ، وعندما كنت آخذا فى قسمة مائة الف على ثلاثة آلاف وستمائة ، رحت تفكر فى سيارة ، لا فى رجل داخل سيارة .. أو بالاحرى فى رجلين ، اذ كان هناك ايضا السائق .. السائق ! .. بحق يسوع ! ... ترى اى نوع من الرجال هو ابن حرام ، أو آدمى برىء ، رجل مسكين مضطر لتدبير معيشته ؟ .. يؤكد أنه ابن حرام: فالناس الطيبون لا يعملون سائقين فى خدمة الطغاة .. ! .. أم تراهم يفعلون هذا ؟ .. ما ينبغى لك أن تفكر فى ذلك ، ففى الحرب لا تسأل نفسك أسئلة معينة ... فى الحرب تطلق النار ، والذى كتب عليه أن يتلقاها ، يتلقاها .. فى الحرب العدو ليس انسانا ، هو هدف لابد من التسديد عليه ، ولاشيء غير هذا ! .. واذا وجد رجل منكود أو طفل بجانبه ، فهذا من اسوأ السوء .. أسوأ السوء ؟ .. سحقا لمثل هذا التصور ! .. هل من الصواب مكافحة الظلم بالظلم ، وسفك الدماء بسفك الدماء ؟ .. كلا ليس هذا من الصواب ... وعندما تفكر فى هذا المقام ، فليس من الصواب أيضا أن تأخذ الحرب وجها للمقارنة : فليس هناك ماهو أكثر غباء ولا أكثر رجعية من فكرة الحرب ... ثم متى كانت الحرب تستهويك على اى حال ؟ .. فانك لم ترد حتى أن تؤدى خدمتك العسكرية ، اذ كنت تؤجلها المرة بعد المرة ، ولم ترتد فى النهاية الزى العسكرى الا فى سن الثامنة والعشرين ... بل ان رفعك للبندقية كان يقززك ... ومع كل هذا ، فانك عندما فكرت فى السائق ، لم تلبث أن شعرت بالاعتلال على نحو ما ، وبالخجل

والخزي ، وكان عليك ان تبذل الجهد وأن تكرر لنفسك الأشياء التي كنت تكررها امام رفاقك : العنف يولد العنف ، وغضبة المظلوم ضد الظالم شيء مشروع ، واذا لطمك أحد على وجهك فلا تدر له خدك الآخر بل رد له اللطمة بمثلها ؛ فان هذا الرجل قد اغتال الحرية ، وقديما عند الاغريق فان قتل الطغيان كان مناط التكريم باقامة النصب والتتويج بأكاليل الغار .. ثم تلك العبارة التي حفظتها عن ظهر قلبي: أنا لست قادرا على قتل رجل ، لكن الطاغية ليس رجلا ، انما هو طاغية .. ثم فجأة كان لهذا رنة زيف وبهتان فى نفسك ... أمن أجل هذا اعتراك برد شديد ؟ .. حديث خرافة : كان شعورك بالبرد مبعثه انك عار متجرد من الملابس ، والطقس بارد ...

لقد قرفصت بين الأحجار ، ضاما ساقيك بذراعيك محاولا الاستدفاء ... وكان الزورق البخاري بسبيل الوصول فى الموعد المحدد ، متجها الى الجون الصغير المتفق عليه .. لقد بدا رغم ذلك بعيدا بعدا سحيقا .. هل تفلح فى الوصول اليه ؟ .. ان مياه البحر فى هذا الصباح لابد أن تكون قارسة كالثلج ، وسيكون من الصعب أن تغطس فى المياه المثلجة ، وأن تسبح فى المياه القارسة ... صحيح، اذا قدر لك أن تنسف مع السيارة ، أو اذا لم تكن فى الوقت المضبوط للوصول الى الشاطىء ، فان مشكلة الغطس لن يكون لها وجود ... الحياة ؟ ... الا ما أهون الحياة ! .. أنت تدير مقبضا ، وتقيم اتصالا بين القطب السالب والقطب الموجب و .. ها هو ذا صوت الموكب المقترب يصل الى اذنيك ... واذا أنت تنتفض قائما ، مغمغما فى كآبة : « اثبت ! .. ازفت الآزفة ! .. »

★★★

كان موكبا بمعنى الكلمة ـ فقد تقدمته كوكبة راكبى الموتوسيكلات، ثلاثة من الشرطة عن اليمين وثلاثة عن الشمال ، ثم تبعهم الحرس الراكب : سيارتا جيب متتابعتان ، ثم سيارة اسعاف ، تعقبهما سيارة اللاسلكى ، ثم أربعة آخرون من راكبى الموتوسيكلات ـ وفى النهاية هى : سيارة اللنكولن السوداء .. وجاءت من خلفها سيارة جيب اخرى ، وكوكبة اخرى من راكبى الموتوسيكلات ... لقد استوى الموكب على المسافة ، الاخيرة بين الطريق السريع واخذ يتقدم بالسرعة المعتادة .. وعما قريب سوف يختفى لدى المنعطف ، ويجتازه ثم يظهر من جديد ... وتتزايد الضوضاء ، واذا انت تتلع رقبتك التماسا لنظرة ادق ... لقد بدا راكبا الموتوسيكلات الاولان يظهران ويقدمان نحوك، وكانا من الوضوح بحيث تسنى لك أن تتميز ملامحهما

... على أنهمــا لدى اللوحة الاعلانية أصبحا خيالا مشوشا ، وعندها ادركت انك لن تستطيع أن تميز شيئا أكثر ، وأن عليك أن تعمل بوحي الالهام وحسب ، وطبقا لتقديرك للتوقيت ، واضعا فى ذاكرتك أن المسافة بين اللوحة الاعلانية واللغم الاول هى ثمانون مترا ، وأن قطع ثمانين مترا بحساب مائة كيلو متر فى الساعة يستغرق ثـلاث ثوان تقريبا ... تقريبا ! ... لقد راح ذهنك يعمل بسرعة جنونية . وغدا جسمك متصلبا من شدة التأزم : فقد كانت المشكلة فى تلك الكلمة « تقريبا » .. فاذا كانت مسافة سبعة وعشرين مترا يمكن قطعها فى ثانية ، واحدة ، فمعنى ثلاث ثوان هو واحد وثمانون مترا ، لا ثمانون. واذن فان اللغم الأول يمكن ان ينفجر متأخرا جدا ... ويحدث هذا للغم الثانى ، مذ كان أبعد بقدر متر ، أى على مسافة واحد وثمانين مترا لا ثمانين ... والخلاصة : التفجير يجب ان يؤخر ... الى أى مدى ؟ .. بسيطة ... اذا كان عشر الثانية يتطابق مع مترين وسبعين، فيجب أن يؤخر بقدر ثلث عشر الثانية تقريبا ... تقريبا ... تلك الكلمة مرة اخرى ! .. وكل هذا بافتراض أن ســيارة اللنكولن السوداء تحتفظ بسرعة ثابتة ! .. آه ياربى ! .. كم يدوم ثلث عشر الثانية ؟ ... طرفة العينين ؟ .. ؟ كلا ؟ .. أقل ! . ان ثلث عشر الثانية هو القدر ... عليك أن تسلم نفسك للقدر ولا تضيع الوقت!.. لا تنظر الى ساعة السباق ! .. عد ببطء أكثر ! .. الف وواحد .. الف واثنان .. الف وثلاثة .. ببطء أكثر ؟ .. لكن ماذا تعنى(ببطء اكثر) ؟ .. هاهما سيارتان الجيب قد مرتا ! .. ومرت ســيارة الاسعاف ! .. ومرت سيارة اللاسلكى ! .. ومرت كوكبة راكبى الموتوسيكلات ! .. الآن هاهى ذى آتية ! .. هاهى الســـوداء ! .. انها تقترب ! .. انها تقترب أكثر وأكثر ـ سوداء ! .. انها تغــدو اكبر واكبر ، أكثر سوادا وأكثر ! .. فى غضون لحظة سوف تصــل الى اللوحة الاعلانية وتصير خيالا مشوشا ! .. لتأمل أن اللنكولن لن تزيد السرعة ، ولن تقللها ! .. انها لا تزيد السرعة ، ولا تقللها .. انها توشك على الوصول ! .. انها تصل ! .. لقد وصلت ! .. الف وواحد .. الف واثنان .. الف وثلاثة .. اوصل !! ..

لمدى لحظة ابدية لم يحدث شيء ! .. ثم لم تلبث طبلتا اذنيك أن مزقهما قصف حاد شئيم ، وتفجر ركام من الاحجار ، وارتفعت سحابة من الاتربة المغبرة ! .. سحابة وحيدة ، انفجار وحيد ! .. لقدانفجر لغم واحد لا أكثر ! .. هل هذا محتمل ! .. وحتى لم يصبك حجر

واحد ! .. اهذا محتمل ؟ .. لقد جعلت تتحسس جسدك غير مصدق ! .. لكن لم يكن ثمة وقت محدود لتهنئة نفسك على بقائك بغير اذى ، اذ أدركت في لمح البصر انك لم تصب لانك فشلت !.. أن تفجر سيارة مدرعة يحدث جلبة أشد ، ويثير سحابة أكبر كثافة ، وليست الاحجار وحدها هي التي تطير في الفضاء ! .. فما الذي فشل اذن ؟ . الشحنة المفجرة ؟ .. التوقيت ؟ .. نظام العد الف وواحد ، الف واثنان ، الف وثلاثة ؟! القدر ؟! حساب ثلث العشر من الثانية ، مع القدر ؟! .. لكن لماذا لم ينفجر اللغم الثاني ؟ .. هل تراك عبأته بصورة خاطئة ؟ .. هل فشلت في ايصال المفجر باحكام؟.. ام هل كان السبب هو السكر ؟ .. يالتلك النكتة التي قيلت عن السكر ـ أهو حلو بما فيه الكفاية ، هل نضيف ملعقة طافحة أخرى من السكر ؟ .. لقد رحت تلقى على نفسك هذه الاسئلة وأنت تجري ... وفيما هو أقرب ألى عدم الوعي القيت بنفسك بعد أن لمست جسدك غير مصدق من فوق حاجز الطريق وأخذت الآن تركض وتركض مدفوعا بحافز واحد : أن تصل الي البحر ، وتغطس ، وتختفي في المياه لتعيش .. تعيش ! .. فجأة كان البحر عند قدميك ، وحول جسدك الذي غاص في المياه المثلجة وعقلك يردد : الماء مثلج حقا ! .. وفي الحق عند نقطة معينة كانت المياه من شدة الثلج بحيث أضطررت الى الطفو من جديد طلبا للهواء .. أن هذا قد سمح لك أن تلقي نظرة على الطريق حيث كان رجال الشرطة يعدون شاهرين مسدساتهم ، فاصابك الانزعاج مما شاهدته ... وعلى الاثر ملأت رئتيك بالهواء وغصت تحت المياه من جديد وأخذت تسبح مرة أخرى .. كنت تسبح بثقة، وقوة ، اذ كنت دائما بطلا في السباحة ، غير أن البحر كان أشد غضبا مما فكرت ، وكان تيار شديد القوة يدفعك الى الخلف شطر الارض أكثر منه شطر الزورق البخاري .. ولقد صعدت الى السطح مرة أخرى ، للتنفس ... ونظرت الى رجال الشرطة مرة ثانية ، لتقدير ما اذا كانوا يجدون في اثرك ... كلا ! .. انهم كانوا مندفعين باجمعهم شطر الكهف الصغير تحت القنطرة المقبوة ، ولم يشاهدوك ، وكان لك أن تمضي في السباحة بهدوء .. الا ما أسوأ هذا التيار ! .. لو لم يكن هذا التيار ! .. ثم الحاجة الى التنفس ! .. لقد شعرت بانقطاع انفاسك .. كان عليك أن تتوقف بين فترة وأخرى لالتقاط الانفاس ، مضيعا وقتا ثمينا .. يالها من امواج ! .. تحسس تلك الامواج ! ..

واذا موجة عاتية تقذف بك الى الصخور ، فتتشبث بنتوء وأنت مشدوه ! .. كم مضى من الزمن وأنت معلق هكذا ، مشدوها ، غافلا عن النتائج ؟! .. ان نتائج هذا التوقف الذى لم تتوقعه أنما تجلت لك فقط فى اللحظة التى بحثت فيها عيناك الشاردتان عن الزورق البخارى .. لقد اخبرتهم أن ينتظروا خمس دقائق بالضبط ، بلا ثانية واحدة اكثر ! .. قلت لهم هذا بصراحة باترة ، حتى يفهموا : « هذا امر ! » .. ومتى مضت خمس دقائق ، فمن المؤكد انهم سيذهبون !.. فلابد من عمل شىء فورا لانقاذ الموقف ! .. فهل تخرج من الميـــاه وتمشى شطر الجون الصغير حيث كان الزورق البخارى ينتظر ؟ .. انهم سوف يلمحونك حتما وينتظرون .. وهكذا انتزعت نفسك من المياه ، بجهد أليم .. وبدأت تجرى منحنيا على نفسك كما فعلت من قبل ، فوق الصخور التى كانت مثل السكاكين هنا ، وفى كل خطوة جرح ، والم حاد ، ولكن فى نفس الوقت كنت تقتـــرب من الجون بسرعة .. بعد خمسين مترا أخرى ، ثلاثين ، ســـتكون قادرا على مناداتهم : « هانذا ! .. أنا قادم .. انتظرونى .. أنا قادم ! » .. ثم غطسة اخرى ، وضربات قلائل ! .. لابد أن يأتوا لملاقاتك ! .. ثلاثون مترا .. عشرون ! .. عشرة « هانـــذا ! .. أنا قادم ! .. انتظرونى !! أنا قادم !! » ...

وتحرك الزورق البخارى .. اتجه الى عرض البحر ، وابتعد .. ابتعد ! .. ولبقية حياتك سوف تكابد الذكرى المقيمة لذلك الزورق البخارى وهو يمضى الى عرض البحر ولا يظل فى انتظارك ! .. انا قادم ! .. انتظروا ! .. أنا قادم .. ياالاحساس الخواء الذى اعتصرك فى تلك اللحظة ! .. والرغبة فى البكاء ، فى الصياح : ياجبناء ، ياأولاد الحرام ، ياجبناء !! .. ويا لليأس ! .. والسؤال : الآن ما العمل الآن ، ماذا بامكانى أن أفعل ؟ .. ؟ لقد رفعت بصرك الى الطـــريق حيث كان رجال الحرس قد انهمكوا فى التفتيش واخذ رجال منهم بالزى الرسمى يتنادون بانفعال : « راقبوا الشاطىء ! .. ركزوا على اى شىء يتحرك ! » .. ما العمل ؟ .. الاختباء ، هذا واضح .... الاختباء فى الحال .. لكن اين ؟ راحت عيناك تدوران فى كل ما حولك ، وانت متحير ، بحثا عن شق ، عن غار ، يمكنـــك ان تلوذ به ... هناك ! .. هناك ! .. ذلك الكهف الصغير ، ذلك الذى يشبه وجار الكلب منفتحا بين صخور الشاطىء انه ضيق جدا ، لكن ليس ثمة

غيره ... وتصل اليه ، على أربع .. وتنكمش على نفسك بداخله مثل كائن رخوى فى صدفته ، جنين فى الرحم : جبينك على ركبتيك وذراعاك حول ساقيك ... لو بقيت هنا حتى الظلام ، فقد تفلح فيما تريد ... عند نقطة معينة فقد يوقفون البحث ، ومع قليل من الحظ قد يمكنك أن تتسلل خارجا وتتجه الى الطريق .. طبيعى انه لا يزال أمامك عديد من المشاكل ، أولاها مشكلة التجوال فيما حولك عاريا وحافيا فى الليل ، لكنك عند نقط متعددة بامتداد الشاطىء كنت قد أوقفت رفاقك وزودتهم بتعليمات لالتقاطك و .. ماذا سيقولون عندما تلتقى بهم ؟ ... وكيف ترد على أسئلتهم ، وملامهم الصامت ؟ .. هل تقول أن الأمور اختلت بسبب قصر السلك ، وتشابك السلك ، وبسبب الحسابات التى أجريتها مرارا وتكرارا بسرعة واستماتة ، بسبب ثلث عشر الثانية ، بسبب القدر ؟ .. انك انتظرت اطول مما ينبغى ، هذا ما أدركته الان ... انك عددت ببطء أكثر مما ينبغى الألف وواحدا والألف والاثنين والالف وثلاثة : وانفجر اللغم الأول عندما كانت السيارة اللنكولن قد جاوزت القنطرة المقبوة بثلاثة أمتار ... واللغم الثانى ؟ .. كيف يمكن أن تبرر حقيقة ان اللغم الثانى لم ينفجر على الاطلاق ؟ .. آه ياربى ! .. آه ياربى !.. كل ذلك العمل ، كل ذلك الضنى ، كل تلك التضحيات ، كل تلك الأشهر – كلها تذهب هباء ! .. هباء منثورا ! .. لا ينبغى لك أن تفكر فى كل ذلك ! .. لو مضيت فى التفكير لجننت جنونا ! .. خير من هذا أن تحول ذهنك الى تفكير مختلف : عن القنابل الرمزية ، عن أشعال النار فوق التلال .. فعندما كنت بسبيلك لتنفيذ عملية الاغتيال ، كان المفروض أن تنفجر قنبلة فى الاستاد وقنبلة أخرى فى الحديقة العامة ، وعندها كانت الأشجار فوق التلال ستمتد اليها النيران .. اكليل كبير من النار كان مقررا أن يوقظ المدينة قاطبة ! .. طائر النورس ، طائر النورس ! كانت تعليماتك دقيقة .. لكن هل تفذها الاخرون أو لم ينفذوها ؟ .. ان أربعة عشر من الحواريين هم قلة لمن يريد الاطاحة بنظام الطغيان كل ذلك بمفرده ! .. واذا أنت فشلت ، فهم ايضا أهل للفشل ... ربما لم ينفجر شىء فى الأستاد ايضا ، ولم ينفجر شىء فى الحديقة العامة ، ولم تشعل نيران فوق التلال ! .. لا شىء من قبل ؟ ولا شىء من بعد ! .. ترى ماذا كان يقول جورجازيس ؟ والسياسيون المحترفون الذين لم يكونوا عند حد كلامهم ، ووعودهم ؟ .. مؤكد أنهم سوف يمتدحون بعد نظرهم

« ذلك المعتوه المنفرد ، ذلك المتمرد المتجاسر ! .. الذى يظن انه يستطيع أن يقوم مقام الاحـــزاب ، والنظم الحـــزبية ، ومنطق الايديولوجيات ؟! كنا نعرف هذا ، كنا نحس انه لا معنى لأخذه مأخذ الجد ! » .. يكفى هذا الآن .. الآن لا يوجد سوى شيء واحد لعمله: الابتعاد ! .. لكن يالهذا العذاب فى البقاء هنا ، مكوما على هـــذه الصورة ، مقاوما لاغراء مد ذراع أو ساق ! .. مكابدا هـــذه الابر الواخزة فى المفاصل ! .. ثم ما هذا النعاس ؟ .. قاومه ! .. ابقى يقظانا ! .. لكن ياله من جهد مع ذلك .. ياله من جهد ! .. خصوصا ازاء هذه الهليكوبتر ! .. كانت تحلق على ارتفاع منخفض ، سارية أماما وخلفا من فوقك ، ضجيجها المدوى المنبعث من مراوحها الذى يهدهد حواسك مثل أغنية للنوم ! .. لقد سقط ستار كثيف فوق معـاقد أجفانك ! ..

★★★

كم لبثت نائما ؟ .. لم تستطع الساعة أن تنبئك بهذا : فقـد تشبعت بالمياه وتوقفت .. على كل حال ساعة أو ساعتين على الأقل : فقد علت الشمس فى الفضاء ، اذا استطعت أن تلمحها من خلال فرجة فى الصدفة التى فوق راسك ، منفسحة عن شريط من السماء .. ولم يعد الطقس باردا ، اذ غدوت غارقا فى الواقع ... ولعلما أيقظك هو تلك الأصوات التى سرت الى سمعك ، أصوات قريبة جدا ، بل شديدة القرب الى حد انك استطعت أن تسمع بوضـــوح ما كانوا يقولون : « فتشوا المنطقة صخرة صخرة ! » .. لقد عادت طائرة الهليكوبتر ، بهدير مفاجىء مسيطر ، شبيه بقصف مدفع رشـــاش ثقيل ... كان الحال كما لو أن الجيش اليونانى كله قد حل فى المنطقة فى مناورات حربية .. « ارسلوا مجموعة هنا ! » .. « انت مطلوب ياعريف ! » .. « لا تتقدموا فى صف .. انتشروا » .. واخيرا صيحة غاضبة متغطرسة ، نزلت على سمعك كمطرقة : « فتشـــوا كل بوصة ، كما قلت لكم ! » .. « حاضر ياكابتن » .. واذا شريط السماء فوق راسك ، المنبعث من فرجة فى سقف الكهف ، يختفى تحت حذاء .. لقد كتمت انفاسك ، وضغطت نفسك مستميتا فى داخل الصدفة ، وبدأ لبضع دقائق وكأنك صرت طفلا من جديد ، عندما كانت أمك تبحث عنك لكى تعاقبك ، ولكى تتحاشى ضربها لك ، كنت تختبىء تحت السرير عند الجانب اللاصق للحائط ، وتظل هناك تحدق الى قدميها ، منصتا الى كلماتها المتذمرة : « أين ذهب ، أين

اختبأ ؟ » وكانت شفتاك المطبقتان تبتهلان ـ رحماك يا يســوع ، لا تدعها تراني ! .. اجعلها تذهب ! .. واحيانا كانت تذهب فعلا ، دون أن تعثر عليك ، غير انك كنت لا تركن الى حظك وتبقى تحت السرير ، مقاوما الجوع ، والعطش ، والحاجة الى التبول ! ... على انها احيانا اخرى كانت تنحنى الى ما تحت السرير وتبصرك ، فتمد نحوك يدا متوعدة منتصرة لكى تجذبك الى الخارج : « ضبطتك باشقى ! .. ضبطتك ! .. » لكن ، ما الذى يدعوهم الآن الى الانحناء ورؤيتك ؟ .. انت الآن رجل ، ومحظوظ : لقد انقذت نفسك عشرات المرات فى خلال الستة عشر شهرا تلك ... فعلام الفزع من زوج حذاء، من ذلك الضابط ألواقف على راسك ، لا يهادن ولا يرحم ؟ .. وهتف صوت يقول قائله : « اننا فتشنا بدقة يا كابتن .. لا يوجد شىءهنا، ولا أحد » ... « القوا نظرة فوق ، وبعدها سنذهب الى الجانب الآخر » .. امتلأت رئتاك بنفس عظيم ، وأطبقت قبضتيك مفكرا ـ شكرا للسماء ! .. لقد سلمت ! .. كلمة فى ذات اللحظة التى كنت تقول فيها هذا ، تحرك الضابط ، وتعثر .. واذا هو يهوى من فوق الصخرة ... هوى أمامك تماما ... وابصرك ! ..

★★★

« لا تطلق النار ! » .. « لا تطلق النار ! .. » .. لقد صــاح بهذه الكلمات وهو يرتجف ، ولم تستطع انت أن ترد عليه ...
أطلق النار بأى شىء ؟! .. ثم ما لبث ان صاح مرة اخرى : « اخرج .. اخرج ! » .. لكن دون طائل ... ان الذهول ، اكثر من الخوف والغضب ، قد شل كيانه : فما كنت تستطيع أن تستخلص نفسك ، وتنتزع نفسك ، من تلك الصدفة .. اما هم فقد فعلوا هذا ... فبضراوة الأسماك التى انقضت على طائر النورس فى حلمك ، انقضوا هم عليك ، متدافعين ضد بعض ، دائسين بعضهم على بعض ... ثم سحبوك الى الخارج من قدميك ، واكرهوك على الوقوف ، غير مدركين انك ما كنت تستطيع البقاء منتصبا لان ساقيك كانتامتصلبتين، وأية محاولة للدفاع عن نفسك كما فعل طائر النورس كانت هى الجنون المطبق ! .. كانوا أكثر من الكثير ، وبدا كان بحرا من الكسى العسكرية كان يمتد وينتشر ، ويريد فقط أن يصيبك ، ويفتشك ... احـدهم لطمك فوق الصدغين والعينين .. وآخر فتح فمك عنوة بيديه ودس أصابعه فى داخله ، مفتشا عما لا يعلم الا الله ، صائحا : « ابصقها ! .. ابصقها ! » .. وثالث مزق ثوب السباحة ليرى أن كنت تخفى اية

أسلحة .. ثم رفعوا ذراعيك الى ما فوق راسك واخذوا يدفعونك الى أعلى المنحدر ... غير انك لم تستطع المشى ، لأن من تحت قدميك الحافيتين ، أللتين مزقهما الجرى فوق الصخور من قبل ، كان كل حجر بمثابة سكين ، ولو توقفت لتخفيف الألم لحظة ، راحوا يضربونك متضجرين بكعوب مسدساتهم أو فوهات بنادقهم ... وكان الوصول الى الطريق مهونا عليك ، وان انقلب فجاة الى مرارة : فحيث كان يجب أن تحدث حفرة عميقة ، بدت لك الآن فتحة لا تبلغ الا نحو مترين ، دالة لك على انك لم تخطىء فقط فى حساب عشور الثواني، بل أخطات أيضا فى اعداد الشحنة المتفجرة ... ثم لم يلبثوا أن أخذوك الى سيارة رحبة ذات مقاعد متحركة ، وبداوا يستجوبونك : « من أنت ؟ من هم الآخـرون ؟ .. من هم الذين كانوا فى الزورق البخارى ؟ »ثم لطمات ، وضربات ، ورفسات فى قبضة الرجلين .. وكان أشدهم شراسة شخصا بدينا بالملابس المدنية له ملامح قردوبشرة مشوهة بعديد الحفر والاخاديد والبقع المتخلفة من مرض الجـدرى أو غيره من الأمراض المعدية ... وقد جعل يضرب بيدين ثقيلتين جدا ، يدى ملاكم ، وكلما قاومته بالصمت غدا أشد ضراوة ... « تكلم ياقاتل ، تكلم ! .. تكلم ، وألا مزقتك اربا ! » .. « رد على ، يامجرم ، رد على ، والا سلخت جلدك ! » ... « لا تتصنع الدهشة يا قاتل ، فلن تفلت بهذا ... اذا لم ترد على ، فسأقتلك ... انت تعرف من أنا ؟ ... هل تعرف من أنا ؟ .. » .. انت لم تعـرف فعلا ، ولم تهتم بان تعرف ، ان الشيء الوحيد الذى أهمك هو كونك قادرا على ألتزام الصمت ، وعدم اعطائه أقل دلالة ، أقل أثر يتعرف به عليك : فلو انك كشفت عن اسمك ، فلن يجد رفاقك وقتا لانقـاذ أنفسهم .. وفجأة تقدم شرطى ، شرطى متقدم فى السن بادى الطيبة وأخذ يلامس سترة الرجل قائلا : « ميجور أصغ الى ياميجـور .. أنا أعرف من هو ، لأن دركى فى منطقة جليفادا .. هو من جليفادا، واسمه بناجوليس ، و .. » .. غير ان الرجل المبقع الوجه لم يدعه يكمل ، بل فغرفاه وبصق مطرا من لعاب عليك ، صائحا : « آه ! .. هذا انت ، يادودة ! .. اذن فانت لم تختف ، ولم تهرب الى الخارج، ياملازم جورج بناجوليس ؟ .. كنت هنا ، يا ابن الحرم القـذر ، ياهارب من الخدمة العسكرية ، ياخائن ! .. كنت فى اثينا ، ياجبان ، وتصورت انك تستطيع الافلات من أيدينا ؟ » ... ثم اذا بك تشعر

بحرق لا يطاق ، بما يشبه طعنة ، فى الرقبة ... فقد أطفأ سيجارته فى قفاه .. فهويت مغشيا عليك ..
فى السنوات الأخيرة من حياتك ، عندما أخبرتنى بقصة القبض عليك ، لم تستطع أن تتذكر بوضوح ما الذى حدث بعد اطفــــاء السيجارة فى رقبتك .. لم تستطع ذاكرتك أن تقدم لك سوى صور مبعثرة ، مبتورة ، مشوشة : مثل أن الشرطى المتقدم فى السن أخذ يحاول استرعاء اهتمام الرجل المبقع الوجه وافهامه انك لست جورج بل اخوه الكسندر ، والرجل المبقع الوجه يدفعه ويبتعد بعد ان تأكد الان من هويته ، رافضا أن يعيره أذنا صاغية ، طاردا اياه بقوله : ابتعد يامعتوه ، لا تقلقنى ، الا يمكنك أن ترى اننى أعمل ؟! .. فابتعد الشرطى المتقدم فى السن من جديد هازاً كتفيه امتثالا .. ولا شىء أكثر ... وعن الساعتين اللتين أمضيتهما فى تلك السيارة وألوان الضرب الذى تلقيته منهما ، فلم تستطع أن تقول شيئا ... ومهما يكن ، فقد كان ثمة شىء واحد تذكرته جيداً : هو وصول لاداس ، وزير الداخلية ، والساعد الأيمن لبابا دوبولوس ... وينفتح حائط الكسى الرسمية من حولك كى يمر منه ويطل عليك بوجهه الكبير المستدير اللامع ، ويربت عليك بيديه الصغيرتين البضتين ، ويتموج فى أذنيك صوته الكريه بما هو أقرب الى المودة والتحبب : « أصغ الى أيهــا الملازم ... انا اعرف شقيقك الكسندر ... اننى عرفته منذ أيام دراسته فى معهد الفنون التطبيقية مع ابنى ... كان شابا صـــعب المراس فى الحقيقة ، من النوع الفوضوى ... انه اعتاد أن ينتقـــد كرافيلس ، وكان يكره الأسرة المالكة ، وكان يميل الى ايفانجيلوس افيروف ، ولم تعجبه الشيوعية ، ولم تعجبه الفاشية ، ولم يعجبه اى شىء ... غير انه كان ذكيا ، ولو أمكنك أن تعامله بالطريقة الملائمة لكان يستخدم عقله ... وانت تعرف لماذا أقول لك هـــذا الكـلام ايها الملازم ؟ ... لأنه لو كان الكسندر هنا ، لقال لك : (قل للاداسى كل شىء .. ثق فى لاداسى ... اعترف للاداسى من هم وراء هـــذه المؤامرة ... بهذا توفر على نفسك كثيراً من المتاعب ...) ... انك تذكرت هذا بدقة ، لأنه عندما كان لاداسى يكلمك ، تملكتك رغبة شديدة فى البكاء ... وما كان ينبغى لك أن تنحاز الى البكاء : فان مجرد تفكيرهم فى انك انت جورج كان يهيىء لك مزية كبرى ، اذا كنت تستطيع ان تكســب اياما قلائل أو على الأقل ســـاعات معدودة مما يهيىء لرفاقك وقتا للهرب ... لكنك كنت كلما قلت لنفســـك

أن سوء الفهم هذا هو جزية ، كلما عملت رغبتك في البكاء على احساسك بالشجو فى حلقك والدموع فى عينيك ... لقد استعدت ما قلته لأخيك : « لابد لك من الهروب من الخدمة العسكرية أنت ايضا ياجورج » ... « لكنني ضابط مجند يا اليكوس ، لا يمكنني أن افعل ما تقول .. » .. « بل يمكنك .. لابد لك من هذا ! » .. « لا يمكنني الاقدام على هذا يا اليكوس .. لا يمكنني ! » .. « بل سيمكنك » .. .. وقد تمكنت من أقناعه .. فهرب من الخدمة .. وبعبور نهر الفروس أتجه الى تركيا ، ومنها الى لبنان ، ثم الى اسرائيل ... وفى ميناء حيفا عندما كان يهم بركوب سفينة الى ايطاليا قبض عليه الاسرائيليون وسلموه الى قبطان سفينة يونانية : لكى تعيده الى أثينا، وتسلمه الى السلطات ... وفى السفينة حبسه القبطان فى احدى القمرات و ... ولكن عند وصول السفينة الى ميناء بيريه ، وجد رجال الشرطة القمرة خاوية ، ونافذتها الصغيرة مفتوحة ... لكنك كنت تعرف أن جورج لم يختف كما قيل ، بل انه توفى ... انك عرفت هذا أثناء الحلم .. لقد راودك هذا الحلم فى نفس الليلة التى كانت فيها السفينة مبحرة فيما بين حيفا وبيريه .. فقد رأيت فى الحلم انك تسير مع جورج فى ممر جبلى شاهق يشرف على البحر ... وفجأة اهتز الجبل ، وحدث انهيار اطبق على جورج ... فاحتضنته وانت تهتف : « جورج ! جورج ! » غير انك لم تستطع التشبث به ، وهوى جورج الى البحر ، بين الأسماك ...

ذهبوا بك عند الظهر .. كان الى يمينك الرجل المبقع الوجه ، والى يسارك كولونيل كان يتشاحن مع الأول ، وجلس فى مقعدين متحركين حارسان بالبنادق الرشاشة ، وجاور السائق اثنان آخران، فكانوا ثمانية فى سياره واحده .. وتسبب ضغط الأجساد فى ضيق تنفسك والهاب الرضوض التى خلفها الضرب المتواصل ... وضاعف من عذابك مسدس دس بين اضلاعك ... كان المسدس فى يد الرجل المبقع الوجه ، الذى مضى يكرر وعيده : « سوف ترى أيها الملازم ... سوف ترى ! » .. او كان يقول : « سوف تكف عن التظاهر بالصمم والبكم ايها الملازم ،سوف تكف عن هذا ! » .. وكان بعد كل تهديد يرفسك فى ساقيك ... اما أنت فقد لبثت صامتا محدقا فى الطريق وانت تأمل املا يائسا فى ان يحدث شيء غير وارد فى الحسبان ... كحادث مثلا ، يمكن ان يسهل لك الهرب ... لكن لم يحدث اى شيء ... فقد تابعت السيارة طريقها يتقدمها ويتبعها راكبو الموتوسيكلات.

دون أن يلتفت اليها أحد ... وعندما كانت السيارة تمر بسيارات أخرى وأنت تحاول أن تستوقف نظرات من يركبونها ، كانت تجاوبك نظرات خاوية ... وعندما كان أحد المارة يتلفت ، فلكي يبدى لا مبالاة انسان يتساءل : « من الذى قبضوا عليه ؟ .. لص ؟ .. » ... أو يقول : « لقد قبضوا على لص ، وخيراً فعلوا » ... وفى مرحـــلة من الطـريق كانت فتاة تمشى على الرصيف مع شاب ويبـدو انهـا استشعرت الحقيقة ، فقد لاح الضنى فى محياها حتى جذبت معصم الشاب وأشارت نحوك ... فكان فى هذا سلوى فريدة لك ، وكأن الفتاة مثلت المدينة كلها فتأهبت المدينة كلها لفتـــح النـوافذ على مصاريعها والهتاف بقولها : « انهم اعتقلوه ! .. انهم اعتقلوه ! .. لابد ان نسرع ونخلصه ! » ... على أن الشاب مالبث أن هز منكبيه وكأنما يقول ـ لنتجاهل هذا ، لا نورط انفسنا ... وهكذا استحالت السلوى الى خيبة أمل ، وطغى عليك أعياء بالغ : فنكست رأسك ، وطفا زبد الهزيمة الى السطح ... ثم انك شعرت بسخرية وضعك اذ كنت عاريا بين اناس مكتسين ، وأحسست بالذلة والهوان لانك فشلت: وشعرت بالوحدة لأنك كنت وحيداً منفردا ، ولأنك كنت خائفـــا مما سيفعلون بك ... لقد تسرب الشك الى ضميرك ، فهل ستقوى على المقاومة ؟ .. أن الرجل المبقع الوجه كان يدرك هذا ، فقد رفـع المسدس من جنبك ووضعه على فكك قائلا : « سوف نصل بعد قليل الى هناك أيها الملازم ، واعدل انك ستتكلم ... آه ، نعم أيهـا الملازم ، سوف تتكلم ... لاننى . ساطهوك طهيا ... انت تعرف ما يقولونه عنى ... وهو أننى قادر حتى على جعل التماثيل تتكلم ... ألم تتأكد من أكون ؟ ... انا الميجور ثيوفليا ناكوس ...

كنت تعرف هذا الاسم ، وما قاله كان صحيحا ... والواقع انه كانت هناك نكتة مكربة تقترن باسمه ... فقد عثر أحد علمـاء الآثار على تمثال ولم يعرف الى أى عهد ينتمى ، فهتف يقـــول للتمثال : « خبرنى ! » ...

واذا مساعد العالم الاثرى يقول له : « يابروفسور ، خذ التمثال الى ثيوفلياناكوس ، وسوف يجعله ينطق ، ويخبرك » ! ... لكن هذه النكتة ساعدت فى كشف طبيعة هذا الرجل ... ولكنك مـــع ذلك شعرت وكأن ريحا بددت الخوف والشك والهزيمة بل والاحساس بانك اضحوكة بسبب عريك ... وحل محل المخاوف والشـــكوك التى كانت تعصف بنفسك احساس بالكبرياء لتفردك فيما أنت فيه ،

واليقين بانك أقوى من الهزيمة والاندحار ... وكذلك حولت عينيك الى خلية الحفر والاخاديد والندبات المتخلفة عن الجدرى او غيره من الامراض الوبائية ، وانفجرت ضاحكا مقهقها ... فقال يثوفلياناكوس بازدراء : « أضحك .. اضحك » ... واذ ذاك كانت السيارة تمر بالملعب الاوليمبى ، ومن بعده فندق هيلتون ، ثم السفارة الامريكية ... وبعد السفارة انعطفت الى اليمين ، وعندئذ شــعرت بقلبك ينقبض ... ففيما وراء اشجار السنط القائمة على الرصيف،عرفت فى الحال جهاز مباحث الشرطة الحربية ، المعروف باسم (اى . اس . ايه) ... مركز التعذيب ...

ان المبنى أيضا لم يعد له وجود ... فقد هدم لكى تقوم على انقاضه ناطحة سحاب لم تشيد أبدا لان أكثر الناس قالوا أن ثمة لعنة على المكان وان الاقامة فيه تجلب النحس والمصائب ... وفيما وراء اشجار السنط القائمة على الرصيف ما كنت لتبصر شــيئا سوى أعمدة خرسانية غير مكتملة وبعض التركيبات الفولاذية المدلاة ، وأرضا فضاء تلوثها القمامة ... وعندما تهب الرياح الجنــوبية الغربية من جانب البحر وتثير دوامات صغيرة من القمامة وترتطم التركيبات الفولاذية بالأعمدة الخرسانية باصوات جوفاء ، يخــال السامع كأن اصوات نحيب وعويل ترتفع من ثنايا تلك الانقاض ... ومع ذلك فهو منطقة سكنية بديعة ذات طرق تكتنفها الاشــجار وتداعبها الانسام وتقوم فيها فيللات بيضاء من احدث طراز يقطنهـا الاغنياء ممن يستخدمون طهاة وسعاة وسائقين خصوصيين وغسالات كهربائية ، وأبنية اخرى انيقة تسكنها البعثات الدبلوماســية ذات الحدائق المنسقة واللوحات النحاسية اللامعة ... ان من الصــعب أن يصدق الانسان أن هاهنا كانت تقوم جهنم التى كانت تنبعث من نوافذها صرخات وأنين الضحايا ... ألم يكن الأغنياء أرباب الطهاة والسقاة والغسالات الكهربائية والسائقين الخصوصيين يسمعونها ؟ الم يكن كبار موظفي القنصليات والسفارات ذوو الحدائق المنســقة واللوحات النحاسية اللامعة يسمعونها ؟ ام أنهم كانوا يســمعونها ويقولون عرضا بتقطيب المتضايق : « يا الهى ! .. انهم يكررونها من جديد ! .. لتأمل الا يفسدوا علينا سهرة الحفل هذه الليلة ! » ... كما أنه من الصعب أن يتخيل الانسان أى طراز من الابنية كان المقر الرئيسى والجهاز (أى . اس . ايه) ذلك ... ربما كانت قصــورا جميلة مثل قصر لوبيانكا فى موسكو ، ومثل مبنى البوليس السرى فى

مدريد ، أو لعلها كانت بعكس ذلك ثكنات مثل غيرها من عديد الثكنات في البلاد المشابهة : جدران عتيقة ، وغرف انتظار كالحة ، ومقاعد بذراعين من الجلد الصناعي المقشور ، ومنافض سجائر متسخة ، ومكاتب عارية بها صورة الطاغية على الحائط وموظف عارق جالس اليها .... اظافر سوداء ، شوارب مفخمة ، وجوه متبلدة شخمة ، فناجين قهوة يأتي بها جنود موسومون بالخوف يرددون : نعم ياسيدي ، نعم ياميجور .. ثم الى هذا كله زنزانات لاولئك المقبوض عليهم ؛ والغرف الخاصة لاولئك الذين يجرى استجوابهم ... كانت منها غرفة في الطابق العلوى ، قرب السطح ، حيث كان بها محرك يدار باستمرار ، للتغطية على الصرخات وأصوات الأنين أن هذا هو ماذكرته أنت في الصفحات التي كتبتها قبل شهر من وفاته ، والتي مزقتها يوم أن وصلت الى الصفحة المروعة رقم ٢٣ ، ناهيا لي عن جمع القطع المزقة ، غير انني جمعتها فعلا ، واكتشفت ـ لخيبة أملي ـ انها لم تكن غير بيان تفصيلي للاربع والعشرين ساعة الأولى هناك والیوم فان هذا البيان ذاته هو الذي يروعني ، بما اشتمل عليه من دقائق وتفصيلات مهيجة للمشاعر لكثير من الأشياء الصغيرة ، مما يؤكد انه حتى بعد عديد السنوات التي تعاقبت فانك لم تنس شيئا ، لا أسما ولا جملة ولا اشارة ، وكان كل تفصيل كان محفوراً في ذاكرته مثل وشم ...

ان ساحة المكان ، كما ذكرت في تلك الصفحات ، كانت في حالة انزعاج عندما تقدمت اليه السيارة ، وقال لك ثيوفلياناكوس : « مرحبا ايها الملازم » ! .. واذا الحراس يسددون المدافع الرشاشة ، والجنود يغيرون مواقفهم بحركات عصبية عنيفة ، والاوامر تختلط بالهمسات ، والاسئلة تتوالى ـ من هو هذا الرجل العارى ؟ الحافى ، وما هي الجريمة التي ارتكبها ؟ .. لقد دفعوا بك الى أعلى السلالم ، وأدخلوك الى مكتب حيث اخذت لك صورة فوتوغرافية لنشرها في الصحف ـ تلك الصورة التي ظهرت فيها مثل ، سباح وسيم متعب وذراعاك مدليان على جنبك ، ورأسك منحن في اتجاه منكبك الايسر ، ونظراتك محدقة في اكتئاب مؤثر بالغ التأثير ... ثم استدعوا لك طبيبا لفحص ما اذا كان صمتك هو ولبد صدمة ... جاء الطبيب وكان شخصية غريبة ... كان له محيا ودود تخالطه دهاء ؟ وكانت عيناه الصغيرتان تبرقان تواطؤ وسخرية ، وبدا كانه جاء الى هنا بمحض الصدفة ... وفي دهشة زائفة فحص حروق السجائر قائلا : « من فعل هذا ؟ ..

هل راوا فيكَ منفضة سجائر ؟ » .. وفيما اقرب الى الرقة المفرطة تأمل فى الرضوض والخدوش التى بك قائلا : « هل توجعك ؟ .. وهنا ؟ .. وهنا ؟ .. » .. ثم سألك ان كان صدغك المحمر يوجعك، وتظاهر بالاستياء لانك لا ترد على أسئلته ... كان جليا انه مال اليك، وانه يريد مساعدتك على نحو ما ... وقد ملت اليه انت أيضـــا حتى وان كان مرتديا كسوتهم ، بيد أنك لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا لاظهار هذا ، ولم تكن تستطيع ألا ان تأمل أن يبقى فترة طويلة ... وقد بقى فعلا ... بيد ان ثيوفلياناكوس مالبث أن نفد صبره وقال : « حسن يادكتور .... هل هو يعانى من صدمة ، أم لا ؟ ... « هم ... أعتقد بالتأكيد انه يعانى من خوف ما ، لكننى أود أن أفحصه بدقة ، فى مكتبى ، للتأكد ... لابد أن أجرى عليه بعـض الاختبارات » .... « اختبارات (طظ) يادكتور ! ... هذا مكتب شرطة ، لا مركز اسعاف ! » « وأنا طبيب نفســـــانى ، لا طبيب بيطرى ! » .. « اذا كنت طبيبا نفسانيا ، ألا يمكنك أن ترى أنه يتصنع البكم ؟ .. وانه يسخر منك انت ايضا ؟ » .. « لا .. وبودى أن أعالجه ! » .. « سوف نتكفل نحن بعلاجه يادكتور ! .. يمكنك أن تذهب الآن » .. واشاروا الى الباب ... وكانت رؤيتك له وهو يتجه الى الباب مثل رؤيتك للزورق البخارى وهو يتجه الى عرض البحر دون أن ينتظرك ــ انتظرونى ، انا قادم ، انتظرونى ! ... كنت تتمنى أن تجرى خلفه وتتعلق بكمه وتستوقفه قائلا ــ خـذنى بعيدا من هنا ، التمس عذرا وخذنى من هنا ! .. وبدا كأنه سمعك ... فقد توقف ، واستدار ، والقى عليك نظرة كان معناها : انا أعرف انك تتصنع ، لكنهم غير متأكدين ... استمر فى المحـــاولة ! ... والواقع ان التصنع كان بلا جدوى ، فقد اقتربت اللحظة التى لابد لك فيها من مواجهتهم بكيفية مختلفة ، مبينا انك لست بالأصم ولا الابكم .. الآن قد حانت اللحظة ، فاذا هم يدخلونك فى غرفة أخرى ، غرفة بها طاولة ومقعدان فعلا ، ولكنها ضمت ايضا سريرا حديديا صغيرا بدون مرتبة .... وكان بجانب السرير ثلاثة عرفاء ، مشبكو الاذرع ، تدلت هراوات من أحـــزمتهم ، وكانت الهراوات بالغة الضخامة حتى بدت مثل الهراوات البدائية القديمة ... وكان الرجال ضخاما ايضا ، اقوياء البنية ... لقد نظرت اليهم ، ونظـرت الى السرير ، ومدى ثوان معدودة لم تفهم فيم يمكن أن يستخدم سرير بلا مرتبة ، ولكن فجأة وضح الامر ، فقد أمسك بك اثنان فى جد

وعدم تاثر وطرحاك فوق السرير بنفس الاحساس ودون أدنى اهتمام بالانين الذى افلت منك لدى ملامسة الزنبركات المكسورة التى انغرست فيك كأسلاك شائكة ... لقد عضضت على شفتيك لمقاومة الألم ، فهل تراهم سيبدأون فى الحال ، أم لا ؟ ... كلا ، ليس فى الحال ... فقد وقف لدى الباب ضابط بادى الخجل يسعل قليلا وقد احمر وجهه ، وقال : « معذرة ، مساء الخير ، هل يمكن أن ادخل ؟ » ... ومالبث وكأنما هو غير دار بالمشهد المحرج لرجل نصف عار مغطى بالدم وممدد فوق سرير بلا مرتبة ـ ما لبث أن دلف واستقر أمام الطاولة ، ثم وضع ملفا فوقها وصف بعض أقلام وبدأ يوجه أسئلة ، كان واضحا أن المقصود بها أخوك المرحوم جورج ـ ما اسمك ؟ .. فى أى سنة ولدت ، ما هى الكتيبة التى كنت تابعا لها ؟ ... ونظرا لأنك لبثت صامتا ، وقد تولى عنك الجواب : « آه ، نعم ... هذا مكتوب هنا ... آسف .... مولود سنة ١٩٣٧ أنا اعرف عددا طيبا من الرجال من مواليد هذه السنة ، وكنا معا فى معسكر ٥٣٤ » .. انك رحت تحدق فيه ، متسائلا ما هو دوره ... فهل جاء لسد فراغ ، أم انه كان جزءا من طقوس العملية ؟ ... هل أرسلوه من قبل احد أقسام علم النفس ؟ ... اتراهم قالوا له : اذهب اليه ، تصرف كأنه لم يحدث أى شىء غريب ، عامله بادب ، اكسب ثقته ، وربما تحصل على بعض النتائج ؟ .. أمرا واحدا كان مؤكدا : انه كان بلا أهمية ، وكان يخافهم الى حد الفزع : فانه ما ان فتح الباب حتى أنتفض قائما ، كما لو كانوا لدعوه ، أو كأن جنرالا يوشك أن يدخل ... لكن القادم لم يكن جنرالا ... كانا شخصين بالملابس المدنية ... وقد دفعاه جانبا ، وبايماءة بطيئة من راسيهما أشارا اليه بالخروج ، ثم انتصبا بجانب السرير ، ولوحا برزمة أوراق وقالا بوضوح : « أنا المفتش المساعد ماليوس من قسم مكافحة الشيوعية التابع لمكتب الشرطة المركزية » ... « وأنا المفتش المساعد باباليس التابع لنفس المكتب » ...

عندما كنت صبيا ، شاهدت فيلما مرعبا . كان فيلما من القصص العلمى ، وصورة لاثنين من الروبرت ، الانسان الآلى ، خلقا بعملية خاصة جدا بحيث لم يؤكدا كأطفال ، بل كبالغين ، بملابس كاملة وقبعات على الراس واحذية فى القدمين ، وكان لكل منهما نفس الوجه، ونفس القوام ، ونفس اسلوب التحرك أو الوقوف فى سكون ... ان القادمين قد ذكراك بذلك الفيلم ... بنظرة منك ظهرا عاديين ، طرازا

غير مميز ، وملامح لا تسترعى النظر ، ببدلات رمادية وقمصان وربطة عنق ــ ولكن لدى امعان الفحص ، كانا يثيران الفوضى ... وكان التعليل بسيطا : وان كان أحدهما طويلا والآخر قصيرا ، وان كان أحدهما نحيلا والثانى متينا بدينا ، وان كان احدهما بشارب والثانى بدونه ــ ومع ذلك ، بدا الاثنان كشخص واحد . مرهوب بصـــورة وحشية ، مثل الخيال المتكرر للشخص الواحد ... طريقة وقوفهما بساقين منفرجتين وبطن بارز . كانت متطابقة ... نظراتهما اليـك كما لو كنت فى غرفتك الخاصة أو فى مستشفى كانت متطابقة ... وكان التطابق ايضا فى نبرات الصوت الذى التزماه ، وفى تعـــاقب الكلام وتداوله فى وقت واحد ... حالما كان احدهما يتم جملة ، كان الثانى يبدأ الجملة التالية ، متمما للفكرة ، ولكن بلا اعراب عن فكرة منفصلة ... وهكذا كان النظر اليهما والاصغاء لهما مثل متـــابعة مباراة تنس بين لاعبين لا تفلت منهما ضربة واحدة ــ « ايها الملازم ، عندنا بعض المعلومات المتصلة بك » .. « وعندنا ايضا الملف الخاص بشقيقك الكسندر » ... « اننا نعرف كل شىء عنك ونعتقـــد انك تعرف كل شىء عنا » .. « وفى الحقيقة فان الاذاعات الاجنبية تكرس اهتماما عظيما لنا » .. « نعنى للذم فينا ... هم يقولون اننا نعذب الناس » ... « أكاذيب .. ان نظامنا ليس بحاجة الى تعذيب » ... « اننا نفرق الشخص الذى يجرى التحقيق معه بالحقائق ... بالادلة التى نجمعها بفضل صبرنا » .. « وهكذا فانه فى النهاية يفحـــم دائما ويسلم بفضل طيبتنا » ... « وبعضهم يقول لنا : سأدلى بكل شىء ، لكننى أريد أن أحمى شخصا معينا » ... « ونحن نفهم ، وندع له أن يختار الكيفية التى يريدها ... « وقد قال لنا أحدهم : اننى كنت مختبئا فى منزل فلان ، لكن لا تفعلوا شيئا به ، فهو رب أسرة » ... « ونحن لم نفعل به اى شىء : كل ما فعلناه اننا زرناه فى المنزل وأسدينا اليه النصح » ... وقلنا له ان الصداقة شىء جميل ... ولكن الصداقة يمكن ان تؤدى بك الى قضاء بقية حياتك فى الســـجن ... « فما كان منه الا ان ارتمى على ركبتيه واقسم الا يفعل هـــذا مرة اخرى » ... « وهذا هو السبب فى ان الشيوعيين يكرهوننا» ... بسبب حرفيتنا الدقيقة ، واستعدادنا الايديولوجى » ... « غير اننا لا نريد أن نتعبك بهذا الكلام ايها الملازم » .. « كل ما نريد هو أن نوجه اليك بعض الاسئلة ».. « على سبيل المثال ، عنوان البيت الذى كنت مختبئا فيه » .. « وفيما بعد يمكنك ان تسترد ملابسك

وتلبس كالمعتاد .. مؤكد انه لا يمكنك أن تستمر عاريا هكذا » ..
« أين كنت تقيم أيها الملازم ؟ » .. وهكذا ، وهكذا وهكذا ! ..
ولقد رحت تتابعهما محولا نظرك من الواحد الى الآخر بالحركة المتوالية لبندول الساعة ، تماما مثل اناس فى مباراة تنس ، ولكونك لم تتذكر من من الاثنين كان مالهوس ومن منهما باباليس ، فقد أصبحا فى نظرك ، باكثر واكثر ، الصورة المشطورة لنفس الشخص ، بذات الصوت ، يتردد بالصدى ... « أين كنت تقيم أيها الملازم ؟ » ...
« نعم ، أين كنت تقيم أيها الملازم ؟ » ... كان عليك أن توقفهما ، أن تفك ارتباطهما ، أن تفصلهما ... كان عليك أن ترد عليهما ، والا أصبت بالجنون ... « أنا لا اتذكر » ...« انت لا تتذكر ؟ » ..
« كلا ، لااتذكر» ..« أيها الملازم ، هل تعرف معنى كلمة استجواب؟..
فى الاستجواب يستعيد كل انسان ذاكرته ، هذا ما يمكننا أن نؤكده لك » .. « قلت انني لا اتذكر ، ولا أمل هناك فى انني سأتذكر » ..
« ربما كنت متوترا جدا أيها الملازم ... انت بحاجة الى كونياك ، الى قهوة » .. « انا لا أحتاج الى أى شىء » .. ربما كنت فى وضع غير مريح .. فهل تحب أن تجلس على هـذا الكرسى ؟ .. » ..
« أنا مبسوط كما أنا » .. « هيا الآن أيها الملازم ، أنت تتصرف مثل طفل » ... كلا ! .. لا فائدة ! .. لم يكن هناك سبيل لوقفهما ، فلم يكفا لحظة عن متابعة الكرة ! .. وكان عليك أن تحاول شيئا آخر ... ان تسبهما ... فرحت تحاول : « اقفل مغارة فمك ياماليوس !
.. اقفل مغارة فمك ياباباليس ! .. » .. وقد نجح هذا الاسلوب حقا ... فقد انفصلا ، وانفك ارتباطهما .. اذ طوحا بالاوراق فى الهواء ، وأنشآ يصيحان بصوتين مختلفين متميزين : « تقول لنا ان نقفل مغارتنا ياقاتل ؟ .. لماذا لا تقول : نعم ، هو أنا ، وأنا فخور بهذا ؟ .. انني أتحمل كامل المسئولية ــ لماذا لماذا لا تتصرف كرجل ؟ »
.. « رجل ؟ رجل ؟ » .. « الا يمكنك أن ترى انه ليس رجلا ؟ ..
هو جبان .. هو يرتعش هو خائف ! » . « (اتسخم) ياماليوس ! ..
(اتسخم) ياباباليس ! انت هو الخائف ، يامخنث .. كل انسان يعرف انك مخصى ، مخنث ، ياباباليس » .. « يامجرم ! » قالها باباليس وهو يلقى بنفسه عليك ، لولا أن ماليوس كان أسبق منه وأمسك بذراعه : « لا ياباباليس ... لا فائدة من فقد أعصابك ...
ان الملازم سيلزم جانب المعقول » ... « معقولة ؟ ... اننا نكلمه بادب ، وهو ــ القاتل الفاشل ــ يشتمنا ! » .. « الزم الهدوء كما

قلت لك ... قريبا سيكف عن شتمنا .. لن يجد الانفاس التى تعينه على ذلك » ... « لا بأس .. بيد ان الباب فتح فى هذه اللحظة ، واندفع الى الداخل ثيوفلياناكوس ، هادرا : « هل جربتم الطريقة البوليسية اذن ؟ .. دعوه لى .. ياللحمق المساكن ! .. الا تفهمون أن مايحتاج اليه هو « النظام المخصوص ؟ »

★★★

انك اعتدت ان تقول ان فى حل نظام حكم قمعى ، وفى كل نظام دكتاتورى ، سواء ، اليمين او اليسار فى الغرب او الشرق ، فى الامس ، واليوم ، وغدا ــ الاستجواب الجيد هو أشبه بنص مسرحى، يتألف من شخصيات تدخل وتخرج طبقا لتعليمات دقيقة ، ومخرج يحركهم من خارج خشبة المسرح : هو المحقق الذى يوكل اليه اجراء التحقيق ... وأعتدت أن تقول ان كل واحد من تلك الشخصيات له دور مختلف ، ولكن لهم جميعا غرضا وحيــــدا : هو أن يجعلوا الضحية ان يخسر ، فان عليه أن يجعل هذا السلاح غير ذى فاعلية : مطلقا أو كما يقولون (كارت بلانش) وينتظر .. وهو مزود بســلاح رهيب تحت تصرفه ، سلاح الوقت ... فهو يعرف أنه اذا توسل بالصبر ، فعاجلا أو آجلا يستسلم الضحية ... ولكى يتفــادى الضحية أن يخسر ، فان عليه أن يجهل هذا السلاح غير ذى فاعليه : اذ يتعين عليه أن يستمين فى رد الفعل بهجوم مضاد يمنع الاداء الطبيعى للنص ... فالاضراب عن الطعام ، واضراب العطش ، والعدوانية ، والعنف فى مواجهة العفف ــ أى شىء من ذلك يدفعهم الى توجيــه ضربة أعنف ويؤدى به الى الاغماء ... فعندما يغمى على الضحية ، مقهورا بالضرب وغيره من ألوان التعذيب ، أو يصاب بغيبوبة بعــد الاضراب عن الطعام أو الشراب ، لا يلبث الأستجواب أن يؤجل كما هو واضح ... وفى هذا ما يساعده على الراحة ومواجهة اســتئناف أعمال التعذيب وهو فى حالة متجددة وبحرية المعرفة للحوار والمشاهد واسلوب الاخراج ــ انك لم تكن تعرف هــذه الأمور ، ولكنــك استشعرتها لحظة أن بدأ ماليوس وباباليس ذلك الحوار المزدوج ... وبالوقة فانك من خلال الانصات اليهما وملاحظتهما قد بدأت ترتاب فى انهما كانا يرددان أحاديث النص الذى يسيطر عليه خلف المسرح مخرج بالغ الاقتدار ، تصويرا لشخصيات مسرحية هدفها انهاك عقلك الذى شوشه من قبل ذلك الضابط الخجول المضــحك ... ولقد فهمت من خلال الغريزة أكثر منه من خلال العقل ان عليك أن

تدافع عن نفسك ، بجعلهم يضربونك فى الحال ، لأنك اذا أغمى عليك بسبب ضرباتهم ، فليس بدنك فقط ولكن عقلك أيضا سوف ينـالان بعض الراحة ، وبعد ذلك لا يمكن أن تخطىء أو تزل بك القدم ... والشيء الضرورى هو أن تنتهز اللحظة الصحيحة ... وقد اتيحت لك هذه اللحظة على يد ثيوفلوياناكيس حين اندفع الى الداخل صارخا: « انكم جربتم الطريقة البوليسية ، فدعوه لى أيها الحمقى المساكين .. الا يفهمون انه بالنسبة اليه ، فان (النظام المخصوص) هو مايحتاج اليه ؟ » .. ثم ما لبثت أن استدار نحوك قائلا : « اننا نعـرف من أنت على أى حال ، أيها المجرم ... لقد اكتشفنا هذا بلا أية مشقة ! ... انت الهارب من الخدمة العسكرية الذى فر الى اسرائيل ، الخائن الذى أفلت من تلك السفينة ! ... يا كوم زبالة ! .. » ..

لقد قفزت من السرير فى وثبة فهد ، ومخالب فهد ، وقبضـت على يده ، ودفعت بيدك الأخرى المخلبية راسه الى الخلف ، وصحت هادرا : « ياثيوفلياناكوس ... كوم (الزبالة) هو من يلبس بذلة الميجور ! » .. وفى الحال وقعت الواقعة ، التى كنت تريد أن تقع ، والتى كان لابد أن تقع : عندما انقضوا عليك كأنما اندفعوا بفعـل زنبرك كان يصدهم حتى تلك اللحظة ... اذ فقد ماليوس وباباليس كل سيطرة على أعصابهما ، وتخلى العرفاء الثلاثة عن جمودهم شاهرين هراواتهم ، وهجموا عليك لتخليص ثيوفلياناكوس من قبضـتيك ، وغدت هجمتك مبارزة ضد ستة رجال كانوا أقوى منك وأوفر نشاطا .. اثنان من الامام ، واثنان من الخلف ، واثنان عن جانبيك ، ينهالون عليك بوابل من الضربات واللكمات واللطمات ، فيما انزلقت ، ووقعت ، وقمت ثانية ، ثم انزلقت مرة أخرى ، وقمت مرة أخرى ، تسـدد لهم الركلات والضربات بمرفقيك ، وراسك وانت شرس كفهد وقع فى الشرك ولكنه صمم على تمزيق الشرك ... ثم انقلبت الطاولة ، وطار أحد الكراسي مصطدما بجسد باباليس الذى جرى الى الباب فى نزع طالبا النجدة ، على الرغم من احتجاج ثيوفليناكوس ، الذى لم يرد شهودا آخرين على اذلاله ــ بيد ان ضابطا ببندقية رشاشة كان يقتحم الغرفة فى هذه اللحظة ، وكان هذا أكثر مما كنت ترجوه ... فقـد حطمت شبكة الحصار ، اذ القيت بنفسك على البندقية للاستحواذ عليها ، واختطفتها ، وعلى الرغم من ان الضابط تشبث بها باصابع من حديد ، فانك تشبثت بها فى أشد اهتياج حتى انك لم تشـعر حتى بالهراوات تقع على راسك وذراعيك ... كنت تسمع فقـط

صراخهم ، ومع الصراخ وقع الضربات المكتومة التي كانت تتوالى جزافا ، الى حد أن هراوة هوت على رأس ماليوس ، فاستدار ماليوس محنقا لميرفس المسئول ، غير ان باباليس تلقى الرفسة دونه ... وعندئذ بلغ من خفق باباليس انه لطم ماليوس على فمه ، فكان هذا بداية اشتباك بين الاثنين ... وبعدها انتشر الاشتباك وشمل الآخرين : اشتباك أعمى ، مثير للسخرية ، وزاد من سخريته انهم كانوا يضربون بعضهم بعضا ويحثون بعضهم بعضاً على عدم فعل هذا: « توقفوا ! .. ماذا تظنون انكم تفعلون؟ .. توقفوا ! .. كفوا عن هذا .. » .. « الا ترون أن هذا هو ما يريده ؟ .. تفرغوا له ، بدلا من ذلك ! » .. وفي مواجهتك للضابط وحوكا ، لبثت تنتزع البندقية الرشاشة وتطوح حتى شعرت بأصابعه ترتخي عنها وتتخلى شيئا فشيئا ، وكنت توشك أن تنتزعها نهائيا الى أن تمكنت من هذا بجذبة اخيرة حتى صارت بين يديك وسددتها ... وفجأة انطبقت السماء فوق راسك ... ثم كان ظلام ... واطبقت عليك آلاف المخالب .. وآلاف القيود تكبلك ..

★★★

ومن سوء الحظ انه لم يغم عليك ... ان ضربة الهراوة القاضية دوختك فقط ... وقد رفعت جفونك ونظرت حواليك محاولا أن تتصور أين موقفك وما الذي شل حركاتك .. ألقيت نفسك على السرير من جديد ... أنهم قيدوك هذه المرة ، من العقبين والمعصمين، وجلس عريف على صدرك ، وآخر على ساقيك ... واذا ثيوفلياناكوس وهو منحن فوقك يقول لاهثا : « سنجعل منك لحما مفروما يا ابن الحرام ! ... لحما مفروما ! ... » ... فجعلت تحدق في عينيه ... الا لو أستطعت فقط أن تبصق في وجهه ! .. استجمع شيئا من اللعاب وابصق في وجهه ! .. واستجمع لسانك بعض قطرات من اللعاب الباقي ودفع بها الى شفتيك اما هو فقد فهم واشتد ضقه : « الهراوة ! » .. فخف اليه باباليس بالهراوة : الآن سوف ترى، أيها الخائن ! » .. وانهالت الهراوة على راحة قدميك ، مثنى ، وثلاث ، ورباع ، الى عشرات ... يا للتعذيب الوحشي ! .. يا للمعاناة ! .. يا للمكابدة التي لا تحتمل ! .. لم يكن هذا مجرد عذاب ... كان مثل شحنة كهربائية ترتفع من القدمين الى المخ ، ومن المخ تهبط الى الأذنين ، ثم الى المعدة ، والأمعاء ، والركبتين حيث تتركز شدة الالم ... ويقترن هذا بصوت يقول تكرارا بانتظام :

« خذ هذه .. وهذه .. وهذه .. وهذه .. وهذه ! » .. ويهجس عقلك بهذا الابتهال : ياليتني أغيب عن الوعي ! .. رحماك يا يسوع! .. ليتني اغيب عن الوعي ، لا اصرخ ، ولكن اغيب عن الوعي ! » ... لكن أنى لك أن تقاوم الصراخ ؟ .. فقد بدأت تصرخ .. وبعـــدها حدث ماهو اسوأ ... فان ثيو فلياناكوس غطى فمك لكي لا تصرخ ... غطى فمك وانفك جاعلا السبابة والابهام يضغطان على انفك ، وراحة اليد فوق فمك ... كلا ! .. لا تخنقني ! .. كلا ! .. لا يمكنني أن احتمل هذا ! .. اعطوني كل الضربات في العالم ، لكن لا تسلبوني الهواء ! .. قليل من الهواء ، قليل من الهواء ، بحق يسوع ! .. هلا امكنني أن أعضه ! .. هلا استطعت كشف أسناني وعض أصبعه !؟ .. بهذا يرفع يده مدى لحظة ، ومدى لحظة أستطيع التنفس ! ... وهكذا استجمعت كل ما بقى فيك من طاقة ، وركزتها في قلبك .. وببطء ، ببطء شديد ، فتحت فكيك وعضضت خنصر يده اليمنى ، بقوة ، حتى انقصف الأصبع ... واذا صرخة وحشية تتردد ، اطلقها ثيو فلياناكوس ، رافعا يده المخضبة بالدم ، وقد قضم اصبعه نصفين .. هنالك جن جنونهم : ياخائن ! .. ياداعر ! .. يا جاسوس ! .. يا ابن الحرام ! .. ياخائن ! .. لقد راحوا يصرخون جميعـــا في (كوراس) واحد ، كوراس بالزى الرسمى ! .. وانقض احـــدهم فلطمك ، وضرب آخر راسك في السرير ، وراح ثالث يصيبك في كل موضع من جسدك الى أن لم يبق فيه موضع واحد يستجيب لرد فعل من جانبك وزنبركات السرير منغوسة في لحمك ، والمعاناة تتراوح بين العذاب والخدر المشفى على الشلل ... هل من اغماء ؟ ... هل من اغماء يريحني لحظة ، أو يميتني الى حين ؟ .. وفي النهـــاية الظلام ... ظلام طويل تنغمر فيه كما في اطواء هاوية فيها الخلاص ... ثم سكون ... سكون يطن في اذنيك مثل طنين زنابير النحل ، فيما يمتلىء فمك بالدم ، ويتفجر صدغاك ، ويتلاشى وعيك في الراحة التي طال تشداتها بفقد حواسك ، يموت الى حين يسير ..

وعندما فتحت عينيك ، لم تكن مقيدا في معصمك وكاحليك فقط ... كان حزام جلدي يشدك شدا وثيقا من فوق معدتك ، ولم تكن تحس بشيء في ساقيك أو في ذراعيك أو بدنك ... كنت تحس بوجهك ، ولا شيء غير هذا ، وكأنهم حزوا عنقك وبقى راسك المفصول حيا ! .. ولما اجريت لسانك على شفتيك الفيتهما متضخمتين وقدرت انهمـــا مورمتان بصورة مخيفة .. وحاولت رفع جفونك ، فكانت مطبقـــة

ملتصـــقة وقدرت انها مورفة بصورة مخيفة كذلك .. ومن خلف اهدابك الملتصقة ، كانت أشباح مبهمة تتكلم لاهثة ... أحدها ضحك قائلا : « يالها من عملية ! » .. وتقدم شـــبح آخـــر ، وقال له ثيوفلياناكوس : « ها هو ذا صاحبنا ... أليس هو نفسه ؟ » ... فاقترب الشبح منك ، وانحنى فوقك ، حتى غطاك مثل سحابة ، وسمعت صوتا مترددا يسألك : « هل تعرفنى ؟ » ... فتنهدت بخفوت : لا ... ولكن ثيوفلياناكوس تدخل قائلا : « كذاب ! انك أديت تدريب الضباط معه ، وتدعى أنك لا تعرفه ؟ » ... فانحنى الشبح مرة أخرى ... لعله أدرك انك لست جورج ، لكنه كره أن يقول هذا على وجه التأكيد ... وقـــال ثيوفلياناكوس باصرار : « حسنا » ... بقى الشبح صامتا ، وقطرات عرقه تنهمر على وجهك ... فكرر ثيوفلياناكوس كلامه قائلا : « تكلم هل هو نفسه ، أم لا ؟ » ... « لا يمكننى ان أقول ... لابد أن يكون هو ، لكنـــه يبـــدو متغيرا فى نظرى .. ربما بسبب ما فعلتم به » .. « لا بأس .. اذن ارجع غـــدا » ... وقـــد رجـــع فى اليوم التـــالى ، واليـــوم الـــذى تلاه ، غير انه فى كل يوم اعطى نفس الجواب ، لانك فى كل يوم صرت أعصى على التعرف بك ، اذ انهم فتكوا بك اكثر واكثر .. فيمـــا بعد ذلك بخمس سنوات ، عندما اخذتك لعمل صورة باشعة اكس لفحص بعض اضطرابات الجهاز التنفسى التى كنت تشكو منهـــا ، رفع خبير الأشعة صورة (النجاتيف) مرتاعا وهتف : « لكن ما هذا الذى فعلوه بهذا الرجل ؟ .. ليس به ضلع واحد سليم ! » ..

كان هذا حالك .. لقد حطموا أضلاعك كلها بضربات عتلته ... وكسروا قدمك اليسرى بهراوة ، وهذا هو السبب فى انك جعلت تمشى وكان احدى ساقيك أقصر من الاخرى .. ثم انهم خلعوا معصميك الاثنين ، بعد ان ربطوهما بالحبال وجعلوك تتدلى من السقف على مدار الساعات لكى يدب الضمور الى كتفيك وذراعيك بتفكك عظام الرسغين ... وهذا هو السبب فى أن الرسغ الايمن قد تشوه بورم عظمى أصبح بسبب ألما فظيعا لدى أى احتكاك بساعات معصمك ، حتى كنت تقول : « لا استطيع حتى ان ألبس ساعة يد ! » ..

وتخلفت فى صدرك ثقوب صغيرة متعددة بعد ان أحرقوك فى هذا الموضع مرارا بالسجائر ، وفى الاعوام التالية كان ظهرك وفخـــذاك لا تزال تحمل علامات الجلد الكرباج الفولاذى .. وتخلفت آثـــار جروح اخرى فى ساقيك وفخذيك وعورتك ... غير ان اشدها فظاعة كان نتيجة جرح قطعى احدثه بك ثيوفلياناكوس بفتاحة خطـــابات

مسننة ، في حين عمد قسطنطين بابا دوبولوس ، شقيق بابادوبولوس ، الى تسديد موسه فوق صدغك قائلا : « ساغمده فى قلبك ... سأغمده فى قلبك ! » ... ان اللحم فى تلك الجروح والقطوع قد نما بصورة سيئة ، فى نتوءات صلبة أشبه بحبات الأرز ، صلبة الملمس ... ويوم عمل الأشعة تلمسها الطبيب بأصابعه وغمغم وهو لا يصدق ! « رحما لى ياالهى ... هذا شيء لا يصدق ! » . ولا اذكر فى هذا أنواع التعذيب التى لا تترك أثرا : مثل ايقاظك فى اللحظة التى تستسلم فيها للنوم ، منهكا ، أو التعذيب بكتم الانفاس ... لقد ادركوا أن هذا اللون هو الذى لا تطيق احتماله ، ولهذا فانهم استخدموه معك دائما ... وعلى اى حال ، فانهم بعد عض أصبع وتهشم اصبع ثيوفلياناكيس ، عمدوا الى استخدام لحاف لكتم انفاسك ؟ ..

ثم اخيرا التعذيب الجنسى .. انك لم ترض ابدا أن تخبرنى بألوان هذا التعذيب على وجه التحديد ... كنت اذا وجهت اليك أسئلة محددة اراك يعتريك الشحوب وتنغلق على نفسك صامتا ... ومع ذلك فانك لم تكتم سر أحد هذه الالوان : الابرة فى القناة البولية ... كانوا يعرونك تماما ، ويربطونك فى السرير ، ويدلكون قضيبك حتى ينتصب ، فاذا صلب قاموا بغرس ابرة حديدية فى داخله ، بحجم ابرة التطريز ... ثم يحمونها بقداحة سجائر ، فيكون التأثير مثل صدمة كهربائية تماما ... ولكى يتأكدوا من أنك لن تموت ، كان ثمة طبيب متأهب بالسماعة الصدرية ! ..

★★★

لقد أستمر الحال كذلك مدى أسبوعين ، فيما مضوا يدقونك بالاسئلة التى ما كنت تستطيع لها جوابا حتى لو أردت هذا ، لأن المقصود بها كان جورج : « أجب ايها الملازم ... من الذى ساعدك ؟ من اى معسكرات اخذت المتفجرات ؟ .. من الذى كان سيفيد من المؤامرة ؟ ... ما هى أسماء شركائك ، وأين هم ؟ .. اين شقيقك الكسندر ؟ .. متى رأيته لآخر مرة ؟ .. فى أى بيت اختبأت بعد هروبك من السفينة ؟ .. من الذى فتح لك نافذة القمرة ؟ .. » .. اما انت فقد لزمت السكون ... كنت تفتح فمك فقط لكى تتوجع أو لكى تصرخ ... وبعد ذلك ، فى اليوم الخامس عشر ، جاء رجل فى بذلة زرقاء وقميص أبيض وربطة عنق زرقاء ... كانت يداه منمقتين بعناية ، واظافره تلمع كما لو كانت مغطاة بطلاء جميل ... كان هذا أول شيء لاحظته عنه لان هاتين اليدين كانتا تمسكان بملف مكتوب

عليه اسم جورج وختم (سرى للغاية) .. وفيما بعدها رحت تنظر الى وجهه ــ اذ لم تستطع أن ترفع نظرك عن ذلك الملف ــ فكان وجها يعكس اليدين ، حليقا تماما ، ومدلكا تدليكا ناعما ... كانت الملامح حادة وصارمة : جبين مرتفع ، وأنف مستطيل ، وفم رقيق ... وكانت العينان ثابتتين ونفاذتين خلف نظارة سميكة ... وقد راح يتفرسك برهة بتجرد بالغ كما لو كنت أداة وليس شخصا ... ثم أنشأ يتصفح الأوراق صامتا ... وفى النهاية تحركت شفتاه ، وقال بصوت لاذع : « أنا الميجورهازيزيكس ، قائد قسم المباحث (ى . اس . ايه) ... لنتبادل بعض الحديث يا الكسندر ... هل تشعر بتحسن ياالكسندر ؟ .. أم يجب أن أناديك باسم اليكوس ؟ ...

★★★

ان المحقيق الحقيقى لا يضربك قط أنه يتكلم ويرهب ، يباغت .. المحقق الحقيقى يعرف ان الاستجواب الناجح لا يقوم على التعذيب البدنى بل على التعذيب النفسانى الذى يلى التعذيب البدنى ... يعرف انه عندما يغدو جسد الضحية لم يعد شيئا أكثر من كتلة من الأوجاع فانه سيكون سعيدا بأن يجد الملاذ لدى شخص يعذبه من خلال الكلام فحسب ... المحقق الحقيقى يعرف أنه بعد كثرة المعاناة ومكابدة الآلام فلا شىء يستنزف مقاومة الضحية بدنيا ومعنويا مثل الاعلان عن مزيد من بدة .. والمحقق الحقيقى لا يظهر قط مع الشخصيات الماثلة فى دراما التحقيق والاستجواب : فهو ينتظر ويكشف عن وجوده فقط عندما ينزل الستار على الفصل الأول ... عندئذ فقط ، مثل مخرج يتولى تنسيق أدوار الشخصيات ، يبرز هو للظهور : يوجه الاسئلة بصبر ، ويمحص الاجوبة بذكاء ، ويتقبل حالات الصمت برقة ولطف ... والمكاشفات غير العادية أو المباشرة ليست هى ما يهمه ... فهو أكثر اهتماما بجزئيات الأخبار التى بها يستطيع أن يشكل مركب الموزايكو الذى سيمكنه من اكتشاف منافذ الضعف فى ضحيته ، مما يهيىء له أن يبث فيه احساسا من الشك والبلبلة والخوف ثم فى النهاية الاستسلام الشامل ... وعلى هذا فعندما يظهر المحقق المعنى لا يكفى رفض المجاوبة أمامه .. لابد لك ايضا من رفض اى لون من الحوار معه ، والاحتفاظ بيقظتك الذهنية ... ومن الطبيعى أن يكون هذا شيئا صعبا ، اذ أن التعذيب البدنى يقلل من فاعلية الذهن ... لكن لابد لك من بذل الجهد اذا اردت أن تفهم الى اى مدى قطع التحقيق شوطا ، وماذا اكتشفوا وماذا لم يكتشفوه

... عين مفتحة ، وآذان مرهفة ، وذاكرة ، وتصور ، لأن المحقق لا تصور عنده ... هو ذلك الطراز الذى يرى ألقوة كظاهرة خارجية، كمجموعة من الوسائط للمحافظة على الحالة الراهنة ، دون أن يضايق نفسه بالمشكلات الفرضية ... وليس معنى هذا انه أبله أو مغرور أو متعطش للمجد : وغالبا ما لا يكون حتى مدفوعا بطمــــوح ذاتى ، قانعا فحسب بأن يكون مجهلا حيال سلطة معينة ، وأن يظل قابعـــا فى دهليز القوة والسلطان ... ثم ليس هو بالضرورة شريرا أوفاسدا: فهو غالبا منبعث بكراهية صادقة لاختلال النظام وحب صادق للنظام ... بيد أن القوة الشمولية والجائرة هى آلهه المعبود ، نظــــامه المثالى ، التناسق الصلبانى فى مقبرة ... فى ابان مثل هذا التناسق يسلك نفسه دون ما نقاش : فهو لا يستطيع أن يتصور شيئا جديدا أو متباينا ، اذ أن الجديد والمتباين يروعانه ... ولأنه متخشــــــع كقسيس للنظم الماثلة والمؤكدة ، فهو يعد القوانين بالفة القداســـة ويطيعها كما يطيع الاعراف العـــامة للأناقة : بذلة زرقاء ، قميص ابيض ، ربطة عنق زرقاء ... ان المحقق الحقيقى هو مخلوق كئيب .. فلسفيا هو الفاشيستى الحقيقى ـ الفاشيستى الذى لا لون له والذى يخدم كافة الفاشيات وكافة النظم الشمولية وكافة نظم الحكم بشرط أن تكون موظفة لابقاء الرجال فى صف منتظم مثل الصلبان فى مقبرة ... وانت واجده حيثما تكون هناك ايديلوجية ، مذهب مطلق ، عقيدة تمنع الفرد أن يكون نفسه ... له مكاتب ودواوين فى كل موقع من الأرض ، وله فصول مدونة فى كل مجلد من التاريخ ... بالأمس خدم محاكم التفتيش ومحاكم الرايخ الثالث ، واليوم يخدم حملات المطاردة والتنكيل ضد المتمردين على النظم الاستبدادية فى الشرق والغرب ، فى اليمين واليسار ... هو أزلى ، موجود فى كل مكان ، باق على الدوام ... وما هو قط بانسانى ... وربما يقع فى الحب ، وعند الضرورة يبكى ويتعذب مثلنا ، وربما كانت له روح ... لكن اذا كان هذا ، فهى كامنة فى قبر أعمق من أن تحتفر ... واذا لم يكن هذا مناط الفهم ، فلن يمكنك الصمود أمامه ، وتغدو مقاومته ببساطة عملا من قبيل الكرامة الذاتية ... ولتذكر أن الكرامة الذاتية مشروعة، بل هى واجب ... على أن الاقتصار عليها هو غلطة سياسية : فان الصمود أمام التحقيق والاستجواب لا يعنى فقط اظهار البطـــولة كما فى حالة سانت ساستيان أن شهداء الكولوسيوم ، وانما يعنى ايضا اذلال المحقق الانف على الصعيدين المهنى والفكرى ، وأصارته

الى التشكك فى نفسه وفى النظام الذى يمثله ، انتقاما لكل أولئك الذين سحقتهم ضراوته المغلفة بالنعومة والملامسة ...

لقد كتبت هذا البحث الموجز كمقدمة للكتاب الذى كنت تخطط لوضعه بعد ذلك بسنوات عديدة ، الكتاب الذى لم يتجاوز قط صفحته الثالثة والعشرين ... كان وليد انبعاثك العقلانى ازاء كراهيتك للمحقق هازيزيكس ، المعذب الوحيد الذى ما كان لك أن تصفح عنه ... كراهية مستطيرة ، اليمة ، عنيدة ... كراهية تفجرت فى ذات اللحظة التى فاه فيها باسمك ، مبينا انه يعرف من تكون حقا ... « هل تشعر الآن بتحسن ياالكسندر ؟ ... أم يجب ان اناديك باسم اليكوس ؟ » .. فجعلت تحدق فيه ، عاجزا عن الرد بنعم او (لا) ... كنت تود من كل قلبك أن ترد بنعم أو (لا) ، بيد ان الكلمات استعصت على الخروج من فيك ، وكأنهم قطعوا لسانك ... ولم يكن واقع تعرفه عليك هو الذى الزمك الخرس ، أو حتى درايتك بما يعنيه هذا : من القبض على نيكوس والآخرين ، والزج بجورجازيس وتوريطه ، والفضيحة التى ستحدث لانهم اذا تمكنوا من اكتشاف شخصيتك فلن يستغرق الأمر وقتا طويلا لاكتشاف من أعطاك المتفجرات وكيف نقلت الى اثينا ... لم يكن هذا هو الذى الزمك الخرس بقدر ما ابداه لك من اعتداد بالنفس هجومى ، وكفضل محقر ، والتجرد الذى عاملك به ... ان ثيوفالياكوس ومساعديه كانوا بشرا فى وحشيتهم : كانوا من طينة البشر الى حد الخوف منك والغضب عليك ... اما هو ، على النقيض من ذلك ، فلم يغضب ولم يخافك : لقد تربع هادئا خلف المنضدة ، بيديه الجميلتين وملابسه المنمقة ، وبأتم هدوء راح يرفع نظارته ويمسحها ، ناظرا الى العدسات لا اليك ، ثم يعيدها الى مكانها مترددا بسعلة يسيرة ... كان يتصرف وكأنه لا يستهدف الى اية مجازفة على الاطلاق ... والواقع انه لم يرد وجود اى احد عن كثب لحراستك ، وامر برفع القيود من يديك ، وقدم لك مقعدا ... والآن ها هو ذا يتحدث اليك بلهجة رجل يتبادل الحديث فى (بار) ، لا رجل يتولى التحقيق والاستجواب فى مقر جهاز الساحث (اى . اس . آيه) : « لاتريد أن تتكلم ؟ ... بديع ... ان السكوت هو الموافقة والاقرار .. معناه أنك بخير ... وأنا مسرور بهذا ، لأن واحدا من افراد الاسرة لابد ان يشعر أنك بخير ... ان والدك قد اصيب بنوبة قلبية عندما سمع بالنبأ ، وامك كادت تفقد عقلها ... بالاشياء التى قالتها لنا عندما ذهبنا لتفتيش البيت ! ... انها

لم ترد أن تمزق كساء المقاعد ذات الذراعين ، وقد بدت خائفة عندما صادرنا صورا فوتوغرافية من الألبوم الخاص بها .. وعندما أردنا أن نعرف من أين جاءت لفافة معينة من أوراق النقد ... صرخات ، وهياج ، وشتائم ! .. لقد اضطررنا الى القبض عليها ... ووالدك هو الآخر ، كما لك أن تفهم ... ولست أجد غضاضة فى أن أقول لك انه لشىء كريه دائما القبض على اثنين متقدمين فى السن ، لكن لم يكن لى خيار ... ولا مفر لنا من الاحتفاظ بهما لفترة وجيزة ... انهما محجوزان عندنا فى مقر الادارة العامة ــ فلنقل لبضعة أشهر ... آه ، نعم : انك تتسبب فى متاعب كثيرة لأناس كثيرين ... ولو ان مسائل كالحدود والحصانة الدبلوماسية لم يكن لها وجود للأنا زنزاناتنا عن آخرها ... لكن شيئا من هذا لا يهمك ، أليس كذلك ؟ » .. رد أجش يقول : كلا .. « لا بأس » .. هذا من حقك .. اذا لم يكن مخطئا فان الثورى المخلص ليست له مشاعر ، أو لا يسمح لنفسه بأن تكون له مشاعر ... انه على استعداد للتضـــحية بأبيه وامه ، واصحابه ، وكل أحد آخر ... وليس فى هذا عناء له لأنهم لا يهمونه ... هو شخص بلا قلب ... هل لك قلب ؟ » : « كلا » ... « هذا ما كنت أخشاه ... على أى حال ارى شفتيك متيبستين ... ويبدو لى أنك تعانى مشقة فى صياغة الكلمات ... هل تحب كوب ماء ؟ .. » « نعم » .. « حسن جداً » .. ودق الجرس ... فدخل باباليس ، بادى الاحترام البالغ ، ولكن بدون نصفه الآخـــر ، قائلا : « نعم ياميجور » .. « أن صاحبنا يود كوب ماء .... ان شفتيه يابستان » ... ثم خاطبك من جديد قائلا : « والآن ، أين كنا ؟ آه ، نعم : القلب ... انت غير متزوج ، اليس كذلك ؟ بل حتى ليس لك فتاة دائمة ... مجرد واقعة غرامية بين الحين والحين عندما تجد المناسبة ، وتتوفر الوقت ، لكن لا ارتباطات ... لا غراميات دائمة ... ان غرامك الوحيد هو السياسة ... واراهن انك لم تعرف الحب فى حياتك ... لكننى افهم هذا أيضا : فان الثورى الحقيقى لا يجب أن يسمح لنفسه بأن ينشغل باله بمثل هذه الحماقة ... أم أن معلوماتى خاطئة ، وهل انا مخطىء ، ولك امرأة ؟ .. » .. فبادره صوت أجش : « وانت ياهازيز نكس ؟ .. » .. « كلا ، ولا أنا .. انا غير متزوج مثلك ، وانا مثلك بعيد عن الحب .. بيننا نحن الاثنين شىء مشترك ، وعما قريب أو بعيد سوف يفهم احدنا الآخر .. لكن هاك الماء » ... فقد عاد باباليس بكوب الماء ... وحدث كل شىء قبلما تيسر الوقت

لكل منهما لكي ينذرك انك لم ترفع الكوب الى شفتيك .. فقد سمعا تهشم الزجاج ، وشعروا بالبلل ، واذا انت قد وثبت فعلا فوق منضدة هازيزيكس لقطع حلقه ... لقد راغ جانبا من فوره ، وكان باباليس الطامنة ... لم تكن ثمة عوائق بينك وبين باباليس ، وكان من السهل أن تضرب ، لتحدث على الاقل جرحا به ، وهو خيار ثان مد ظــل هدفك هو هازيزيكيس : فمن أجله قبلت احضار الماء ، وقد تحولت اليه بالكوب المهشم وأنت ترتجف غضبا بسبب الهدوء البالغ الذى ابداه فى رواغه منك .. غير انه لم يطرف له جفن ، بل انه لم تتغير حال ملامحه ... فقط دق الجرس لطلب مدد ، وظل يســتمتع بالمشهد الذى تلا على الفور ... بين المدد كان العرفاء الثلاثة الذين كانوا بجانب سريرك فى اليوم الاول ... فسرعان ما انقضوا عليك لاعتراض الذراع التى كانت تشهر كوب الماء المهشم ورحت تقاتلهم فيما كان باباليس يصيح : « امسكوه ! .. امسكوه بقوة ... » . كانت معركة حقا ، لأنه على الرغم من امساكهم بك مشددا فانك لم تتخل عن الكوب ، وتشبثت به تشبث لاعبى كرة الرجبى بالكرة على صدورهم ، غير عابىء بالزجاج المهشم الذى كان يمزق أصابعك ... وعندما أفلحوا فى فك يدك ، كان اصبعك الخنصر الأيمن شبه مقطوع ببتر عصب العضلة ... « حسن ... أرى انه لا يمكننا اليوم أن نتحادث » ... هذا ما قاله هازيزيكيس بصوته العادى ... ثم تركك لباباليس ، الذى قيد ذراعيك خلف ظهرك ، وبعد أن منع الطبيب من تطهير الجرح ، تركه يخيط الأصبع ... ولكن بعد أسبوع ظهر هازيزيكيس مرة اخرى ببذلته الزرقاء ، وقميصه الأبيض ، وربطة عنقه الزرقاء ، واظافره المنمقة ، وسالك : « كيف حال الأصبع ؟ .. اخبرونى أنك شجاع باسل ، وانك رفضت تطهير الجرح .. لك تهانئى .... بالمناسبة ، ألست الرجل الذى عض خنصر ثيوفلياناكيس نصفين ؟ .. الآن كلاكما يضع ضمادات ، واذا لم أكن مخطئا فهو ذات الأصبع عندكما ... وكما يقول أهل الاديان : عين بعين ، وخنصر بخنصر ! .. والآن ، لنتبادل بعض الأحاديث » ..

★★★

هذا ما كان يقوله دائما : « والآن ، لنتبادل بعض الاحاديث » .. لقد جعل يقولها على مدار شهرين ونصف .. على مدار شــهرين ونصف بلا انقطاع ، مضوا يعذبونك جسدا وروحا ... الجســد لثيوفلياناكيس ، والروح لهازيزيكيس ... بيد انك لم تتكلم قــط

... كنت تفتح فمك فقط لكى تسبهم أو لتقول : « نعم ... فعلتها ... وفشلت ... وانا آسف ... واذا لم أمت ، فسأفعلها مرة اخرى » .... وتكلم الآخرون ... فقد قبض عليهم جميعا واحدا بعد الآخر ... وما كان يمضى يوم الا وكانوا يجيئون لك بهذا أو ذاك فيهم ، مؤملين ان يحملوك على الاستسلام ، وان يجعلوك تفهم ان مقاومتك بلا جدوى ... وبوجوههم المورمة ونظراتهم الشاخصـــة التى فقدت كل ارادة ، كان هؤلاء الآخرون يقولون لك : « كفى ياأليكوس ! .. لم تعد هناك فائدة ! .. لقد عجزنا عن الصمود ! .. واخبرناهم بكل شىء ! .. » .. وكنت وانت مقيد فى السرير أو مدلى من السقف ترد بقولك : « من يكون هذا الرجل .. ماذا يريد ؟ أنا لا اعرفه » ... وفى نهاية شهر سبتمبر ، وباستغلال ماقال الآخرون، أعد هازيزيكيس وثيوفلياناكوس اعترافا مكتوبا وطلبوا منك التوقيع عليه ... مجرد توقيع ، ولا أحد يمكن أن يعذبك بعد ... فرفضت ... فعذبوك عذابا وحشيا ، وفى خلاله طلبوا منك مرة اخرى التوقيع ... ومرة أخرى رفضت ... فجلدوك بالكرباج المعدنى ، وبعدها حاولوا من جديد ... ومرة اخرى رفضت ... ومضيت فى رفضك ... وكان يمكن ان تموت تحت التعذيب المتواصل لو لم يظهر ذات ليلة البريجادير ــ جنرال يوانيديس ، الرئيس الأعلى لجهاز المباحث (اى . اس . آيه) ..

كانت ليلة باردة ... كان شهر أكتوبر باردا تلك السنة فى أثينـــا وكنت ممدا عاريا فوق السرير ومقيد القدمين والمعصمين ... وكان خيط دم يسيل فى فمك لان قبضاتهم قد انتزعت منه ســـنا آخر ، وكان وجهك قناعا مبيضا لانك لم تنم مدى أسابيع ولم تأكل طوال أيام ... وكنت تتنفس بجهد وفى حلقك حشرجة عميقـــة ، فوقف ثيوفلياناكوس هناك وصاح : « سيان تكلمت أو لم تتكلم ، فسنقول على كل حال انك تكلمت ! .. وسواء وقعت أو لم توقع ، فسنقول انك وقعت ! .. » .. واذا الباب يفتح بقوة ويدخـــل يوانيديس بخطواته العسكرية ... صدر بارز ، وذراعان مشبكان خلفه ... وتوقف عند السرير ... لقد عرفته على الفور ، وعرفت من يكون : ليس فقط الرئيس الأعلى للمباحث (اى . اس . ايه) ، بل أقوى رجل فى اليونان ... بل بلغ من قوته انه كان مناط الخوف من جانب « بابادوبولوس نفسه ... ولانه صموت ، وسىء الخـــلق ، وفظ مع اى شخص يقترب منه ، فقد كان يبعث الخوف فى كل

انسان ... وعلى الرغم من انه لم يكن يفعل شيئا يجذب الاهتمام اليه ، وكان حقا يحب أن يبقى فى الظل ، فقد كان الكل يعرفون صلابته واستعصاءه على الفساد ، وعناده ... وقد قيل انه اذا الزم الأمر، فانه يردى أمه بالرصاص ، أو حتى يدمر حديقة وروده ، وهى الشيء الوحيد الذى كان يسمح لنفسه بان يحبه .... وقيل أيضا انه كان يحتقر الطاغية جهارا ، وانه لم يساعد فى حركة الانقلاب ، وعلى كره منه ، الا بسبب المبدأ ، تلك الحركة التى لولا مشاركته فيها لكانت مستحيلة ... وبعد ذلك بثمانى سنوات ، عندما وضعته سخرية التاريخ فى مكانك ، أو بالأحرى خلف القضبان ، تملكنى الذهول اذ أدركت انك منحته احترامك كما يحترم المرء خصمـــــا أكثر منه عدوا ، وانه من أجل هذا السبب لم تكن قادرا على كراهيته ... هل كانت عدم قدرتك على كراهيته قد نبتت تلك الليلة من الكلمات التى قالها أمام ثيوفلياناكوس ؟ ... وقتها بدا وجهـــه متصلبا ، وراح يحدق فى عينيك بعينيه القارستين ... وظــــل يوانيدنس صامتا مدى بضع ثوان ... ثم بعنف الاح ثيوفلياناكوس جانبا وقال له : « يكفى هذا ! ... لا تلمسه أكثر من هذا القدر ! .. لا فائدة من الالحاح : فهو لن يتكلم .. يحدث مرة فى مائة مرة أن أحدهم لا يتكلم ... وهذا هو الحال معه ... » .. ثم ما لبث أن مد يده نحوك ، وبقيت هيأته الفلاية التاثير على حالها من الجمود الثلجى ، ودون أن يحرك عضلة واحدة من وجهه الشرير — وامسـك بطرف شاربك واخذ يقتله ببطء ، قائلا : « ســـوف ارميــــك بالرصاص ، يابناجوليس » — وبعد ذلك بتسعة عشر يوما ، عندما حل شهر نوفمبر مقترنا بالرياح القادمة من الشـــمال ، بـــدأت المحاكمة ..

كانت قاعة المحكمة صغيرة كريهة الرائحة بسبب دورات المياه المسدودة القائمة على امتداد الرواق المجاور ·· وفوق حائطها الرئيسي قامت ايقونة للعذراء تحمل طفلها ، ومن تحت الايقونة امتدت المنصة الطويلة بقضاة المحكمة العسكرية ·· كانوا جميعا من الضباط المتفانين لنظام الحكم ، محشورين في كسيهم الرسمية الخضراء التي تشبه القوارير ذات الازرار الذهبية والشارات الحمراء ·· وكان الى يسار القضاة (ليابيس) ممثل المدعي العام الاصلع ذو الوجه السمين الدهني والذي كان وجوده يمكن أن يبطل المحاكمة مذ لم يكن من الضباط .. والى اليمين كان قفص المدعي عليهم : وعددهم اربعة عشر ، فضلا عنك · وكانت مقاعد المحامين المتعامدة مع القفص والمواجهة لهيئة المحكمة تضم أفراد الهيئة الذين عينوا في الدقيقة الاخيرة ولم يزودوا بمجريات التحقيق ·· لقد بدوا مورمين من البرد والخوف ، وجلسوا منكمشين في أروابهم السوداء ، حتى بدوا مثل طيور ضئيلة قبعت فوق سلك كهربائي ·· وهمس احدهم : لابد ان يكون هناك تأجيل ·· لابد ان يكون هناك تأجيل ! ·· والى الخلف منهم كانت مقاعد الصحفيين ، الذين سمح لقلة منهم بالدخول وتحت مائة من المحظورات : لا شرائط تسجيل لمن يمثلون الاذاعة ، ولا كاميرات افلام لمن يمثلون التليفزيون ، ولا كاميرات تصوير اخرى ، ما لم يسمح رئيس المحكمة ، وبترخيص خاص ·· وفي النهاية كان القسم المخصص للجمهور : وكان الدخول خاضعا لنوع من التدقيق : فقد منع أقارب واصدقاء المتهمين من شهود المحاكمة ·· ثم دخلت انت في سكون حجري ·· مشيت رافع الرأس ، مقيد اليدين بالاصفاد ، محشورا بين شرطيين أمسكا بمرفقيك .. وفي صحبتهما وصلت الى الصف الامامي ، الملاصق تقريبا للقفص ، وهنا فقط رفع الشرطيان القيد من يديك ·· وكنت ترتدي كسوة جندي ، بدت فضفاضة عليك ، اختيرت عمدا لكي تبدو في صورة جافية ·· قبلها بساعتين لطموك بوحشية لانك لم ترد أن تلبسها وطلبت ملابس مدنية مثل الاربعة عشر الآخرين ·· لكنهم ادخلوك في الكسوة عنوة ، مبدين انها زي جميل ، خصوصا حول العنق والكتفين ·· ان رقبتك

كانت تسبح في الكسوة ، وذراعيك كانا عائمين فيها ٠٠ لقد دب اليك نحول شديد في مدى ثلاثة اشهر ، ونقص وزنك خمسة وعشرين رطلا عن الوزن العادى ٠٠ وكان هذا واضحا من وجهك المتقع ، وخديك الغائرين ٠٠ وكانت احدى اقربائك الوحيدة التى وقفت فى التسلل الى الداخل ، وهي احدى عماتك ، قد عجزت عن التعرف عليك ، اذ غمغمت : وهى تنظر الى القفص « لا يمكننى أن اراه ٠٠ انه غير موجود هنا ٠٠ متى سيحضر ؟ ٠٠ » بيد ان عينيك كانا ينبوعين للحياة ، وقد جعلت تبتسم بكبرياء بالغ وصلف هانىء الى حد كان يصعب معه على الحاضرين فى قاعة المحكمة أن يشعروا بأى اشفاق عليك ٠٠ والى هذا فان هؤلاء الناس لم يعرفوا قضيتك ، وكانت شائعات تعذيبك لم تتجاوز قط حدود ادارة المباحث (اى ٠ اس ٠ ايه) ٠٠ وما عرفوه عنك كان مقصورا على صورة غامضة مخيفة لمحترف مأجور ، لمجرم عادي يمارس اعماله بالاجر ٠٠ ان هذه المعلومات قد زودتهم بها صحافة النظام القائم ، من قذافى الحبر الجبناء الذين يصورون انفسهم تحت الحكم الديمقراطى كسادة للشجاعة والحرية ، ولكن فى الدقيقة ، التى تطل فيها الدكتاتورية يضاجعونها كالعواهر ، ولكى يخدموها فانهم يفترون على ذات الناس الذين كانوا يمتدحونهم من قبل ، ويمتدحون اولئك الذين ادانوهم من قبل ٠٠ وانهم ليصفون بأريحية الصحوات الاخيرة الاتية عبر المحيط من موسولينى فى (بياتزا فينيزيا) ، او الجسارة الرياضية لماوتسى تونج الذى يسبح وهو فى الرابعة والسبعين فى نهر يانجتسى ٠٠ وعندما يولى عهد الخوف ، وتبعث الديمقراطية من جديد ، يعودون الى سيرتهم الاولى من جديد ، بلا حياء ، ولا شيء يصيبهم لانهم واجدون من يحتاج اليهم ، من نوع الحاجة الى اسكاف وحانوتى وعاهرة ٠٠ وماذا يفعل السادة الجدد بلا صحافة طيعة جبانة ؟ ٠٠ وكيف يمكن ان يفلحوا بدونهم ، وهم اطباء السحر لاولئك الذين يأمرون ، والذين يعدون ، والذين يخوفون ؟ وبعد ثمانى سنوات ، عقب وفاتك ، لا يترددون فى كيل المديح لك ٠٠ وانهم ليصفونك فى متحفهم بانك ابن اثينا البكر ، الخالد ٠٠ اما الآن فكانوا يسبونك بملء حريتهم ، عارفين تماما انهم لن يغامروا بشيء فى المستقبل : فلم يكن هناك حزب سياسى لحمايتك ، ولا ايديولوجية منظمة ، ولا ديانة معروفة ٠٠

وقد تليت التهم الموجهة اليك : محاولة قلب نظام الدولة ، الفرار

من الخدمة العسكرية ، محاولة اغتيال رئيس الدولة ، حيازة مواد متفجرة واسلحة .. فاصغيت اليهم دون أن تطرف لك عين ، محتفظا بابتسامتك .. كان كل هذا صحيحا ولم تكن عندك فكرة لانكاره .. بيد انهم ادعوا بانك قد اعترفت بجرمك في وثيقة موقع عليها وفيها فضحت شركاءك ، وبهذا فانه حتى الاعمى راى حقيقتك .. عندها شاهدوك تتخلص من قبضة الشرطة ، وتثب قائما ، وتشير باصبعك الى القاضي هاتفا : « كذابون : ·· ان توقيعي ليس على أية اوراق ، وانتم تعرفون هذا ! ·· اية وثيقة عليها توقيعي مزورة من جانب هازيزيكس وثيوفليياناكوس ، وانتم تعرفون هذا ، يا خدام الطاغية ! »· « ليصمت المتهم ! » ·· « متهم ممن ؟ منكم ؟ ·· هل تجسرون على اتهامي ؟ انني ادينكم ، لاكاذيبكم ، لتعذيبكم لي ! » ·· ولقد حاولت ان تفك ازرار قميصك لعرض آثار الجروح في صدرك ، وطعنات ثيوفليياناكوس في عينيك ·· « على المتهم الا يخلع ملابسه في قاعة المحكمة ! » ·· « سأخلعها ، اذا لزم ان اقدم الدليل ! » ·· « دليل ماذا ؟ » ·· « دليل الوان التعذيب الذي وقع على أثناء التحقيق ! ·· الطعن بالمدى ، الضرب بالهراوات ، الجلد بكرباج فولاذي ! » ·· « الصمت ! » ·· « الحروق بالسجائر في العورة ! ·· الضرب بالفلكة في باطن القدمين ! ·· » ·· « الصمت ! ·· » ··

« ادخال الابر الطويلة في القناة البولية ·· التعذيب الجنسي ! » · « الصمت ! .. « على المتهم التزام الصمت ! » .. « الخنق بكتم الانفاس ·· الرفس ·· الضرب المتواصل ! ·· انهم ضربوني حتى قبيل المجيء الى قاعة هذه المحكمة ·· ! وعلى امتداد تسعين يوماً - تسعين يوما ! - لم يرفعوا هذه القيود من يدي ! ·· حتى ولا لكي يدعوني انام ، حتى ولا لكي يدعوني اتبول ! ·· انني اطلب ، انني اطالب بطبيب يتولى فحص جسمي هنا في قاعة هذه المحكمة والتاكد من حقيقة ما أقول ! أنني أطلب فتح تحقيق مع اليجور هازيزيكيس والميجور ثيوفليياناكوس بتهمة التدليس .. انني أطلب بمحاكمة الاثنين بتهمة التعذيب ، وايضا المفتش المساعد بابابليس ، والمفتش المساعد ماليوس ، وشقيق رئيسكم كوستاس بابادوبولوس ، وضباط المباحث (اى · اس · ايه) ·· انني اطلب - » ··

« يامتهم ! هذه الاشياء غير مرتبطة بالمحاكمة ! » ·· « اذا لم تكن مرتبطة بالمحاكمة ، ياسادة المحكمة ، فانا اذن محق تماما في وصفي لكم بانكم خدام نظام الحكم » ··

وفى التو واللحظة حوكمت وحكموا عليك بالسجن سنتين لاحتقار المحكمة ، وسب السلطات ..

لقد دامت المحاكمة خمسة ايام ، ومن وجهة النظر القانونية فانها كانت مهزلة .. فان الشهود كانوا نفس الرجال الذين اضطلعوا بالتحقيق او قاموا بتعذيبك : واحدا بعد الآخر . وفى عجلة ، أكدوا اقوالهم ، ولم يجسر المحامون على ابداء أى اعتراضات .. وفى دفاعهم عنك استدعوا فقط اثنين من الناس او ثلاثة ، تلقوا التهديد قبل ان يدلوا بالشهادة ، وهكذا قالوا امام المحكمة . كل ما اراده المدعى العام تيابيس .. وخوفا من اغضاب الطاغية فقد لعب تيابيس دوره عن آخره ، وفى كل مرة تكلم فيها كان هدفه تكذيبك والنيل منك ، مصرا على انك قاتل مأجور فى خدمة الاجانب ، خصوصا بوليكاربوس جورجازيس ، وانك خارج على القانون ، قاطع طريق ، مثير للشغب ، مكروه عالميا .. واثباتا لهذا استخدم الاعتراف الذى انكرت انت صحته ، وعندما طلب محامى الدفاع طلب النظر فى انكارك ، قوبل طلبه بالرفض .. ولم يستطع محاميك الاتصال بك ، ولم يسمحوا له بالاقتراب منك الا مدى دقائق معدودة فى فترات الاستراحة ، فيما راح الشرطيان الواقفان بجانبك يتسمعان ويدونان ملاحظات ويقاطعان .. وسرعان ما انضم ثالث الى الاثنين ، وقف خلفك ولم يسمح لك بالكلام . ومع ذلك فانك لم تتنصل قط عن الموقف الذى التزمته ، وكان ثمة دائمة لحظة امكنك فيها ان تنهض للاحتجاج ، واماطة اللثام ، والتكذيب ، مثيرا رهبة فى القضاة تبلغ حد الاعجاب .. وآلا فهل تهيأ لاى انسان قط ان يشهد رجلا مهددا بالموت حول نفسه من متهم الى متهم بمثل هذا الرسوخ وهذا الجلاء ؟ . لكن هل كان هذا الرجل مجنونا او انتحاريا ؟ .. ألم يدرك انه كان يطلب الحكم بموته ؟ .. ومع ذلك كنت تدرك هذا .. كان هذا واضحا جليا .. كنت تعرف انك بهذا المسلك كنت تقامر بحياتك ملقيا اياها فوق منصة القضاة مثل(فيشة) على طاولة الروليت ، احمر او اسود ولا يهم بعد ذلك شىء .. بيد انك لم تكن تقامر فى عمى ، كنت تلعب باسلوب علمى ، حاسبا بتجرد ذكى نتائج كل فعل ، وكل عبارة ، مقدرا كل بادرة هجومية بضوابط الاستدلال المنطقى والبسالة ، بالعزم والفطنة : مثل مقامر خبير لا يقترب من مائدة الروليت لربح مبالغ زهيدة .. لقد رأيتك تشرح لى هذا بعد ذلك بسنوات .. صحيح انك قلت لى انه لم تكن امامك سوى

فرصة بعيدة للبقاء على قيد الحياة ·· لنقل انها واحد فى المائة ·· وكان يمكن ان يحكموا باعدامك رميا بالرصاص بنسـبة تسـعة وتسعين فى المائة الى واحد ·· لكن من اجل هذا السـبب ذاته كان عليك ان تلعب لمكاسب أوفى ، منتهجا نظاما يمكن أن يذهلهم ويطيش أحلامهم ويمكن ان تزرع بذرة الشك فى متهميك : انه شديد الثقة بنفسه ، فهل يمكن ان يكون على حق ؟ ··

وهكذا اصبحت كل يوم اكثر حزما ، واشد هجوما ، ووقفت أوفر اعتدادا بكرامتك فوق المتهمين الآخرين ، الذين بدلا من ذلك انحازوا الى الخنوع والاستكانة ، منكرين ، معتذرين ، بل وحتى متهمين بعضهم بعضا ، او ملقين كل التبعة والملام عليك ·· فكأن الامل فى كسب ذلك الواحد فى المائة يتزايد ويتزايد ··

ولـكن جاء اليـوم الذى تدلى فيه بدفاعك ويلقى ليـابيس مرافعته النهائية ، وعندئذ حدث شىء لم تكن تتوقعه : فقد استحوذت على قلبك فكرة عشـق الموت ·· فعـلام الاسـتمرار فى اللعبـة ·· لكى تراهم يوقعون عليك ما قد تطلبه انت مفاخرا ؟ ·· لكى تلعب دور الضحية ؟· ان دور الضحية لابد من رفضه دائما فلا شىء يمـكن تحقيقه قط بدور الضحية ، وها هنا الآن الفرصة العظمى التى كنت تحلم بها : فرصة ان تبدى للعالم من انت ، وبماذا تؤمن ··

ان صحافة النظام القـائم لن تعيرك اهتمـاما ، ولكن الصحفيين الاجانب سوف يهتمون .. انهم لن يجازفوا بشىء بعصيانهم للحظر ، وهكذا فانهم سيقولون الحقيقة عن الرجل الذى عاش ومات رجلا ، دون ما خضوع ولا خنوع ، ودون ما استسـلام للخـوف ، ودون ما اذعان ، مناديا بالصالح الاوحد الممكن ، بالشىء الاوحد الذى يجدى ، بالحرية · وربما نجم فى وطنك شخص ما يمكن ان ينادى أيضا بما ناديت به ·· قاض ، أو محام ، أو شرطى تائب .. فيتكـاثر من يعرفون .. واذا قضيت نحبك فانهم سوف يجلونك ، وربما يحاكونك .. ولن تبقى وحدك بعد ذلك ! ·· ثم ناداك رئيس القضاة : « لينهض المتهم ! » ·· وطبقا للاجراءات كان على المتهم ان يتكلم قبل المدعى العام ·· وهنـا رفع افراد الشرطة الثلاثة ايديهم عنك ·· فنهضت قائما ·· ونظرت الى القضاة فى اعينهم ، واحدا بعـد الآخر ·· ثم ارتفـع صـوتك ، ثابتا ، مدويا ·· جميلا ! ··

« السادة اعضاء المحكمة العسكرية »

« سوف التزم الايجاز ٠٠ لن اسبب لكم الملل ، بل » « لن اطيل الكلام عن التحقيق الذى لا يمكن وصفه والذى تعرضت له ٠٠ »

« فان ما ذكرته آنفا عن هذا يكفينى ٠٠ وقبل فحص » « التهم التى وجهت الى ، فاننى افضل ان اطرق مظهرا آخر للقضية الفاضحة التى تتعلق بى : وهى محاولتكم » « اسناد الاتهام بادلة مزورة ، واقوال زائفة ، وشهادات مرتبة سلفا وفرضت على الشهود من الجانبين ٠٠ ان هذه المرافعة من جانبى ليست مقصودة كدفاع عن النفس ، ولن تكون هكذا ٠٠ انما القصد منها على النقيض من ذلك ، ان تكون بمثابة اتهام ، وهو ماسوف تكونه ، بدءا بالوثيقة المزورة المنسوبة الى ، التى كانت المحرك المتكرر الحدوث للمحاكمة كلها » ٠

« وفى رأيى انها وثيقة هامة ، لانها نموذج متطابق لكافة المحاكمات التى تقع فى البلاد التى يذبح فيها القانون جنبا لجنب مع الحرية ! ٠٠ والواقع انكم لستم وحدكم فى هذا العار ٠٠ من المؤكد فى الوقت الذى اكلمكم فيه ، هناك وطنيون فى بلاد اخرى بلا قانون وبلا حرية يحاكمون امام محكمة عسكرية تخدم نظام حكم دكتاتورى طاغ ويحكم عليهم على اساس ادلة زائفة ، واقوال مزورة ، وشهادات مرتبة سلفا ، فرضت على الشهود فرضا ، واعترافات شبيهة بالاعتراف الذى لم ادل به ابدا ولم اوقعه قط ! ٠٠ وهذا واضح من حقيقة انه لا يحمل توقيعى ولكن بدلا منه توقيعات القائمين بالتعذيب : هازيزيكيس وثيوفلياناكوس ــ المعذبان اللذان تجردا فضلا عن ذلك من اى احترام لقواعد اللغة ٠٠ ففى الليلة الماضية تمكنت اخيرا من قراءة تلك الصفحات ، وانه لمن الصعب على ان اقول اننى شعرت بالجزع اكثر لدى الاكاذيب او لدى الاخطاء اللغوية الركيكة التى تضمنتها ! .. بل أؤكد لكم اننى لو اطلعت عليها قبل ذلك لاقترحت اجراء تصويبها لغويا ، حتى ولو كنت فى حالة غيبوبة ٠٠ واسفاه ! ٠٠ ويح هؤلاء الاميين الذين يستخدمهم نظام الحكم الدكتاتورى القائم ! ٠٠ ليكاد المرء يقول ان الجهل والقسوة قرينان جنبا لجنب ! ٠٠ لا بأس ايها السادة اعضاء المحكمة العسكرية ! ٠٠ تعلمون تماما ان استخدام وثيقة مزورة غير مقبول من وجهة النظر الاخلاقية والقانونية ٠٠ ولما كانت هذه المحاكمة مستندة الى مثل هذه الوثيقه ، فيكون لى الحق ان اعلن بطلانها ٠٠ وانا لم افعل هذا لاننى لم

اردكم ان تظنوا انني خائف من مواجهة الاتهـــام ٠٠ من الواضح انني اقبل الاتهام ٠٠ وانا لم ارفضه قط ٠٠ لا أثناء التحقيق ، ولا امامكم ٠ والآن فانني أكرر بفخر : نعم ، لقد زرعت المتفجـــرات ٠٠ واشـعلت اللغمين ٠٠ وقد فعلت هذا بقصد قتل الدكتاتور الذى تسموبه رئيسا ٠ ولست الا آسفا لانني لم انجح فى قتله ٠٠ على مدى ثلاثة اشـهر كان هذا عذابى الاكبر ! ٠٠ على مدى ثلاثة اشهر كنت اسائل نفسى فى أسى اين اخطـأت ، وانني لأهب روحى لكى اعيد الـكرة ، لكى انجح ! ٠٠ هكذا فليست التهمة فى حد ذاتها هى ما يثير حنقى : انما هى حقيقـة انه من خلال تلك الصفحات تحاولون تلطيخ اسمي ، باعلانكم انني انا الذى زججت بالمتهمين الآخرين ، وادليت بالاسماء التى ذكرت فى هذه القاعة ! ٠٠ وعلى ســبيل المثــال اسم الوزير القبرصى بوتيكاربوس جورجازيس ! .. أن العار ماثل هنا .. وهذا أيضا أسلوبكم ودينكم وتعزيزا لهذا فان متهمى قالوا حتى ان لى سـجلا لدى الشرطة ، وانني كنت حدثا منحرفا وانا صبى ، ومجرما وانا بالغ ، ولصـا ومرتزقا ٠٠ ان سجلى لدى الشرطة موجود أمامكم أيها الســادة أعضاء المحكمة العسكرية ، ومنه يمكنكم أن تروا انني لم أكن أبدا منحرفا أو مجـرما او لصا او مرتزقا ٠٠ انني كنت دائمـا ، وانا هو الآن ، مكافحــا فى الصراع من اجل يونان افضل ، وغد افضل ، ومجتمع ـ بعبارة اخرى ـ يؤمن بالانسان ٠٠ والايمان بالانسان يعنى الايمان بحريته ! ٠٠ حرية الفكر ، حرية الكلام ، حرية النقد ، حرية المعارضة : كل الاشـياء التى تخلص منها انقلاب بابادوبولوس الفاشستى منذ عام ! ٠٠ والآن ناتى الى التهمة الاولى الموجهة الى ٠٠

التهمة الاولى ، فى ترتيب الاهمية ايضا ، هى محاولة قلب نظــام الدولة : طبقا للمادة ٥٠٩ من قانون العقوبات ٠٠ اليس من المتناقضات ان اولئك الذين يوجهون هذه التهمة الى هم انفسهم الذين قاموا فى ٢١ من شهر ابريل عام ١٩٦٧ بانتهاك المادة ٥٠٩ ؟ ..

واذن فمن الذى يجب أن يكون ٠٠ « فى هذا القفص ؟ أنا أم هم ٠ كل مواطن لهبعض الادراك والتمييزلابدان يجيب: (هم) .. ولابد أن يضيف ما اضيفه الآن : وهو انني فى صيرورتى خارجا على القـانون ، رافضا الاعتراف بسلطة الطـاغية ، انما احترمت المادة ٥٠٩ ولم اعتـد عليها ٠٠ بيد انني لا اخدع نفسى بانكم سوف تفهمونني فى هذه النقطة، لانه لو كان الانقلاب قد فشل ، لكنتم أنتم ايضـا فى هـذا القفص ايها السادة اعضاء المحكمة ، وليس فقط رؤساء الحكم ٠٠ ولذلك فلن اقول شيئا اكثر من هذا عن هذه التهمة ٠٠ سوف انتقل الى التهمة الثانية :

وهي الهروب من الخدمة العسكرية ٠٠ هي صـــحيحة ٠٠ وانا هربت فعلا ٠٠ بعد ايام قليلة من الانقلاب هجرت وحدتي وسفرت الى الخارج بجـــواز مزور ٠٠ وكان يجب ان افعـل هذا في ذات يوم الانقـلاب ، لا بعده ٠٠ ولكن بصدد هذا الحسبان لابد من ابراء ساحتي ٠٠ : ففي يوم الانقلاب كان الموقف مع تركيـــا بالغ التأزم ، ولو كانت الحـرب نشبت لكان واجبي كيوناني ان اقاتل لا أن اهرب من الخدمة ٠٠ ولكون الحرب لم تنشب فعلا ، فقد سارعت باداء واجبي الآخر :

ترك الخدمة العسكرية ٠٠ ايها السادة اعضاء المحكمة ، ان الخدمة في جيش نظام دكتاتوري لهي حقا الخيانة العظمى ٠٠ ولهذا اخترت ان اهجر الخدمة العسكرية اذ ذاك ، وانا فخور باختياري ٠٠

وبعد ان قلت هذا اصل الى التهمة التي هي الاهم عندكم : محـاولة قتل رئيس الدولة ٠٠ وسابدا بان اقول ، بعكس اللغو المعروض عليكم من قبل معــذبى ، انني لا احب العنف ٠٠ انني اكرهه ! ٠٠ ولا احب الاغتيال السياسي ايضا ! ٠٠ عندما يحدث في بلد ببايرلمان ويمنـــح المواطنون حرية التعبير عن انفسهم ، والمعارضـــة ، والتفـكير باسلوب مختلف ، فانني ادين الاغتيال السياسي باشمئزاز وغضب ! ٠٠ لـكن عندما تأتي حكومة فرضت بالعنف ، وبالعنف تمنع المواطنين من التعبير عن انفسهم ، ومن المعارضة ، بل حتى من التفكير ، اذن فان اســتخدام العنف يغدو لازما ٠٠ وفي الحقيقة يكون حتميا ٠٠ ان يسوع المسـيح وغاندي كانا يشرحان لـكم هذا خير مني ٠٠ لا يوجد ســبيل آخر ، وحقيقة كوني فشلت ليست مهمة ٠٠ فسوف يأتي آخرون يتبعون هذا النهج ٠٠ ولسوف ينجحون ٠٠ فاستعدوا وارتعدوا ! ٠٠ كلا ياسيدي الرئيس ، لا تقاطعني من فضلك ٠٠

واصل الآن الى التهمة الرابعة ، وعاجلا سوف تقدرون على الصباح في وجه الرياح الاربع بان كسيكم الرسمية لا ترتعد ٠٠ التهمة الرابعة : حيازة متفجرات ! ٠٠ ماذا استطيع ان اقول لكم اكثر مما قلته آنفا ؟ ٠ لقد شرحت ان اثنين فقط من زمـلائي المتهمين كانا يعــرفان انني اعد للهجوم ، لكنهما لم يعرفا أي نوع هو ٠٠ كما انني تحملت مسـئوليتي عن القنبلتين اللتين انفجرتا في نفس اليـوم في الحـــديقة العامة وفي الاستاد ٠٠ واذا كان شريكاي قد قررا شيئا مختلفــا في الوثائق التي وقعا عليهـــا ، فان هذا لا يهـم ٠٠ ان تلك الوثائـق قد أنتزعت تحت التعـــذيب ٠٠ واذا كان لي ان اعذب هازيزيكيس وثيوفليـــاناكوس

فباسطاعتي حتى ان اقول ان اميهما عاهرتان وان ابويهما قوادان ! ٠٠ وفي ظني ان الانظمة المماثلة مسئولة عن الوشـــاية المتعلقـة بالوزير القبرصي بوليـكاربوس جورجازيس ٠٠ وانا اعـــلم ان بابادوبولوس مستعد ان يعطي الكثير لكي يجعل تلك الوشاية شيئا حقيقيا ٠٠ ومثل هذا ينطبق على يوانيـديس ٠٠ فبهـذه الكيفية يمكن ان يجـدا ذريعة لغزو قبرص ، والقضاء على استقلالها ، تماما كما قضينا على الديمقراطية هنا ! ٠٠ لكن لابد لكليهما ان يســلما تسـليما : فليس ثمة طرف سياسي اجنبي ضالع في الصراع الذي امثله ٠٠ انه قائم وحادث هنا في وطننا ايها السادة ، لا في الخارج ٠٠ ان جماعتي تسمى بحق (المقاومة اليونانية) ٠٠ ولو كان بوليكاربوس جورجا جورجازيس يعمل من أجل (المقاومة (، من أجلي ، لكانت المرة الاولى التي يجند فيها محارب خاص وزيرا للدفاع ! ٠٠ لكن في هذه الحالة تسـألون : من اين جاءت هذه المتفجرات ؟ ٠٠ ايها السادة اعضاء المحكمة العسكرية ، لن اخبركم ٠٠ اذا كنت قد رفضت الاعتراف بهذا تحت افظع انواع التعـذيب ، فهـل تتوقعون مني ان اعترف به في كلامي امام المحكمة ؟ ٠٠ ان السر سوف يموت معي ! ٠٠ والآن وقد فرغت ، فلابد ان اضـــيف فقط مسـألة شخصية واحدة ٠٠ وان احببتم قلت انها مســألة تتعلـق بالـكرامة الذاتية ٠٠

لقد قال شـــهودكم انني شـــخص اناني ٠٠ لا بأس ٠٠ لو انني كنت ، لبقيت في الخارج انعم بالهدوء ٠٠ وبدلا من ذلك فقد عدت لكي اكافح واجازف بحياتي ٠٠ وكنت اعرف الاخطار التي تنتظرني ، تماما كما اعرف الآن الحكم الذي ستصـدرونه علي ٠٠ انا اعرف في الواقع انكم ستحكمون علي بالاعدام ٠٠ لكنني لن اتراجع ايها السادة أعضـاء هيئة المحكمة العسكرية ٠٠ في الحق انني أقبل سلفا هذا الحـكم ٠٠ لان اغنية التحية للمقـاتل الحقيقي هي حشرجة الموت التي يصـدرها عندما تطلق النار من قبل فريق الإعدام في حكم الطغيان ٠

لقد ساد سكون مطبق في قاعة المحكمة ٠٠ وراح القضاة دون رد فعل ، يحدقون فيك ، وقد طالت فترة مداها دقيقة او نحوها قبلما وجد رئيس القضاة صوته من جديد ، لكي يدعو (ليابيس) لالقاء مرافعتـه الختامية ٠٠ وقد تكلم ليابيس وقتا طويلا ودون ما اشارة لما قلته انت، مطـــالبا بالحـــكم باعدامك ، وبالاعـدام على متهم آخر هو الفتريوس فريفاكيس ، وبالسجن المؤبد لنيـــكوس ، وبالعقوبات المشددة لأغلب

الباقين .. وبعد ذلك أجلت المحكمة لمدة اسبوع ، بدعوى ان احد القضاة اصيب بحمى .. انهم ما عدوا يعرفون ماذا يفعلون .. فقد سرت شائعات بانه عقب اقوالك امام المحكمة العسكرية ، دب خلاف بين اعضائها ، وانه حتى باپادوبولوس تردد في انفاذ حكم الاعدام رميا بالرصاص ، لانه ادرك مدى ماسيلقاه هذا العمل من عدم قبول لدى الجماهير ، ولان ثمة شائعات مؤداها عقد اجتماعات ملهوفة لاقناع يوانيديس ، الذى كان مصمما تصميما جازما على الا يبقى على حياتك .. ثم حل يوم الاحد ١٧ نوفمبر عام ١٩٦٨ ، موعد الجلسة الختامية .. كنت هادئا تمام الهدوء .. فى خلال تلك الايام السبعة والليالى السبع لم تعدل قط عن افكارك .. بل انك انحيت على نفسك بالنقد لانك لم تقل اكثر مما قلت ، ودبجت قصيدة فى امتداح الموت .. ثم دخلت الى قاعة المحكمة بابتسامتك المعتادة ، وثقتك المألوفة ، ولم يختلج صوتك حتى حين سألك رئيس القضاة عقب ذلك ان كان لديك اى شيء آخر تقوله ، فنهضت لكى تفوه بالكلمات التى يمكن ان تؤدى الى ملاشاة أى احتمال للخلاص .. « السادة أعضاء المحكمة العسكرية ! »

« لقد عرض المدعى العام (ليابيس) فى مرافعته الختامية الى اسم ربة العدالة ثيميس .. ولكن عندما تعرض الى الميثولوجيا (علم الاساطير) ، فلابد لنا ان نفعل هذا دون ان نقع فى الاخطاء التى وقع فيها حالما فتح فمه ! .. »

ان مدعيكم العام جاهل ايها السادة ، فهو حتى لا يعرف بوجود ربتين باسم ثيميس : احداهما ممسكة بميزان فى يدها اليمنى وسيف بيدها اليسرى ، ناظرة الى الكفتين بعينين صافيتين ..

وهناك ثيميس التى تمسك بميزان بيدها اليسرى وسيف بيدها اليمنى ، ناظرة الى السيف بعينين معصوبتين .. ان هذه قضية سياسية : وكل الجرائم المنسوبة الى ، من قلب النظام الى الفرار من خدمة الجيش ، ومن حيازة متفجرات الى محاولة الاغتيال ، هى جزء من نفس الاتهام ، الذى هو سياسى .. وبالاضافة الى هذا ايها السادة اعضاء المحكمة العسكرية ، ليس بامكانكم ان تسمحوا لانفسكم باية رأفة .. كل منكم جازف برأسه فى الحادى والعشرين من شهر ابرايل عام ١٩٦٧ : واخفاقكم فى ادانتى سيعنى ادانة انفسكم ، والاقرار بذنبكم .. اننى افهم هذا باشد جلاء الى حد اننى لن أحاج باية ظروف مخففة يمكن ان تؤدى بكم الى اصدار حكم مخفف .. على النقيض من

ذلك ساقول مكررا : انا الذى يطلب حكم الاعدام الذى طالب به المدعى العام ! ‥ ابعثوا بى امام فريق الاعدام بالرصاص : وفى هذا مايفيد أيضا فى اجلاء كفاحى معنويا ، كفاح كل فرد يعارض نظام الحكم الدكتاتورى الفاسد الذى يسحق اليونان اليوم » ·

وكان نص الحكم هو : الاعدام لمحاولة قلب نظام الحكم فى الدولة ، والاعدام للفرار من الخدمة العسكرية ، والسجن خمسة عشر عاما لمحاولة قتل رئيس الدولة ، والسجن ثلاث سنوات لحيازة متفجرات واسلحة ، بالاضافة الى سجن سنتين السابق اصداره لسب المحكمة والسلطات ‥

والمجموع هو الاعدام مرتين والسجن مدى عشرين سنة ‥ وكان الحكم الصادر على فريفاكيس هو السجن المؤبد ‥ وتراوحت الاحكام بالنسبة للاخرين بين السجن اربع سنوات واربع وعشرين سنة ‥ وعلى الاثر تولى الجنرال فايدو جيزيكيس رئيس اللجنة التنفيذية بأثينا توقيع الاوراق المطلوبة لتنفيذ الحكم ‥

★★★

لم تختلج عضلة واحدة فى وجهك ‥ بل انك حتى لم يمتقع محياك ‥ وفيما بعد التوت شفتاك بتكشيرة ساخرة سائلا محاميك : « كيف يمكن ان يعدم الانسان بالرصاص مرتين ؟ ‥ وقبل ان تنتظر الرد مددت ذراعيك لافراد الشرطة حتى يمكنهم وضع القيد من جديد · لقد شعرت براحة غريبة ، كما اخبرتنى بعد ذلك بسنوات ، بل بما يشبه السعادة ، ولم يكن ذلك لانك تعبت من البقاء على قيد الحياة ، بل لانك أصبحت متعبا من المقاساة ‥ وفى العادة يكون الناس متعاطفين مع أولئك الذين قضى عليهم بالموت ، فيعطونهم مرتبة نوم مقبولة ، وطعاما طيبا ، وربما جرعة من الكونياك ‥ ويزورهم القسيس لحديث قصير ، ويسمح للمحكوم باعدامه بالكتابة الى اسرته واصحابه ‥ وفوق هذا كله ، فانه لا يعود يستهدف للضرب ‥ لا عذاب ولا تعذيب ‥ غير انك ادركت ان الحال لن تكون هكذا معك فى اللحظة التى اعادوك فيها الى ادارة المباحث (اى · اس · ايه) وطوحوا بك فى الزنزانة التى بلا نوافذ ولا سرير ، حيث كان ثلاثة ضباط ينتظرون بداخلها بالكرابيج · وعلى الاثر وصل ثيوفلياناكوس مع مالينوس وباباليس ، وراح أولهم يقول : « نحن لا نحترم قواعد اللغة ، هيه ؟! نحن نرتكب اخطاء فى الكتابة ، هيه ؟! نحن اميون حمقى ، هيه ؟! الآن سترى الى أى حد نحن

اميون وحمقى . لاننا سنقوم باستجوابك كما لم يستجوبك احد قط من قبل ! ·· ولن يعرف أحد اذا كنت مت هنــا أو امام فرقة الاعــدام بالرصاص ·· ثم اخذ الكرباج ينهال على ظهرك وجنبيـك وسـاقيك : فقد ارادوا ان يعرفوا اذا كان شـــخص يدعى انجليس قد اشترك فى المؤامرة لقتل بابادوبولوس ·· لقد اغمى عليـك فى الحـال ، وعنـدما استرددت وعيك خيل اليك كأنك كنت تحلم : فقـد كان هازيزيكيس واقفا امامك ببذلته الزرقاء وربطة عنقه الزرقاء معقودة بعناية ووجهـه الحليق ، وقال لك : « طاب يومك ياسقراط ! ·· ام يجب ان اسـميك ديموستين ؟ ·· لا ·· ان المقارنة بسقراط تبدو اكثر صـحة ·· فهو أيضا كان رجلا مثقفا ، وهو أيضا القى خطبة مؤثرة ! ··

تهنئتى اليك ! ·· ان اسلوبك كخطيب حرك مشاعرى او كاد ·· من كان يمكن ان يقول انك قادر على مثل هذا ؟ لا بأس ·· مهما يكن من شىء ، فان عظماء الرجال امثالك ينفعهم ان يقدموا الى المحاكمة ويحـكم عليهم بتجرع السم : والا لما عرف التاريخ قط بوجودهم ·· هل اتمثل ايضا بمن جاء بعدهم ، ياميليتوس زمانك ؟! » ·· لقد شعرت برغبـة فى البكاء حتى قلت : « اخرج ياهازيزيكيس » ! ··

« وقبل كل شىء ، يارجال اثينـا ، لابد لى من الرد على التهم التى وجهت الى زورا وبهتانا ، والوشاية التى بموجبها جاء بى ميليتوس الى هذه المحكمة » ·· فهل رأيت ؟ قد أكون ضعيفا فى قواعد اللغة ، لكن لى ذاكرة جيدة ! ·· وبوسعى ان اقتبس ايضا الحوار الذى دار حول خلود الروح ! ·· « اخرج ياهازيزيكيس » ··

« ·· لو كان الموت هو نهاية كل شىء ياسيمياس ، لنـال الاشرار صفقة طيبة بالموت ، ولسعدوا بسكون ابدانهم ، اذ مع الموت يتحررون ايضا من الروح التى اقترفت شرهم » ·· « اخرج ياهازيزيكيس ! » ·· « ليس قبل ان القى عليك بعض اسئلة قليلة ، ياسـقراط ! ·· كان يجب ان تعرفنى ·· لا يمـكن أن تظـن اننى هنـا لتسـلية نفسى ، واننى تحملت عناء الحضور الى هنا لتـدارس الفلسفة معك ·· والآن ماذا أراك تفعل ؟ ·· تبكى ؟! ·· من كان يمكن ان يقـول هذا ؟! ·· انت قادر على البكاء ! ·· واذا بكيت ، فلن تستطيع محادثتى ·· ولابد ان تجاوبنى أيها الرجل العـزيز ، لاننى اريد ان اعرف » ·· وعنـدئذ اسـتدرت وأريتـه وجهـا جرت فوقه الدموع ، ورحت تقـول له : « ياهازيزيكيس ! سوف يأتى يوم اجعلك فيه تبكى ياهازيزيكيس ! ·

لانه سوف ياتي اليوم الذى ستكون فيه نهايتك في السجن ياهازيزيكيس ! •• وعندما تكون فى السجن سأضاجع زوجتك ياهازيزيكيس ! •• سأضاجعها واضاجعها ثانية حتي تنزف دما ، وحتي تبرز احشاؤها ياهازيزيكيس ! •• ولن تستطيع ان تفعل شيئا حيال هذا سوى البكاء ، ولك على هذا قسمى ! » •• « مستحيل ياصاحبي العزيز •• انا غير متزوج كما تعرف •• لكن قل لى اذا ـ » •• « هازيزيكيس ، سوف اقتلك ياهازيزيكيس ! » •• « لا بأس ، سأذهب •• سأعهد باسئلتى الى آخرين ممن لا يترفقون •• وعلى اى حال فالموت نهايتك » •• ثم تركك بين ايدى الضباط الثلاثة الذين اخذوا يجلدونك هذه المرة حتى ادموك ، ليكتشفوا اذا كان من يدعى كوستانتوبولوس ضالعا فى المؤامرة •

وخلال الاربع والعشرين ساعة التالية لم يحدث شيء •• وكان صباح اليوم التالى هو ٢٠ نوفمبر ، فوضعوك فى زورق بخارى ونقلوك الى جزيرة ايجينا حيث انتظرت ثلاثة ايام وثلاث ليال لكى تعدم رميا بالرصاص ••

★★★

لقد اتخذوا احتياطات كثيرة فى الجزيرة •• اختاروا مخفرا غير ماهول فى الجناح القديم فى السجن •• وادخلوك من خلال مدخل جانبى باقصى سكون ودون أن يعرف اى واحد •• وفى الفناء الصغير اوقفوا عشرين حارس بالبنادق الرشاشة ، وخمسة آخرين فى ردهة المخفر ، وتسعة مثلهم فى الرواق ، وثلاثة فى زنزانتك •• سبعة وثلاثون رجلا مسلحا من أجل رجل واحد ، وحيد ومقيد اليدين ! •• ثم ابتسمت وناديت رقيبا لرفع القيد لفترة يسيرة على الاقل •• فرد الرقيب بان هذا مستحيل : لان الامر البالغ التشدد متعلق خصيصا بالقيد •• « فى الدقيقة التى يكون فيها معصماه طليقين ، فانه يهاجم مثل حيوان متوحش ! •• هو مجرم خطر جدا جدا ! » •• وكان التنازل الوحيد هو باب الزنزانة : يمكن ان يبقى مفتوحا •• لكن الواقع ان هذا لم يكن تنازلا ، اذ كان اجراء امنيا : فلو هاجمت احد الحراس الثلاثة ، لسمح الباب المفتوح لاولئك الذين فى الرواق والردهة ان يخفوا لنجدته •• لكن كيف يمكنك مهاجمتهم ، وبماذا ؟ •• فان الزنزانة كانت افرغ من قشرة حبة •• بل انهم لم يعطوك حتى سريرا او مرتبة ، ولكى تستريح كان عليك ان تتكوم على الارض •• وجاء ضابط بيده

ورقة ‥ قال انه لا وقت لكي يضيع : فانه بموجب قانون المحكمة العسكرية ، وما لم يتدخل رئيس الجمهورية ، يصير تنفيذ الحكم خلال اثنتين وسبعين ساعة من وقت النطق به ‥ وقد فات حتى الآن ثمان واربعون ساعة ، وهكذا ها هو ذا التماس العفو : وما عليك الا ان توقع عليه ! ‥ لقد اخذت الورقة ، وقرأتها ، ثم رددتها اليه بهدوء قائلا : « كلا » ‥ ان الضابط قد اتسعت عيناه وقال : « انت لن تمضى التماس العفو ؟ ‥ هل فهمتك ؟ » ‥ « فهمتنى تماما يا بابا دبولاكى ، يا بابا دوبولوس الصغير ‥ لن امضى عليها ! » ‥ فقال الضابط باصرار : « اصغ الى يا يناجوليس ‥ ربما تظن انه لا فائدة ، لكنك مخطىء ‥ انا مخول بان اخبرك ان الرئيس على استعداد لتخفيف حكم الاعدام الى السجن المؤبد ‥ » ‥ « انا اصدق هذا ‥ انه يحب ان يكون قادرا على ابلاغ العالم كيف رجوته ان يمن على بحياتى ! ‥ انه يطيب له الا يقتلنى » ‥ « وهذا يطيب لك اكثر يا بناجوليس ! ‥ امض ! » ‥ « كلا » ‥ « اذا لم تمض ، فلا امل هناك ! » ‥ « اعرف هذا » ‥ فوضع الضابط الورقة فى جيبه ‥ وبدا أسفا باخلاص ‥ وبدا أيضا مترددا فيما اذا كان يمكن ان يخرج ، وكأنه كان يتصيد كلمات لاقناعك ولم يستطع ان يجدها ‥

« هل ‥ هل تريد أن تفكر فى الامر مدى دقيقة ؟ » ‥ « كلا » ٠ فقال مستاء: « فقد حدد الموعد صباح غد فى الساعة الخامسة والنصف » ‥ ومضى وهو يهز رأسه ‥ وفى ركن الزنزانة كان احد الحراس يئن: « آه ، لا ! ‥ آه ، لا ! ‥ » ‥

كان فتى ، لم تكد تنبت لحيته ، وبدت كسوته جديدة من عند « البلوكامين » ‥ لقد تابع المشهد ، فاغر الفم ، وها هو ذا الآن ينظر اليك وكأنما يوشك ان يبكى ‥ فتقدمت اليه قائلا : « ما هو الغلط يا بابا دبولاكى ؟ » ‥ « انا » ‥ « انت أيضا اردت ان امضى ؟ » ‥ « نعم ! ‥ اردت هذا ! ‥ نعم ! ‥ » ‥ « الم تسمع ما قلته للضابط ؟ » ‥ « نعم ، لكن » ‥ « لا لكننة يا بابا دوبولاكى ‥ اذا لزم الموت ، فالرجل يموت » ‥ « نعم ، لكننى آسف رغم ذلك » ‥ « وانا ايضا » ـ قالها الحارس الثانى ‥ « وانا ايضا » ـ قالها الحارس الثالث ‥ فكان هذا مدعاة لعميق قلقك : فقد بدا وكأن قرونا مضت منذ أن لم يكن احد من البشر مسيئا اليك ‥ طوال كل ذلك الزمن لم تكن ثمة سوى المرآة العجوز فى المستشفى العسكرى حيث اخذوك اليه

عندما ادى التعذيب والاضراب عن الطعام الى وقوعك فى غيبوبة ٠٠ كانت العجوز تنظف المراحيض ، وذات يوم عندما رأتك مقيد اليدين والقدمين اقتربت منك بدلوها ومسحت على جبينك برقة قائلة : « مسكين اليكوس ! ٠٠ مسكين ايها المخلوق الصغير ! ٠٠ انظر ماذا فعلوا بك ! ٠٠ وانت دائما وحيد ولا تتكلم دائما مع أحد هذه الليلة سأتى اليك واجلس بجانبك ، ويمكنك ان تحدثنى ٠٠ هيه ؟ » ٠٠ غير ان احد الشرطة أطبق عليها وحملها بعيدا عنك مع دلوها ، ولم تشاهدها قط بعد ذلك ٠٠ والآن ما لبثت ان أزلت الغصة من حلقك كبحا لتأثرك ، وقلت لهم : « تعالوا الى هنا كلكم يا بابادوبولاكى ! ٠٠ لينتكلم فى هذا قليلا » ٠٠ وعندما التفوا حولك بدأت تشرح لهم لماذا لا يلزم ان يحزنوا ، او يكونوا مستسلمين ، ولماذا يجب ان يكافحوا ويفهموا ان موتك يخدم غاية ما ٠٠ بل انك القيت امامهم بعض القصائد عن الحرية ، فانصتوا باحترام وأدب : واذا احبوا قصيدة منها فيمكنهم كتابة أبياتها على غلاف علبة سجائر ٠٠ « بهذه الطريقة لا يمكن ان ننساها » ٠٠ كان ثلاثتهم فى مستهل الشباب ، كانوا جنودا « جددا » فى الخدمة العسكرية جاءوا من اقاصى القرى ، وكل ما عرفوه عنك هو انك حاولت قتل الدكتاتور الطاغية ، وكان جهلهم مؤثرا جدا الى حد كان يصعب معه ان تعبر عما فى صدرك، وان تجد الكلمات الصحيحة التى تجعلهم يفهمونك ٠٠ وقد استرسلت تقول لهم : « الحقيقة انه لا يهم اذا كانت محاولتى فشلت ، فهمتم يا بابا دوبولاكى ؟ ٠٠ المهم هو أن شخصا ما حاول ، وفيما بعد سوف يحاول شخص آخر وينجح ٠٠ لأنه عندما تمشون فى الطريق ولا تضايقون احدا ، ثم يأتى شخص ما ويضرب احدكم ، فماذا تفعلون ؟ ٠ » « ارد له الضربة ! » ٠٠ « برافو ! ٠٠ واذا ضربكم مرة ثانية بلا سبب ، فماذا تفعلون ؟ » ٠٠ « اضربه بالمثل » ٠٠ « برافو ! ٠٠ واذا منعكم من قول ما تفكرون فيه ووضعكم فى السجن لانكم تفكرون بطريقة مختلفة عنه والقانون لا يحميكم لانه ليس هناك اى قانون ، فماذا تفعلون ؟ » ٠ « انا ، لا بأس ٠٠ انا ــ » ٠٠ « تقتله ٠٠ ليس لك اى خيار ٠٠ ان قتل اى انسان هو شىء فظيع كما اعرف ، ولكنه فى انظمة الطغيان يصبح حقا ، او بالاحرى يكون واجبا ٠٠ ان الحرية واجب اكثر منها حق » ٠٠ وفى النهاية تضايق احد الضباط فى الرواق وامرك بالصمت، قائلا : « اخرس يا باجوليس ! ٠ هل تريد ان يكون لك حواريون وانت

في حكم الميت ؟! .. » غير ان واحدا آخر انحاز الى جانبك قائلا له : « اخرس انت ، ايها الخنزير المقمل ، والا عجنت وجهك ! » .. وتقدم اليك لاعطائك سيجارة .. ومرة ثانية شعرت بالتأثر .. فهل ممكن انهم فجأة غدوا جميعا عطوفين الى هذا الحد معك ؟ .. ما اغرب طبيعة الجنس البشرى حقا : طالما تتوقع شيئا منهم لا يعطونك شيئا ، وعندما لا تتوقع منهم شيئا يعطونك كل شيء ! ..

وحوالى الخامسة بعد الظهر ذهب الجنود الثلاثة لانتهاء نوبتهم ، وعندما انصرفوا شعرت بفراغ عظيم .. فمن يدرى اى « أولاد حرام » يمكن ارسالهم اليك الآن .. وبدلا من ذلك كان القادمون الجدد من نفس النوع : نفس السن ، نفس البراءة ، نفس الاكتئاب .. واستحال قلقك الآلى الى الف تأثر وجد متنفسا له فى لون من الجسارة الظاهرية : « تعالوا يا بابا دوبولاكي ! .. اكسبوا عيشكم ! .. من منكم يعرف ان يغنى ؟ » .. فاشاروا الى فتى ضخم سمين متبلد التهيئة وله يدا فلاح ، قائلين : « هو .. هو ! .. انه يغنى ضمن جماعة المنشدين فى كنيسة القرية .. يغنى فعلا ! .. « حقا ؟ .. اذن غن لى ترنيمة الصلاة من قداس الجناز » .. « لا ! .. ليست هذه ! » .. « قلت لك غنها ! » .. فأطاعك ، وتمنيت لو لم يفعل ، لان الانصات اليه اشعرك بتقلص فى معدتك : .. « ابتهل اليك يامولاى ان يرقد فى سلام .. ابتهل اليك يامولاى ان يكون دفنه لائقا .. تراب يعود الى التراب ! .. تقبل خادمك يامولاى ! » .. وهنا قاطعته قائلا : « انا لا احب اغنيتك يا بابادوبولاكي ! .. لا احب عبارة (خادمك يامولاى) . لابد ان تعدنى : عندما تغنيها لى فلا تقل عنى خادم احد .. لا احد خادم احد .. هل تفهم ؟ .. فاومأ الفتى براسه ايجابا فى ارتباك .. بيد ان التقلص لم يذهب ، حتى قلت :

« هيا يا بابادوبولاكي ! .. لنغن شيئا احسن ! .. من يعرف اغنية (الفتى الباسم) ؟ .. « انا ! » .. « انا ! » .. « جميل .. والآن ، كلنا معا » .. (ما الذى يمكن ان يشفى ، قلبى المحطم — لقد فقدت فتاى الباسم — لن تكتحل عيناى برؤياه بعد الآن — ملعونة تلك الساعة ، ملعونة تلك اللحظة ، حين قتل اعداؤنا — فتاى ذا الابتسامة الحلوة) .. لقد غنيت معهم ، غير ان التقلص لم يفارقك .. طيلة الامسية غنيت ، وقاومت ، ووعظت ، بيد ان التقلص ما كان ليفارقك . فى الواقع جاءت لحظات القيت فيها على نفسك اسخف الاسئلة أو

تعللت باشد الآمال جنونا : اين يكون الاعدام ، وعلى اية صورة يكون ؟. خطر لك ان احدهم قال انه سيتم في الجانب الآخر للجزيرة ، في البقعة المخصصة لاعدام افراد البحرية بالرصاص ، لكنك لم تعرف ما اذا كانت ساحة اطلاق النار هذه مسورة بالحوائط أو في الهواء الطلق ، ورجوت ان تكون في الهواء الطلق ، والا ينزل المطر وقتها ، لانك شاهدت مرة فيلما سينمائيا اعدموا فيه محاربا في قوات المقاومة بالرصاص في المطر ، وقد اكربك هذا المشهد لان المحارب سقط في الوحل ٠٠ وقد رجوت ايضا انهم لن يطلقوا عليك الرصاص في المواجهة ، وتساءلت كذلك كيف تخبر الجنود ان يسددوا الرصاص الى قلبك لا الى وجهك ، وتساءلت في النهاية ان كان في هذا ما يؤلم ٠٠ كان هذا غباء وكنت تعرفه ٠٠ لا وجه للمقارنة بين الالم الذى يشعر به عند التعذيب والالم الذى يمكن ان نشعر به عند اطلاق الرصاص عليك ، فالامر يستغرق خمسين ثانية على الاقل لكى تشعر بحرق رصاصة في اللحم وقبل ان تمر تلك الثواني تغدو في عداد الموتى ٠٠ لقد قرأت هذا في مكان ما ، او لعل احدا ممن كانوا في الحرب اخبرك به ٠٠ على اى حال فقد لازمك هذا الفضول ، وكان عليك ان تبذل جهدا للتغلب عليه ، وللتأمل في اشياء اكثر جدية ، على سبيل المثال فيما يمكن ان تقوله قبل ان يفتح فريق الاعدام النار عليك ٠٠ لا يكفى ان تقول : « لتحيا الحرية » ٠٠ عليك ان تضيف شيئا او أن تقول عبارة تتضمن كل شيء تتضمنه الحرية ٠٠ نعم ٠٠ شيء مثل صيحة الضابط الايطالي الذى اعدمه الالمان بالرصاص في سيفالونيا عام ١٩٤٤ : « انا رجل ! » ٠٠ ان التقلص في معدتك ما عكم ان زال لدى فكرة الصياح في وجوههم بعبارة « انا رجل » ٠٠ بيد انه مالبث ان عاد بعد لحظة اخرى لان التقلص لم يأت من العبارة التى تصيح بها او لا تصيح بها ، او الالم الذى يمكن ان تشعر به او لا تشعر به ، او المطر الذى يمكن ان يغرق جثتك او لا يغرقها : انما جاء من حقيقة أن تموت في ساعة معينة في يوم معين ٠٠ شيء ان تموت بالتعذيب او في الحرب أو عندما ينفجر لغم ـ ان تموت بعامل مما هو غير متوقع ـ ولكنه شيء آخر أن تموت وانت تعرف انه لابد ان تموت في ساعة معينة في يوم معين بذات الدقة لقطار مرتحل ٠٠ ليلة أخرى ولا يبقى لك وجود ٠٠ على الرغم من قوتك وايمانك وكبريائك ، لم تستطع ان تستسلم لفكرة توقف وجودك ٠٠ لم تستطع حتى ان تتصور ما يعنيه هذا ، وتوجيه مثل هذا السؤال كان

اسوأ من محاولة اثبات ما اذا كان الكون محدودا أو لا نهائيا ، اذا كان الزمان هو الزمان والفضاء هو الفضاء ، وعما اذا كان الزمان والفضاء كانت لهما بداية او لم تكن ، وعما اذا كان قبل البداية وجود لشيء آخر او لا شيء ، وما هو اللاشيء !! ·· ماهو اللاشيء ؟ ·· ربما كان هو مانحن عليه او لم نكنه حينما نتوقف عن الوجود ، أو يطلق علينا الرصاص فى ساعة معينة فى يوم معين ، بعد يوم وليلة تقضى فى لعب دور الرجل الباسل حتى وفى معدته تقلص ! ··

وعندما حل الظلام بدأت تشعر بالتعب ·· فان جهد تقسيم نفسك شطرين ، احدهما الألم بتأثير تلك التأملات الخفية ، وثانيهما اصطناع اللامبالاة المتعالية ـ قد اضناك وأوهنك ·· وتثاقل سـاقاك ، وقيد يديك ، واجفانك ·· وشعرت بجنوح رهيب للنوم ·· وكلما اشتد هذا الاحساس كلما قلت رغبتك فى النوم ·· وقال لك الحـراس : « خذ بعض الراحة يا اليـكوس ·· لماذا لا تسـتريح ؟ » ·· ولـكن كل مرة قالوها رددت عليهم بخشونة ·· اليس مما لا يصدق ان يقولوا خذ بعض الراحة ولماذا لا تستريح ، لرجل يوشـك ان يسـتريح الى الابد ؟ ·· اليس من الجنون ان يستسلم الانسان للنوم وليس امامك سـوى هذا الوقت الضئيل تعيشه ؟ ·· ورغبة فى عدم الاستسلام للنوم ، جعلتـه تغدو وتروح وتغدو وتروح ، بل رفضت حتى ان تجلس واخيرا ، حوالى الساعة الثالثة صباحا ، تغلب الاعياء عليك ، والحاجة لاغماض عينيك · وانطرحت على الارض ، طالبا من الحراس ان يستوثقوا من ايقاظك بعد عشر دقائق ، ولا اكثر من عشر دقائق ، وعلى الاثر غرقت فى النوم ·· ثم رأيت حلما ·· كنت مثل بذرة ·· وشيئا فشيئا تضاعف حجم البذرة مثنى وثلاث ورباع حتى اصبحت من الانتفـاخ والضـخامة بحيث لم يستطع الغلاف احتواءها ·· فانفجرت بصـوت قاصف جعلهـا تغمر التربة بالوف الحبوب ، وسرعان ما استحالت كل بذرة الى زهرة ، ثم الى ثمرة ، ثم الى بذرة مرة أخرى تضاعفت بدورها مثنى وثلاث ورباع ، لكى تنفجر مرة اخرى ، لكى تغمر التربة بالوف البذور · وعند هذا الحد حدث شيء عجيب جدا : فمن احـدى الزهرات نبتت امرأة ، ومن زهرة اخرى نبتت امرأة ثانية ، ومن ثالثة امرأة جديدة ، فاردت ان تسـتحوذ عليهن كلهن ، غير انك فكرت ـ ياعجبا ! ·· كيف اسـتطيع ان ابلغ هذا ، فليس امامى وقت ، فعما قريب ستصل فرقة الاعدام بالرصاص ، وسوف يأخذوننى بعيدا ، فلابد ان اسرع ـ وهكذا امسـكت باقربهن

اليك . دون ان تنظر الى وجهه ، ودون ان تسـأل نفسـك ان كانت ستتهويك ، ودون ان تسألها اذا كانت تتقبلك ، وآتيتها بعنف وسرعة. ثم دفعتها عنك واخذت امرأة اخرى بنفس الكيفية ، ثم دفعتها عنك لكي تأخذ امرأة ثالثة ، ثم رابعة ، ثم خامسة ثم سـادسة حتى لم.تفكر في الغد ، ثم انتابك ألم التوقف لان احدهم كان يوقظك من النوم ويشد كتفك .. من ؟ .. رحت تحدق من خلال اهداب عينيك .. كان الجندي الفتى المتبلد الذي كان يغني في جماعة الانشاد بالكنيسة : « الساعة الخامسة يا اليكوس .. أنك نمت ساعتين ! .. » ..

انتفضت قائما .. ورحت تحدق في الحرس واحدا بعد الآخر ، بسخط مكتوم .. ساعتان ! .. لقد رجوتهم ان يوقظوك بعد عشر دقائق ، فتركوك تمام ساعتين ! .. شـعر منك كان يود ان يلطمهم . يبكي ثم يلطمهم ، صارخا : « ياملعونين ، يامغفلين ، يالصـوص ! » .. غير ان الشطر الآخر ادرك انهم عصوك من قبيل المودة والرأفة . قائلين لانفسهم : « دعوه ينام ، المسكين ! .. لكنه قال عشر دقائق .. دعوه ينام على اي حال ! » .. وبجهد تمالكت نفسك ، وبجهد قلت همسا : « وساخه ! .. انكم سرقتم ساعتين من حياتي ! » .. ثم قلت لهم انك تريد تغسل وجهك ، والتوجه الى المراحيض . فقادوك الى الرواق حيث يوجد صنبور ودورة مياه بدائية .. وعلى مرأى من الجميع ، وفي تخبط بسبب قيد يديك وحشت فوق الدعاء ، ثم اغتسلت ، وكانت الساعة الخامسة والثلث .. ولما عدت الى الزنزانة طلبت قهوة . وشربتها . وكانت الخامسة والخمس والعشرين .. بقيت اذن خمس دقائق نحياها .. وما الذى يفكر فيه رجل يوشك ان يعدم بالرصاص خلال الخمس دقائق الاخيرة ؟ . بعد ذلك بسنوات عديدة ، عندما القيت عليك هذا السؤال ، اجبت بانه كان يصعب جدا الاعراب عنه ، والراجح انك عانيت مشقة كبيرة لتصوير تلك الاحاسيس في قصيدة شعر . لكن كان هناك ثلاثة كتاب تناولوا الفكرة : دوستويفسكى في رواية (الابله) ، وكامي في (الغريب) ، وكازانتزاكيس في « المسيح يصلب من جديد » . كانت هذه ثلاثة كتب تعرفت فيها على نفسك .. انك قمت بعمل ملخص للكتابين الاخيرين ، شكل اجمي للكتاب الاول لاننا انحرفنا في نقاش .. فقد اصررت انا على انه لا يوجد شيء من تلك الفكرة في (الابله) ، لكنك رددت بانني مخطئة ، وان دوستويفسكى في شبابه قد حكم عليه بالاعدام لجريمة سياسية وانه امهل عشرين دقيقة قبل شده الى وتد

الاعدام ·· وفي الكتاب كان الامير ميشسكين هو الذى حكي القصـة ، غير انك لم تسنطع ان تتذكر الفصل المتضمن ملواقعه ·· ولكي تدلل ى على هذا انبريت تبحث عنها بتصـفح جزئي (الابله) مدى سـاعات دون جدوى ، وفي النهاية قلت : « ربما كنت محطئـا ·· انك لم تكن مخطئا : فقد اخذت على عاتقي اكتشاف هذا بعد موتك ·· وبعد مماتك عثرت على الموضوع الذى رحت نبحث عنه في ذلك اليوم دون جدوى · من كان يعرف متى فعلت ما فعلت ، فقد الفيتك دسست قصاصة ورق صغيرة بين الصفحات ، وقد انفتح الكتاب لدى تلك الصـفحات حالما اخذته من مكانه ·· ورأيتـك قد وضعت خطـوطا تحت الكلمـات ، الكلمات التي تعرفت فيها فيما بعد على احاسيسك في الدقائق الخمس الاخيرة لك ·· (وقتها بقيت له خمس دقائق يعيشـها ، لا اكثر ·· قال ان تلك الدقائق الخمس كانت عنده كأنها الابد غنية خصبة ، مبرأة من احلام المطامع ·· لقد بدا له أنه في غضـون تلك الدقائق الخمس يستطيع أن يحيا حيوات كثيرة ، ولكن عليه في لحظة الا يفكر في تلك اللحظة الاخيرة ، وهكذا انتهى الى قرارات شتى ·· فقـد قدر الوقت اللازم لتـوديع رفاقه الوداع الاخير ، وقرر انه يمـكن ان يسـتغرق دقيقتين ، وسمح بدقيقتين اخريين لكى يفـكر في نفسـه من جديد ، والباقي لالقاء نظرة على ما حوله للمرة الاخيرة) ·· وبعـدها الكلمات التالية : (قال ان ما يعنيه والشيء الذى لا يحتمـل هو تلك الفـكرة الملازمة : ماذا اذا لم يـكن مقررا لى ان اموت ! ·· ماذا اذا امـكنني ان اعيد دورة الحياة من جديد ؟ ·· كل شيء يمـكن ان يكون لى ·· كنت استطيع ان احيل كل دقيقة الى قرن كامل ·· كنت لا اخسر شيئا ·· كنت احسب حساب كل دقيقة ·· كنت لا اضيع منها دقيقة واحدة ·· قال ان هذه الفكرة ملأته في النهاية بغضب الى حد أنه لم يرد فقط الا ان يطلقوا عليه النار باسرع ما يمكن) ·· ثم رأيتك قد وضعت خطوطا تحت سؤال الكسندرا يباتشين : (ماذا فعل بذلك الخصب والغنى فيما بعد ؟ ·· احصى كل دقيقة وقدرها تقديرا ؟) ·· وكان جـواب الامير ميشكين هو : (آه ، كلا ·· انه اخبرني بنفسه ·· سألته عنها ـ انه لم يجد مثل هذا بتاتا ، وضـيع دقائق كثيرة ، كثيرة) ·· ولـكن امام كلمات الامير ميشكين ، الفيتك وضعت علامة استفهام كبيرة ··

★★★

ان الدقائق الخمس الاخيرة من حياتك دامت ثلاث ساعات ، ومن

بعدها ثلاثين ساعة ٠٠ في الساعة الخامسة والنصف كنت على استعداد للاعدام ، غير ان فرقة الرماة لم تحضر ٠٠ فسألت عريفا عن السبب ، فاجاب بانه يظهر انهم سيحضرون في السادسة ٠٠ فمنحت نفسك هدية النصف ساعه ، وعند السادسه كنت على استعداد من جديد ٠٠ غير ان الفرقة لم تحضر في السادسة أيضا ٠٠ ومرة اخرى سألت العريف لم لا يحضرون ، فرد بقوله : « سيحضرون في السادسة والنصف فمنحت نفسك نصف ساعة أخرى وفى السادسة كنت مستعدا من جديد ٠٠ لكن الفرقة لم تحضر مرة اخرى ٠ ومثل ذلك حدث في السابعة ، والسابعة والنصف ، والثامنة ٠٠ من نصف الساعة الى الآخر اعددت نفسك للموت ، ولم تمت ٠٠ مرة ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ، وسادسة ، وكل مرة كانت راحة وعذابا ، املا وحبوطا ، في حين تزايد قلقك واستحال الى نفاد صبر مهتاج ، الى تعجل انتحارى ٠٠ فلما كانت الساعة الثامنة والنصف صرخت : « ما الذى تنتظرونه ؟ » ٠٠ وعندما تردد في الفناء صوت زحف غير معهود ولاح الضابط في المدخل ، تنفست الصعداء ارتياحا وقلت : « هاندا ! » ٠٠ لقد لبثت دقيقة قبل ان تفهم ما فاه به متلعثما وانت بين الدهشة والاستياء : فاليوم وأفق عيد مريم العذراء والأم ، ولذلك تقرر تأجيل الاعدام حتى اليوم التالى ، الموافق ٢٢ نوفمبر ، الم يخبروك بهذا ؟ ٠٠ « كلا » ٠٠ ياله من خلط مقيت ، ويالها من غلطة قاسية ! ٠ أترى لعل شخصا شريرا كان يتفكه على حسابك ؟ ٠٠ لقد ادرت ظهرك له في صمت ، ولبثت في صمتك طيلة الصباح ولم تستطع ان تشرح لى قط ما الذى يحسه الانسان عندما يكتشف ان امامه مهلة اربعا وعشرين ساعة في حياته ! لا نصف ساعة فقط بل أربع وعشرون ساعة ، الف واربعمائة واربعون دقيقة ، يوم وليلة ، لكى يفكر ، ويتنفس ، ويبقى في الوجود ! ٠٠ وعندما سألتك ، لبثت متحيرا ، تستحضر ذاكرة لعلها افلتت منك وربما انعدم وجودها ، وكأن الكرب الجديد قد محاها في سورة الاهتياج ، وكنت دائما تختم كلامك بتكرار العبارة التى قلتها فى مساء اليوم الذى تلاقينا فيه : « عند الفجر بدأ الانتظار من جديد ، وكان الموقف شبيها بما كانه فى اليوم السابق ، فى الليلة السابقة » ! ٠٠ لقد بدأ العذاب المفطر للقلب دورته من جديد : الساعة الخامسة ، الخامسة والنصف ، السادسة ، السادسة والنصف ، السابعة ، السابعة والنصف ، الثامنة ، الثامنة والنصف ، التاسعة ! ٠٠ فى التاسعة عاد الضابط الذى جاء بورقة التماس العفو

واعلن ان الاعدام سيتم في الصباح الآتي ·· وبحركات مماثلة لوح بالورقة المماثله ، وبصوت مماثل استحثك قائلا : « امض الورقة ·· هيا ·· امضها ! » ·· فانتزعت الورقة من يده وكورتها ورميتها في وجهه ، ثم ارتميت عليه وجذبته من ثنيتي سترته العسكريه قائلا : « يا جبان ! يا جبان ، يا جبان مقمل ! ·· كنت تعرف انهم لن يعدموني امس ! ·· سأخنقك يا جبان ! » ·· فانتزعوه منك ، وجرى صارخا يعول انك جاحد ناكر للجميل ، وانه فعل هذا لكي يمكن ان توقع الالتماس ·· « انت لا تستحق اى شيء ـ يا ابن الحرام ناكر الجميل ! · لن تراني مرة ثانية ! » ·· وبعد ذلك مباشرة تردد صوت آمر حاد واصفر وجه حارس ، وفكرت : هذه هي النهاية ·· هذه هي النهاية فعلا ! ·· لكن لم يحدث شيء ، وبدأت تنتظر من جديد ·· وفي الساعة الحادية عشرة كنت متبرما الى حد بالغ ، وغدت رغبتك في عدم حدوث تأجيل آخر ضرورة ملحة ، حمي ·· واخذت تلعن وانت تضغط على اسنانك ، وطلبت ساعة ، وارتقبت التفسير والبيان ·· هل اختفى ليابيس ؟ ·· كان على ليابيس ان يشهد الاعدام باسم القانون ! ·· هل كان البحر مضطربا ؟ ·· مع اضطراب البحر لا يمكن ان ترتحل القوارب ، وربما الزوارق البخارية التابعة للبحرية أيضا ! ·· وناديت احد الحراس « ما هو حال البحر ؟ » ·· فنظر الحارس في الرواق وكرر السؤال للعريف : « ما هو حال البحر ؟ » ·· « هادىء ·· كان هادئا هذا الصباح ·· لماذا ؟ » ·· « مجرد سؤال » ·· هل كان ليابيس سيأتي في طائرة هليكوبتر ومنعته الريح من الهبوط ؟ » ·· لقد ناديت الحارس مرة ثانية : « ما هو حال الريح ؟ » ·· منظر الحارس في الرواق مرة ثانية لسؤال العريف : « ما هو حال الريح ؟ » ·· « اى ريح ؟ ·· لا توجد رياح بالمرة ·· لماذا ؟ » ·· « مجرد سؤال » ·· وعضضت شفتيك وقلت : « لست افهم ·· لست افهم تماما » ·· ان فكرة ان بابادوبولوس ربما قرر ان يبقيك على قيد الحياة لم تخطر قط ببالك ·· انك لم تتصور قط انه فيما كنت مضنى بسبب الانتظار اللاانساني ، كان الناس في كافة ارجاء العالم يكافحون من أجلك : مواكب في الشوارع ، تجمعات حاشدة ، مظاهرات امام السفارات ، مصادمات مع قوات الشرطة ، مكالمات تليفونية ملهوفة بين رؤساء الدول، الوف البرقيات اللاسلكية ، دبلوماسيون يهرولون بين روما واثينا ، بين باريس واثينا ، بين لندن واثينا ، بين بون واثينا ، بين ستوكهولم واثينا ، بين بلغراد واثينا ، بين واشنطون واثينا ، بل حتى رسائل من

قبل البابا ، من ليندون جونسون الرئيس الامريكي ، من يوثانت سكرتير عام الامم المتحدة - مناشدين الابقاء على حياتك .. لكن كيف كان لك ان تتصور هذا ؟ بل انهم لم يسمحوا لك حتي بكلمة وداع لأبيك وأمك ، وتبادل كلمة مع محاميك ! .. بعد الحكم عليك كان الناس الوحيدون الذين اقتربوا منك هم نيوفلياناكوس ، وهازيزيكيس، رماليوس ، وباباليس ، وصغار الجنود الذين لم يعرفوا الا اقل منك : بالنسبة اليك العالم بدأ وانتهى فى تلك الزنزانة التي حسبت فيها ان الجميع تجاهلوك مثل اقل نثار من عشب البحر ! ..

ثم بعد الظهيرة جاءت الفرقة . « تحرك يابناجوليس .. فودعت الحرس واحدا واحدا ، واعتذرت لما كان من عصبيتك ، وشكرتهم لما كان من صحبتهم لك .. كان الحراس يبكون .. كان بينهم ايضا الفتي غير ذى اللحية والجندى السمين الذى كان يغنى فى جماعة الانشاد فى الكنيسة ، وكان الاثنان ينتحبان بلا تمالك للاعصاب » ففركت انف الاول وامسكت بذقن الثانى قائلا :

« الشجاعة يا بابادبولاكى ! .. » .. فتمخط وقال لك : « هل يمكن ان اطلب منك شيئا يا اليكوس ؟ .. » .. «طبعا يابابادبولاكى» . « لماذا كنت تسمينا دائما باسم بابادوبولاكى ، وما معناها ؟ » .. ابتسامة : « احيانا كان معناها بابادوبولوس الصغير » واحيانا خادم بابادوبولوس ، والمسألة كانت تتوقف على النية ! » .. « لكنني لست بابادوبولوس الصغير ، ولست خادم بابا دوبولوس ! » .. « جميل !. اذن اهتف معى : ليسقط بابا دوبولوس ! .. لتسقط الفاشية ! .. لتحيا الحرية ! » .. « نعم ، لكن ! .. » .. « كلكم مع بعض ، اهتفوا جميعا بصوت واحد : لتحيا الحرية ! » .. « لتحيا الحرية ! » ..

« جميل ... والآن من يريد ان يعمل لى معروفا ؟ » .. « انا - » .. « انا - » .. « انا - » .. « بديع ! .. فى مقر الادارة العامة للمباحث، يوجد ميجور يدعى هازيزيكيس .. اتصلوا به تليفونيا وقولوا له الا ينسى ان يقدم من اجلى ديكا لأسكليتوس .. » ..

« ماذا ؟! » .. « انه سيفهم » .. وتابعت فرقة الاعدام .. كان فى الخارج سيارتان ، سيارة نصف نقل ، وسيارة جيب .. فركبت سيارة الجيب بعد القاء نظرة مديدة على السماء : كان يوما صحوا جميلا والسماء الزرقاء صافية كالزجاج المصقول ، غير انك ادركت من فورك ان السيارة لن تتجه الى ساحة الاعدام لمعرفتك بجزيرة ايجينا وان

الطريق الى ساحة الاعدام كائن في الاتجاه العكسي ، الى أعلى الجبل ، وقد سلكت القافلة الحارة الصغيرة التي تنحدر نحو الميناء ٠٠ « الى اين تأخذونني ؟ » ٠٠ « الى اثينا ٠٠ سوف نعدمك بالرصاص في اثينا » ٠٠ ونقلوك الى نفس الزورق البخاري الذى جئت فيه الى الجزيرة ٠٠ وقد حبسوك في (كابينة) بعد ان اسلكوا السلاسل والقيود في حلقة معدنية ٠٠ وفي بيريه دفعوا بك بسرعة في سيارة ٠٠ « الى اين تأخذونني ؟ » ٠٠ « الى (جودى) ٠٠ سنطلق عليك النار في معسكر الجيش في جودى » ! ٠٠ غير انهم لم يأخذوك الى جودى ، بل اخذوك الى مقر ادارة المباحث (اى ٠ اس ٠ ايه) ٠٠ كان هناك قائد لم تكن تعرفه ٠٠ كان يلبس نظارة سوداء وله نفس قبيح ٠٠ وقال لك وهو ينفس النفس الكريه في وجهك : « الاوراق تقول انه تم اعدامك فعلا يابنا جوليس ٠٠ والآن يمكننا حقا ان نستمتع بأنفسنا بقدر ما نحب »٠ وهكذا امضيت الليلة كلها تنتظر ان تراهم يأتون ويربطونك في سرير التعذيب ٠٠ غير انهم لم يأتوا ٠٠ وفي الفجر ، عندما دفعوك الى نفس السيارة مثل اليوم السابق ، كنت من شدة الانهاك بحيث لم تستطع الوقوف على قدميك ٠٠ فسرت نصف مغمض العينين ، وما عاد شيء يهمك بعد ذلك ، وما كنت تؤمل الا ان يعجلوا وان يعدموك بالرصاص في اى بقعة قريبة ، وليس في جودى ٠٠ ولقد افعم نفسك اغتباط شديد عندما شاهدت ان الطريق الواسع المظلل بالاشجار على جانبيه ليس هو الطريق الى جودى حمدا للسماء ! ها هم اولاء على الاقل قد اختاروا ثكنة في المدينة ٠٠ ولكن اية ثكنة ؟ ٠٠ وسألت مرة اخرى « الى اين تأخذونني ؟ ٠٠ « سنأخذك الى حيث تعدم بالرصاص يا ابله ! ٠٠ الى اين تظن اننا آخذوك ؟ لقد انتهت المهزلة ! » ٠٠ وبدلا من هذا اخذوك الى بوياتي ٠٠

ان اسطورة البطل لا تختتم بالمغامرة الكبرى التى تجلوه للعالم ٠٠ فى كل من الاساطير والحياة الواقعية فان المغامرة الكبرى لا تمثل سوى بداية المغامرة ، وفاتحة رسالته ٠٠ ثم تجيء في اعقابها فترة الاختبارات الكبرى ، ثم العودة الى القرية او الحياة المألوفة ، ثم التحـدى الاخير ، الذى يخفى شرك الموت ، الذى كان يتم دائما الافلات منه من قبل ٠٠ ان فترة الاختبارات الكبرى هى الاطـول ، وربمـا الاصـعب ٠٠ وهذا ناجم عن ان البطل يكون اذ ذاك وحيـــدا كليا مع نفسه ، مسـتهدفا بصورة لا تقاوم الى اغراء الاستسلام ، وكل شىء يتآمر ضده : التناسى من الآخرين ، الوحدة المطبقة الموغرة ، التكرار الممل لعذاباته ومكابداته٠ لكن ياويله اذا فشل فى قهر المحنة الثانية ، وياويله اذا لم يقاوم ، اذا هو استسلم : فان المغامرة الكبرى التى جلت معدنه تغدو بلا جدوى ، ورسالته حابطة ٠٠ لا بأس ٠٠ ان فترة اختبـــاراتك الكبرى اسـمها بوياتى هناك ، فى ذلك الجحيم الذى ضيع فيه أفضـل سنى وجودك ، قد تأكدت بطـــولتك ، ورســـخت اســطورتك ٠٠ وانت قد عرفت هذا ٠٠ ولقد ظلت حلقة بوياتى مناط اعتزازك بالانتصار على المستحيل، وكان الوقت الذى امضيته فيها قد كلفك اكثر من تبـــاريح التعذيب والساعات التى لبثتها فى انتظار اعدامك بالرصاص ٠٠ كنت تتحدث عن بوياتى مع كل احد حديث من اســتحوذت عليه كل الاستحواذ ، وكنت لا تمل تكرار نفس الاشياء لكل من سمعوها من قبـل او من لم يقدروها قدرها :

وكنت تعرض على كل انسان قصة رحلتك الى هذا الجحيم ٠٠ وما اكثر ما استمتعت بعلائم الذهول والاستفظاع على وجوه مسـتمعيك ، بل والتفكر حين كانت روح الدعابة عندك تجـد عنصرا فـكاهيا فى المأساة ذاتها ! ٠٠ والشىء الوحيد الذى لم تذكره قط كان الاسـتسلام الذى انهك قواك قبـل وصـــولك الى هنــاك ، والامل فى ان يعجلوا باعدامك : فلا يمكنك مرتين ان تطلب من الحراس ان يتصلوا تليفونيا بهازيزيكيس لكى يقدم ديكا الى اسكليتوس ! ٠٠

ان بوياتي تبعد نحو ثلاثين كيلو مترا من اثينا ، والطـــريق الذى يؤدى الى هناك يعرف بسهولة لانه محدد بعلامات كثيرة ·· لكنك لم تبصر العلامات ، فقد رحت تحدق بتبلد في الاســـفلت ، وفجأة انفتح الطريق الى مشهد فسيح من تلال داكنة : وفوق التل المقابل لاح مبنى شبيه بسجن ايجينا ، يحف به سور خارجي وابراج حراســـة وبنادق رشاشة فوق الابراج ، وقامت فوق البوابة لافتة بعنوان (سجن بوياتى الحربى) ·· وقد دلفت السيارة ووصلت الى منطقة مكشوفة بدت فيها ستة ابواب صغيرة مطلية باللون الاخضر وممتدة صفا واحدا ·· وحملك الحراس على النزول من السيارة ودفعوك فى اتجـــاه الباب الاخير الى اليسار ، وهم يتمتمون بكلام لم تعره اى اهتمـــام ، ثم طوحوا بك الى داخله بعنف شديد الى حد جعلك تنزلق على الارض مصدوما في مؤخرة رأسك ·· ان الصدمة دوختك ، حتى مرت بضع دقائق قبلما استطعت ان تنظر حولك وتستجمع جأشك ·· ترى اين انت ؟ فى زنزانة كمـا يبدو ·· وكالمعتـــاد كانت خالية : فلا سرير ، ولا مرتبـة ، ولا حتى بطانية ! ·· وكان الشيء الوحيد ، فى هذا الفراغ ، دلو المياه القذرة ·· على ان الفراغ لم يكن شديد الصغر ، ولنقل انه بقدر تسع خطوات فى سبع ! ·· وعن الحراس ؟ ·· لم يكن هنـاك احد ·· غريب ، فطبقـا للوائح فان الشخص المحكوم عليه بالاعـدام يجب الا يترك وحده باى حال ! ·· لكن ما الذى قاله ذلك الشخص ذو النظارة السوداء والانفاس الكريهة ؟ ·· « ها أنت وصلت ، فى بيتك » ·· قالها لك ثم اردف : « اذا سار كل شيء على ما يرام بالنسبة اليك ، فسوف تبقى هنا الى ان تنق » ·· ما الذى عناه بهذا الكلام ؟ ·· معناه انهم لن يقوموا باعدامك هذه المرة أيضا ؟ ·· مستحيل ! اللهم الا اذا كان قد تقرر وقف الحكم ! وقفه ليوم ،لاسبوع ، لشهر ! ·· ان الفكرة لم تمنحك اية فرحة : فمن اشق الشعور ان تعتاد من جديد فكرة البقاء على قيـد الحيـــاة بعد ان استسلمت فعلا لفكرة الموت ·· ولم تلبث ان جررت نفسك الى الحائط، لكى تريح ظهرك عليه ·· وتكومت هنـــاك ، بظهرك الى الحائط ، مادا ساقيك على الارض ·· ثم انشأت تدير النظر فيمـــا حـولك ·· قرب الباب كان هناك صرصور وكان يتحرك ببطء نحوك ·· واستمر يقترب الى ان صار على بعد قدم او نحوه من حذائك ، ثم توقف : كان سمينا ، اسود ، مقززا ·· فرفسته بقدمك قائلا : « تعال ·· تعال ! » ·· بيـد ان الصرصور سمع ، فقد استدار واقترب مرة اخرى ، ثم توقف قرب

كعبك الايمن ·· فجعلت تستحثه بقولك : « تعال الى هنا ! ·· هيا ! » ·
فتحرك الصرصور قيد بوصة او اثنتين ، متجنبا كعبك ، واستمر في
زحفه على جانب بنطلونك الى ان وصل الى ركبتك ، عندما توقف مرة
ثانية ، متحيرا ·· فانحنيت فوقه لملاحظته ·· كانت له سيقان طويلة
مشعرة وقرنا استشعار منتصبان ، غير ان الشيء المذهل فيه كان
اجنحته ! ·· ان سطح ظهره الصلب اللامع كان يخفي اجنحة جميلة ·
اذن فانه حتى الصرصور كان يستطيع الطيران ! ·· ولم تلبث ان
بسطت ذراعيك نحوه قائلا : « طر ! » ·· كلا ! ·· فقد رفض ان
يطير ·· « اقفز ·· على الاقل ! ·· اقفز ! » وبعد تردد كبير اعتلى
السلسلة المتصلة بقيد يديك ، ثم القيد ذاته ، ثم ظهر يدك اليمنى حتى
وصل الى قاعدة اصابعك ، حيث بدا انه يتردد مرة أخرى ، متشككا :
اى ممر يسلك ، وأى اصبع ؟ ·· وفجأة قرر اصبع الابهام ، حيث فقد
على غير انتظار توازنه ، وسقط على أم رأسه على الارض ·· لقد افلتته
منك ضحكة ·· وكان سماعها مذكيا فى نفسك لونا من السعادة : فمن
كان يفكر انك لازلت قادرا على الضحك ؟ ·· وببساطة لأن صرصورا
قد سقط عن ابهامك ! ·· ثم جعلت تمسح على رأسه برقة ·· وجعلت
تتساءل الى أى مدى يعيش صرصور ، والى اى مدى يمكن ان تطول
صحبته ، اذا لم يعدموك في الحال ! ·· وتساءلت ايضا ان كان يمكن
استئناس صرصور كالكائنات الاليفة ! ·· وانت طفل حاولت استئناس
خنفساء ونجحت تقريبا ·· لقد تزايدت سعادتك ·· اى حظ تلقاه لو
وجدت شخصا يمكنك ان تلعب معه ، وتتحدث اليه دون ان يحاسبك
احد او يؤنبك ، واى توفيق ! ·· مع صرصور يمكنك ان تقول اى شيء
يخطر ببالك ، وحتى هواجسك الخفية بان الشجاعة تولد من الخوف ،
وانك خلال هذه الشهور الاخيرة كثيرا ما شعرت بالخوف ، وتحقق
هذا الشعور خصيصا عندما وصلت فرقة الاعدام بالرصاص ·· انهم
لم يدركوا هذا ، بيد أن حمل نفسك على ان تبدو دائما هادئا وجسورا
كان جهدا مروعا : وأنت فى الزورق البخارى كنت لا تكاد تحتمل هذا
بعد ذلك ·· ومنذ ساعة واحدة كنت مازلت لا تقوى على احتماله ··
وكذلك منذ نصف ساعة ، ومنذ دقيقة · وكان البقاء على قيد الحياة
ما عاد يجتذبك ·· وفجأة ، بدلا من ذلك ، بفضل مخلوق ضئيل لم
يكن فى الظروف الاخرى الا ليقززك ، ادركت انك تريد ان تعيش ،
ومهما يكن من شيء فيمكنك ان تعيش أيضا فى زنزانة سعتها تسع

خطوات فى سبع ! •• وكل ما تحتاج اليه هو سرير ، وطاولة ، وكرسى، ومرحاض بالسيفون ، وصرصور ! •• وربما بضعة كتب ، بعض الورق، واقلام معدودة ! •• هذا اذا لم يكن فى نيتهم ان يعدموك ! •• بوسعك ان تدرس ، وتكتب وتنشىء القصائد : فلم تكن الانســـان الوحيد فى الدنيا الذى أجبر على دخول السجن ، وفى بعض الحالات يكون الوجود فى السجن لونا من الكفاح والجلاد •• ان نظم الحـــكم الدكتـاتورية الطغيانية تقاس بعدد السجناء السياسيين ، الا توافق على هذا يادالى ؟• لك ان تســـمى الصرصـــور ســلفادور دالى بسبب قرنى استشعاره الشبيهتين بالشارب ! •• واذ استقر رأيك على تسميته بهـذا الاسم لبثت تتحدث معه الى ان دار المفتـــاح فى القفل ودخـل ســتة جنـود بالطعام •• وبقى دالى مكانه لطيفا وهادئا ، خافضا قرنى استشعاره •• لعله سئم حديثك ونام ••« حاسبوا على دالى يا بابا دوبولاكى ! » •• « نحاسب على من ؟ » •• قالها الجندى حامل الصحيفة •• « صـديقى دالى » •• الصرصور •• فقال الجندى وقد التوى فمه بتقلص اشمئزاز: « آه ! » •• وبحركة مداهمة من قدمه سحق الصرصور ! •• ولم يبـق على الارض سوى نقطة غليظة مبيضة ! ••

لقد اعتدت ان تقـــول ان ما اكربك لم تكن هى النقطة الغليظـة المبيضة فى حد ذاتها •• انما كان شدخ ظهر الصرصـــور تحت حذاء الجندى ! •• ومع هذا الشدخ الصوت الأجش الذى قدرت انك سمعته: وكأن الصرصور وهو يموت قد اطلق صرخة الم ! •• قلت انك شعرت او كدت تشعر بانهم سحقوا مخلوقا له ذراعان وساقان ، لا صرصورا ، وان فكرة فقده عندك جعلت الدم ينـدفع الى رأسـك لانها فجأة أعادت اليك الوعى بوحدتك ، وصورة الزنزانة الخاوية المزودة بدلو مياه قذرة ولا شىء غير هذا ! •• قلت ان كل هذا الامور ابتعثت فى نفسك حنقـا وحشيا وردت اليك نشاطك ، حتى صرخت : « يا قاتل ! » •• وبتلك الصرخة الســـقيمة القيت بنفسك على الجنـــدى ، تلطم وجهه بقيدك الحديدى •• ان صحفة الطعام قد طارت مرتطمة بالحـــائط ، وهوى الجندى الى الخلف •• ثم اندفعت مهاجما الجنود الخمســة الآخرين ، تركل احدهم فى بطنه ، وتدس مرفقك فى معدة الثانى ، وتعصر انف الثالث ، حتى كان الموقف اسوأ من قذف عود ثقاب مشتعل فى غابة فى الصيف : ففى بضع ثوان تكأكأ الجميع فوقك ، حتى استحال وجهك

الى قناع دموى احمر ·· وجاء قائد السجن أيضا ، وفى ثورة غضبه لم يستطع ان ينطق بكلمة ·· من هذا الذى ارسلوه اليه ، ومن يكون ؟ ·· مجنون ! ·· مجنون ! ·· وجعل يردد هذه الكلمة دون كلل ·· طوال خدمته المديدة قد شاهد كل الانواع ، لكن لم يصادف قط وحشا يحاول ضرب حارس مسكين كلف باحضار الطعام اليـه ! ·· وما الذى فعله الحارس ؟ ·· قتل صرصورا ، وصـــنع فيك معروفا ! ·· وهكذا فان رجال المباحث كانوا محقين فى قولهم انك حيوان مفترس ، وانه لابد من معاملتك بقسوة متناهية ، بالاسلوب الذى يعاملون به الحيـــوانات المفترسة فى حديقة الحيوان ! ·· وهو شـــخصيا يعارض مثل هذه الاساليب ، بيد أنه ادرك انه اصـبح غير مخير ، وأن له ان يوقع كل نوع من العقوبة عليك ·· وكبداية فهو لن يعطيــك السرير الذى كان ينوى ان يعطيه لك ، على الرغم من الاوامر ·· لا ولا جرائد او كتب او اوراق او قلم ، طبقا لما قالوه لك من اتبــاع اقصى الشـدة ، حتى ولا السماح لك بالمسعى يوميا فى الهـواء الطلـق ، ولا زيارات عائلية ·· والقيد الحديدى اربع وعشرون ساعة يوميا ، لأنك اذا كنت حاولت جرح الناس بيديك المقيدتين ، فما الذى يمـكن ان تقـدر على فعله بيـدين طليقتين ؟ ·· انك كنت تنصت اليه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ولكن فى الحقيقة كنت تزن كل جملة باهتمام بالغ : آه يا يسوع ! ·· اذا كان يعلن عن اتخاذ اجراءات تأديبية ، فمعنى هذا انهم لن يقـوموا باعدامك رميا بالرصاص ! ·· وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى يعنيك فى يومك هذا ، اما غدا فقد يمن عليك قديس ما بالمســاعدة ·· لكن غدا هو يوم آخر ··

★★★

غدا لا يكون يوما آخر عنـدما يكـون الوجود مجـردا من كل شىء انسانى ·· لقد لبثت هناك شهرا ، وقد جاءت لحظات لم تكن تستطيع فيها ان ترى اى فرق بين الوجود على قيـد الحيـاة وبين الموت ، وكنت لا تعرف انك حى الا بالتنفس ·· وأول كل شىء هو الزنزانة ·· كانت رطبة ، باردة ، لانهم لم يعطوك حتى موقد تدفئة ، وكانت فاسدة الهواء ولا تطاق رائحتها لان الدلو لم يكن يفرغ الا يوما بعد يوم ·· وعنـدما كان الحراس يدخلون كانوا يكتمون انفاسـهم أو يضـعون منديلا فوق الانف والفم حتى تحتقن وجوههم ، ويجـرون الى الخـارج للقىء ·· وكنت انت معتادا على هذه الرائحة النتنة ، لكن ما أن يفتح الباب ويندفع

هواء نقي حتى تدرك الفرق ، واحيانا ما يغلبك الغثيان ، ولا تستطيع ان تزدرد لقمة . ثم ان غياب سرير ضاعف عذابك .. وعلى الرغم من ان الحال في مقر ادارة المباحث أو في جزيرة ايجينا كان هو نفس الحال ، فانك لم تستطع ان تروض نفسك على النوم على الارض مثل كلب اجرب .. يضاف الى هذا ان الارض كانت قارسة البرد ، والبلاط مغطى بالتراب العفن ، وكان هذا حقيقا الا يساعد فى شفاء ما بك من برد وسعال مزمنيين .. ثم كنت بلا وسادة .. ومرة صرخت تطلب وسادة ، غير ان باتسوراكوس ، وهذا اسم قائد السجن ، اعارك أذنا صماء ، خوفا من ان يتهمه رؤساؤه باللين والضعف .. وقد استغنيت عن الوسادة بطى سترتك تحت رأسك ، وبدون السترة كنت تجمد من البرد .. ولكى تتفادى التجمد كنت تقطع نومك ، فتقوم ، وتروح تتمشى جيئة وذهابا ، ولكن بعد فترة كنت تشعر بتصلب فى ساقيك فتضطر الى التمدد ثانية على الارض والجلوس وظهرك الى الحائط من جديد ، واسنانك تصطك وانت تنتظر الشمس .. ولم يكن معنى هذا انك كنت ترى الشمس : فانهم وضعوا قطعة من الورق المقوى على النافذة .. ومع ذلك كان بوسعك ان تشعر بدفئها ، وكنت اكثر نفاد صبر فى انتظار دفء الشمس منك انتظارا للطعام .. وما كنت تهتم كثيرا بالطعام لان مشهد الصحفة على الارض كان يقززك ولانك لم تكن تستطيع ان تعالج الأكل والقيد فى يديك .. .. القيد ! .. كان العذاب الاكبر فى القيد : كان القيد لا يزال يطوق يديك .. وفى أول يوم حسبت انهم سيرفعونه عنك .. من المؤكد انهم لن يبقونى فى السجن والقيد فى يدى ، انهم لا يجبرون أى سجين على البقاء بالقيد فى يديه ، ولابد ان هذا سهو .. نعم ، لقد نسوا أن يرفعوا القيد من يدى ، وعندما جاء الحارس لافراغ دلو المياه القذرة مددت اليه ذراعيك قائلا : « القيد يا بابا دوبولاكى .. انك نسيت القيد » .. غير ان الحارس لم يرد .. وبعد أن مر اسبوع ، شرح لك الموقف قائلا ان الاوامر المشددة تتعلق بالقيد خاصة .. « ان القيد ظل فى يدى منذ ١٣ اغسطس ! » .. « ليس عندى ما أقوله لك فى هذا يابناجوليس .. انهم طلبوا منى ان افعل هذا ، ولابد لى من ان افعله » .. وما كانوا يرفعون القيد من يديك الا لفترة عشرين دقيقة كل اربع وعشرين ساعة لكى يمكنك استخدام الدلو ، وما كانت تلك الدقائق العشرون تتوافق قط مع اللحظه التى تريد فيها قضاء الضرورة ! .. وكانت عملية انزال

بنطلونك بمثابة تمرين رياضي دقيق ومعقد ، فان السلسلة التى تربط حلقتي القيد الفولاذيتين كانت بطول ثلاثين سنتيمترا ٠٠ اما الحلقتان ذاتهما فكانتا من شدة الاحكام الى حد ادى الى خدش معصميك ونزف الدم والصديد من الجروح بلا انقطاع ٠٠

ومع ذلك فان هذه الامور كلها لم تكن هي ما يثير حنقك ٠٠ انما كانت هي الوحدة ، العزل ! ٠٠ فلم تكن لديك ادنى فكرة عما كان يحدث في الخارج فيما وراء السور او في السجن ذاته ، بل ما كنت تعرف كم من السجناء يضمهم السجن ومن هم الرجال فى الزنزانات المجاورة ٠٠ كان الاناس الوحيدون الذين تقع عليهم عيناك هم الحراس الذين كانوا يجيئون لاحضار طعامك او لافراغ الدلو ، وسواء حييتهم بحفاوة او شتمتهم فانهم ما كانوا يفتحون افواههم ابدا ٠٠ كان محظورا عليهم الكلام ، ولكى تسمع صوت متكلم يختلف عن صوتك ، كان عليك ان تنتظر صدى صوت شجار او غفاء من ان السكون المطبق حطم اعصابك او كاد ، وجعلك في اوقات تحن الى التحقيق معك والى جزيرة ايجينا ٠٠ وقد اعتدت ان تقول : الموت يمكن مواجهته . والتعذيب يمكن احتماله ، لكن ليس الصمت والسكون ٠٠ وأول الامر لا يبدو هذا شيئا ضارا ، وبالعكس ، يبدو انه يساعدك على التفكير اكثر وأفضل ، لكن سرعان ما تدرك انك فى الصمت تفكر واقعيا اقل واسوأ ، لان الذهن ، وهو يعمل اعتمادا على الذاكرة ولا شيء غيرها ، يغدو فى حالة افتقار ٠ ان الانسان الذى لا يتكلم مع احد ولا احد يتكلم معه هو اشبه ببئر ليس لها مورد يغذيها : شيئا فشيئا يصبح ماؤها آسنا ، عفنا ، ثم يتبخر ٠٠ يالشناعة الوحدة ، والعزلة ! ٠٠ كم اوحشك دالى ، الصرصور ! ٠٠ لقد افتقدت دالى الى ابعد حد ، حتى لقد بدأت تقلق على سلامة عقلك : فقد يبكى الانسان محقا لموت كلب ، أو قط ، لكن ليس لموت صرصور ! ٠٠ ويا طول ما خدعت نفسك ظنا بان صرصورا آخر قد يظهر ! ٠٠ بيد انك لم تجد شيئا سوى (زبلة) فأر ٠٠ وشد ما اثار هذا انفعالك ٠٠ فكم يكون اغتباطك بوجود فأر : وهو افضل من صرصور على كل حال ٠٠ فان الفئران ذكية ، نشطة ، يسهل استئناسها ! ٠٠ لكن سرعان ما خاب هذا الامل ٠٠ فلم يكن ما رأيت (زبلة) فأر ، كانت (زبلة) عنكبوت ! ٠٠ بدون عنكبوت ٠٠ كلا ٠٠ ليس ثمة مطلقا شيء حي فى هذه الزنزانة ! ٠٠ الصمت وحده ! ٠٠ طبعا لو انهم اعطوك كتابا او صحيفة ، فان عملية القراءة كان يمكن ان

تساعد فى تمرين ذهنك ، وان تكون بمثابة حوار مع الكلمات المكبوتة على الاقل ٠٠ بيد أن هذا الحظر استمر ، وكان يغذى الصمت ، والملل، والضيق ٠٠ ياللضيق ! ٠٠ لو انك حبست بين اربعة جدران مع دلو عفن ولا شيء غير هذا ،فحتى الفراغ والكسل يكونان عذابا ، والدقيقة تبدو مثل اعوام ، وتفقد كل احساس بالوقت ! ٠٠

انك لم تعد تعرف كيف تحسب الوقت ٠٠ كنت بلا ساعة ٠٠ ولم يعيدوا ساعتك اليك بعد اعتقالك ، وكانت تجيء لحظات لاتستطيع فيها ان تعرف اذا كان الوقت صبحا أو بعد الظهر ٠ وكنت تظل تسأل نفسك كم تكون الساعة ؟ ٠٠ فى مقر الادارة العامة للمباحث (اى ٠ اس ٠ ايه) لم تسأل نفسك قط هذا ، فما كان لك ان تهتم بسماعهم يقولون ان الساعة هى التاسعة صباحا أو الخامسة بعد الظهر ، ولم تسأل ابدا عن الوقت أثناء المحاكمة كذلك ٠٠ لكن فى بوياتى كان الفضول لمعرفة الوقت يلتهمك بعنف وتشنج ، وكان اولاد الحرام هؤلاء يرفضون ان يخبروك ٠٠ « كم الساعة الآن ؟ » ٠٠ سكوت ! ٠٠ « قولوا لى : كم الساعة الآن ؟ ٠٠ » ٠٠ سكوت ! ٠٠ وكان ألسنتهم قد قطعت ! ٠٠ لكن كان اسوأ من هذا شيء آخر : فقد فقدت ايضا حساب الايام ، والاسابيع ، والشهور ٠٠ فى خلال الاسبوع الاول ، عندما كان يحل الظلام ، كنت تجعل خدشا على الباب ، ولكن بعد الخدش الثامن مرضت ولم تعمل علامات اخرى ٠٠ « فى أى يوم نحن ؟ ٠٠ فى أى شهر نحن ؟ » ٠٠ سكوت ! ٠٠ وعبثا كنت تنحاز الى الغضب ٠٠ كنت تصيح : « ردوا على ، بحق يسوع ! ٠٠ اى فرق بالنسبة لكم ؟ ٠٠ » ٠٠ سكوت ! ٠٠ وعندما قررت ان ثلاثة اشهر على الاقل قد تعاقبت ، لم تلبث ان اكتشفت بمحض الصدفة انه لم يمض سوى شهر واحد فقط ٠٠ كان ذلك يوم ان جعلوك تخرج من الزنزانة لاول مرة : « اخرج يا بناجوليس ٠٠ الى الخارج ! » ٠٠ « ما هى الحكاية ؟ ٠٠ ماذا يحدث ؟ » ٠٠ « زائر » ٠٠ « من ؟ » ٠٠ « سوف ترى » ٠٠ ووصلت الى غرفة الزوار مترنحا من الضعف ونصف اعمى بسبب ضوء الشمس ٠٠ ماذا لو كان الزائر امك ؟ ٠٠ انك لم ترها منذ سنتين تقريبا ، اثر هروبك من الجيش ٠٠ وكانت امك فعلا ! ٠٠ وقفت بمعطف يوم الاحد وعمامتها الصغيرة ، اشبه بامرأة فلاحة فى زى يوم عطلة ٠٠ لكن لماذا لم تسلم عليك ؟ لماذا اشاحت عنك بنظرها ؟ ٠٠ لقد اقتربت من الباب الحديدى ذى القضبان لكى تناديها ، بيد ان الانفعال

حنقك ولم تقو شفتاك على الحركة ·· فسعلت ·· فاستدارت ، ورنت اليك هنيهة بصورة عارضة ، ثم اشاحت عنك مرة اخرى ·· وبعد ثوان قلائل خاطبت الحراس ساخطة : « حسن ·· هل سيأتى ام لا ؟ ·· » · « هو هنا ! ·· الا يمكنك ان تريه ؟ » ·· فصافحتك عيناها مرة اخرى ثم تجاوزتك ، بحثا عن شخص يفترض ان يـــكون ماثلا هنا وهو غير ماثل : ذلك الهيكل العظمى الابيض ، بالفجوات الغائرة المحتقنة تحت العينين ، والقيود حول معصميه الناحلين ، لم يكن يشـــبهك حتى فى الملامح ! ·· « لا ·· اين هو ؟ » ·· وقتها اســـتجمعت صـوتا واهنا وقلت : « انا هنـــا » ·· وعلى الاثر رجت صرخة ارجاء الغـــرفة وهى تقول : « يا قتلة ! ·· ماذا فعلتم به يا قتلة ؟ ·· » ·· ما كنت لتصدق ابدا ان امك قادرة على البكاء ·· انك لم تلمحها ابدا بدمعة على اهدابها · اما الآن فكانت تبكى ، وقد مضت فترة قبلمـــا استطاعت ان تهـــدأ وتتكلم ، فترة قبلما تهيأ لك ان تتذكر كم هو جميل ان تســـتمع الى صوت آخر ·· نعم ، طبعا كان عندها الكثير والكثير لكى تقوله لك : فقد قبض عليها ايضا كما قبض على ابيك ، فهـل عرفت هذا ؟ ·· ثم افرج عنهما يوم ٢٤ نوفمبر ، ولم يكن معافى ، فان تلك المائة والثلاثة ايام من المعاناة بدا انهـــا نالت منه اى منـــال ! ·· » لـكن ليس لك ان تقلق ، فهو الآن احسن صحة · وبالمناســـبة ، فهو لم يعرف انك فى السجن ، بل انه لم يعرف حتى انك وقفت امام المحكمة ، اذ أنها حجبت هذا عنه ·· اما بشأن حكم الاعدام ، فقد اوقف ·· نعم انه ســـوف يبقى ساريا لمدة ثلاث ســنوات ، غير ان كل انســـان متـأكد من ان بابادوبولوس لا يرتضى اعدامك ، على الرغم من يوانيديس : ففى اوربا كلام كثير عنك ، وقد اصبحت رمزا ، واسمك على كل شفتين ·· وهذا هو السبب فى انهم سمحوا لها فى النهـــاية بان تأتى لزيارتك ، وفى هذا الصباح ســـمح لهـــا باتســـوراكوس بان تأتيك ببعض الطعـام ، ولا سيما ان اليوم التالى لغد ــ وهنا قلت لها مقـــاطعا : « فى أى يوم نحن ؟ » ·· « انت لا تعرف التاريخ ؟ ٢٣ ديســـمبر ! ·· وبعد غد هو عيد الميلاد ! » ·· « عيد الميـــلاد ؟! ·· تعنين اننى بقيت هنا شـــهرا فقط ؟ ·· » ·· « نعم ، طبعا ، نعم » ··

كان من اثر هذا الاكتشـــاف ، هذا القصـــور الفـــاحش ، انك تمردت ·· كلا ! ·· لا يمكن ان يدوم الحـــال على هذا المنوال ·· ان الانسان لا يمكن ان يحيا دون ان يكون له حتى ادنى علم بالوقت ! ··

ان (زبل) الصراصير او العناكب ليس هو الحل : لابد لك من الهروب ! ٠٠ لكن في خلال ذلك يتعين ان تلقى معامله انسانية ٠٠ كنت تريد سريرا بحق يسوع ، وساعة ، ومرحاضا نظيفا ، وصحفا كل صباح ! ٠٠ كنت تريد منهم ان يكلموك ايضا ! ٠٠ اى حكم يقضى بان تكون وحيدا على الدوام ، بلا ساعة تتابع بها الوقت ، بلا تقويم تعرف منه في اى يوم انت ، ودون اى احد يرد على اسئلتك او يقول لك كلمة ؟ ٠٠ ما الذى اعطى يوانيديس الحق ليقتص لنفسه منك لانك لم تعدم ولم تدفن ؟ ٠٠ لك ان تضرب عن الطعام ، ولك ان تستمر في الاضراب الى ان تغيب عن الوعى ، واذا لم يسلم باتسوراكوس ، فسوف تنتقل المشكلة الى بابا دوبولوس ، وخير من ان يثير غضب الرأى العام ، فسوف يمنحك كل ما طلبت ٠٠ ومن المؤكد ان البدء بالاضراب عن الطعام مع وجود كل الطعام امامك ليكاد يكون هو الجنون ٠٠ لقد اخذك العجب مما جاءت به امك اليك ! ٠٠ آه ! ٠٠ ان هذا الارنب لابد ان يكون لذيذا حقا ، وهل كان هناك اى طبق تحبه أكثر من ارنب ؟ ٠٠ ربما اكباد الخنزير ! ٠٠ ياللصدفة ! ٠٠ هذه كبد خنزير أيضا ، مطهو باوراق الغار ! ٠٠ ماذا أيضا ؟ (يخنى) ! ٠٠ لو كان لك ان تختار بين الارنب واكباد الخنزير واليخنى ، لشق الامر عليك اكثر مما شق على (باريس) عندما كان عليه ان يعطى التفاحة لأجمل آلهة : فكم مضى منذ ان اكلت طعاما مثل هذا ؟ ٠٠ ثم ان الطعام كان يكفى مدى ايام ، وهل تكفى ثلاثة أيام لاستهلاك جزء منه ؟ ٠٠ اليوم للاكباد لانها تفسد بسرعة ، وغدا (اليخنى) ، والا فقد يحمض ، والارنب لعيد الميلاد ! ٠٠ ان تفاحة (باريس) ذهبت الى الارنب : محمر تماما ، وفائح بدقيق الساغو ! ٠٠ ومن بعده يكون الاضراب عن الطعام ! ٠ وعلى مدار يومين حشوت بطنك الى حد الامتلاء ، حتى اذا حل عيد الميلاد لم تستطع ان تجد مكانا لشرب قهوة ٠٠ كان من الصعب الا تستمتع بعيد الميلاد بأكل الارنب ، ولكن اليوم التالى ينبغى ان تكون لك ، حتى قلت : « مهلا قليلا ! ٠٠ وصبرا جميلا ! ٠٠ سنؤجل الاضراب عن الطعام اربعا وعشرين ساعة فقط ، اليوم لا يمكنني ان اتداولك ، سامحنى ! ٠٠ » ٠٠ وعندئذ رحت وانت قرير العين تنتقل بخطوات راقصة فيما بين الباب والحائط المقابل على انك عند الدورة الرابعة توقفت ، مقطبا ٠٠ غريبا ! ٠٠ هناك شيء مختلف في الباب : فضوء النهار لم يتسرب من ثقب الباب كما كان يحدث عادة ٠٠ لماذا ؟ ٠٠

اقتربت منه ، ووضعت جبينك عليه ، وسرعان ما وثبت راجعا :
فهناك ، على الجانب الآخر للثقب ، كان ثمة عين تراقبك ! ٠٠ سحقا
لهذا ! ٠٠ انهم ابصروك وانت تحاور الارنب المحمر ، وترقص ،
وتتصرف كشخص معتوه ! ٠٠ ياللارتباك ! ٠٠ يا للعار ! ٠٠ من
يكون ؟ ٠٠ وماذا يهم من يكون ، ولابد من عقابه ! ٠٠ ورفعت ذراعيك
المقيدين ، ودفعت بسبابتك اليمنى فى الثقب ، واذا صرخة الم ترد
عليك ، واعقبها (كوراس) من الاصوات المنفعلة : « بسرعة ، الى
المستوصف ! انه اصابه ! ٠٠ انه اعماه تقريبا ! ٠٠ ماذا تقصد
بتقريبا ؟ ٠٠ انه اعماه فعلا ! ٠٠ ذلك الحيوان ، ذلك الوحش ! ٠٠
فلنعلم هذا الحيوان درسا ! » ٠٠ وقال صوت آخر : « لا ٠٠ لا ٠٠
بامكانى ان ارى ٠٠ احلف انه يمكننى ! ٠٠ كان هذا مجرد حادث ! ٠٠
انه لم يفعلها عامدا ٠٠ اقول لكم اتركوه وشأنه : هذا عيد الميلاد ! ٠٠ »
لكن بلا جدوى ٠٠ فقد دفع باب الزنزانة دفعا ، وهجم سبعة منهم الى
الداخل ، مهتاجين ، مصممين على الانتقام للاساءة ٠٠ « يا حيوان ٠٠
يا حيوان قذر ٠٠ ياوحش ٠٠ سنهديك عيد الميلاد ! » ٠٠ وبدا انهم
فجأة استردوا حبالهم الصوتية من جديد ، وتحطم فجأة صمت شهر ،
لكى يصم اذنيك وسرعان ما لم يكن الامر مجرد صراخ : بل ذهبوا
يضربون فى الصميم ! ٠٠ كلهم جميعا ، السبعة بأسرهم ! ٠٠ وبسبب
تخبطك فى القيد الحديدى لم يمكنك حتى أن تدافع عن نفسك ،
وسرعان ماجعلوا منك كومة صغيرة من الخدوش والرضوض ملقاة على
الارض ، فيما بين الارنب المنسحق بالاقدام والبراز المتناثر من الدلو
المقلوب ! ٠٠

عيد ميلاد سعيد ! ٠٠ عيد ميلاد سعيد ! ٠٠

★★★

ومع ذلك ، وعلى النقيض مما كان ، فان عملية الضرب فى عيد الميلاد
جعلت الامور أيسر ٠٠ لقد جعلت أول اضراب لك عن الطعام فى بوياتى
محتملة تقريبا ٠٠ فى عملية الاضراب عن الطعام فان البداية فى الواقع
هى التى تكون صعبة ٠٠ ايامها الثلاثة الاولى ٠٠ فاذا انقضت يحل
ضعف مشتد ، وتتلاشى كل رغبة فى الطعام ٠٠ وهكذا ، فانك اذا بدأت
اضرابك عن الطعام بعد (علقة ساخنة) دوختك ، فلن تلاحظ حتى ان
معدتك خاوية ، ويكون آخر شىء تريده هو الطعام ، وهذا هو ما فعلته
منذ ان انصرف عنك الجنود السبعة : اذ لبثت اثنتين وسبعين ساعة

ترفض حتى الماء ·· بعد ذلك قبلت فنجانا صغيرا من القهوة ، وبعدها استأنفت اضرابك من جديد الى ان غرقت فى اعياء عميق حتى فقدت وعيك ، وكانت هذه هى الحالة التى وجدك عليها طبيب المباحث (اى · اس · ايه) : وهو نفس الرجل الذى حاول مساعدتك فى يوم القبض عليك ·· لقد كنت فى هذه المرة نصف ميت لانك لم تذق طعاما طوال اسبوعين ·· وفجأة شعرت بوخزة حقنة فى ذراعك ، ودفق حرارة اجرى دمك ، مقترنا باحساس من الرضى ·· ولما رفعت اجفانك اذا هو قائم فوقك بوجهه البادى الدهاء وعينيه الصغيرتين البارقتين بالتواطؤ والسخرية ·· « أهلا يا اليكوس » ·· « من انت ؟ » ·· « انت تعرفنى ·· طبيب ·· واسمى دانا روكاس » ·· « ماذا تريد ؟»· « مساعدتك » ·· « مثل ذلك الطبيب الآخر الذى يراقب عمليات التعذيب ؟ » ·· « انا لا أراقب اية عمليات تعذيب » ·· « كذاب ! » · فرد بأن دس قطعة شكولاتة فى فمك وقال : « قل لى لماذا لا تريد ان تأكل ؟ » ·· « لاننى اريد تقويما ·· ساعة وتقويما ·· واريد منهم ان يتكلموا معى ! » ·· « هذا لا يكفى ·· اى شىء آخر ؟ » ·· « اريد ان يرفعوا قيودى » ·· « لايزال هذا غير كاف ·· ثم ماذا ؟ » ·· « اريد ان يعطونى سريرا » ·· « لا يزال هذا غير كثير » ·· « مرحاض نظيف » ·· « هذا افضل ·· ان طلبت شيئا واحدا فقط لن يعطوك اياه ابدا ·· ان طلبت اشياء ، كثيرة ، اعطوك واحدا منها ·· او اثنين ·· سأبلغ ·· فى خلال ذلك خبىء قطعة الشكولاتة هذه ·· ستنفعك فى المرة التالية » ·· وانصرف بقائمة المطالب ·· وفى اليوم التالى وصل السرير ·· وبعد يومين ظهر جندى له وجه وديع ودود وقال : « صباح الخير يا اليكوس » ··

لقد عهدوا اليه يوم عيد الميلاد بحراسة زنزانتك ، دون ان يخبروه بهويتك ·· كل ما أبانوه له هو انك مجرم خطير جدا جدا ، وان عليه الا يقول لك حتى كلمة واحدة ، فأدى هذا الى اثارة بالغ فضوله : اذ بدأ بمراقبتك من ثقب الباب لكى يرى كيف يبدو المجرم الخطير جدا ، وعلى الاثر تلقى اصبعا فى عينيه ! ·· والآن رحت تفحصه بعداء : « من انت ؟ » ·· « انا الذى ادخلت اصبعك فى عينيه » ·· « هذا يعلمك كيف تكون جاسوسا » ·· « انا لست جاسوسا » ·· « كل الجواسيس يقولون : انا لست جاسوسا » ·· فابتسم الجندى الصغير ، ودون ان يرد يمم شطر الدلو للذهاب به ·· ماذا لو كان مخلصا ؟! ·· كان عليك

أن تثيره ، لكى تتأكد ·· «ارى انك تحب جمع البراز يا بابا دوبولاكى»·
« لا ·· لكن يسرنى ان اجمع برازك يا اليكوس ·· لاننى معجب بك » ·
آه ياربى ، يبدو انه مخلص ·· وانتظرت الى ان عاد بالدلو المنظف وبدأت تعذيبه من جديد : « فك بنطلونى يا بابا دوبولاكى ! ·· اريد ان اتبول » ·· فابتسم ثانية ، بوداعة ·· ثم وضع الدلو النظيف ، وفى رصانة فك بنطلونك ·· « ساعدنى الآن لكى اتبول » ·· « لا يا اليكوس ·· ليس هذا ·· هو غير لائق ·· سارفع عنك القيد ، ويمكنك ان تفعلها بنفسك ·· » ·· « رآه ·· ! هل اعطوك اذنا بان تفك قيودى يا بابا دوبولاكى ؟ » « لا ·· لم يعطونى اذنا ، غير اننى كنت اريد ان افعل هذا منذ فترة طويلة » ·· « انا لا اصدق هذا » ·· « لا تصدق اذن » ·· عندئذ خففت من لهجتك ، وقلت له : « لماذا لم تتكلم معى قبل الآن ؟ » ·· « لاننى لم اكن اعرفك » ·· « أو لانه لم تكن عندك الشجاعة ·· لانهم قالوا لك ان الكلام معى ممنوع ؟ » ·· « كنت اعرف انه ممنوع ·· ومع ذلك ، ففى الايام القليلة الماضية ، عندما كنت تهذى ، كنت اكلمك طول الوقت ·· والآن ، هل تريد ان ارفع القيد من يديك ، ام لا ؟ » ·· « اذا رفعته ، فسوف اهرب » ·· « اذا هربت ، فسوف يقبضون عليك ، وبدلا منى سيرسلون شخصا آخر لا يكون صديقا لك » ·· فمددت اليه معصميك ، ورفع عنهما القيد ·· « ماذا لو اننى سرقت مفاتيحك الآن ومسدسك ؟ » ·· « لا ·· لا يمكن أن تفعل هذا » « ولم لا ؟ » ·· « لأن هذا يكون حماقة ·· هل تريد ان تتبول ام لا ؟ » ·· ولما لم يشف هذا الرد غليلك اخذت تتبول ، وفى نفس الوقت رحت تفحصه بزاوية عينك ·· كلا ! ·· انه لا يكذب ·· وبعد تردد يسير مددت اليه معصميك مرة اخرى حتى يستطيع ان يرد القيد فيهما ·· وفى معصم يدك اليمنى ، الاكثر اصابة ، كان الجرح قد اكل اللحم وغار الى العظم ·· « ما هذا ؟ ·· لابد من علاجك يا اليكوس ، وتضميدك ! » ·· « ضع القيد مكانه يا بابا دوبولاكى ، وكف عن التمثيل » ·· « انت غير عادل ·· لا يمكن ان اضع القيد فوق جرح مثل هذا ! ·· ساذهب لاحضار بعض الدواء حالا ، وساضمد يدك » ·
« لا » ·· « ساذهب على اى حال » ·· وذهب ، ثم عاد بعد ساعة ومعه مرهم وضمادة ·· « انك غبت وقتا يا بابا دوبولاكى ·· هل ذهبت وقدمت تقريرا عن نشاطك ؟ » ·· « كلا ·· اننى تمشيت وقتا لكى اعطيك فترة اطول لبقاء يديك بلا قيود » ·· وبعدئذ وضع المرهم على

الجرح وضمده ثم رد القيود الى مكانها ، بسمات اقنعتك اكثر من اى كلام ٠٠ « شكرا يا بابا دوبولاكي » ٠٠ « اسمي ليس بابا دوبولاكي ! ٠ اسمي موراكيس ٠٠ العريف موراكيس » ٠

استغرق الامر منك قرابة شهر لكي تقتنع بانه غير كاذب ، وفي خلال هذا الشهر كثيرا ما كنت تبدى القسوة ، على نحو ما كنت تجيد ان تسلكه كلما اردت ان تتأكد من صحة ما تبغيه ٠٠ وفي النهاية اقتنعت بسلامة طويته ٠٠ وكان متفانيا لك الى حد بالغ ٠٠ وجاءت لحظات سألت فيها نفسك كيف كان متهيأ لك ان تدبر امرك بدونه : اذ كان هو الذى ـ فضلا عن افراغ الدلو حتي ثلاث مرات يوميا ـ كان يجيء لك بالصحف ، والاقلام ، وورق الكتابة الذى تردد باتسوراكوس في منحه لك ٠٠ لا لأن باتسوراكوس كان مستبدا ، فانه منذ فترة سمح لك حتى بمقابلة والدتك في الكنيسة بدلا من غرفة الزائرين المشبكة بالقضبان ٠٠ ومع ذلك فان الحراس ضبطوك يوما وانت تمرر لها مذكرة ، ولكي لا يقع في مشاكل مع يوانيديس ، فان موراكيس لم يعد يأتيك بالصحف والاقلام والورق ، وكل شيء اكتسبته بفضل الاضراب عن الطعام الذى حال الطبيب دانا روكاس دون استمراره ٠٠ وتركوا لك السرير ، وكان هذا كل شيء ٠٠ ومع ذلك فانه رفع القيد عن يديك ، مجازفا بضبطك كل مرة ، وهذا ما اقنعك بانه يمكنك حقا ان تثق به ، وان تعترف له بانك تريد الهروب ٠٠ انه لم يبد دهشة ، وقال : « اعرف هذا ، لكنه امر صعب جدا » ٠٠ « كلا ، كل ما اريد هو كسوة عسكرية ، هل عندك واحدة ، هل عندك واحدة ؟ » ٠٠ « عندى كسوة اضافية للمناسبات التى اخرج فيها باذن » ٠٠ فاخذت قياسك ، واخذت قياسه ٠ فكان اقصر منك طولا ، وكتفا اقل عرضا ، ولكن عموما كانت لكما نفس البنية ٠٠ وقلت له : « لا بأس ٠٠ ستعطيني كسوتك الاضافية وتلبس الكسوة التي عليك ٠٠ « انا ؟ » ٠٠ « سوف تاتي معى ، طبعا » ٠٠ « لكنني ـ » ٠٠ « لا تظهر بوجهك هكذا ! ٠٠ سيكون امامك وقت كثير للاعتياد على الفكرة ٠٠ وفى البداية لابد لى من استرداد قوتى ٠٠ انني مازلت فى منتهى الضعف بحيث لا استطيع الوصول الى البوابة » ٠٠ « ومتى تفكر فى ـ » ٠٠ « لا اعرف ٠٠ لا داعى للاستعجال ٠٠ الآن هات لى عشاء صحيا » فجاء به واكلت بشهية ٠٠ وكل يوم كنت تاكل مثل هذا : وكنت مثال الوداعة الى حد ان باتسوراكوس سمح لك بطاولة ، وكرسى ، وفسحة من الوقت للخروج

الى الفناء ·· وكان الشيء الوحيـــد الذى لم يفعله هو رفع القيـد من يديك : فان ادارة المبـاحث (اى · اس · ايه) ضـــنت عليـه بهـذا الترخيص ·· وسواء بقيود او بلا قيـــود ، فانك تحســنت بسرعة ، وبحلول الربيع كانت جروح معصميك قد التأمت او كادت ، واستردت بعض وزنك ، بل تهيأ ان يسمع غناك بصــوت رخيم لتلك القصـــيدة التى انشأتها اثناء الاسبوع الذى أجلت فيه جلسات المحاكمة ·· وكنت تعرف انها تثير الحراس ، حتى كانوا يقــولون : « اقفـــل مغارتك يا بناجوليس ! » ·· ثم حل شهر مايو ، بدفئه ، وحدث الشيء المروع ·

ذات صباح رفعوا قيـودك ، وجاءوك بدلو ماء دافيء ، واعطـــوك حماما ، وقصوا شعرك ، وحلقوا ذقنك ، وقدموا لك قميصـــا نظيفـا وبنطلونا رياضيا مكويا ، ثم قالوا ان بامـــكانك ان تذهب الى الفنـاء وتنشط ساقيك بقدر ما تحب ·· لقد ادهشك هذا العرض ، بيد انه لم لم يثر شكوكك : الظاهر انهم قرروا ان يسلموا لك ، فلماذا يتعين ان ترفض شيئا من الرفاهية ؟ ·· فاستندت الى الحائط ، ورفعت وجهك الى الشمس ، واذا كرة قدم تهبط عند قدميك ·· فضيقت عينيك لكى ترى من قذفها ، غير ان الشمس اعمتك ، ومرة اخرى لم تبصر احدا ·· هل كان موراكيس ؟ ·· وركلت الكرة بعيدا بتكاسل ، فعادت الكرة اليك ·· نعم ·· لابد انه موراكيس ، مختبئـا فى مـكان ما ، رغبة فى المداعبة ·· وبحماسة عظيمة ركلت الكرة مرة اخرى ، فارتطمت الكرة بالحائط المقابل ، ووثبت ، وللمرة الثالثة القيتها عند قدميك ·· آه ! · هو موراكيس ! ·· انه اراد ان يتحداك ·· فليـــكن ، وما عليك الا ان تجاريه ·· منذ اجيال لم تلعب كرة القدم ، لكن بامـكانك ان تثبت له انه حتى بالرغم من فقد انفاسك ففي قدرتك ان تريه شيئا او شيئين · « خذ ·· خذ ·· خذ ! ·· » ·· وركلت الكرة مرة ، ومرتين ، وثلاثا ، الى ان تقطع نفسك وتوقفت لاهثا : « انا تعبت ياموراكيس ! » ·· لكن ما من احد رد عليك ·· هل يمـــكن ان يكون احـدا آخر ؟ ·· وليس موراكيس ؟ وفيما كنت تسأل نفسك هذا تولد فى نفسك احساس غير مستحب بان ثمة من يراقبـــك ·· ومع ذلك ظل الفنـــاء مهجورا ·· مهجورا ؟ ·· كلا ·· فبعد ان تعودت عيناك الآن على الشمس امكنك ان تميز وجود رقيب ، هناك فى طرف المكان ·· وكان يلوح لك قائلا : : « استمر يا اليكوس ! ·· استمر ! » ·· لم تعـرفه ، وتســاءلت من يكون ؟ ·· « استمر يا اليكوس ! ·· العب » ·· « شوط ! » ·· فلم

تلبث وقد احمر وجهك ان تحولت عنه وعدت ادراجك الى الزنزانة ..
وبعد ذلك جعلت تنتظر موراكيس .. ولما وصل ، في اليوم التالى ، لم يكن لك الا ان تنظر الى الكيفية التى ناولك بها الصحف ، وتفهم كل شيء ! .. ان الصحف كلها نشرت صورك الفوتوغرافية التى التقطت وانت تلعب كرة القدم ، وكلها اعربت عن بالغ الاسف للفرية الصارخة من قبل الاذاعات الاجنبية التى قالت انهم ابقوك مقيد اليدين مدى تسعة شهور ، وانك تنام على الارض مثل كلب ودون ان ترى الشمس قط ، وكأنك دفنت حيا : ان الصحفيين اليونانيين ، ومثلهم المراسلون من كل البلاد ، قد تهيأ لهم الآن ان يشهدوا باعينهم ، بعكس ما كان يشاع ، انك فى صحة جيدة ، نظيف ، فى ملبس حسن ، وبلا قيود ، وانك تخرج من زنزانتك كلما احببت ، وانك تستمتع كثيرا بضوء الشمس حتى ليمكنك ان تعود الى داخل الزنزانة حتى قبل ان يطلب اليك ذلك ! .. لقد بدا موراكيس صورة للجزع والارتياع حقا .. « كنت فى فترة راحتى الصباحية .. ولو اننى كنت هنا لما حدث شيء من هذا ! .. والا لكنت حذرتك .. اننى لم اسمع بالامر الا فى الليلة الماضية فقط ! .. » .. « قل لى : اين كانوا ؟ » .. « فى غرفة الزائرين .. اخفوهم هناك ! .. وكانوا يراقبونك من النوافذ ! » .. لقد لبثت صامتا بضع دقائق .. ثم تفجرت دموعك ، وطلبت من موراكيس ان يستعد : ففى غضون اسبوع اردت الهرب ..

***

كانت ليلة الجمعة ٥ يونيو ١٩٦٩ ، والسجن فى نوم .. وجاء موراكيس بالكسوة العسكرية فى حقيبة ، فلبستها فى الحال .. وبعد ذلك حشوت ملابسك فى الحقيبة ، ورتبت الاغطية لتكون فى هيأة قوام بشرى ، لكى تخدع اى احد ينظر من خلال ثقب الباب ، ثم اعطيت الامر قائلا : « لنتقدم » .. كان الحال كما لو كنت توشك ان تخرج فى نزهة خلوية ..

وعلى العكس بدا موراكيس عصبيا : فان ادراكه بانه جاعل من نفسه هاربا من الخدمة العسكرية وصيرورته مسئولا عن الهروب وهو اخوف ما يخافه نظام الحكم القائم ـ قد جعل يديه ترتجفان ، حتى قال لك مشيرا الى باب زنزانتك ومقدما لك حلقة المفاتيح : « اقفله انت .. انا لا اقدر » .. فاغلقته بيدين ثابتتين ، وتقدمت فى الظلام ، وانت لا تعرف كيف يتمكن كلاكما من تذليل المشكلة الاولى : وهى المرور من

بوابة السجن ٠٠ ماذا لو عرفك الديدبان ؟ ماذا لو طلب منك اوراقك ؟٠
كان الديدبان نصف نائم ٠٠ وقال لك موراكيس : « كن انت المتكلم »٠
فتقدمت الى الامام قائلا : « اصح ياكسلان ! » ٠ وطوحت اليه بسلسلة
المفاتيح : « افتح البوابة يا كسلان ! » ٠٠ « لكن ياحضرةَ الرقيب ٠ » ٠
« انتباه عندما تخاطب رئيسا ! » ٠٠ « حاضر يا حضرة الرقيب ! » ٠٠
« كيف تترك سترتك غير مزررة بهذه الصورة ؟ ٠٠ هل هذه طريقة
جديدة للبس الكسوة العسكرية ؟ » « كلا ياحضرة الرقيب ، انا
آسف يا حضرة الرقيب ! » ٠٠ « دعنى اتأكد ان كل شيء هنا فى
انتظام » ٠٠ « حاضر ياحضرة الرقيب ٠٠ فتش ياسيدى ! » ٠٠ ومن
خلفك كان موراكيس يئن بصوت خافت : « آه ، لا ! مالزوم هذا ؟ » ٠
بيد انك حتى لم تستمع اليه ، وتماديت فى اندماجك فى هذه المهزلة الى
حد انك تابعت تمثيل الدور دون ما استحياء ٠٠ « انظر الى هذا ! ٠٠
هل هذه طريقة للمحافظة على المفاتيح ! ٠٠ اين الخجل ؟ ٠٠ باهمال
مثل هذا ، يمكن لاى شخص ان يهرب ، ياللعنة ! ٠٠ اى شخص ! ٠٠
حسن ٠٠ سأتركك هذه المرة ٠٠ لكن غدا اريد ان تقدم نفسك ،
مفهوم ؟ » ٠٠ « حاضر ياحضرة الرقيب ! » ٠٠ « افتح البوابة » ٠٠
« حالا حاضر يا حضرة الرقيب » ٠٠ « وعندما نعود لا تصرخ
بعبارة (من هناك ؟) او اى كلام فارغ من هذا النوع ، مفهوم ؟ » ٠٠
« حاضر يا حضرة الرقيب ! » ٠٠ وفتح البوابة ، وخرجتما الى معسكر
الجيش ذاته ، الذى كان السجن جزءا منه ، ويتعين عليك الآن ان تواجه
الصعوبة الثانية : وهى الخروج من المعسكر ٠٠ كيف ؟ ٠٠ ان تقديم
نفسيكما الى الديدبان وتكرار نفس المهزلة شيء لا يتصور ، وتسلق
السور الخارجي والوثوب الى اسفل هو مخاطرة كبيرة : فان الانوار
الكشافة الموجهة من الابراج تضيئة كل خمسين ثانية ٠٠ ومع ذلك
فليس هناك خيار آخر ٠٠ وهكذا قرفصت لدى ابعد نقطة من الثكنات ،
انتظارا للحظة المضبوطة ، وعندما حانت قلت : « هيا ؟ » ٠٠ فاسرع
موراكيس بالتسلق على كتفيك ، وتشبث بالسور ، وبلغ اعلاه ، ثم
ادلى ذراعه لك ، وجذبك الى أعلى ٠٠ « حاذر من الاسلاك الشائكة ! » ٠
اما الاسلاك الشائكة واما شريط النور الكاشف الذى كان يقترب بلا
هوادة ويوشك فى لحظة ان يدهمكما ويفضح امركما ! ٠٠ « اقفز ! » ٠
فى لحظة سمع صوت تمزق مزدوج : فقد انشق بنطلون كل منكما ،
ومعهما السترتان ٠٠ بيد ان القفزة كانت ناجحة ، دون ان ينخلع منكما
كعب او تصابا برضوض ، وصار بامكانكما ان تركضا الى اسفل التل

وتصلا الى الطريق : وكانت العقبة الوحيدة هي وجود راع مع قطيعه وكلبه في منتصف المسافة تماما •• « هل سيرانا الكلب ؟ » •• « نرجو الا يكون هذا » •• « امض الى الامام ؟ » •• وتقدم موراكيس أولا •• تقوس على نفسه وجرى مثل ارنب برى ، غير انك كنت مضطرا للتوقف بين آن وآخر لالتقاط أنفاسك ، ثم رآكما الكلب ، فاخذ ينبح وينبح •• واستمر فى نباحه الى ان وصلت الى اول الطريق لاهث الانفاس مغطى بالاوساخ •• الآن بقيت مشكلة الوصول الى اثينا ••

ان السجين الهارب ، كقاعدة ، يمكنه الاعتماد على تواطؤ شخص من الخارج ، كرجل ينتظره فى سيارة ويساعده على مواصلة هروبه •• ولكنك بتشككك وميلك الى المجازفات المستحيلة رفضت هذا الحل ومنعت موراكيس من البحث عن مساعدة •• فما من احد كان يجب ان يعرف انك وهو تنويان الهروب ، ولابد ان يوكل كل شىء للصدفة ولمبادراتك ، وهكذا لم يكن فى الطريق كائن حى •• وقال موراكيس : « والآن ماذا ؟ » •• « الآن سنركب الاتوبيس » •• « الاتوبيس ! » •• « نعم •• الاتوبيس •• تماما مثلما يجب ان يفعل رقيبان فى راحة » •• وجاء الاتوبيس ، فركبته مع موراكيس ، وسرعان ما ادركت ان هذه كانت غلطة : فمع كسوتيكما المزقتين والمتسختين ، كان مظهركما ابعد شىء عن رقيبين فى راحة •• فقد حملق فيكما السائق متحيرا ، وقال : « هل كنتما فى مشاجرة ؟ » •• « نعم ، نعم •• ان شخصا حقيرا سمح لنفسه بان يسب الجيش » •• » •• « هل انتما ذاهبان الى المدينة ؟ »• « لا •• سننزل فى الموقف الآتى » ونزلتما ، وبدا موراكيس وهو يزداد قلقا ، وقال : « الآن ماذا ؟ » •• «الآن سنركب سيارة اجرة» •• وجاءت السيارة أيضا •• ولم يقلكما الى اكثر من بضعة كيلو مترات بسبب تحديد مساره فى منطقة بوياتى فقط •• وبعد ذلك عدتما الى المشى ، لا يحميكما سوى الظلام •• « والآن ماذا ؟ » •• «الآن سأخلع الكسوة العسكرية •• واحتجبت خلف شجرة واخرجت الملابس التى وضعتها من قبل فى حقيبة موراكيس وغيرت وانت تتنفس ارتياحا : فالآن سوف يفقدون اثر الرقيبين ذوى الكسوة العسكرية •• «والآن ماذا ؟ » •• « الآن نبحث عن سيارة اجرة ثانية ، ثم ثالثة ، الى اثينا •• واخذتما السيارة الثالثة الى المدينة فى منتصف الليل ، وعندئذ فقط تجلى لكما الضعف المقلق لخطة تعتمد على الخطر :

اين يمكن الاختباء ؟ •• فى خلال الاستعدادات التمهيدية سألك

موراكيس عدة مرات : « بعد كل هذا ، الى اين ستذهب ؟ ‥ بامكانى الاختفاء عند فتاة ، او احد اقاربى ، لكن أنت ؟ ان الشرطة تراقب عائلتك ‥ وجميع اصحابك فى السجن ‥ فكيف تتصرف ؟ » ‥ وكنت دائما تجيبه : « لا تقلق هناك الف شخص على استعداد للترحيب بى » ‥ ومن يكون هؤلاء الناس ؟! ‥ الذين يبرزون دائما بعد ان تمر المخاطرة ، عندما تستعاد الحرية ؟ المتشدقون المفوهون الكبار ، الجبناء الذين ما ان يوضعوا تحت الاختبار حتى يذوبوا كالشمع فى النار ؟ ‥ بل ان بعضهم لم يفتح لك حتى الباب قائلين : « من القادم ؟ » ‥ « هذا انا ‥ اليكوس ! ‥ لقد هربت من السجن ، دعونى ادخل » ‥ « اذهب عنا ، لابد انك تمزح ! ‥ اخرج ! » ‥ وبعضهم وارب الباب فقط ، مع ابقاء السلسلة ، فتملكهم الفزع الشديد عند رؤيتك : وقالوا « لا يمكن ! ‥ هذا فى غاية الخطورة ‥ لا يمكن ! » ‥ بل ان فتاة كانت تقول انها تحبك طردتك كمتسول او أبرص قائلة : « اخرج بسرعة ! انت لا تريد ان ينتهى بى الامر الى ادارة المباحث بسببك ؟! » وعند الساعة الثالثة صباحا كنتما لا تزالان فى تجوال من ناحية الى اخرى ، وبدا موراكيس يائسا ، حتى قال : « ماذا سنفعل ؟ ‥ اين يمكن ان اتركك ؟ » ‥ كنت منهكا ، وقد نال منك كل هذا المشى ، ورحت تجر نفسك جرا ، متمتما : « انا لم اتعود مثل هذا ‥ لابد لى من الراحة » ‥ وفى النهاية استرعى نظرك مبنى يجرى هدمه ، فقلت :

« ماذا لو استرحنا هنا ؟ » ‥ فاجاب موراكيس : « لا بأس » ‥ واستولى عليكما النوم فى الحال ، متمددين جنبا لجنب كالاطفال ، وعند الفجر ايقظتكما صيحة : « يا سفلة ! ‥ الا تأتيان وتقومان باعمالكما القذرة فى موقع عمل « ‥ البوليس ! ‥ البوليس ! » ‥ لم يكن لكما وقت يسير للقيام والجرى مبتعدين ، تطاردكما جماعة من العمال المهددين المتوعدين ‥ وبعد بلوغ منعطف توقفتما وقلت « لابد ان نفترق هنا ‥ بسرعة ! » ‥ « لا يمكننى ان اتركك وحدك يا اليكوس ! لا يمكن ! ‥ » ‥ « نعم ‥ يمكنك ‥ ابتعد : ‥ اذهب ! » ‥ « ولكن اين تذهب انت ؟ اين ؟ » ‥ « لا اعرف ‥ لا تفكر فى هذا ‥ اجر ! » ‥ وكان العمال يقتربون صائحين : « يا بوليس ! ‥ اقبضوا عليهم ! ‥ يا بوليس ! ‥ » ‥ فاختفى موراكيس ‥ ولم تجد حتى وقتا لكى تشكره ، وتتواعد معه على اللقاء ‥

وهنا اصبحت وحيدا فى المدينة التى بدأت تستيقظ ٠٠ وفيها صرت معرضا لضوء الشمس ، بذلك الوجه الذى منذ ستة شهور قد صوروه في كل الصحف ، وذلك الشارب الذى جعلك معروفا حتى فى بلد رجالها بشوارب : ياليتك قد فكرت على الاقل فى حلقه ! ٠٠ « وهو يرتدى بنطلونا غامقا وقميصا ازرق طراز تى ، وله شارب ٠٠ هذا ما سيرد فى الاوصاف التى تذيعها عنك الشرطة ٠٠ فلا شك انهم بحلول هذا الوقت ، السابعة صباحا ، قد اكتشفوا الهروب واخذت تحذيرات الشرطة تتوارد بكافة السبل : وهكذا كان ركوب سيارة اجرة امرا مستبعدا ! ٠٠ وركوب الاتوبيس ، اسوء ! ٠٠ وعن الاستمرار فى المشى فى الشوارع سواء كانت مزدحمة او مقفرة ، نفس الشيء ! ٠٠ ولابد من حسم المشكلة فورا ، هنا فى نفس هذه المنطقة ٠٠ اية منطقة هى ؟ ٠٠ آه ، نعم : كيبسيلى ٠٠ من يقيم فى كيبسيلى ؟ ٠٠ باتساس !٠ ديمتريوس باتتساس ! ٠٠ لماذا لم تفكر فيه فى الليلة الفائتة ؟ ٠٠ ان ديمتريوس هو احد اقاربك الابعدين ، من ابناء العمومة ، وكان مشتركا فى حركة المقاومة ٠٠ ان ثيوفيليناكوس كان قد طلب منك تأكيد هذا ، أثناء التحقيق معك ، وهو يضربك بالفلكة : « من هو ديمتريوس هذا الذى كان يزود بالجوازات المزورة ؟ ٠٠ من هو ؟ » ٠٠ ومرة اخرى لم تبدر منك كلمة واحدة : فمن قبيل الامتنان والعرفان ، ان لم يكن بسبب آخر ، سيقبل ديمتريوس ايواءك ليلة ٠٠ لكن ما هو عنوانه ؟ ٠ آه ، نعم : شارع ياتموس ، رقم ٥١ ٠٠ لكن كيف الطريق الى شارع ياتموس ٠٠ لقد اهتديت اليه بعد مسيرة طويلة ٠٠ وعند رقم ٥١ ضغطت على الجرس ٠٠ التالى من أعلى ، الى اليسار ٠٠ فجاء صوت يشوبه النوم من خلال نظام الاتصال الداخلى : « من القادم ؟ » ٠٠ « انا » ٠٠ « انت من ؟ » ٠٠ « افتح ياديمتريوس ! ٠٠ لا تضيع اى وقت بحق يسوع ! ٠٠ » ٠٠ صوت حاد ، ثم انفتح الباب الامامى ٠٠ لم يكن هناك بواب تردد قصير ـ مصعد او سلالم ؟ ٠٠ وبعدها صعود فى السلالم ، انفاس لاهثة ٠٠ آه ، كلا ! ٠٠ كل هذه السلالم ، لرجل لم يصعد سلالم منذ احد عشر شهرا ، وساقاه منهكتان ! ٠٠ وفى الطابق الخامس طالعك وجه صغير مرتاع جعل يحملق فيك وهو عاجز عن ردك على عقبيك ٠٠ بيد انك لم تضيع وقتا فى الرجاء والاستعطاف ٠٠ بوثبة واحدة كنت فى داخل الشقة واغلقت الباب خلفك ٠٠ « انا هربت ياديمتريوس ٠٠ لابد ان تبقينى هنا ليلة واحدة على الاقل » ٠٠

« هربت ؟! ·· قل لى ـ » ·· فيما بعد ·· أولا هات موس حلاقة ·· لابد ان احلق شاربى ! » ··

★★★

بلا شارب يبدوت غير معروف تقريبا ·· وتطلعت الى نفسك معجبا فى المرآة ، ثم اخذت فى فحص البيت ·· كانت نظرة واحدة كافية لأن تدرك انك وفقت الى مخبأ ممتاز ·· كان شارع باتموس نوعا من شوارع الاحياء الوطنية ، وكانت شقة باتتساس قائمة فى مبنى نمطى كغيرها · وكان بها ايضا شرفتان يمكنك ان تقفز منهما الى السطح المجاور وتلوذ بالهرب عند الضرورة ·· لكن الضرورة لن يكون لها موجب : فمن يمكن ان يكتشف انك مختبىء هنا ؟ ·· لا احد شاهدك تدخل ، ولا احد ابصرك فى السلالم ·· ومن النوافذ المقابلة لم يكن ثمة سبيل لكى يلاحظ احد ما يدور فى الشقة لأن النوافذ اكثر انخفاضا ·· وقمت باحصاء الغرف : غرفة جلوس ، وحمام ، ومطبخ ، وغرفة بابها مغلق ·· « من فى هذه الغرفة ؟ » ·· « صديق » ·· « الا تقيم وحدك ؟ » ·· « لا ·· لكن لا تقلق ·· هو صديق حقيقي ،رفيق » ·· « ما اسمه » ، وماذا يفعل ؟ » ·· « اسمه بردبكاريس ، وهو طالب » ·· « اريد ان اتكلم معه » ·· ففتح باتتساس الباب ·· وقع نظرك على شاب نائم ، تحت صور للاخوين كينيدي ، ولوحة تبين الميدان الاحمر ذا الابراج البصلية الشكل والكريملين ·· فكتمت ابتسامة ودخلت ·· ثم ايقظته وواجهته بعزم قائلا : « انا بناجوليس ·· وقد هربت من بوياتى ·· لا اريد حركات غادرة ، مفهوم ؟ » ·· بعد لحظة ذهول وثب الشاب من الفراش ورد عليك بالقبلات ، والعناق ، وايمان الولاء ·· « اليكوس !؟ ·· ليست عندك فكرة الى اى حد انا معجب بك ! ·· اننى اهب حياتى من اجلك ! ·· » واما باتتساس فقال وهو يشير الى صور الاخوين كينيدى والميدان الاحمر ذى الابراج البصلية الشكل والكريملين : « الم اقل لك ؟ لا تقلق ! ·· انت بين رفاق ، وحق السماء ، وما كان يمكن ان تقع على مكان افضل ! ·· لماذا لم تحضر الى هنا مباشرة ؟ ·· الآن خد راحتك ، وكل ، واخبرنا كيف نجحت فى هذا ، ايها الشيطان ؟! » ·· واسترسل على هذه الوتيرة ، معززا كلامه بالتأكيدات والمدائح ، حتى حانت لحظة اعلان النبأ فى الاذاعة ·· لقد اكتشف الهروب فى الساعة الثامنة صباحا ، فيما ذكرته الاذاعة ، عندما اضطر الحراس الى اقتحام باب الزنزانة لانهم لم يجدوا المفاتيح المعهود بها الى الرقيب موراكيس ··

وجاء فى نبأ الاذاعة ان البحث جار ، بالاضـــــافة الى بناجوليس ، عن الرقيب موراكيس الذى اختفى ايضا ويعتبر شريكا وهاربا من الخدمة العسكرية ! ‥ وعلى الاثر ثارت مناقشة حامية : لابد لك من مغـادرة البلاد كما هو واضح ، لكن كيف ؟ ‥ هل الافضل الذهاب برا او بحراء ‥‥ قال باتتساس عن طريق البحر ، فى سـفينة بضـاعه اجنبيه أو يخت ‥ وقال برديكاريس عن طريق البر ، عبر الحـــدود الالبانية أو اليوغسلافية ‥ وقلت انت بل بالطائرة افضل ‥ وبدون شـــارب ولبس نظارة لا يمكن ان يعرفك احد ، بشرط ان تحمل جواز سفر ‥ انما تعهد ديمتريوس ان يتكفل بهذه المهمة ‥ « اصبت ياديمتريوس » · « غدا بالطبع » لكن المسألة أجلت فى اليوم التالى ‥ اذ كان يوم احد ، ويوم الاحد يذهب كل انسان الى شاطىء البحر ، ولا يمكن اتمام اي شيء فى هذا اليوم ‥ وفضلا عن هذا كان صاحباك على موعد مع فتـاتين ، واذا تخلفا عن الموعد اثارا الشـبهات ‥ مهلة ‥ واللقـــاء في موعد العشاء ‥

وفى موعد العشاء لم يرجعا ‥ ولا فى منتصف الليل ايضـا ، أو فى اخريات الليل ، ولا حتى صباح الاثنين ، أو بعد ظهر الاثنين ‥ ولم لا ؟ ‥ لقد رحت تعد الدقائق وانت مشبع بالقلق ، وكل دقيقة كانت هاجسا مستطيرا ‥ ماذا لو كانا قد قبض عليهما ؟ ‥ لا ، لا ! ‥ فى هذه الحـالة كانت الشرطة قد جاءت بحثـا عنك ‥ ماذا لو وقعت لهما حادثة سيارة ؟ ‥ لا ، لا ! ‥ فى هذه الحالة كان يجيء من يتصل · ماذا لو كانا ينويان ان ‥ آه ، لا ! ‥ انك لم ترد حتى ان تفـكر فى هذا ! ‥ المسألة واضحة : انهما بقيا مع الفتاتين ، ناما معهما ، و ‥‥ ياللجحيم ! ‥ ألم يعرفا انك وحدك ، قلق ، عصبى ؟ مشكلتك هى عدم اضاعة الوقت ، والخروج من البلاد ؟ ‥ ثم انك كنت ايضا بلا طعام · لقد تركا لك بيضتين فى الثلاجة ، وحبة طمـاطم ، وبقية جبن من ليلة السبت ! ‥ البيضتان والجبن اكلتهما من فورك ، وحبـة الطمـــاطم اكلتها فيما بعد ، وهكذا لم يبق سوى كسرة خبز ! ‥ او لم يتـدبرا حتى هذا ؟ ‥ اللهم الا ‥ كلا ! ‥ ان ديمتريوس شخص يمكنك ان تثق به ‥ وبرديكاريس فتى طيب ، ولا شك انهما يتصـــيدان جواز سفر لك ، وهذا هو السبب فى انهما لم يتصـلا بك ‥ قلت هذا كله لنفسك ‥ ومع ذلك ما برح الشك يلازمك ، ويسممك ، وفى قبضـة هذا الاحساس لم يقر لك قرار ، فانطرحت على سرير ، ونهضت ثانية ،

وادرت الراديو ، ثم اوقفته كاتما بغضب عجزك ، وبلبلتك ! ٠٠ اترحل، ام تبقى ؟ ٠٠ لو رحلت لكان ذلك هو الجنـون او يكاد ، ومع ذلك فان البقاء هو خطأ ايضا ! ٠٠ لنفترض انه على الرغم من ترحابهما قد تغلب عليهما الخوف ! ٠٠ ان اشنع الاشياء ترتكب بدافع الخوف ٠٠ وكدت تتخيلهما بوجهيهما الصغيرين المتبثرين وشعرهما الدهني وبنطلونيهما الجينز الازرقين الرخيصين وهما يتهامسان : « ممكن ان يحدث لنا هذا أيضا ! ٠٠ لا اريد ان ادخل السجن بسببه ! » ٠٠ « ولا انا أيضا ! » ٠ « مارأيك لو ابلغنا الشرطة ؟ » ٠٠ « ابسط من هذا الا نعود الى البيت وتجيعه حتى يتضور ، وعاجلا او آجلا سيبادر بالهروب » ٠٠ نعم ٠٠ كانت غلطة منك اذ بحثت عن ملجأ في شـــارع باتموس ! ٠٠ هذا ما أدركته الآن ! ٠٠ غلطة ومضيعة للوقت الثمين ! ٠٠ متى حل الظـلام فسوف ترحل ٠٠ وانتظرت حلول الظلام ، وفيما كنت تهم بالرحيل اذ فتح الباب بقوة : « نحن هنـــا ! ٠٠ آه من النســـاء ! ٠٠ يالهف من عاهرات ! ٠٠ مهما يحدث من اشياء ، فالنساء دائما هن السبب ! ٠٠ انهن خطفونا خطفا ! ٠٠ وكنا نقول لبعضـــنا : (لو امكننا فقط ان نتصل به تليفونيا !) ٠٠ ومع ذلك فكنا نفكر فيك طول الوقت ! ٠٠ ثم اننا ذهبنا الى الميناء أيضا ٠٠ وقد وجدنا السفينة ! ٠٠ هي ســفينة بضاعة ستبحر من ميناء بيريه يوم الاربعاء ، ووجهتها ايطاليا » ٠٠

خلال السنوات التى عشناها سويا ، السنوات التى كشفت لى عن جوهرك ، لاحظت انه كان ثمة موضوع واحد لم تتكلم عنه الا قليلا وعلى كره منك : الايام التى قضيتها فى بيت باتتســـاس وبرديكاريس ٠٠ كنت كلما حاولت ان اعرف المزيد رأيتك وقد شحب محياك وقلت لى : « لندع هذا » ٠٠ على انك ذات مرة تخليت عن صمتك وتحفظك ، وفى سياق ما سردته لى مما ذكرته عنك حتى الآن ، قلت انك عندما ســمعت صوت الاثنين وهما يقولان : (نحن هنا ٠٠ ياللنساء من عاهرات !) ـ شعرت وقتها بمعـــدتك تتقلص ! ٠٠ وحين نظرت الى وجهيهما غمرك قلق غريب ! ٠٠ كان فى هيآتهما شىء لم يقنعك : فقد ظهرا اكثر مرحا واكثر مودة مما ينبغى ، وكانا يسرفان فى الكلام ، ويناقضـــان احدهما الآخر ٠٠ هل كانا حقا مع الفتاتين ، او كانا مشغولين بسببك ؟ ٠٠ ان الامرين لا ينسجمان معا ٠٠ ومسالة سفينة البضـــاعة ، اى نوع من السفن هى ؟ ٠٠ وكيف وجداها ، ومن تفاوض معهما ، وما هى القصـــة التى انتحلاها ؟ ٠٠ هكذا قلت لهما فى تصلب : « كلام قليل ، وتفاصيل

أكثر » ٠٠ « طبعا يا اليكوس ، طبعا ٠٠ لكن ما الذى يجعلك عصبيا ؟٠ صبرا ! ٠٠ كن هادئا ! ٠٠ امامنا الليل بطـــوله ، ولابد لنا ان نأكل نحن أيضا ، اليس كذلك ؟ ٠٠ الست جائعـــا ؟ ٠٠ انظر الى كل هذه الاطايب التى جئنا بها : باذنجان ، لحم ماعز ، طيور ! ٠٠ » ٠٠ قلت انك تريد الاخبار أولا ، ثم الطعام ٠٠ « آه ، انت لا تثق بنا ؟ ٠٠ هــل لاننا تركناك وحيدا مدة طويلة ؟ ٠٠ هذا ما جعلك عصـــبيا ! ٠٠ الله وحده يعلم ماذا دار في راسك ! ٠٠ مؤكد كان الواجب علينا ان نعود الى البيت فى الليلة الماضية ٠٠ لكن تلك العـــاهرتان ! ٠٠ وفى هذا الصباح كنت اريد ان امر عليك ولو لدقيقة ، لكن كان الوقت متـأخرا جدا ، وكنت ســـأتأخر عن ميعـــادى فى المكتب » ٠٠ عنـدئذ قلت لبرديكاريس : « وهل كنت ستتأخر انت ايضـــا عن العمل ؟ ٠٠ هل تذهب انت أيضـــا الى مكتب ؟ » ٠٠ « لا ٠٠ كان عندى دراســـة فى الجامعة » ٠٠ « وعند الظهر كانت عندك دراسة فى الجـــامعة أيضـــا ؟ وبعد الظهر كذلك ؟ » ٠٠ « ما هذا يا اليكوس ؟ انت غير منصف ٠٠ اننى ذهبت الى الميناء فى فترة بعد الظهر ٠٠ وقد بحثت عن القبطان ــ » ٠٠ « وما هو اسم القبطان ؟ » ٠٠ بالامانة لا اتذكر يا اليكوس ٠٠ هو اسم اجنبى ٠ اسم صعب ٠ هل هو يابانى او سويدى ياديمتريوس ؟٠» ٠٠ « اظن انه سويدى ٠٠ « والسفينة ؟ » ٠٠ « سويدية ، تمام ؟ » ٠٠ هنالك اطبقت على عنقه قائلا : « لا تحاول هذا التلاعب يا صغير ! » ٠٠ ولو لم يتدخل باتتساس لخنقته ٠٠ « اهدأ ! ٠٠ ان اعصابك ملتهبة !٠ وانا افهمك ! ٠٠ لكن لماذا تحاسب الفتى المسكين ؟ ٠٠ لماذا لا تحاسبنى انا ؟ ٠٠ اننى ارســـلته الى الميـنـاء ٠٠ الا تثـق بى ؟ انا قريبـــك ، وصديقك ٠٠ كم لعبنا معا كأطفال ، هل نسيت هذا ؟ » ٠٠ لكنـــك دفعته جانبا ، قائلا : « انا راحل » ٠٠ « هل جننت ؟ ٠٠ هل تريد ان يقتلوك ؟ » ٠٠ وقال الآخر : « لا يا اليـــكوس ، لا ! ٠٠ انك فهمتنـــا خطأ ! » ٠٠ واخذا يربتان عليك ويتمســـحان بك ٠٠ وفى النهـــاية سلمت ٠٠ « لا بأس ٠٠ لنـــأكل الباذنجـــان واللحوم » ٠٠ واكلت ، وشربت ٠٠ كان هناك نبيذ كثير ، ابيض ، وهو النـــوع الذى تحبـــه ، وكنت لم تذق النبيذ منذ قرابة عام ٠٠ وسرعان ما استحال غضبك الى مرح ، والمرح الى خدر ٠٠ « والآن يا اولاد ، لنتكلم عن هذه الســـفينة التى ستبحر يوم الاربعاء » ٠٠ « فيما بعد يا اليـــكوس ، فيمـــا بعد ٠٠ اننا شربنا كثيرا ، فلنأخذ قسطا من النوم » ٠٠ نعم ، نعم ! ٠٠ كأس

اخرى ، ثم قسط من النوم يا اليكوس ! » ٠٠ وتثاءبت ، وانتهى بك الامر الى غرفة برديكاريس ، تحت صور الاخوين كينيدى والميدان الاحمر ذى الابراج البصلية والكريملين ! ٠٠ اجل ! ٠٠ فهما رفيقان ، صديقان ، وسرعان ما استغرقت في نوم مضطرب ٠٠ مع الاسماك ٠٠ كنت مع موراكيس ، فى الطريق الساحلى لمحاولة الاغتيال ، غير انه كان في منتصف المسافة عند الرصيف ، وكنت ايضا فوق صخرة قرب المياه ٠٠ وكان موراكيس يصيح : « اربع عيون تبصر افضل من عينين ، لماذا افترقنا ؟ » ٠٠ وما لبث الموج ان قذف سمكتين على الصخرة ٠٠ فاردت ان تمسكهما ، لكنهما كانتا حيتين وزلقتين جدا الى حد انك ماكدت تلمسهما حتى كانتا تفلتان منك ٠٠ ولو امسكت واحدة ، لافلتت منك الثانية ، وشعرت انك تتعذب لانك كنت تريد ان تمسك الاثنين معا ٠٠ فناديت موراكيس تطلب منه مساعدتك ، بيد أن موراكيس لم يسمعك ، واذا بك تهوى من فوق الصخرة ، وفى اللحظة التى كنت تغرق فيها ادركت ان موراكيس قد هوى قبلك ٠٠ وهنا كان باتتساس فوق راسك يهزك : « ماذا جرى لك ؟ هل انت مريض ؟ » ٠ « لماذا ؟ » ٠٠ « كنت تتقلب ، وتتوجع » ٠٠ « كنت فى حلم مقلق ٠٠ سيحدث شيء » ٠٠ « لن يحدث اى شيء يا اليكوس ٠٠ ارقد في سلام » ٠٠

كان صباح اليوم التالى هو الثلاثاء ، وخرج باتتساس مبكرا جدا ، وانت لاتزال فى غفوة ٠٠ « آه ، اننا لم نتكلم عن السفينة في الليلة الماضية ! ٠٠ يالكل ذلك النبيذ ! ٠٠ سنتكلم عن الموضوع ظهرا ٠٠ ساعود حوالى الساعة الثانية عشرة ، الى اللقاء ، لابد ان اسرع ، آسف ! » ٠٠ بل لم تجد حتى وقتا لكى ترد عليه ٠٠ اللعنة ! ٠٠ كان يجب ان نتكلم الآن ! ٠٠ وهذا ما اعاد اليك القلق الذى بدده النبيذ ، بيد انك تحاملت على نفسك للتغلب على القلق ، وبعد ساعتين ، عندما قمت من الفراش ، شعرت بالثقة تكاد تشملك ٠٠ واعددت القهوة وانت تصفر ، وشربتها ، ثم ادرت الراديو ، وسرعان ما عاد اليك القلق ٠٠ كان المذيع يقول انه لم يعثر لاى اثر لك او لموراكيس ، وان الحكومة تقدم نصف مليون دراخمة لاى شخص يزودها بمعلومات تؤدى الى القبض عليك ٠٠ اللعنة ! ٠٠ نصف مليون دراخمة مبلغ جزيل ، واكثر من كاف لاثارة شهية بعض الناس ! ٠٠ لابد لك ان تأخذ حذرك ، وتتحاشى ان تحدث اية ضوضاء عندما يكون باتتساس وبرديكاريس غير

موجودين في البيت ، وان تطفىء الانوار ، وتخفض صـــوت الراديو ، والا ساورت الشبهات الجيران ! ٠٠ نصف مليون دراخمة !؟ هل عرف الاثنان انك تساوى نصف مليون دراخمـــة ؟ ٠٠ لم تلبث ان ايقظت برديكاريس من غاشية النبيذ في الغرفة المجاورة : « هيه ، هل عرفت انى اساوى نصف مليون دراخمة ؟ ٠٠ » ٠٠ « انهم اخذوا يعلنون هـذا منذ امس على الاقل » ٠٠ بهذا غمغم برديكاريس ، ثم ما لبث ان تقلب فى الفراش مرة ثانية وأســـتأنف الغطيط ٠٠ منذ امس ؟! ٠٠ ماذا يعنى ؟ ٠٠ ولماذا لم يقولا لك ؟ ٠٠ ومنذا الذى اخبرهما ؟ ٠٠ بالتأكيـد ليس هو الراديو ! ٠٠ انك لم تغفل نشرة واحدة للاخبار ، وهذه أول مرة اذيع فيها عن مكافأة ! ٠٠ ربما كانت الصحف هى المصـدر ؟ ٠٠ لا ٠٠ ان الصحف لا تصدر يوم الاثنين ٠٠ ولو كان اعلان المكافأة تردد فى الصحف فعلا ، لكان ذلك يوم الاحد و ٠٠ لقد عدت الى برديكاريس: « يا هذا ! من اخبرك بأمر المكافأة ؟ » ٠٠ « آه ، لا اعرف ٠٠ لا اتذكر ٠ اننى شربت كثيرا ٠٠ دعنى انام ٠٠ اى فرق فى هذا ؟ ٠٠ » ٠٠ وبدا صادقا ، فصدقته ٠٠ كفى اذن هذا التشكك ! ٠٠ كفى عدم الثقـة ! : هل فقدت تفاؤلك ؟ ٠٠ الم تعرف معنى ما قاله ديمتريوس : « ساعود وقت الظهر » ؟ ٠٠ فلما كانت الثانية عشرة تماما دار المفتاح فى قفـل الباب ، فرفعت نفسك متكئا على مرفق واحد قائلا : « ديمتريوس ! » ٠ فكان الرد صوت هرج ، وانقلاب كرسى ، وامتلاء البيت على الاثر بنحو عشرين رجلا من الشرطة بالملابس المدنية ، اقتحموا اقتحاما ، شاهرين مسدساتهم : « ارفعوا الايدى ، والا اطلقنا النار ! » ٠٠

اننى اتطلع الآن الى الصـــور الفوتوغرافية التى التقطت لك وهم يعرضونك على مندوبى الصحف بعد ظهر ذلك اليوم ، قبلما اخذوك الى معسكر الجيش فى جودى ! ٠٠ بدت عيناك تحدقان فى الارض ، وفمك مطبقا فى مرارة تمزق الفؤاد ، ويداك مثقلتين بالقيـــود الحديدية التى احاطت بمعصميك : كنت اصدق عنوان للهزيمة والهوان ! ٠٠ هوان لم ينبع من اعادة اعتقالك بقدر ما نبع من جراء تصريحات وزير الداخلية الى الصحافة التى قرر فيها : « لقد افتضح امره من قبل اعضاء المنظمة التى ينتمى اليها ، للحصول على المكافأة ! ٠٠ هناك اثنان منهم ، احدهمـا يدعى باتتساس والآخر برديكاريس ! » ٠٠ على ان مفتش الشرطة قرر لك اكثر من هذا : « كنت تظن ان معك عبيدا طائعين متفانين ، هيه ؟ منذ يوم الاحد كنا نعـــرف انك موجود فى المنزل رقم ٥١ بشـــارع

باتموس ٠٠ ولم نعجل بالحضور قبل الآن لاننـــا كنا نؤمل بأنك قد تخرج : فقد وعدنا ابن عمك اننا لن نداهمك فى البيت ! ٠٠ انه حضر عندنا وقال : (هو عصبى جدا ، وسوف يخرج ! ٠٠ بل اننى لم اترك اى شىء يأكله) ٠٠ فانتظرنا يومين ونحن نراقب كل حركة من جانبك ٠ وعند ذلك سئمنا وصرخنا فى ابن عمك وصاحبه : (أية لعبة هذه ؟ ٠٠ انه يستطيع البقاء مكانه مدى شهور ، فهو معتاد تماما على السجن !) ٠ فقال لنا : (سأرغمه على الخروج ! ٠٠ سأصحبه الى الميناء !) ٠٠ اما نحن فقد شبعنا ٠٠ فحملناه على أعطائنا مفاتيح الشـــقة ٠٠ لكن مبلغ نصف مليون دراخمة لم يكن كافيا فى نظره ، فطلب عملا فى الخطـوط الجوية الاوليمبية ايضا ٠٠ فحققنـــا له هذا ٠٠ فنحن شرفاء ، ونفى بوعودنا ، ولسنا كذابين مثل اصـــحابك ! » ٠٠ وفيما بعد اخبرك مفتش الشرطة ان موراكوس قبض عليه أيضـــا ٠٠ وانهم قائمـــون باستجوابه بكل حزم وعزم ! ٠٠ وهو يعترف بكل شىء ! ٠٠ كل شىء !٠

(٤)

كيف يمكن لرجل حكم عليه بالاعدام ثم قبض عليه بعد هروب بمعجزة أن يتغلب على يأسه ويدبر على الاثر خطة اخرى للهروب ، فما هذا الا شيء لا يقوى على فهمه سوى من كان يعرف معدنك ... بيد أن هذا هو ما حدث بعد شهر ونصف عندما أخذوك من جودى واعادوك الى بوياتى ... وفى ذلك الوقت لم يعد باتسو لاكوس هو قائد السجن ، فان ما ناله من خزى افقده وظيفته ... وكان بانتظارك لدى باب زنزانتك رجل ضخم فى نحو الخمسين ، ذو راس كبير اصلع وانف كمنقار كبير : « صباح الخير يا اليكوس ، أهلا ومرحبا بعودتك ! » .. أهلا ومرحبا بالعودة ! .. لقد رحت تتفرس فيه من خلال أهدابك .. عينا خنزير ، مليئتان بالغباء والشر فى آن واحد .. وفم كبير ، كريه .. ويدان ضخمتان مرتعشتان ، يدان تستطيعان الاستعطاف أو الضرب بنفس القدر من السهولة ... « من أنت ؟ » .. « أنا نيكولاس فاكاراكيس يا اليكوس ، القائد الجديد » .. « ماذا تريد ؟ » .. اريد أن اتحدث معك يا اليكوس ؛ ان أشرح كيف اتصور الأمور » .. « وكيف تتصور الامور يا زاكاراكيس ؟ قل لى » .. « اتصور ، لا بأس » ، اظن انك بطل يا اليكوس ، وذو بأس !.. ولظنى انك بطل وذو بأس ، فقد بادرت بالاتفاق مع البريجادير جنرال يوانيديس وزير الداخلية وقلت له : يا جنرال ، ما فات قد فات ، فلننس الماضى ، ولا تقول شيئا عن الموضوع !. لننس الأخطاء التى ارتكبها ذلك الفتى ، ولنبين له أننا بشر وذوو انسانية ، ولا نترك له ذريعة لكى يتصرف بسوء ، ولسوف يأسف فى النهاية ، ويعود الى صوابه .. وقد قال لى الجنرال : وماذا تقترح يا مستر زاكاراكيس ؟ . أقترح أن نبدى له التقدير ، فنتحدث معه ، وترفع قيوده .. نعم .. يجب أن ترفع قيد يديه ، بعد أن ظل يلبسها نحو عام ... أو لتسمح له بلفتة تكون عربونا لحسن النية ... وطبيعى ان الجنرال لم يكن متحمسا ، غير أنه سلم ... وقال لى : يا مستر زاكاراكيس : انت المختص ، وانت

المسئول ، ولك مطلق التصرف فى اتخاذ ما تراه من اساليب » ...
يا ويحه !. رجل أبله ولكن ماكر أيضا !. متوعد ولكن مصالح أيضا :
أنت تعرف هذا الطراز ... الطراز الذى ينحنى أمام اية قوة ، اية
سلطة ، اى عات مستبد ... الذى يقول يحيا بابادوبولويس ،
يحيا ستالين ، يحيا هتلر ، يحيا ماوتسى تونج ، يحيا نكسون ، يحيا
البابا ، يحيا كل من يحكم ، بشرط الا تقع متاعب !.. الطراز الذى
يتجبر على من هم اسوأ منه حظا لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى
يستعيض بها عن تفاهته وقلة شأنه ويقتص بها انتقاما للاهانات التى
أنزلت به ... الدكتاتوريات تولد منه !.. والأنظمة الشمولية يدعمها
ويؤازرها !.. وليس من قبيل المصادفة ، كقاعدة عامة ، أن يكون
منه سجان مثالى .. كان لابد أن تجبره على كشــف أوراقه فى الحال ،
وان تذكره من انت ، وأن تصده وتستفزه لكى يجدد النزال ...
وهكذا قاطعته قائلا : « هل انتهيت يازاكاراكيس ؟ » .. « لا ياأليكوس
... كنت أريد أن أضيف ـــ » ... « وفر على نفسك هــذه
المشقة يا زاكاراكيس ... انا أعرف ما الذى انت هنا من اجله ...
انت هنا لكى تقول لى اننى لطيف وإنك تودنى وتريد منى أن ألوطك
... هى حكاية قديمة ... كل واحد يعرف ان كل خدام الهيئة
الحاكمة مخنثون ... لكننى لا أريد أن ألوطك يا زاكاراكيس ...
ليس اليوم وأبدا ... لا يمكننى أن اقوم لك بهذه الخدمة ، فانت
قبيح جدا ، سمين جدا !.. انت (مقرف) !.. لا يمكننى حتى أن
ادلى بنطلونك والقى نظرة على آليتك الضخمة السمينة » ...
« يا مجرم !.. يا شيوعى !.. يا خائن .. يا قاتل مأجور ! » ..
وانصرف وهو يلوح بيديه منتفضا ...

وبعد ساعات معدودة ظهر مرة أخرى بعناد واصرار ... « انا
آسف لتلك المشاحنة ... انها غلطتى يا أليكوس ... لم أدرك انك
كنت تمزح ... ومع ذلك قالوا لى انك تحب المزاح ، وانك من النوع
(الكوميديان) ... كان يجب أن اتذكر هذا ... ولـكى اجعلك
تعذرنى ، فقد جئت لك بهذه ... خذها » ... لقد لمعت عيناك :
اذ كان يقدم اليك مسبحة ... منذ سنة على الاقل كنت تحـلم
بمسبحة كهذه من نوع (كوبولوى) ... كان التسلى بهذا النوع من
المسابح شغفا جنونيا عندك ، وفى عزلتك الخاملة أصبح ضرورة ...
لكنك لم تجسر على قبولها ... كان هذا معادلا لمسامحته ، وكأنك

تقول له : انا افهمك يا زاكاراكيس ... انت رب عائلة ايضا ، وأنت أيضا ابن الشعب ، فدعنا نتصافى !.. لو فعلت هذا لخضعت للعبته نهائيا ... لابد أن تصمد ، وأن تريه أنك لن تنحرف بالجزرة أو العصا ، وانك وهو عدوان ، وانك على هذا باق وراسخ !.. وهكذا خنقت الحافز لمد يديك الى هذه الهـدية الثمينة ، وقلت متكلفا عدم الاكتراث : « لا أريدها » ... « آه ، هيا ، خذها !. يسعدني أن أقدمها لك » ... « قلت انني لا اريدها ... أريد شيئا واحدا فقط يا زاكاراكيس ... مرحاض بالسيفون» ... «مرحاض بالسيفون ؟! .. لماذا ؟ » .. « لأنني لا يمكن أن أعيش (بجردل) ... انه عفن ... انه غير صحي » ... « لكن جميع الزنزانات هنا بها (جرادل) .. ليس في واحدة منها مرحاض بالسيفون ! » ... «زنزانتي سيكون بها هذا» ... و «كن معقولا ... واقبل هديتي» ... « انا لا اقبل هدايا من فاشستيين ... من هؤلاء اقبل فقط مرحاض بالسيفون ... لأن هذا من حقي » ... تميز زاكاراكيس من الغيظ .. كان يعـرف أنك عاجلا أو آجلا ستـتذكر كلمة الفاشية ، وقد أعد الرد عليها سلفا : « انت صغير يا اليكوس ، يا صديقي ... انت لا تفهم اشياء معينة ... عندما كنت في سنك ، تكلمت عن الفاشية أيضا » ... « لا تقل لي انك تكلمت ضدها يا زاكاراكيس » ... لكن هذا ما فعلته ... كنت بلا عقل ... وفضلا عن أن موسوليني هاجمنا ، فانني لم اكن احترمه ... واتذكر مساء يوم في ريميني .. في سنة ١٩٤٠ كنت من أسرى الحرب في ريميني كما تعرف ، وكنت أحيانا أتناقش مع الايطاليين ، وفي ذلك المساء قلت أن موسوليني مجرم ، مدمر للجنس البشري ـــ » ... « بديع هذا منك يا زاكاراكيس ، برافـو ! » .. « فردوا علي بأن موسـوليني قد خلق أمة ، واستعاد النظام والهدوء في البلاد كلها ـــ » ... « وقد صدقت انت هذا ، أليس كذلك ؟ » ... « كلا ، لم أصدق ... كنت وقتها قليل العقل كما قلت لك ، مثلك انت اليوم ... انني لم أصدق هذا بتاتا ، وابديت اعتراضي ... وصرخت فيهم اقول : الا يمكنكم أن تروا كافة المصائب التي تعانون منها بسببه ؟. لكنهم قالوا لا : ان مصائبنا سببها الانجليز ، واليهود ، والشيوعيون ... غير انني ... استمع لما رددت عليهم به لأنني اعرف كيف أعالج أي موقف ، ولا تستطيع أن تتصور كم انا دبلوماسي !.. قلت

لهم : انا لا احب اليهود شخصيا ، لكن « ما الذى جعلكم تجيئون الى اليونان ؟. للبحث عن اليهود ؟. » ــ « اختصر يا زاكاراكيس ، ادخل فى صميم الموضوع » ... « لا ... اصغ الى !. هل تعرف ماذا كان ردهم ؟. أجابوا : جئنا بسبب البانيا ، ولولا ذلك لكنتم أيها اليونانيون قد سرقتموها واطلقتم عليها اسم شمال ابيروس » ... « هذا حقيقى يا زاكاراكيس ... « آه ، ببساطة أنت لا تريد ان تسمع ... اذ اننى قلت لهم : نعم ... البانيا تخصنا ... لكن الفاشية جريمة ... وهل تعرف ماذا كان ردهم ؟. قالوا ان اسوأ جريمة هى محاربة الفاشية ، لانك اذا حاربت الفاشية كنت نصيرا للشيوعية ... انهم كانوا على صواب يا بنى كل الصواب ... انا أعرف هذا الآن ... واضيف اليه هذا : بايمان صادق أقول انك ترتكب نفس الجريمة » .. « وهل تعتقد هذا حقا يا زاكاراكيس ؟. » ... « هل أعتقد ؟. انا موقن منه ... موقن حسابيا يا بنى ... كل شخص مناوىء للفاشية انما يعمل للشيوعية ، والاتحاد السوفييتى » .. لقد تظاهرت أمامه بأنك متحير ، ورمقته باحدى ابتساماتك التى لا يستطيع أحد مقاومتها ، اذ قلت له : « طريف ... نعم ... هذا طريف بحق السماء !. هل يمكننى أن أوجه اليك سؤالا يا زاكاراكيس ؟. » .. « هذا ما جئت الى هنا من أجله يا بنى ، أنا تحت أمرك ! » ... « هل تتكلم الايطالية يا زاكاراكيس؟» ... « كلا » انا لا أعرف الا اللغة اليونانية ... بل لم ارد فى حياتى حتى أن أتعلم الانجليزية ، أو الفرنسية ، أو الالمانية ... انا انسان وطنى ... هذا وصفى الحقيقى » ... « مفهوم !. وفى ريمينى الايطالية هل يتكلم الايطاليون اللغة اليونانية ؟ » .. « ولا كلمة » .. « اذن كيف تمكنت من ادارة كل هذا يا معتوه ، وانت لا تجيد حتى اليونانية وتعبر عن نفسك اسوأ من شخص امى جهول ؟! .. لكن سرعان ما نسى الوعود التى قطعها لنفسه وليواينديس ! .. لقد راح يضربك بعصا حتى اغمى عليك .. بيد انك لم تحقد عليه : فان هذا ما كنت تريده ... ذلك لانه بهذا كان لك عذر مشروع للرد عليه بواحد من اضراباتك عن الطعام ، ولكى تحصل على المرحاض ذى السيفون .. هذه الأداة التى لا غنى عنها ، لتنفيذ عملية الهروب الثانية !..

ان زاكاراكيس الذى لم يلابس فى حياته قط عملية اضراب عن الطعام ، لم يعرف أهمية الايام الثلاثة الاولى ، وهى الفترة الوحيدة التى يشعر فيها الانسان بالحاجة المستميتة الى الطعام ، وبعد ان تمر هذه الفترة ينتابك خدر رقيق يقتل اى محرك للجوع ... وهكذا فانه ارتكب غلطة عدم الحضور اليك الى أن مضى على صيامك ثلاثة اسابيع كاملة : ولكى تبقى على قيد الحياة كنت لا تتناول اكثر من جرعة ماء ... عند ذاك لم يبق فى وجهك خدان ، وضمر ساقاك حتى صارا فى سمك معصميك ، وانبعثت من فمك رائحة لا تطاق حتى كان من الصعب أن يبقى أحد بقربك !.. وما أن وقع نظره عليك حتى تملكه الفزع ، وقرر ابلاغ وزارة العـدل : « انه يحتضر .. انه يحتـضر !. » .. « اذا مات فسـوف ينتهى بك الأمر الى السجن !. فلا يمكننا ان نسمح لأنفسنا بفضيحة عالمية ! » ... هذا ما كان رد الوزارة ... فى السجن ؟!. رحماك يا يسوع !.. لابد أن يقنعـك بأن تأكل شيئا ! .. وذهب زاكاراكيس الى المطبـخ ، وتفقد طعـام العشاء الذى أعدوه لك ، فاكتشف لارتياعه أنه طبقة هو المفضل ــ العدس ــ وجاء به اليك ... « كاليميرا ، نهارك سعيد ... نحـن هنا ! » ... فجـاءه صـوت واهـن : « ماذا تريد يا زاكاراكيس ؟.. ماذا عندك ؟ » ... « عشائى ، المطبوخ خصيصا لى !. وانا اهديه لك ... العدس ! » ... « أخرج يا زاكاراكيس » ... « هيا ، تذوقه !. تذوقه على الاقل !. » هو لذيذ ، كما تعرف ... وهو مفيد لك أيضا !. « قلت لك اخرج ! » .. « الا تحبه ؟. هل تفضل عليه البفتيك ؟. الحساء ؟. المسلوق ؟. » .. المسلوق ، نعم ... كنت تحبه ، وتهب أى شيء لقاء قدح من المسلوق !.. لكنك قلت : « لا يا زاكاراكيس ... لا مسلوق ، ولا حساء ، ولا بفتيك !. أريد مرحاضا بالسيفون ، وهذا كل شيء » .. « لكن سبق أن شرحت لك ، لا أحد هنا عنده مرحاض بالسيفون ! » .. « عندك انت » .. « انا القومندان ! » ... « وانا من انا .. اريد المرحاض بالسيفون » .. « لا يمكننى تزويدك بهذا » ... « نعم ، يمكنك ... ما عليـك الا أن تشتريه وتطلب تركيبـه » .. « لا ، لا ، لا ! » ... « اذن ساموت ... وسوف ينتهى بك الأمر الى هذه الزنزانة شخصيا ، لجريمة قتل من الدرجة الثانية ... أو الدرجة الأولى !. انتظر وانظر ... سوف يأتى مندوبو الصحف من كافة

ارجاء العالم ، وسيتهمونك بانك عملت على قتلى ، بحرمانى من الطعام وضربى ، وسوف تعلن جميع الأقطار العقوبات ضد اليونان ، وبسببك انت سوف تبقى اليونان خارج السوق الاوربية المشتركة !» ... « ماذا تقول ؟ » ... « هذا هو ما أقوله ... وان بابا دوبولوس لن يغفر لك ولن يعفو عنك ابدا ، ولايوانيديس وزير الداخلية ايضا ... والآن دعنى وشانى ... أريد ان أموت بسلام !. فى العالم الآخر ساجد المرحاض بالسيفون !. » .. لقد انصرف زاكاراكيس وهو شبه دامع العينين .. ولم يذق طعم النوم فى ليلته تلك ... وخلال الايام القلائل التالية استمر يحضر لجس نبضك او تحسس جبينك وهو يرسل زفرات الكرب والضنى ... كان ظاهرا أن حالتك تزداد سوءا ، وقد فعلت كل شيء لكى يبدو هذا واضحا للعيان ... وما ان كان يقترب منك حتى كنت تحرك شفتيك متمتما : « اننى أموت !. أموت !. » ... وفى النهاية سلم ، قائلا لك : « يا اليكوس ، هل تسمعنى ؟. « نعم .. » .. « لو حدث وجئت لك بالمرحاض السيفونى ، فهل تقبل بعض المسلوق ؟ » .. « لست افهم ... قلها ثانية ... » .. « لو جئت لك بالمرحاض السيفونى ، فهل تشرب بعض الحساء من أجلى ؟ » .. « كلا .. المرحاض السيفونى أولا ، وبعده المسلوق » ... « آه !. لا باس ... لا باس » ... سيكون لك مرحاض بالسيفون » ... « الآن » ... « الآن ! » .. وبعد نصف ساعة اجتاح العمال الزنزانة بادواتهم ، فتقبلت الحساء ، وبدات تأكل من جديد ...

ان فكرة المرحاض السيفونى ، او بالاحرى فكرة الهروب القائمة على المرحاض السيفونى ، كانت ماثلة فى مؤخرة عقلك على مدى شهور ، بيد انها غدت واضحة المعالم فى جودى عندما ادركت بانك عاجلا أو آجلا ستعود الى الزنزانة المعهودة فى بوياتى ... لأغراض الهروب كانت تلك الزنزانة ذات مزايا متعددة ... فهى كائنة فى الدور الأرضى ، ويمتد بجانبها ممر قليل الاستعمال ، وفضلا عن هذا فان حوائطها كانت شديدة الرطوبة والعطن ، حتى لتكاد تغرى باختراقها ... ولم يكن عليك الا أن تستحوذ على أداة للحفر بها ، وايجاد شيء لحجب الثغرة كلما اتسعت ، واكتشاف وسيلة للتخلص من الردم كلما تقدمت فى العملية ... لا بأس اذن ... لابد ان تكون هذه الاخيرة هى مرحاض سيفونى ... والآن وقد استعدوا لتركيبه،

فقد شعرت بانك وصلت الى منتصف الطريق لتحقيق هدفك ... بل يمكنك حتى أن تمازح زاكاراكيس ، فقلت له : « اسمع يا بابا دوبولاكى ... اين طبق العدس الذى تكلمت عنه ؟ » ... « ليس عندى منه اليوم ... بامكانى أن اقدم لك قطعة من الدجاج» ... « فليكن الدجاج اذن » ... وفى غضون ذلك رحت تفكر فى حلول للمشكلتين الاخريين ... اولاهما : ما هى أداة الحفر التى يمكن أن تجدها ؟ انك لم تستعمل حتى شوكة ، ففى الوجبات كانوا يعطونك ملعقة فقط و ... نعم ! . » الملعقة !.. ما الذى تريده أكثر من هذا : معول ، مثقب ؟. لقد اخفيت الملعقة تحت السرير ، وعندما بحث عنها الحارس ، هززت كتفيك قائلا : « ماذا أعرف عن ملعقتكم الملعونة ؟. لابد أن أحدهم اخذها » ... ثم اخذت تخدش الحائط للتجربة ... نفعت !. فقد سقط المصيص اللين فى الحال ، واخذ فتات الطوب يتهاوى بسهولة أكثر مما كنت تتصور !.. فاصلحت البقعة بقطعة خبز طرية ، وواجهت مشكلة حجب الثغرة ... انت فى حاجة الى ستارة .. كيف يمكنك تبرير طلب ستارة ، واية حيلة يمكنك اختراعها للحصول عليها ؟. بالتأكيد ليس عن طريق اللجوء الى اضراب جديد عن الطعام ، فان الاضراب سلاح ينبغى عدم تبديده بالاسراف فى استخدامه ... وربما كان ذلك يتم عن طريق نوع من التهديد والابتزاز ... نعم !. يمكنك الانتظار الى أن يأتى زاكاراكيس لقطف ثمار الشكر والامتنان ، فتقوم بعملية التهديد والابتزاز ... وقد جاء ... « هل أنت سعيد ؟. هل رضيت عن المرحاض السيفونى ؟ » ... « نعم ، فقط تنقص الستارة » ... اية ستارة ؟ » ... « ستارة الحشمة ... الآن وعندى مرحاض سيفونى ، فانك بالتأكيد لا تتوقع منى أن أتبرز وهناك من يتفرج على من خلال ثقب الباب » ... « من هذا الذى ينظر اليك من خلال ثقب الباب وانت تتبرز ؟ » ... « كل واحد .. وانت منهم » ... « انا ؟! » .. « نعم يا زاكاراكيس ... لا تتظاهر (بالفهلوة) !.. اننى رايتك » ... « يا خنزير !. يا ابن الحرام !.» ... « اذا شتمتنى ، فساقول كل شىء » ... « تقول ماذا ، يا مبتز !. » .. « أنا لست مبتزا ... انا شخص محتشم ... هل ذنبى اذا كنت محتشما ، اذا كنت احمر خجلا بسرعة ؟. الى جانب هذا فان الستارة ستؤدى الى تجميل المكان !. اننى ليس عندى حتى طاولة ولا كرسى » ... « فهمت ... تريد تجميل

غرفتك بعض الشيء ... وأنا اريد أن اثبت لك الى اى حد انا كريم معك : سأعطيك الطاولة والكرسى » .. « وستارة » .. « ستارة فى داهية !. اين يمكن ان اجد ستارة ؟!

لم ينجح الابتزاز والتهديد ... ولم يفلح الرجاء ايضا ... فقلت له : « يا زاكاراكيس ، ارجوك ستارة » ... « ليس عندى اية ستائر » ... « خرقة قديمة تكفى ، وبعض مسامير لتثبيتها » ... « كلا » ... « لم لا ؟ » ... « لأننى انا الذى أقرر ، مفهوم ؟. انا المسئول هنا ، مفهوم ؟ اذا بقيت اركز اهتمامى عليك طول الوقت، فعن قريب ستدير أنت أمور هذا السجن ! .. اننى سئمت مطالبك !. اننى أعطيت لك الكرسى ، وأعطيت لك الطاولة ، ولن أعطيك الستارة ! » .. اذا أعطيتنى الستارة ، فسأعيد اليك الطاولة ، وأعيد لك الكرسى » ... « كلا .. المسألة مسألة مبدأ ... وفضلا عن هذا فانت مجنون » ... مجنون ؟!. هذا هو الحل !.. ما عليك الا أن تجعله يعتقد انك مجنون ، فينتهى به الأمر الى مداراتك ... وفى ذلك المساء انتظرت الى أن أوى الى فراشه ، وعندها وضعت الطاولة تحت النافذة ، ورفعت الكرسى فوقها ، وارتقيت الى القضبان ، وجعلت تصرخ : « زاكاراكيس !. هل انت نائم يا زاكاراكيس ؟.. يجب الا تنام يا زاكاراكيس !. يجب أن تخيط ستارتى ... اريدها زرقاء !.. (بكشكشة) !. » ... لقد استمر هذا ثلاث ليال ، وأربعا ، وخمسا ، فيما اشتكى السجناء الآخرون بقولهم : « يا قومندان ، اعطه الستارة !.. لا يمكننا أن ننام ! ».. فلما كانت الليلة السادسة اقتحم زاكاراكيس الزنزانة مع حراسه وانهالوا عليك ضربا .. ولكنه بعد أن أشبعك بالهراوة ، منحك الستارة ... كانت زرقاء ، (بكشكشة) .. وهكذا امكنك أن تبدأ عملية النقب ... ولقد رحت تعمل نهارا وليلا ، بلا كلل ، مستخدما يديك عندما التوت الملعقة : وأصبحت أصابعك كلها مخدوشة ودامية ... لكنك لم تشعر حتى بالألم ، وعندما رأيت تلك الثغرة تتسع الى أن بلغ قطرها خمسة وأربعين سنتيمترا ، كانت فرحتك بلسما للخدوش ... وصرت تغنى ، وتصفر ، وتضحك ... وخصوصا عندما ألقيت الردم فى المرحاض ودفعته بالسيفون غير مبال باثارة الشبهات .. بل انك لم تنزعج حتى عندما جاءك زاكاراكيس عابسا يقول : « ما هذا ؟. هل انت مريض ؟. هل عندك

دوسنطاريا ؟ .. » .. « أنا ؟ لا .. لماذا ؟ » ... « انك تكثر من استعمال السيفون ! » ... « انني استمتع باستعمال السيفون .. هل هذا ممنوع ؟ » .. « لا ليس ممنوعا » ... غير أن عينيه الخنزيرتين الضيقتين برقتا بالفهم ...

★★★

ثم جاء اليوم الذى صار فيه سمك الجزء الباقى من الحائط سنتيمترين فقط او ثلاثة : وبضربات قليلة حادة يمكنك اختراقه .. وما عليك الا أن تنتظر حتى الليل ... وهكذا انطرحت على السرير وانت تتنفس الصعداء لكى تستسلم لاحلام اليقظة : فمتى وصلت الى الممر ، هل الأفضل أن تتجه الى اليسار او اليمين ؟. عن اليسار كان مسكن زاكاراكيس ، وعن اليمين قسم المطابخ ... الأفضل الى اليمين !. نعم !. لكن كيف يمكن التعامل مع الحراس ؟. لا بأس .. ان مشكلة الحراس يمكن حلها ، وقد تمرست على هذا فى هروبك مع موراكيس ... ومثل ذلك ينطبق على السور الخارجى ، الذى يمكنك ان تتسلقه بمفردك هذه المرة ... ان الحظ لا يتخلى عنك أبدا ، ومهما يكن فان زاكاراكيس ذاته كان بمثابة ضربة حظ !.. مسكين زاكاراكيس !. انه قدم لك تلك المسبحة ، وطبق العدس ، والمرحاض السيفونى ، والستارة ذات (الكشكشة) ، وكدت تطير عقله ، واستغللت غباءه الى حد بعيد !.. لكن هل كنت على صواب حقا فى قولك أن شخصيات مثله هى التى توجد وتدعم انظمة الطغيان ؟.. عندما تتفكر فى هذا ، فهى أولى الضحايا : انه هو نفسه سجين حقا !. محبوس على الدوام فى ذلك السجن ، تنزل عليه اللعنات والشتائم ، وهو دائما تحت رحمة يوانيديس ووزراء العدل ، وهو دائما فى أسار الخوف ، الخوف من أولئك الذين يسيطرون الآن ، الخوف من أولئك الذين سوف يسيطرون بعدهم !.. كم كنت تحب أن تقول له انك لست حقا ضده ، وانك حقا تعده سجينا ايضا !.. كم كنت تود أيضا أن تنقذه ، ان تشرح له انه حين يسومك العذاب ويسوم الآخرين من امثالك ، فانما يسوم نفسه ، وهو الرجل الذى كان يمكن أن يكونه : الحر ، غير الخانع ، اللاخادم !.. من نكد الدنيا ان الوقت لن يتسع لهذا ! .. وفيما كنت تفكر فى هذه الاشياء اذ جاء زاكاراكيس الى الزنزانة ... بدا لك متعبا جدا ، وقال لك بأدب : « يا اليكوس ... لابد أن أطلب منك معروفا » ...

« ما هو يا زاكاراكيس ؟ .. » .. « انني لا أشعر بأن صحتي على ما يرام هذا المساء ، واحتاج الى الراحة ... فلا تغن هذه الليلة ، ولا تتسل بشد السيفون » ... « لا بأس يا زاكاراكيس » ... « حقا ؟. هل تعد ؟. » .. « أعد يا زاكاراكيس » ... « انا أعرف انك ناقم علي ... انا طبعا سجانك ... » .. « أنا غير ناقم عليك يا زاكاراكيس .. أنا ناقم على الناس الذين تخدمهم .. أنت سجين أيضا يا زاكاراكيس ، تماما مثل ما كان باتسو راكوس ، ومثل جميع السجانين ، سواء كانوا في ظل دكتاتورية أو لم يكونوا ... وعندما يعود هذا البلد حرا من جديد ، فسوف تفهم ما أعنيه ، ولماذا أتصرف مثل هذا الآن ... أنتم جميعا ضحايا الجهل ، والجبن ، ولستم مذنبين !.. ان المذنبين هم أولئك الدكتاتوريون الحاكمون بأمرهم !. وأنت لست قاسيا يا زاكاراكيس !. انت فقط غبي » ... لقد ابتسم زاكاراكيس ابتسامة غريبة ، كما فعل في صباح اليوم الذي سألك فيه ان كنت تشكو من الدوسنطاريا .. في هذه المرة تنبهت الى كلماته ، وساورك الانزعاج ... لكن فات الآن أوان الاحتياط ، ولم يكن أمامك سوى الانتظار حتى يسود السكون ..

الساعة الحادية عشرة ليلا ... ضربتان حادتان ، ثم وكزة بمرفقك ، فكانت الثغرة ... واطللت براسك من خلالها : فبدا الممر مهجورا ... فأرهفت اذنيك لأي صوت : فلم تسمع شيئا ... كان الجو خاليا لك ... عندئذ دسست راسك في الثغرة وقد كتمت انفاسك ، ثم ذراعا ، ثم كتفا !. ثم دفعت بنفسك الى الامام !. وما ان أوشك الكتف الثاني على المرور حتى انحشرت مكانك !.. فهل اسأت تقدير العرض ؟. كلا !. انما كان السبب هو ملابسك : السترة الجلدية ، والقميص الصوفي ، والسويتر !. لو تجردت منها لأمكن أن تنزلق بسهولة ! .. هكذا خلعت ملابسك تماما ، وجمعتها في لفافة ، وقذفتها الى الجانب الخارجي !. فسقطت على الارض بصوت مكتوم ، اذ كان الارتفاع لا يزيد عن نصف متر .. تماما كل التمام ! .. أدخلت رأسك في الثغرة مرة ثانية ، ثم ذراعا وكتفا ، وبعدهما الذراع والكتف الآخرين ، ثم انزلقت الى الامام حتى الوسط !. الآن لم يبق الا ان تسحب بطنك : هكذا !.. انزلق اكثر واكثر ، ثبت قدميك : هكذا !. و ـــ في هذه اللحظة صك طبلة اذنك صوت متهكم يقول : « الجو بارد يا اليكوس !. ماذا تفعل هنا بغير ملابسك ؟!. هل فقدت أسباب الحشمة ؟! » .. كان صوت

زاكاراكيس ، مشفوعا بنحو عشرين جنديا اصطفوا على جانبي المر !. وكان زاكاراكيس يضحك ، ويضحك !. وضحك الجنود ايضا !. ضحكوا واغرقوا فى الضحك الى حد اهتزت معه فوهات بنادقهم كما تهتز فروع شجرة عبثت بها الرياح !.

★★★

« وكنت تظن اننى غبى ، هيه ؟. غبى ، واعمى ، واصم ، هيه ؟ كنت تظن أننى لم أفهم ماذا كان كل هذا الحفر ، وشد السيفون باستمرار ، وذلك الاختباء خلف الستارة ، هيه ؟. انت مغرور كبير !. مغفل !. تعرف لماذا تركتك تفعل هذا ؟. لأنك توقفت عن ازعاجى ، يا مجرم !. لأننى اردت أن اضبطك متلبسا بالعملية ، واسلى نفسى !. نعم .. اسلى نفسى !. » .

وعلى الاثر انهالت الضربات : على وجهك ، وصدرك ، وعورتك ... ثم عاد يقول : « اذن فأنا لا أصلح لأى شىء ، هيه ؟.. انا ابله بائس !. انا سجين مثلك !. يا ابله » أنا القائد هنا !. أنا الرئيس!.» الرئيس !. ورئيس فطن : يا ابن الحرام !. بل عرفت تماما انك ستحاول القيام بها هذه الليلة !. عرفنا كلنا !. انهم جميعا شاهدوا الشرخ فى الحائط !. انك لم تتصور ابدا ان هناك شرخا من الخارج، هيه ؟ » .. ثم المزيد من الضرب : على وجهك ، وصدرك ، وعورتك ... لكن لم يكن الضرب هو الذى آذاك ، بل كان الاذلال والمهانة ، ووقع تلك الكلمات ، وذكرى الصوت الذى صك طبلتى اذنيك عندما كان نصف جسدك خارج الثغرة والنصف الآخر فى داخل الزنزانة ، فرفعت عينيك لترى الجنود مصطفين على جانبى المر ، وهو يكرر كلماته متهكما : « الجو بارد يا اليكوس .. ماذا تفعل هنا بغير ملابسك ؟ » .. وقتها شعرت بخديك يلتهبان بحمرة الخزى ، ووددت لو تموت ! .. اوآه يازيوس يارب الاقدمين ! .. أواه ياربى!. الضرب نعم ... التعذيب وتمزيق الجسد اربا نعم ... لكن ليس ان اكون اضحوكة !. ما هذا من الحق فى شىء !. ما هذا من شيمة الانسانية !.

« وكنت تظن حقا اننى ذهبت الى فراشى ، هيه ؟. اننى كنت أنعم بالدفء ، افكر فى هدرك ، هيه ؟. هل تعرف كم عدد الساعات التى امضيتها انتظرك واترصد لك ، مع افراد حرسى ؟. ثلاث ساعات .. ثلاث !. » ...

عند ذلك رفعت اجفانك المنتفخة الى مستوى نظـراته المفعمـة بالتحقير والازدراء ، وحركت شفتيك المورمتين بجهد بالغ لكى تقول له : « سوف تدفع ثمن هذا يا زاكاراكيس ... لست أعرف كيف ، لكنني سأجعلك تدفع الثمن يازاكاراكيس ! • سوف أسبب لك الانهيار العصبى !. سوف ارسلك الى مستشفى المجانين !. » ... فرد زاكاراكيس برفسة أخيرة ، بعد أن تعب وعرق من ضربك ، ثم احالك الى رجال المبـاحث (اى . اس . ايه) ، الذين لفوك فى بطـانية واخـذوك الى معسـكر الجيش فى جـودى ... وهنـا استأنفوا الاستجوابات المعتادة ، والتعـذيبات المعـروفة ، وحتى على أيدى الشخصيات السالفة : ماليـوس ، وباباليس ، وثيوفليـاناكوس ، ويوانيديس !.

وكان اشدهم سخطا واهتياجا هذه المرة هو ثيوفلياناكوس . « قل لى ، بماذا حفرت الثغرة ؟. ما الذى استخدمته ؟. » .. « بملعقة يا ثيوفلياناكوس » ... « هذا غير صحيح ، هذا غير ممكن !. انا لا اصدقه !. قل لى من ساعدك !. من هم شركاؤك ؟. » ... « لا أحد يا ثيوفلياناكوس » ... « كذاب !. منافق !. هذا غير صحيح !. سوف تعترف عاجلا » .. بواحد من محاضرك المزورة يا ثيوفلياناكوس ؟. ألم تعرفنى حتى الآن يا ثيوفلياناكوس ؟. امسح دبرك باعترافاتك الملفقة يا جهول !. امسحه .. فهو بحاجة الى المسح !. » ... « سوف اقتلك !. » ..

وكان اقلهم دهشة هو يوانيديس .. فقد جعل يحدق فيك دون ان يقول اى شيء ، وقد انبسطت أساريره القارسـة الى لون من المصابرة ، وبعد فترة مديدة قال هازا راسـه : « بنـاجوليس ، بناجوليس !. كنت اقول دائما انه لابد من اعدامك بالرصاص !. بناجوليس !. الغلطة كلها هي غلطة بابا دوبولوس ، الذى لم تتوفر له الجراة للقضاء عليك !! .. »

ومن بعد هؤلاء جاء فايدو جيزيكيس ، القائد العام لمنطقة اثينا، الذى وقع المرسوم القاضى باعدامك ... كان صارما ، مكتئبا ... بدت حول كم سترته الأيسر شارة حداد : فقد توفيت زوجته منذ بضعة أيام ... وقـد انحنى فوقك وانت ملقى على الارض مقيـد اليدين ، الى جانب صحفة طعـام لم تمسـه ، وقال لك : « يا مستر بناجوليس ... من فضلك يا مستر بناجوليس !. كل شيئا » ..

كان أول شخص فى مدى أربعة عشر شهرا خاطبك بلهجة رسمية .. فرددت المجاملة قائلا : « بدون أدوات الأكل يا سيدى ؟. سامحنى يا جنرال ، لكننى لست كلبا يا سيدى » ... « انا عارف يا مستر بناجوليس ، انا عارف ... لكن لابد أن تفهم مشاعرهم الجامدة ... فى الدقيقة التى أعطوك فيها ملعقة ، استخدمتها لفتح ثغرة فى هذا الحائط !. » ...

برقت فكرة فى مثل لمح البصر ... هاهنا الرجل المطلوب !. ها هنا الفرحة لكى تثأر لنفسك من زاكاراكيس ومن أولئك الذين اذلوك ، وسخروا منك !. لو تهيأ لك أن توفق فى اقناع هذا الرجل المهذب ذى السلطة ، فان المصيدة سوف تغلق باحكام دون صعوبة !. ومن ثم نظرت فى عينيه المفعمتين بالذكاء ، وزممت كل عضلة فى وجهك لتصور الذهول البالغ ، قائلا : « يا جنرال !.. بالتاكيد انت لا تصدق حكاية الملعقة ؟. ان الحائط لا يتكون من معجون حلوى ! » ... « ما هذا الذى تقوله يا مستر بناجوليس ! .. ما هذا الذى تقوله ؟. » ... « اقول أن الحراس هم الذين ساعدونى يا جنرال: وهم نفس الحراس الذين قبضوا على فيما بعد !. أقول ان زاكاراكيس هو المحرك يا جنرال !. ان الفكرة كلها نبعت من زاكاراكيس !. انه هو الذى أوحى الى بها !. انه كان يؤمل أن يفوز بنقله من هنا بعد محاولة هروبى ، أن يبتعد من هنا مثل باتسو راكوس !. كيف كان لى أن أتصور انه كان يلعب لعبة مزدوجة يا جنرال ؟. اننى صدقته ، وارجو عفوك اذ اقول هذا ، لكنك كنت تفعل مثل ما فعلت !. عندما يأتى قائد سجن الى زنزانة السجين ويقول له : (لنعقد صفقة ، انت تريد ان تهرب ، وانا اريد أن انقل من هنا ، فيمكن أن نساعد بعضنا) ... وبالمثل ، فعندما يضع حراسه تحت تصرف السجين ، ويجعله يلمح سراب الحرية ... يا جنرال ، اننى جعلت اتساءل فعلا عما اذا كانت اللعبة المزدوجة ، كانت دائما جزءا من خطته ؟. فقد بدا مخلصا جدا معى !. وربما يكون قد غير رايه ، خوفا من أن يتكلم احد حراسه ... انه كان شديد التلهف لكى ينقل من بوياتى ، مثل باتسوراكوس !. » ... « يا مستر بناجوليس ، اننى لا اصدق سمعى !. هذا شىء لم يسمع بمثله !. لم يسمع بمثله ابدا !. » ... « وانا اوافقك يا جنرال ... وانا مسرور لاعترافى بهذه العملية امامك ، لانك رجل كريم ،

وشخصية قويمة ، وجندى حقيقى !. وانك لم تسىء الظن بى ابدا ، ابدا !. وانت تعرف تمام المعرفة اننى لست بالذى يفتح فمه للآخرين : وتحت التعذيب لا أتكلم « ... « أنا أعرف يا مستر بناجوليس ، أنا أعرف ... ولابد لى أن أقدر هذا ، وهو أنك رجل شريف .. لكن ما أسررت به الى هو أمر فاضح وأبعد عن التصديق الى اقصى حد !. » ... « أنا اعرف انه كما تقول يا سيدى ، لكنه هو الحقيقة ... من سوء الحظ انه هو الحقيقة المجردة ... تصور : عندما اصطدم حفر الثغرة بجسم صلب ، يجىء زاكاراكيس الى ويقول : حاول من جديد ... استمر فى المحاولة !. سأعطيك بلطة !. وذات يوم ، عندما تملكنى التعب ، ولم أعد أستطيع بحال أن أتم الحفر ، بدا عليه الغضب ، وقال لى : (مؤكد انك لا تتوقع منى أن أحفر هذه الثغرة فى الحائط بنفسى .!) ... وبعد ذلك ، وبالرغم من هذا ، أرسل بعض الحراس لمساعدتى وهو يقول : هذا لكى أبتعد من هنا قبل باتسوراكوس ... ويا للكلام الذى كان يقوله عن الضباط ، وعنك بصفة خاصة يا جنرال !. » ... « أشكرك يا مستر بناجوليس ... انت خصم منصف جدا يا مستر بناجوليس !. لكن أنت تدرك أننى لا أستطيع أن ابقى هذه المعلومات لنفسى .. لابد لى من الابلاغ عنها .. » .. « اننى ادرك هذا يا سيدى ، وسوف أكون أنا الذى أدفع الثمن ، لكن هذا لا يهم » ... « اذن فالى اللقاء يا مستر بناجوليس » ... « الى اللقاء يا جنرال » ... « سأعمل على ارسال ملعقة لك يا مستر بناجوليس » ... « شكرا لك يا جنرال » ... « وستأكل شيئا لأجل خاطرى ؟ » ... « حاضر يا جنرال » ...

وحياك ، رافعا يده الى (كابه) ، وكأنك رئيسه ، وانصرف وهو يتميز من الحنق ... وبعد دقائق معدودة ابلغ يوانيديس كل شىء ، الذى بمثل حنقه استدعى ثيوفلياناكوس : « اذن فان الثغرة حفرت بملعقة .! » .. « نعم يا سيدى الجنرال ... ان هذا الوغد قد اعترف بذلك » ... « ملعقة (شوربة) عادية ؟ » .. « نعم يا جنرال ، اننا متأكدون من هذا الآن » .. « ولم يساعده أحد ، ولم يعطه احد بلطة ، مثلا ؟ » ... « كلا يا جنرال ... هو حيوان ، ذلك المخلوق ، وكلنا نعرف هذا » ... « وانت معتوه !. مغفل !. مغفل عاجز !. » ... « سيدى الجنرال !. » ... « وبنصف

عقـــل ! ٠٠ محقق رخيص ، أمبيا طفيلية ! ٠ » ٠٠٠ « ياجنرال !٠ »
« اغرب عن وجهي ، والا رفستك في دبرك ! » ..
وفي غضون ذلك جيء بالحراس الذين ضحكوا منك في الممر الى جودى ، واستطعت أن تســمع صرخاتهم من الغــرف التي كانوا يضربون فيها ، فكانت في سمعك أحلى من موسيقى قيثارة : « كلا !. النجدة !. كلا !. لا علاقة لي بهذا !. انا برىء !. احلف انني برىء!. انا لم أساعده !. كفى !. كفى بالله !. » .
وقد ذهبوا بك لمواجهة بعضهم ، فكانوا في اسوأ حال حتى تملكك الاغراء لحظة للتجاوز عنهم ... ولكن ذكرى الخزى الذى ألهب وجهك كانت لا تزال ماثلة ، وهكذا اكــدت الأقــوال التي قلتهــا لجيزكيز ، قائلا : لا نعم !. هم انفسهم !. ان زاكاراكيس اعطاهم البلطة ، وقد ساعدوني في اتمام العملية !. وبعد ذلك أزالوا الردم لئلا ينسد المرحاض !. » ... « هذا غير صحيح !. هــذا غير صحيح !!. » ... « بل صحيح لسوء الحظ ... ونظرت لانهم كانوا متكاسلين ولم يستطع حتى زاكاراكيس ان يجعلهم يرفعون الردم بسرعة ، جاءت لحظة ألقيت فيها كل الردم في المرحاض وانسد فعلا ... وقد أغضبهم ذلك جــدا حتى انهم امتنعوا عن اصـــلاح السيفون !.
وأنت مع ذلك لم تر زاكاراكيس ... فان يوانيــديس اراد ان يختلي به لنفسه ... واحقاقا للحق فان يوانيديس ساوره بعض الشك ... فقد كان يفهمك اكثر من غيره ، وكان يعرف انك قادر على أى شيء ، حتى ولو ضحيت بمصداقيتك ، والاقدام على الكذب لكي توقع زاكاراكيس في ورطة ... غير أن شكوكه كان لها منطق خاص ، ومن اية زاوية تفحص الموقف ، فقد بدا له هذا المنطق سليما تماما ... هل كان يراد التخلص من زاكاراكيس بابعاده ؟. لماذا ؟. لو كنت كاذبا فيما أدليت به ، فلن يوجد بعد الآن سجان يكون اكثر ثقة وصلابة من زاكاراكيس ... أما اذا كان العكس وكنت قلت الصدق ، فلابد أن يعاقب زاكاراكيس ، لكن ليس بالكيفيــة التي كان يؤملها ٠٠٠ ومن ثم يكون التحقيـــق معه أو تقريعه غير ذي جدوى : انما يكفي شيء من التحقير ٠٠ وهكذا اســتدعاه وقال له ٠ « اذن فقد اردت يا زاكاراكيس ان تحال الى المعــاش ؟. » ... « لست افهم يا جنرال !. » ... « بل تفهم يا زاكاراكيس ...

تفهم !. ان الرجل الذى لا يتكلم قد تكلم هذه المرة !. انا اعرف كل شيء ... ويمكنك أن تكف عن التمثيل » ... « يا جنرال ... لابد أن أصر على أننى لا أفهم !. اننى تعبت ، نعم ، ولا يمكنك أن تتصور ماذا كانت تلك الشهور الخمسة الماضية مع ذلك المنكود !! . اننى أود النقل ، نعم ، وأود الا أراه مرة ثانية ، والا اسمعه من جديد ، وأن أنسى انه موجود !. لكن أن أحال الى المعاش ؟! لا !. لا !. » ... « تطلب النقل يا زاكاراكيس ؟ » ... « نعم يا جنرال ... ان كان هذا ممكنا ، فنعم ... لا يمكننى الاستمرار يا سيدى ... هذا الرجل شيطان ، شيطان بالتأكيد !. » ... عندئذ قال بوانيديس بصوت أشد لذعا من أى وقت : « أنا أعرفه أكثر مما تعرفه يا زاكاراكيس ... هو شيطان ، نعم ... لكنه امين ... هو على العكس منك تماما ، وانت احمق وغير امين ... كان يجب ان آمر باعتقالك يا زاكاراكيس ، وأن أجرك أمام محكمة عسكرية بتهمة الخيانة ... لكن هذا يكون قليلا جدا لك ، بل يكون نعمة و .... » ... « محكمة عسكرية يا جنرال ؟!. خيانة ؟!. يا جنرال، أنا الرجل الذى قبض على هذا المجرم ، انا الرجل الذى .. » .. « لا تقاطعنى يا زاكاراكيس .« قلت لك اننى لا احب التمثيل ... وانا اكرر أن المحكمة العسكرية تكون قليلة جدا عليك ، بل نعمة... اننى أعرف العقاب الذى تستحقه ... وانت تعرف ما هو ؟. سوف تبقى فى منصبك يا زاكاراكيس !. سوف تبقى فى بوناتى !. معه !. سوف تحمله على ظهرك طالما بقى حيا ، واقسم على هذا !. » ... « لا يا جنرال ، لا !!. ليس هذا !! » ... « بل نعم ، ومنذ هذه اللحظة فصاعدا ، ساعهد اليك بتكليف آخر يا زاكاراكيس : أن تبنى زنزانة خاصة له ، زنزانة لا يمكنه أن يهرب منها ، حتى ولو فتحت الباب له ... والآن ، اخرج من هنا !. ولتحذر يا زاكاراكيس !. واذا فشلت ، فأعدك بشيء أسوأ من محكمة عسكرية !. سوف احبسك خلف القضبان معه ! » ...

وعلى مدار أسبوعين ظل زاكاراكيس ساكنا مثل شبح ... ان الصدام مع بوانيديس قد اكربه الى حد بالغ حتى أنه ، كما اضطر أن يعترف لك فى لحظة ضعف ، لم يعد يستطيع أن يباشر واجباته الزوجية ، وعيرته زوجته دون طائل بعبارات تهكمية لاذعة « الظاهر انهم كلفوه ببناء البارثينون (هيكل الالهة أثينا بمدينة أثينا) ! .. »

... ولم تفارقه فتور الهمة المؤنس الذى حطم أعصابه واحساسه بالعجز الذى لا حيلة له فيه ، الا بعد أن أخذ يحلم بإبداعك من جديد فى زنزانة لا مهرب لك منها ... لكن أى نوع من الزنزانات ؟. كان هذا هو السؤال الذى سلبه النوم ، والشهية الى الطعام ، والمقدرة الجنسية ... بل ان يوانيديس قد عهد اليه بمسئولية الاختيار ... اذ قال له : « هذه مهمتك يا زاكاراكيس ... وانى امهلك ثلاثة شهور ... وبعد عيد الميلاد ، لابد أن تكون جاهزة » ... بعد عيد الميلاد !. ثلاثة شهور فقط !. وعكف زاكاراكيس ، أملا فى تذليل المعضلة ، على تصفح كتب و (كتالوجات) المعمار ، وحفظ المصطلحات الفنية الصعبة ... ولكن دون جدوى ... فلابد أن تكون الزنزانة من الخرسانة المسلحة ، وأن تكون اساساتها من الصلابة وحوائطها من السمك بحيث لا يمكن خرقهـا حتى بأحـدث مثقب تفتقت عنه علوم الميكانيكا ... وينبغى أن تكون لها أبواب مزدوجة من الفولاذ ، ونوافذ خفية لا تدركها الاعين ، وسقف مدعم بتيـار كهربائى يصرعك صرعا لو حتى نظرت اليه !. لكن حتى هذا لن يكون كافيا !. ولابد من التفكير فى شىء أفضل ... شىء يسجن لا جسمك فقط ، بل خيالك ايضا ، شىء يمنع عقلك من التفكير ، اذ انك فى المرة القادمة لن تحاول فتح ثغرة فى الحائط ، وانما ابتكار اسلوب شيطانى جديد تماما ... واذا قدر لك النجـاح ، فان يوانيديس وحق يسوع لن يدخر لك يا زاكاراكيس أدنى رحمة ! .. ألم يقـل : « احذر يا زاكاراكيس ... اذا فشلت ، فاننى أعدك بشىء أسوأ من محكمة عسكرية ... سوف أسجنك خلف القضبان معه » ..

وذات يوم من أواخر شهر نوفمبر ، بينما كان زاكاراكيس يقوم بجولة فى المقبرة ، شاهد قبرا فى شكل كنيسة صغيرة ، وهنا نبتت الفكرة : قبر !. هذا هو الشىء المطلوب لذلك الشيطان !. زنزانة لها شكل وأبعاد قبر ... فليبن لك قبرا !. وربما حتى بشجرة سرو قربه !. ألم تكن هناك فعلا شجرة سرو فى ساحة الفناء الكبير ؟. وبانبعاث الفنان التى يشفق من ضياع الحافز الخلاق اذا هو لم يطلع من فوره وحى الالهام ، انطلق زاكاراكيس لتوه عائدا الى بوياتى ، وصمم رسما لمبنى متوازى السطوح ، وحدد مقاساته ... وبعـد شهرين كانت الزنزانة جاهزة ... تلك الزنزانة المرعبة التى كان عليك أن تبقى فيها مدى ثلاث سنوات ونصف ، بدءا من صباح يوم من فبراير ...

يا لذلك الصباح الرهيب من شهر فبراير ! . كنت في جودى في ذلك الصباح الرهيب من فبراير ، ومن المؤكد انك لم تتصـور أن زاكاراكيس قد بنى البارثينون الذى استنبطه ... وقـد توهمت انك ابعدت من نطاق سلطته ... وفي جودى لم يكن موقفك بالغ السوء ، فان القومندان لم يعمل على وضع يديك فى القيود ، وكثيرا ما تلكأ الحراس للتحدث معك ، وفوق هذا كله فهنـاك أتيـح لك ان تتعرف على موراكيس آخر : جندى راغب فى مساعدتك على الهروب ... « انظر الى يا اليكوس ، الا تتذكرني ؟ » ... « لا » ... « لكنك تعرفنى يا اليكوس ، فقد رايتنى قبل الأن » ... « اين ؟. ومتى ؟ » ... « فى ادارة المباحث (اى . اس . ايه) ، بعد القبض عليك مباشرة ، اثناء ضربك » ... « ضربى ؟ » ... « نعم ... فقد امرونى أن أضربك ، وضربتك بعصا ... ولكن فيما بعد شعرت بخجل شديد » ... « انا لا اصدق هذا » ... « هذه هى الحقيقة ، يا اليكوس ، الحقيقة وبلغ من شدة خجلى اننى حلفت أن أساعدك فى أول فرصة و .. » ... « أنا لا اصدق هذا » ... « حلفت أن أساعدك ، وقلت لنفسى .. اذا لم يقتلوه ، فذات يوم سأفعل شيئا من اجله » ... « اسمع ... ان موراكيس حكم عليه بالسجن مدة ١٦ سنة » .. « اعرف هذا » .. « وفى المرة القادمة لن يكلفوا خاطرهم بالقبض على ، وانما سيقتلوننى بالرصاص مع اى شخص آخر يكون معى » .. « انا أعرف » .. « ما الذى تعـرفه ، يا مهرج ؟ » ..

ولقد استخدمت معه أساليبك القديمة فأخذت تتهكم عليه ، وتتوعده ، وتهينه ، ولكنك فى النهـاية اقتنعت بأنه لا يكـذب ، وأعددتما معا خطة ... لم تكن فيها حماقة هذه المرة ، ولا جعجعة ... فبالاضافة الى كسوة عسكرية ، كان عليه أن يزودك بوثائق عسكرية ، للخروج من جودى وبجواز سـفر مزور ، ونظـارة لتتغير ملامح وجهك ، وسيارة تنتظرك عنـد المنفذ الخـارجى ، ويخت لالتقاطك فى خليج فولياجمينى على اهبة الابحار الى خارج المياه الاقليمية ... وكانت الصعوبة الوحيدة تتمثل فى القفلين الكبيرين على باب زنزانتك : اذ كان مفتاحاهما فى حيازة ضابط ... « لا يمكننى ان أسرقهما منه يا اليكوس » ... « لا حاجة الى هذا .. اذهب الى حداد واشتر جميع المفاتيح التى ترى انها قد تؤدى الغرض » ...

فذهب ... وعاد بنحو خمسين مفتاحا ، امكن باحدها فتح احد القفلين ... اما الثانى فلا ... « ماذا نفعل يا اليكوس ؟ » .. « هذا سهل ... اشتر مفاتيح أكثر ... اشتر جميع المفاتيح التى فى السوق ... اذا واصلنا المحاولة ، فسوف نجد المفتاح المطلوب».

وذهب مرة ثانية ، وعاد مرة ثانية ، ومعه حوالى مائة مفتاح ... ومنذ الثامنة صباحا حتى الحادية عشرة ، مدة نوبته نهارا ، وبعد ذلك منذ العاشرة ليلا حتى منتصـــف الليل ، وهى نوبة الليلة ... ظل يعمل فى القفل الثانى ، عارقا ، مرتعدا لدى التفكير فى امكان ضبطه ... وواحدا بعد الآخر كان يجرب المفــاتيح دون طائل ، حتى وصل الى المفتاح الثامن والثلاثين ، فانفتح القفل ... « بديع ... هل يمكنك أن تدبر كل شيء للغد ؟ » ... « نعم .. كل شيء جاهز » ... « حتى السيارة واليخت ؟. » ... « نعم .. انهما فى الانتظار منذ أيام » ... « عند منتصف الليل اذن » .. كان منتصف الليل موعداً مثاليا ... ففى منتصف الليل ينام المعسكر كله ... كله..

جعلت تغنى فى ذلك الصباح ، كما كنت تفعل فى أيام المرحاض السيفونى ... بيد انك لم تستمر فى الغناء طويلا ، اذ حوالى الساعة التاسعة دخلت الى الزنزانة ثلة من الجنـــود وقيل لك : « اخـــرج يا بناجوليس ، أنت راحل » ... « ؟. الى أين ؟. » .. « الى بوياتى يا بناجوليس ... ستعود الى بوياتى » .. ثم سيارة نصف نقل ، ورحلة بلا نهاية ، وتوق الى البكاء كتم انفاسك ، واذا أمامك الكتلة الرمادية لمبنى بوياتى بســـوره الخارجى وأبراجه ! .. وكان زاكاراكيس فى انتظارك لدى المدخل ، ويداه فى خــاصرتيه ، ووجهــه الكبير الشاحب لا يكاد يخفى نظرة انتصار ... « انظر من هنا !. انظر من عاد مرة اخرى !. ادخل يا بنى العزيز !. ادخل !. لا يمكنك ان تتصور ما الذى اعددته فيماكنت بأجازة فى جودى !. » ...

واخذك من ذراعك ، ودفعك فى الدرب الصغير المؤدى الى الفناء، مرورا بالزنزانة التى هربت منها دون توقف ... ثم انعطف يمينــا ، ثم يسارا ، ثم يمينا مرة اخرى ، وقلبك يدق بعنف : واستشعرت أن شيئا مستطيرا يوشك ان يحدث عندما قال لك زاكاراكيس : « ها نحن يا بنى العزيز !. ها نحن هنا » ... شيء رهيب ، شيء سوف يصب عليك العذاب صبا بأكثر مما لابست من ألوان العــذاب حتى الآن !. « ها نحن هنا يا بنى العزيز !. هل يعجبك المكان ؟..

انه لك كله ، لك وحدك !. » ... وفى وسط الفراغ المكشوف لاح لعينيك القبر وشجرة السرو ، فكان وقعهما فى نظرك كوقع لطمة عنيفة على عينيك ، ثم سمعته يقول لك : « ان الشجرة قصيرة ، لكنها سوف تكبر » ..

★★★

لقد اعتدت أن تقول أنه من المستحيل تصور تلك الزنزانة بغير مشاهدتها عيانا ... وهذا هو السبب فى انك بعد سقوط نظام الطغيان طلبت من وزير الدفاع ايفانجيلوس توسيتساس أفيروف السماح بتصوير الزنزانة ... بيد أنه رفض ... وقد سألته هذا مرة ثانية عندما أصبحت عضوا فى البرلمان ، مبينا له ان ما طلبته ليست نزوة من جانبك ، بل هو ضرورة لكى تبين للعالم كيف يعامل السجناء تحت انظمة الطغيان ... غير أنه ضن عليك مرة أخرى ... وعلى مدار ثلاث سنوات ظللت تكرر الطلب بعناد واصرار ، مؤكدا شكك فى أنه يريد اخفاء ذلك العدوان الصارخ عن العالم ، وأنه ينوى فعلا محو ذكراه بازالة معالمه وتسويته بالارض ، غير أنه استمر فى رفض السماح بتحقيق مطلبك ... بل انه لم يسمح لك حتى بالمرور أمام بوابة بوياتى لكى تلقى نظرة على المكان ، ولكى تقول لنفسك : ــ هاهنا دفنت خلف هذه الجدران ، وبقيت على قيد الحياة !. انك لم تره قط مرة ثانية ، ولم تستطع قط تصويره ... ولكن بعد وفاتك ، فى الايام التى سعيت كما يسعى الحجاج لالتماس آثار ماض مغيب ، من شوارع أو ابنية لم يعد لها غالبا اى وجود ، ومن أعمدة خرسانية مقوضة ، وبقايا شبكات فولاذية قصفتها الرياح ــ بعد ذلك شهدت المكان مرة ثانية نيابة عنك ، وصورته من أجلك ... فى ذلك الحين كانت بولدوزرات ايفانجيلوس توسيتساس أفيروف تقوض الموقع .. لقد هدموا الابراج ، وجزءا كبيرا من السور الخارجى ، والثكنات المركزية ، واستحال كل شىء الى انقاض وعدم ، وهكذا وجدت مشقة فى التعرف على أكثر المعالم الماضية ، مثل الفناء الذى جعلوك تلعب فيه كرة والزنزانة التى هربت منها مع موراكيس والتى عدت أليها لكى تشهر معركة المرحاض السيفونى !. لقد تعرفت على هذه الزنزانة حقا ، بسبب الثغرة فى الحائط : اذ كان يمكن من المر تمييز تلك الرقعة ... ومن بعدها وصلت ألى الفناء الكبير حيث أختار زاكاراكيس أن يشيد فيه

مدفنك الذى سماه البارثينون تشبها بالتسمية التاريخية لمعبد الآلهة اثينا ، وقد تعرفت عليه من فورى فى مثل طرفة عين ، لأن مجرد نظرة اليه جعلت قلبى يتوقف !. كانت قبرا حقا ، ونم تكن مبالغا فيما صورت ... كان له لون القبر ، ومظهره ، ومواصفاته : ليس به الا نافذة ضيقة ، سعتها ثلاثون سنتيمترا فى ثلاثين ، تشق رتابة السطح الخرسانى ، والباب الضئيل المؤدى الى ردهة الزنزانة ... وفى الداخل كان الحال اسوأ ، اذ كنت تتحقق على الفور أن كل شىء كان اشد صفرا وضآلة مما يبدو من الخارج : كان ثلثا الحيز تلتهمهما الردهة ... وكانت الزنزانة ذاتها قائمة فى الخلف ، خلف حاجز ، هو لوحة فولاذية ترتفع الى الذقن ، تليها قضبان ... وكانت المساحة الكلية لا تجاوز مترين فى ثلاثة : والحجم ، لك أن تقول انه حجم سرير مزدوج أو اكثر قليلا ... وهذه المقارنة مع ذلك ملغوطة ، لأنها توحى بأن المساحة التى يمكن التحرك فى حيزها هى مساحة سرير مزدوج ... لكن هذا لم يكن ... فما كنت تستطيع أن تتحرك الا فى رقعة طولها متر وثمانون سنتيمترا وعرضها تسعون سنتيمترا ، أما باقى الزنزانة فكان مشغولا بسرير وركن به حوض غسيل بدائى ومرحاض ... وكان السرير ، المثبت على قيد خمسين سنتيمترا من الارض ، موضوعا فيما بين زاوية الحائط وحوض الغسيل ... وكان التمدد فوقه أشبه بالتمدد فى تابوت الموتى ، بسبب السقف المنخفض للغاية والظلام ... وكان الظلام شاملا أو يكاد ... فالى جانب كرة المصباح الزرقاء الحسيرة لم يكن يتسرب سوى ضوء يسير جدا من الردهة ، حيث ابدل السقف بقضبان افقية ... على أنه لم يكن ضوء نهار بالضبط ، اذ قامت وراء القضبان شبكة حديدية ، ومن بعدها منفذ حديدى أيضا ، حتى كانت الشمس تتسرب من خلال المنفذ وكأنما من خلال مصفاة ، مرسلة بصيصا قاتما ، أو خيوطا صفراء باهتة ... على أن المطر كان ينفذ بسهولة ، مثله مثل البرد فى الشتاء والحر فى الصيف : باختصار كان قبرا معرضا لكل عناصر الطبيعة ..

لقد حبست نفسى فى المكان ، وحاولت أن أتمشى فى رقعة التسعين سنتيمترا والمتر والثمانين ، متذكرة القصيدة التى تقول : (ثلاث خطوات الى الامام ، ثم ثلاث فى العودة والف مرة بنفس الرحلة واليوم قد أضنانى المسير) ... ثلاث خطوات ؟!.. لن

تستطيع ان تخطو اكثر من خطوتين !. وحاولت ان اتمدد فى السرير، فكان السقف المرهق والحوائط التى تسنده كاتمة لأنفاسى ... فتعلقت بالقضبان لالتقاط أنفاسى من جديد ، وبجهد خارق حملت نفسى على مقاومة اغراء دفع الباب الصغير لفتحه ... وعندما بدا لى اننى قضيت ساعات وساعات فى هذا المكان ، القيت نظرة على ساعتى : فاذا الذى انقضى لم يكد يجاوز عشر دقائق !. وحاولت مرة اخرى ، بكل ما املك من قوة الارادة ، بيد أن الوقت تعاقب ببطء بالغ ، حتى لقد فقدت كل احساس بالتعاقب ، وغدا العقل متحجرا فى سكون الموت ، وفى هذا السكون استحوذت على النفس فكرة واحدة : الخروج !. الخروج !. الخروج !.

ومع ذلك ، فانك لم تظهر لزاكاراكيس ولو مدى لحظة انك يئست ... فقد أجبته بابتسامة عريضة ، قائلا : « برافو يا زاكاراكيس !. هل فعلت هذا بنفسك ؟» .. « نعم ، كله بنفسى !! » .. « أنا لا اصدقك يا زاكاراكيس .. انك لست من الذكاء بالدرجة الكافية » ... « لكننى فعلت ... فعلت كل هذا بنفسى !. واقسم لك !. اننى صممت ، ونفذت ! » ... « تهنئتى لك » ... ثم اشرت الى الردهة الخاجية وقلت : « وهل هذه لى ايضا ؟ » .. « كلا .. هى للحراس عندما يجيئون لاحضار طعامك !. لكن اذا سلكت مسلكا حسنا ، فسأمنحها لك ، لكى تتمشى فيها ، مدة ثلاثين دقيقة فى اليوم » .. « بديع يا زاكاراكيس ، بديع ».. « وهل هذا هو ما يجدر أن تقوله لى ؟ » .. « نعم يا زاكاراكيس !. سوف أهرب يازاكاراكيس !. » .. « كلا ، لا يمكن ان تهرب من هنا » ... « سوف أهرب ... هل نتراهن ؟. » ... « لا بأس ... بماذا يكون الرهان ؟ » ... « ببذلة كولونيل » ... « فليكن » ... وازاح قضبان البوابة ، وفتح باب المدخل ، وتركك وحدك ..

كان عليك أن تقدح زناد عقلك ، وتفكر ، دون أن تدع للغضب سبيلا للاستحواذ عليك ، ودون ان تتحسر على نفسك لما الم بك من سوء الحظ ، اذ لم توفق الى مفتاح القفل الثانى قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة !. لابد من وجود حل ما لكيفية الخروج من هنا ، ويمكن أن تكفى بضعة أيام لاكتشاف الحل ... وبهذه الافكار انقضى اليوم الاول ــ والثانى ــ والثالث ــ والرابع ــ والخامس ... وفى غضون ذلك رحت تجمع المعلومات ، والانطباعات ، وتعمل على

تطويرها : فقد كان حول القبر ستة عشر من الحراس ، ثلاثة لدى كل جانب ، وواحد لدى كل ركن ... واربعة منهم كانوا يأتونك بالطعام ... كانت وجوها جديدة جامدة الملامح ... ربما كان الحل ماثلا فى تلك الوجوه الجديدة الجامدة الملامح ، وربما لا يصعب عليك أن تخدع الحراس ، وتجد الوسيلة للخروج من الزنزانة ... ان العقبة لم تكن هى الزنزانة ، بل كانت السور الخارجى ذا الأسلاك الشائكة : هل كانت أسلاكا شائكة عادية كما كانت فى وقت هروبك مع موراكيس ، أم ان الاسلاك غدت الآن مكهربة ؟. لم يكن بوسعك الخروج والسؤال ، والا أثرت الشبهات .. ليس فى وسعك الا أن تقامر ، وفى هذه المرة مقامرة عمياء ، أحمر او أسود ، ولا يهم بعد ذلك : فان سرى فيك تيار كهربائى ، فمعنى هذا أن الاسلاك مكهربة ... واذا بقيت سالما ، فمعناه أن الاسلاك عادية ... كانت العملية تستحق المجازفة أيضا ، لأن الحيلة التى ابتكرتها كانت آية فى الابداع ... انها أبدع واطرف حيلة تفتق عنها خيالك ... وفى اليوم السادس قر قرارك ... كان المساء مقبلا ، وجاء الحراس الأربعة بطعامك ، وقف آثنان منهم فى الردهة ، وفتح أحدهم البوابة الداخلية ، واجتاز واحد الردهة بالصحفة ، وفى الحال وقعت الصحفة على الارض ... رحماك يا يسوع !. كانت الزنزانة خالية ... وفوق السرير كانت ورقة تضمنت هذه الكلمات : (عزيزى زاكاراكيس ... سوف أعود لآخذ بذلة الكولونيل ... اذا رأيت ثيوفلياناكوس وهازيزيكيس ، فأبلغهما اننى سأجعلهما يتبولان دما !. واذا رأيت يوانيديس ، فاطلب منه أن يحيلك الى المعاش ــ المخلص السيكوس) ...

ودخل الحارسان اللذان فى الردهة ايضا ... « اين هو ؟ » ... انه ليس هنا !. « هذا مستحيل ! » ... « مستحيل ؟. انظروا !. » ... « من جاءه بالطعام هذا الصباح ؟ » ... « انت ... أنت أحضرته له ! » ... « كذاب ! » .. « من تقول انه كذاب ؟ » .. « أنت » .. « الهدوء يا جماعة ... دعونا نفكر فى الموقف ... هل أغلقتم كل شىء بعناية عند خروجكم ؟ » ... «طبعا» ... « والمفاتيح ؟. لمن سلمتموها بعد ذلك ؟ » ... « أنا سلمتها لك ! » .. « لى ؟ كذاب ! » ... « يا أولاد !. لا تدعونا نتشاحن فيما بيننا !. دعونا بدلا من ذلك نبحث عنه !. » ... وجعلت

أعينهم تنهب السقف والحوائط بحثا عنك وكأنك حشرة !. وفى خلال ذلك كنت مكوما تحت السرير ، كاتما أنفاسك ، مقاوما رغبتك فى الضحك !. طبقا لما تنبأت به سلفا ، كان هو الذى حدث : انهم لم يفتشوا الموضع الوحيد الذى يمكن أن تختبىء فيه !. ترى هل يكونون من الغباء بحيث يرتكبون أيضا الغلطة الثانية ويخرجون دون ان يغلقوا البوابة الداخلية والباب ؟. هاهم أولاء جالسون فوق السرير يتشاكون موجعين ... « لكن كيف فعلها بحق يسوع ؟!. » ... « لابد لنا من اعطاء الانذار » .. قالوا هذا واندفعوا خارجين ، دون اغلاق البوابة والباب ... « انذار !. انذار !. » ... الآن انطلقت فى المعسكر صيحة واحدة : « انذار !. انذار !. » ... فانتظرت بضع ثوان ، ثم برزت وانت تصرخ مع الآخرين : « انذار ، انذار ! » ... ووصلت الى شجرة ، ومنها الى كوخ المطبخ ... واحتك بك شبح ، جندى ... وسألك : « هل رأيته ؟ » ... «نعم، هناك ! » ... قلت هذا مشيرا الى شخص يجرى فى الاتجاه العكسى ... فشكرك وجرى صائحا : « هناك !. هناك !. » ... ما من احد أبدى اهتماما بك ، ما من أحد صوب الانوار الكاشفة نحوك ، وتسنى لك أن تفكر فى محاولة الوصول الى السور الخارجى ... وقد وصلت اليه ، واخذت ترتقيه ، ووصلت الى أعلاه ، ولامست الأسلاك الشائكة .. كلا .. ليس بها اى تيار كهربائى ، غير أنها مزقت لحمك بأسوأ مما كان ليلة أن هربت مع موراكيس .. ترى كم تستغرق من الوقت فى تخليص نفسك من الاسلاك ؟. كان الظلام معوانا لك ، ولكن الانذار يجب أن يتوقف !. جعلت من كفيك بوقا واخذت تصيح : « اوقفوا الانذار !. أوقفوا الانذار !. » ... فارتفع صوت يردد : « أوقفوا الانذار ! الانذار توقف ! » ... وعندئذ سمع رقيب يصيح غضبا : « من اعطى الأمر بوقف الانذار ؟» ... « هو » ... « هو من ؟ » ... « ذلك الشخص الذى بالملابس المدنية » .. « اى شخص بالملابس المدنية ؟. يا مغفلين !. ابحثوا عنه !. » .. ومزقت السلك لتخليص احد ساقيك ، فاشتبك فيه احد ذراعيك ... وامتلأ كمك بالدم !. فهل مزقت شريانا ؟. ان الالم شل حركاتك مدى ثانية ... « اننى رأيته ! » .. « اين ؟ » .. « فوق السور !. امسكوه !. » .. وانطلق نور كاشف ، فغمرك بالضياء ، وكنت على وشك القفز عندما شعرت بشخص يجذبك .. « يا رقيب !. اننى قبضت عليه ! » ..

اعقب ذلك فترة اضراب عن الطعام قصيرة ... فى الخارج كانوا لا يزالون يساورهم القلق من أجلك ، وكان زاكاراكيس اخوف مايكون لئلا تقضى نحبك .. « كل ! » .. « لا » .. « كل من فضلك ! » ... « لا » ... « ان أمك احضرت هذا الطعام » ... « دعها تأكله » ... هيا ، وقل لى ماذا تريد » ... « قلت لك : اريد بذلة كولونيل ... ان لى الحق فيها ... فقد هربت ، اليس كذلك ؟ » ... « لا ، لأننى قبضت عليك » ... « هذا لا يهم ... اننى هربت من الزنزانة ، وبرهنت على انك مغفل ! » ... « انت المغفل !. »... « كلا ، انا الذكى ... واريد بذلة الكولونيل » ... « وماذا ستفعل ببذلة كولونيل ؟ » ... « سألبسها ... هذا كرنفال ... وفى الكرنفال يلبس الناس أزياء ، وافكه زى موجود هو بذلة كولونيل ، لأن سيدك ، بابا دوبولوس ، يلبس مثلها ! » ... « ابن حرام ! » ... « مهرج ! » ...

وفى اليوم التالى تكرر نفس الحوار ... وفى النهاية اطلق زاكاراكيس صيحة يائسة : « هاتوا له بذلة كولونيل ! » ... « ليس عندنا هذه البذلة يا سيدى ، فليس بيننا كولونيل هنا » ... « اوجدوا بذلة ! » ... ووجدوها ، ولبستها انت ، واكلت !. وعاد زاكاراكيس ... « الآن رد الى البذلة » ... « لا وحياتك ! » ... « اننى اعطيتها لك لكى تأكل ... وقد اكلت ... فالآن ردها لى ! » ... « كلا » ... « انزعوا عنه هذه البذلة ! » ... وانقض عليك خمسة منهم ... لقد عوقهم الحيز الضيق ، حتى تصادموا بعضهم ببعض ، وارتطمت سواعدهم بالحوائط ، ولكنهم نزعوا البذلة عنك ... ونزعوا معها حذاءك ، مدى أيام ، والجو بارد ... فاستأنفت الاضراب عن الطعام ... « كل ! » ... «لا» .. « ماذا تريد ؟ » .. « حذائى » ... « اليك حذاءك ... هل تأكل الآن ؟ » .. « كلا » .. « ماذا تريد بعد ؟ » .. « اريد أن آخذ حماما ، لاننى نتنت ، وقملت ، مثلك يا زاكاراكيس ! » ... « انا لم انتن ، ولم اقمل ! » .. « بل هكذا انت .. بل قملة تزن تسعين كيلو جراما ، هى انت ذاتك ! » ... « سأقتلك ! » ... « وسينتهى بك الامر الى المحكمة العسكرية ، بتهمة القتل !.. هذا ما قاله لك يوانيديس » .. « آه ، لا بأس ... اعطوه حماما ! » .. « ساخن .. اريد حماما ساخنا ، والا اصبت بالتهاب رئوى وانتهى

بك الامر امام محكمة عسكرية ايضا ، بتهمة قتل نفس بشرية ! » ..
« اعطوه اذن حماما ساخنا ! » .. « أريد كـذلك حـلاقا » ..
« اطلبوا الحلاق ! » .. وجيء (بالمستلة) وبها الماء الساخن ...
وجاء الحلاق .. وحموك .. وحلقوا لك .. وقصوا شعرك ...
بيد انهم قصوا الشـعر الى حـد نصف سـنتيمتر بنـاء على امر
زاكاراكيس .. وهنا نشبت معركة مرة ثانية .. « ايها الخنزير
المقمل ... أمرتهم يجعـلونى أقـرع ! » .. « لم أطلب منهم أن
يجعلونك أقرع .. أمرتهم بتقصير شـعرك ... الم تقـل لى انك
مقمل ؟ » ... « القمل لا يستكن فى الراس فقط ... انه يوجـد
حيث يوجد شعر ... واذن فلابد أن تحلق كل جسـمى ، تحت
الابطين أيضا ، وحـول الخصيتين » ... « انت مجنون !. انهم
عهدوا الى برجل مجنون للاشراف عليه ! » ... « أنا لست مجنونا
يا زاكاراكيس ... أنت تعرف جيدا اننى اتصرف هكذا لكى اصيرك
الى الجنون !. ولسوف انجح ، طالما انا فى هذا القبر » .. « احلقوا
كل شعر فى جسمه ! » ... « ليسوا هم ، بل تحلق لى انت !. اننى
اعرف انك تحب ان‌تتحسسنى ، لأنك فضلا عن كونك خنزيرا وابن
حرام ، فأنت أيضا لواط » ..

لقد أمر بربطك فى السرير ... وانهال عليك بالضرب شخصيا
... كان ضربه شديدا الى حد جعله يستدعى الطبيب ، الذى ارتاع
لمرآك : فقد كان جسدك كدما واحدا من الراس الى اخمص القدم
.. « من فعل هذا ؟ » .. « هو زاكاراكيس .. انه اراد أن يحلق
جسمى » .. « يحلق جسمك ؟ » .. « نعم ، لكى يهتكنى .. قال
انهم يفعلون هذا فى مواخير اسطنبول .. فدافعت عن نفسى !. فانهال
على ضربا » .. « يهتكك ؟! » .. « طبعا .. انه فعل هذا مع كل
شخص ، وكل انسان يعرف هذا !. هو لواطى ! » ...

فى هذه المرة أصيب زاكاراكيس باحتقان فى الكبد ألزمه الفراش
مدى أسبوع ..

عند هذا الحد غدا كل من الاثنين فى آن واحد ضحية ومعذبا
للآخر ... وصارت العلاقة قائمة على التبادل المتواصل للادوار ،
وكان من الصعب أن يقرر المرء من من الاثنين كان اشـد قسـوة
حيال الآخر ... ربما أنت ، لانك كنت تفهم زاكاراكيس جيدا ، فى
حين أن زاكاراكيس لم يفهمك ... وكيف يتأتى له هذا ؟.. ان

ما كنت تفصح عنه وما كنت تمثله كان أبعد عن عالمه بعد السماء عن الارض ... انه كان ينفجر ضحكا لو أنهم فسروا له ان البطل الحقيقي لا يستسلم أبدا ، وانه يمتاز عن الآخرين لا بمبادراته الباهرة أو بالكبرياء التى يواجه بها ألوان التعذيب والموت ، ولكن بالثبات الذى يكرر به نفسه ، والصبر الذى به يكاد العذاب وينحو الى رد الفعل ، والكرامة التى يخفى بها معاناته ويقذف بالبرد عليها فى وجه ذلك الذى امر بها ... اللا استسلام هو سره ، الا يعد نفسه ضحية ، الا يبدى للآخرين حزنه أو يأسه ... وعندما تجد الضرورة ، فانه يستغل أسلحة السخرية والتهكم ، وهما الحليف الاكيد لرجل يرسف فى الاغلال ... وهكذا ، فعندما ثارت هجمتك الجديدة ، أخذ غريمك على غرة ...

★★★

فيما كنت تتعافى من أوجاع عمليات الضرب الاخيرة ، ثار الهجوم الجديد بدوى مدافع قاصفة ... فذات مساء تعلقت بقضبان البوابة الداخلية ، ووجهت صوتك شطر السقف المشبك للردهة ، مناديا كافة الحراس والمسجونين معا : « انتبهوا من فضلكم !. انتبهوا !. هنا اذاعة نشرة الاخبار فى بوياتى !. اليكم نشرة خاصة !. ان نيكولاس زاكاراكيس ، قومندان مزرعة البراز هذه ، يعانى من متاعب فى الكبد ... وتتردد اشاعة تقول ان هذا المرض هو نتيجة لاهتياج عنيف انتابه عندما عجز عن هتك سجين لا يحب اللواطين ، غير أن هذه الشائعة خاطئة .. ونحن فى موقف يسمح لنا أن نميط اللثام ، عن أن أزمات الكبد التى تنتاب زاكاراكيس ناجمة عن خيبة أمله فى عدم اشباع شهواته على يد ذلك السجين ... وكل من يرغب فى التطوع من أجل هذه العملية القبيحة عليه أن يبلغ المكتب المختص، ذاكرا اسمه ورتبته ورقمه المسلسل !. ويدفع زاكاراكيس بالعدس ! » ...

وفى مساء اليوم التالى : « انتبهوا من فضلكم !. انتبهوا !. هنا اذاعة نشرة الاخبار فى بوياتى ... نشرة خاصة ... ان زاكاراكيس كذاب ... ليس عنده اضطرابات فى الكبد ، عنده بواسير !. ان هذا السجين يعرف الحقيقة لأن ذلك الخنزير قد اراها له ... وقد شرح أيضا أنه أصيب بها عندما كان يعمل مومسا فى ماخور

باسطنبول !. ان مرض زاكاراكيس قد عاوده نتيجة لحديثه الاخير مع وزير العدل ، الذى رفسه فى دبره » ...

وكل مساء كان الحال على هذا المنوال ، فى مواظبة كاملة ، حتى أن التسلية فى الثكنات القائمة فيما وراء السور بلغت حدا جعل الطلبات للحصول على اذن بالخروج تتناقص بصورة حادة ... «ماذا تنوى أن تفعل هذه الليلة ؟. هل تذهب الى السينما ؟ » .. « لا.. أريد ان أسمع نشرة أخبار بناجوليس الخاصة ! » .. أو ... « هل ذهبت الى المدينة فى الليلة الماضية ؟ » .. « لا ... اننى بقيت هنا للاستماع الى نشرة أخبار بناجوليس الخاصة ! » ... وكثيرا ما شارك بعض الضباط فى الاستماع ، وان تظاهروا بعدم الاهتمام ، وهم مشوقون فى الواقع لسماع ما تخترعه فى أحدث اذاعاتك !. والواقع أن الاذاعة ، فى توقيتها المجزأ ، قد أصبحت نوعا من المسلسلات حول مغامرات زاكاراكيس الشهوانية فى الماخور الخرافى باسطنبول ... وقد تجلت براعتك فى التوقف دائما عند نقطة درامية : « وغدا ، أعزائى المستمعين ، سوف تستمعون الى البقية ! » ...

اننى لا اتذكر المكيدة جيدا ، لكن اذا لم أكن مخطئة ، ففى سياق معين تخلى زاكاراكيس عن صفته كمومس وجرى خصيه لكى يصبح محظى الوزير الاكبر ... وقد أدى هذا الى سلسلة من القبائح التى ورطت شخصيات أخرى ، بما فيها الوزير الاكبر الذى سمى بابا دوبولوس ، واميرا اسمه يوانيديس ، وجلادا اسمه ثيوفليناكوس ، ومستشارا ماكرا اسمه هازيزيكيس !. وكان الوزير الاكبر والامير يكرهان أحدهما الآخر كراهية قتالة ، وكان الجلاد والمستشار الماكر يكيدان لبعضهما كيدا مريرا ، غير انهم جميعا شكلوا حلفا حديديا طوع لهم العمل على اذلال المحظى ، الذى استهدف فى سبيل الدفاع عن نفسه لتجارب قوامها الخضوع الدنىء ...

وفى النهاية جاءك زاكاراكيس ... جاء ووقف مستندا فى اعياء الى البوابة ، نظر اليك بعينين مضناتين ، وقال لك : « يا اليكوس ، لابد لى من الكلام معك » ... « خذ حريتك كما لو كنت فى بيتك يا زاكاراكيس ، المكان واسع رحيب !. هذا صالون فاخر !.. هل تفضل الاريكة ، او احد هذه الكراسى المريحة ؟. لكن لا تلاطفنى ،

هيه ؟. لا تلامسنى !. اليوم انا اشعر بصفة خاصة بالعفة » ...
« اصغ الى يا اليكوس ... انا اعرف انك تمزح .. أنا اعرف انك
تعرف اننى رجل نظيف ، طبيعى كأى رجل ... انا انسان له زوجة
وطفلان » .. « يا زاكاراكيس .. ان زوجتك هى واجهة فقط ..
كثير من الشواذ لهم زوجات ، ويعلم الرب وحده أبناء من هم ! »..
« يا ابن الحرام ! » .. « لا تشتمنى ولا تلمسنى يا زاكاراكيس ،
والا اعلنت فى الاذاعة أنك قواد أيضا !. والحقيقة أننى لم افكر فى
هذا ، كما تعرف .. هذه الليلة ساعفيك من دور المحظى واجعلك
تتزوج محظية الوزير الاكبر ، وبهذه الكيفية تصبح قوادا فعلا بينما
تغدو زوجتك محل مضاجعة الامير ! » ... « اصغ الى يا اليكوس ،
اننى افهمك ... لقد قرأت كتابا فى علم النفس وأنا افهم اشياء
معينة ... انت شاب ، ولك مطالب جنسية ... وهى التى تجعلك
فى مثل هذا القلق الشديد ... وأنا أيضا ، عندما كنت فى ريمينى ،
سجينا لدى الايطاليين ، كنت قلقا على الدوام ، لأننى كنت بحاجة
الى امرأة ... وهكذا ، اذا احببت ، ساعمل على ان تاتيك امراة..
مرة كل شهر .. لا .. مرة كل اسبوع .. فهل تحب هذا ،
الا تحبه ؟ » .. « مفهوم يا زاكاراكيس .. هى نفس الحكاية القديمة:
انت تريدنى أن ألوطك ... مسكين يا زاكاراكيس ... انك وقعت
فعلا فى غرامى !. ان حالتك صعبة فعلا .. انك فقدت عقلك الى
درجة شديدة تجعلنى اشعر بالاسف من اجلك ، ولو كان بوسعى ،
لجعلتك سعيدا .. نعم ، انك تستحق ان تؤتى ... لكننى قلت
لك الف مرة اننى لا أستطيع ان افعل هذا ، فانت لا تستهوينى ! »
... « مجرم ! » ... « لا تكن هستيريا يا زاكاراكيس ... لا تكن
ظالما ... هل هى غلطتى اذا كنت لا أستطيع ان البى مطلبك ؟..
بل انك اقرع ايضا ... اصغ الى يا زاكاراكيس ، لماذا لا تحضر لى
زوجتك ؟. فى هذه الحالة ستكون المسألة عائلية .. » ...
« الشنق !. ساعمل على شنقك ! » .. « آه ، لا بأس .. ساقوم
بهذه التضحية ... سالوطك ! » .. وفى طرفة عين اغلقت البوابة ،
وبيدك اليسرى أوثقت ذراعيه ، وباليمنى نزعت بنطلونه الى أسفل،
وبركبتك ضغطت جسده الى الحائط : وقد خف الحراس لتخليصه
منك فى التو واللحظة ، استجابة لصرخات الفزع التى اطلقها مستنجدا
بهم ...

بعد أيام قلائل ، فى التاسع من شهر أبريل ، شبت النار فى فراشك القش ... وقد أصر زاكاراكيس دائما ، مقسما بزوجته وطفليه ، على انك انت الذى أضرم النار فيه ... ولما كنت عليمة بمواهبك المسرحية ، فقد كنت ميالة الى قبول هذه الفرضية ... وباعتبار المسالة مكيدة مدبرة فانها فى الواقع أبعد ما تكون عن البلاهة: فان الحراس سيندفعون على الاثر ، تاركين الباب مفتوحا على سعته، ومن خلال الدخان والارتباك كنت تتسلل الى الخارج وتقفز من فوق السور ... لكن الواقع انك قبل يومين من ذلك ، فانهم أخذوا المرتبة الى خارج الزنزانة ثم اعادوها متخذين احتياطات غريبة ... ومن الواقع أيضا أن حارسا طيبا همس فى أذنك : « يا اليكوس ... هل أخفيت أى شىء فى قش المرتبة ؟. انني رايت الصول كاراكاس يفتش بداخلها » ... ومن الواقع أيضا انه بعد اعتدائك على زاكاراكيس ، فانه عاقبك بحرمانك أيضا من الثقاب والسجائر ... ومن الواقع كذلك أنه بعد ابلالك جاءك من يدعى الميجور كوتراس من الادارة العامة للمباحث (اى . اس . ايه) وقال لك : « اذا لم تخبر اى أحد بما حدث ، فلك كلمة شرف منى بأننا سنتركك حرا لكى تهرب الى الخارج » ... ومن الواقع انك لبثت حتى النهاية تكرر أمامى باخلاص مؤثر : « أقسم لك أننى لم أكن الشخص الذى اشعل النار فى المرتبة ... انهم فعلوها ... انني كذبت بشأن اشياء أخرى من قبيل التذرع او الضرورة ، ولكن ليس فى هذا ... انني لم يكن معى حتى ثقاب ... وحتى لو أردت أن افعل هذا ، فما كنت أستطيع فعله ... لماذا لا تصدقنى ؟. حوالى الساعة السابعة مساء سمعت صوت صفارة ، ثم فرقعة صغيرة ، وعلى الاثر اشتعلت النار فى المرتبة .. انا واثق انهم وضعوا شيئا بداخلها ، مثل بلاستيك او كبريت » ...

ومهما يكن فقد حدث الحريق ... وقد فعل زاكاراكيس كل شىء لكى يدعك تموت .. وتعلقت انت بالقضبان واخذت ترجوهم أن يفتحوا الزنزانة ... « انني احترق !. لا يمكننى ان اتنفس !. انني أموت ! » ... فما من أحد تحرك ... ومع صراخك كان الدخان ينبعث فى موجات الى الخارج وهو يزداد كثافة ، ومع ذلك فلم يتحرك واحد من الحراس الستة عشر المحيطين بالزنزانة لمساعدتك : وكان زاكاراكيس قد حظر عليهم هذا !. وكان الحارس الذى حدثك

عن كاراكاساس قريبا منه ، وقد هتف يقول : « لابد ان نفعل شيئا أيها القومندان !. انه سيشوى حيا ! » .. فقال زاكاراكيس : « الهدوء !. لا قلق !. الهدوء !. هذه احدى الاعيبه المعتادة » .. وقد لبث فترة غير قليلة قبلما حزم أمره ، وفى خلال ذلك كانت الزنزانة فرنا ، واخذت السنة اللهب تتزايد ارتفاعا من المرتبة ، وارتميت أنت على الارض مغمى عليك ... وعندما وصل الطبيب منزعجا وقال انه لابد من نقلك الى مستشفى والا قضيت نحبك ، فان زاكاراكيس لم يسمح لهم حتى بسحبك الى الخارج فى الهواء الطلق ، قائلا : « لابد أن يبقى فى الردهة » .. وفيها ابقوك يومين ، ممددا فوق ملاءة ... وفى اليوم التالى نزل المطر ، فتسرب اليك الماء كما يتسرب الى جذع شجرة ، ولم يفلح الطبيب الا فى حملهم على اعطائه مظلة لتغطية وجهك ... وقد لزم الامر للاتصال تليفونيا بوزارة الدفاع ، ثم رجاء يا بادوبولوس أن يتدخل ، قبلما ارتضى زاكاراكيس أن يرضخ ... وفى خلال ذلك كنت فى حال مؤثرة .. احترق شاربك واهداب عينيك واجفانك ، وغطت البثور بشرة وجهك ويديك : ولم يعد فى وسعك أن تبصر ولم تتكلم ... وفى العيادة الطبية فى جودى ، حيث نقلوك ، ثبت أن فى دمك نسبة ٩٢ فى المائة من ثانى أكسيد الكربون ... وقد لبثت فى غيبوبة مدى اثنتين وسبعين ساعة ... ولدى عودتك الى بوياتى ، تلقاك زاكاراكيس بهذه الكمات : « هيه !. عندى اخبار طيبة لك ... ان صديقك زهقت روحه » ... ثم ناولك صحيفة تصدرها عنوان كبير يقول : (لقى مصرعه قتيلا فى قبرص أمس وزير الداخلية والدفاع السابق بوليكاربوس جورجازيس) ... وتحت العنوان التفاصيل التالية:

لقد عثر عليه فى سيارته صريعا بنيران مدفع رشاش ... وقد تمكن القتلة من الفرار ، وليس ثمة أمل فى اكتشاف هوياتهم ... ولم يعثر على آثار تؤدى الى اية نتيجة ... واتضح ان جورجازيس فى مساء اليوم السابق كان قد وافق على مقابلة اشخاص مجهولين فى احدى القرى النائية : وعند رحيله عانق زوجته بمحبة خاصة وقال لها : « اذا تأخرت ، فاعملوا على البحث عنى » ...

أما انت فقد أجهشت بنحيب شديد ، ولم يكن هذا وليد الحزن والتفجع وحدهما ... نعم انك طوال التحقيق معك ، والمحاكمة ، انكرت بكل صلابة اية مساعدة من جانبه ... غير ان

هازيزيكيس أماط اللثام عن الدور الذى لعبته جورجازيس فى محاولة اغتيال بابا دوبولوس ، وكانت الادلة التى قدمتها قاطعة جدا الى الحد الذى أدى الى تدهور العلاقات بين الحكومتين اليونانية والقبرصية بصورة نهائية ... وقد عمد يوانيديس الى مضاعفة عدد ضباطه فى الجزيرة ، وفى مدى أسابيع قلائل فقد جورجازيس سلطته ، وصداقة مكاريوس له ، واحترام السياسيين الآخرين الذين أصبحوا يعدونه من قطاع الطرق والمؤهلين للاقدام على أى تهور ، وفى النهاية اكتسب كراهية بابادوبولوس ، الذى أقسم علنا انه سيجعله يدفع الثمن ... من هو الذى تولى تدبير الفخ ، واللقاء فى القرية النائية ؟. أهم جلادو بابادوبولوس الخصوصيون ، أم رجال المخابرات (اس . اى . ايه) ؟. ربما كانا المجموعتين معا ، فى عملية مشتركة منسقة .. وعلى أى حال فان صديقك العظيم قد ذهب ، الرجل الذى كان يؤمن بك ، والذى ساعدك ، وعلمك ، الرجل الذى كنت متحمسا فى الاعجاب به الى حد بالغ ... هاهو ايضا قد مات، مثل جورج .. وبسببك ، مثل جورج !. لقد بلغ منك النحيب والتشنج حدا جعلك تقىء ، وانتابك السقم ... ودام سقمك شهورا ... وما كدت تبل من سقمك حتى جاءك زاكاراكيس بنبأ محزن جديد : « هيا قم والبس ملابسك !. أسرع !. ان الرئيس سمح لك بالخروج لبضع ساعات .. « لماذا ؟ » .. « ان والدك فى دور النزع ، وقد سمح لك الرئيس بالخروج لتودعه ... انها لفتة كريمة ، هيه ؟. ولو كان الامر بيدى ، لما تركتك تراه ، ولو حتى صورته » ...

لقد كنت تكن لأبيك اعظم الحب ... وفى الاعوام التالية لم تجد حرجا من الاعتراف لى بانك لم تكن تشعر بنفس الحنان حيال أمك، لصلابتها واعتدادها بذاتها ، وانما كنت دائما تستشعر انعطافا شديدا حيال أبيك ... ربما كان السبب هو ان والدك كان أكبر كثيرا منها سنا : فقد تزوج وهو رجل مسن وانجب أبناءه بهذه الصفة : ونشاهم بتسامح الرجل المسن .. وعندما كنت طفلا وكنت مضطرا للاختباء تحت السرير للافلات من ضربات أمك ، كنت تبقى هناك اياما بكاملها مقاوما الجوع والحاجة الى التبول ، وكانت هى تصيح: « اخرج !. لم انته منك بعد ! » .. وعلى النقيض من ذاك كان هو يغمغم : « تعال واخرج ، لن يحدث لك شىء !. انا هنا ! » ...

وعندما كنت تلميذا فى المدرسة ولم تستطع ان تصبر على تمضية فترات بعد الظهر فى البيت للمذاكرة ، كانت أمك تغلق عليك الباب بالمفتاح فى غرفتك ، وكان هو يغمز لك بعينه قائلا : « صبرا !. سأتصرف ! » .. ومع ذلك فان والدك لم يكن أبدا من الثوار ... كان منتظما فى الجيش ، وقد نشأ فى مدرسة الطاعة ، وبدد شجاعته دائما فى الحروب بالمدافع والبنادق ... كان الجيش كل دنياه ، وراية أمته هى معبوده ، وانت تعرف الحزن الذى أحسه عندما اخترت دراسة الرياضيات بدلا من ارتداء كسوة ضابط مثل جورج !. وما كان أشد حزنه وأساه عندما هربت انت من الخدمة العسكرية ، وما كان أفدح اضطرابه عندما انتهى بك الامر الى السجن ، وما كان ابلغ عذابه عندما قبضوا عليه أيضا وبقى فى المعتقل مدى مائة وثلاثة ايام ... ولقد علمت فيما بعد ماذا حدث له فى غضون المائة والثلاثة أيام تلك ... ضرب وشتائم وسوء معاملة من كل نوع برغم سنوات عمره الست والسبعين ، ورتبة كولونيل التى كان يتقلدها فى الجيش ... كانوا يقولون له : « لو لم تكن مذنبا بأى شيء آخر ، فأنت مسئول عن انجاب مجرم فى هذه الدنيا ! ».. أو .. « لماذا تريد أن تعود الى بيتك ؟. ان زوجتك قد هجرتك ، انها قررت ان تلهو وتمرح !. انها ملت من عجوز محطم مثلك ! » .. وقد أوت احدى الضربات العنيفة التى كانت تنهال عليه الى اصابته بفقد الابصار فى احدى عينيه ، كما اصيب بشلل بدنى وعقلى ابقاه مدى ثمانية شهور وهو مذهوب العقل لا يتذكر شيئا مما حدث .. بل انه لم يتصور انك تقضى عقوبة السجن المؤبد بعد وقف حكم الاعدام .. وكان وهو فى مقعده أو فراشه يكرر نفس السؤال : «أين اليكوس » ؟. « فى الخارج » .. « ماذا يفعل هناك ؟ » .. «يتعلم» .. « لماذا لا يأتى لرؤيتى ؟ » .. « سوف يأتى » .. « اريد أن أراه !. اريد ان احتضنه قبل أن أموت » .. وانت ايضا كنت تريد أن تحتضنه .. وكان ثمة لحظات كنت تحن فيها الى هذا اشد الحنين حتى شعرت كأنك عدت الى الطفولة من جديد و ...

عند هذا الحد غدا زاكاراكيس متضجرا مهتاجا ، وقال لك : « حسن ... هل تنوى أن تستعد للخروج لرؤية ابيك قبل أن يموت أم لا ؟ » ... « لا » ... « لا ؟! هل قلت لا ؟ » ... « قلت لا يا زاكاراكيس . أن صاحبك بابا دوبولوس لن يمكنه استغلالى فى

المهزلة التى تصوره بالكرم !. انه لن يستطيع ان يستدعى الصحافة والتليفزيون لتسجيل رحلة الابن الحنون الى جانب فراش ابيه المحتضر !. اخرج يا زاكاراكيس » ... « يالك من حيوان بلا قلب ! » ... « اخرج يا زاكاراكيس » .. « سوف تغير رايك !. سوف تغيره ! » ... « اخرج يا زاكاراكيس ، والا خنقتك » ..

وخرج زاكاراكيس ... وفى المساء التالى عاد وقال : « انه توفى ، يا ابن الحرام !. توفى دون أن يحتضنك ! » ..

فى أول الامر لم تبادر برد فعل ، وكأنك كنت اصم او ابكم او لا تبالى ... ولكن زاكاراكيس بصق على الارض ربما احتياجا بدا له انه لا مبالاة ، واذا جسدك ينفطر ، وينبعث من فيك هدير ليس فيه شىء يمت الى احساس بشرى وانت تزار : زاكاراكيس !!.. واطبقت يداك على حلقه ... واخذت تعتصر حتى استحال وجهه الى احتقان لحاجة الى الاكسجين ، وتدلى لسانه بصورة شنيعة ... وما ان عالج الحراس تخفيف قبضة اصابعك حتى اختنق او كاد ..

كالماء يتقاطر بملالة من صنبور ، دائما على نفس المنوال ، او كدق مستحوذ فى سكون الليل الخاوى ، حتى لتشعر وانت تدمن الاستماع اليه انك ستجن جنونا وتبتهل من أجل الاستماع الى شىء مختلف ، ربما كانفجار ، او طلق نارى يقتل ، اى شىء الا تلك الرتابة المروعة ، ذلك الظلام الجاثم ... كان ذلك شأنك والاعوام تتعاقب بعد ذلك المساء الذى اخبرك فيه زاكاراكيس بوفاة أبيك ... فى الواقع انك خلال تلك الاعوام لم تفارق أبدا محبسك الداجى الذى لا يضيئه سوى بصيص الكرة الزرقاء المعتمة ، ولم تتجاوز قدماك قط الردهة التى من ورائها النهار والليل ، الشمس والنجوم ، المطر والهواء !. كلا ، ولا حتى أن تمد ساقيك ، أن تستنشق نسمة هواء !. كلا ولا حتى المكوث فى مقر العيادة الطبية عندما انتابتك غيبوبة !. كلا ولا حتى لرؤية أمك عندما سمحوا لها بزيارتك !. من قبل كانت لقاءاتك معها تتم فى غرفة الزائرين مثل الزيارات لغيرك من السجناء ، فكنت تخرج وتمشى مائة وستا وعشرين خطوة للذهاب الى المكان ثم مائة وستا وعشرين خطوة للعودة ، وفى مشيك هذه كنت ترى السماء ... أما بعد ذلك المساء فكنت تراها دائما فى زنزانتك ، والحاجز يفصل بينكما ... ومع ذلك فقد حدثت اشياء كثيرة خلال تلك الاعوام . أول كل شىء فقد بدأت تعرفنى من خلال الكتب التى الفتها ومقالاتى التى كانت تنشر أحيانا فى صحف أثينا ... ونتيجة لهذا فانك تعلمت لغتى ، دارسا اياها بمعدل عشرين كلمة واثنين من الافعال الشاذة كل يوم : حتى نتمكن من التخاطب متى تلاقينا ... انك كنت بحاجة الى هذا الجهد المنشط للذاكرة بصفة خاصة للتغلب على ذلك الجمود العقلى الذى يصاحب العزلة والانفراد ، ذلك الضباب المخيف الذى يقتل القدرة على التركيز أو حتى مواصلة التذكر أو الاسترسال فى تخيل او حلم جامح !. وعندئذ ، كما سوف نرى ، فقد كتبت ابدع قصائدك الشعرية فى تلك الاعوام ... بيد أن أهم شىء هو انك لم تستسلم أبدا ، ولم تتخل أبدا عن دورك كبطل يرفض الاذعان ... سبع عشرة مرة

ضبطوك وأنت تنشر فى قضبان البوابة بالمبارد الضئيلة التى تستخدم فى فتح (أمبولات) الدواء ، واثنتان وخمسون مرة عوقبت لتمردك بمصادرة قلمك وورق الكتابة وكتاب قواعد اللغة الايطالية وقاموس (واباتشينى) ، وجرائدك وكتبك ، وتسع وعشرون مرة بمصادرة حذائك وسجائرك ... وثمانى عشرة مرة ضربوك حتى أغمى عليك ، ومثل هذه المرات البسوك سترة المجانين ، صارخين بأنك جننت !. اما عن الاضراب عن الطعام فقد تعدد وزاد عددا حتى لم تعد تدرى له حصرا ... وعندما كنت تتحدث عن هذا معى وتعدد القائمة على وجه الدقة ، لم تكن تتذكر سوى أطولها مدة : سبعة اضرابات دامت خمسة عشر يوما ، واربعة اضرابات دامت خمسة وعشرين يوما ، واضرابان داما ثلاثين يوما ، واضراب دام سبعة وثلاثين يوما ، وآخر اربعين يوما ، وآخر دام أربعة واربعين يوما ، وآخر دام سبعة واربعين يوما ... وكان غذاؤك الوحيد هو الماء والقهوة المحلاة ، وقطعة شكولاتة مخبأة فى المرتبة ، وقد أصبحت من الهزال ادنى من الهيكل العظمى !. حتى ان الطبيب اضطر الى تغذيتك من خلال انبوب يدخل من انفك !. وهو اسوأ عذاب !. فلم تكن تستطيع احتمال ذلك الانبوب ، الذى كان ينفذ من الممر الانفى حتى حلقك ، ثم يهبط الى داخل المرىء !. كان يخنقك مثل يد ثيوفلياناكوس فى فترة الاستجواب ، وكان يجعلك تريد القىء وان كنت لا تقوى عليه !. وكانت تمر بك أوقات يبدو لك فيها كل شىء تكرارا مملا لعمل طقوس حتى كنت تود لو أن زاكاراكيس يخترع لك عدوانا جديدا ينشطك ويدفع عنك تثاؤب الملل ... فى المرة الاولى التى صادر فيها حذاءك كدت أن تجد فى هذا متعة برغم ان الوقت كان شتاء ، وكذلك عندما البسك سترة المجانين لاول مرة !. على نحو ما بدا لك هذا أقرب الى الفضول وحب الاستطلاع ... ولكن مع مر الوقت أصبحت معتادا عليه .. والآن جاءت تسليتك الوحيدة من المبارد الضئيلة التى اصررت على النشر بها فى قضبان البوابة ... كانت بهجة لك عندما اكتشفتها فى الطعام الذى كانت أمك تجىء به اليك ، اذ تضع قطعة من لحم الأرنب فى فمك وتحس بين اسنانك تلك الرقعة الضئيلة من المعدن ، وما أن سمع زاكاراكيس صوت سحل الحديد حتى اندفع اليك قائلا : « يا مجرم !. ماذا تفعل ؟ » .. « انا ؟. لا شىء ؟ » .. « اين خبأته ؟ » .. خبأت ماذا ؟ » ... « المبرد » يا قاتل !.

المبرد ! » ... « أى مبرد ؟ » .. « أننى سمعتك !. كنت تنشر فى القضبان » ... واذ ذاك كان ينادى الحراس الذين يقومون بتفتيش كل ما فيك : ثنيات بنطلونك ، ياقة قميصك ، طيات ملابسك الداخلية ، نعل حذائك ... بيد انهم لم يعثروا على شىء قط لأن المبرد كان فى موضع لا يمكن ان يفكر احد فى البحث عنه فيه : فى شعرك ، بين اسنانك ، فى صفحات كتاب ... « لكنك كنت تنشر ، لعنة الله عليك ! » .. « لم اكن انشر يا زاكاراكيس .. كنت أعزف موسيقى » .. وبضحكة منك كنت تأخذ كوبا وتبلل حافته ببعض اللعاب ثم تجرى أصبعك السبابة حول الحافة لاخراج صوت أشبه بسحل الحديد : « استمع يا ابله ! » ..

وكنت تتسلى أيضا بنكاتك ، التى كانت تساعدك على مكافحة الملل : ولم تتخل ابدا عن الضحك على الآخرين بخدعك التى كنت تتفوق بها على الساحر كاليوسترو !. وعلى سبيل المثال حكاية المسدس المصنوع من الخبز والصابون ... فبصبر وأناة كنت تشكل نموذجا لمسدس من جزء طرى من الخبز وبعض نثار الصابون ، ثم ببعض رءوس عيدان الثقاب المحترقة كنت تلطخ كعب المسدس باللون الاسود ، وبعدها تلف (الماسورة) بورق الالومنيوم ، وذات مساء كنت مستعدا لتصويبه الى الحراس الذين حملوا اليك طعام العشاء: « ارفعوا الأيدى !. هاتوا المفاتيح ! » ... فى هذه المرة لم يكن الحراس اكثر من اثنين ، وكانا غير مسلحين ، وفى الحال القى حامل الطعام الصحفة من يده ، واسرع الآخر بتسليمك المفاتيح وهو يرتعد ... فما كان منك الا أن أعدت المفاتيح اليه ضاحكا ، اذ كنت على أى حال لا تستطيع استخدامها ، لوجود باقى الحراس الستة عشر فى الخارج .. وختمت بقولك لهم : « يا مغفلين ! » .. أو حكاية السلك الذى أردت أن تفتح به البوابة لأجلك .. كان هناك حارس محدود التفكير يقوم على حراستك فى ردهة الزنزانة ، وهو مجند حديث من الارياف .. وكان زاكاراكيس قد أوقفه فى هذا الموضع لمنعك من نشر القضبان ، بعد أن اخبر هذا الفتى الساذج بانك سجين هام جدا ، وكان لوصف (هام جدا) تأثير بالغ عليه الى حد أنه فيما كان لا يدعك تفارق نظره ، كان يطيعك بلهفة الخادم ... وكان فى الواقع يناديك بصاحب السعادة ... فكنت تقول له : « يا بليد ، أشعل سيجارتى ! » ... « حاضر يا صاحب السعادة ! » ...

« يا بليد ، روح لى ! » .. « حاضر يا صاحب السعادة ! » ..
وفى ذلك اليوم ، كانت قطعة سلك ملقاة على أرض الردهة ، فقلت له : « يا بليد ، تعال الى هنا ! » .. « حاضر يا صاحب السعادة !» ... « افتح القفل .. اريد أن اذهب للتبول » .. « حاضر ياصاحب السعادة !. سأذهب لاحضار المفاتيح » .. « ولأى شيء تريد المفاتيح يا مغفل ؟. لا لزوم لفتح القفل بمفتاح !. الا ترى قطعة السلك هذه ؟ » لماذا تظنهم وضعوها هناك ؟. لفتح القفل ، مضبوط ؟ ».. « نعم يا صاحب السعادة !. معذرة يا صاحب السعادة !. فى قريتى يفتحون الاقفال بالمفاتيح ! » .. « وما الذى يجعلك تظن اننى أهتم بقريتك التافهة ؟. افتح !. اسرع !. لا يمكننى أن اصبر اكثر من هذا !. « حاضر يا صاحب السعادة !. حالا يا صاحب السعادة !. لكن فى هذه الفترة الا يمكنك أن تتبول فى مرحاضك يا صاحب السعادة ؟ » .. « يا مخبول .. الا يمكنك أن ترى انه مسدود ؟ الم تسمع القومندان عندما طلب منى الا اتبول فيه حتى يتم اصلاحه ؟. اسرع !. خذ هذا السلك ، وافتح القفل » .. وبكل انفعال اخذ الفتى المسكين يعالج القفل ويعالجه مرارا ، لكن دون نجاح .. « سامحنى يا صاحب السعادة ... لا يمكننى أن افتحه !. سأنادى الرقيب » .. اذا ناديت الرقيب ، سأبلغ عنك !. استمر .. كرر المحاولة ! » فلم يتم شيء .. لان صوتك المرتفع اجتذب ثلاثة حراس آخرين ، فتدخلوا وحالوا بينه قائلين : « يا مجنون ، ماذا تفعل ؟ » لكن مثل حكاية مسدس الخبز والصابون ، فان هذه الحادثة ساعدتك فى التغلب على الكآبة الى حد ما ، والاحساس بفراغ لم تفلح المذاكرة أو القراءة فى ملئه ، بل زادته سوءا .. والواقع انه من خلال المذاكرة والقراءة – كما اعتدت أن تقول – كنت تقيس التدهور الذهنى فى السجن .. فقد كنت أول الأمر تعتقد انك حفظت أحد الافعال ، ثم لا يمضى نصف ساعة حتى تدرك انك نسيته .. فتكرر الحفظ ، وتردد التصاريف ، غير ان اجفانك تتثاقل ، فتتمدد فى سريرك لاغفاءة قصيرة ، واذا بك تستغرق فى النوم طيلة ما بعد الظهر ، وعندما تستيقظ يغدو ذهنك متراخيا الى حد بعيد ..

ولم يكن معنى هذا انك نفضت يديك من التفكير فى الهروب .. فالى أن تغلب حكم العادة ، وهو غلاب لايرحم ، وجعلك تقبل هذا القبر وتوجه مقاومتك الى مجال الشعر – لم تتوقف قط عن التطلع

الى هذا السراب ... ولكن باقتناع كان يتناقص رويدا ، وبلا اكتراث كان يتزايد ويتزايد ، وبمزاج نفسى كان نهاية فى حد ذاته ، كما تجلى فى محاولة الهروب التى انتهت بالعدول عنها ، وكان فى حقيقته صدى لما هو ماثل فى عقلك الباطن ... كانت المحاولة متعلقة بالحارس الذى خلف زميله الساذج صاحب مهزلة القفل : كان هذا شابا يحلم بأن يغدو ممثلا .. وبعد عبارات معدودة تهيأ لك ان تستنتج أن ذكاءه كان أيضا محدودا وانك تستطيع استغلاله وفقا لما تحب ، وهكذا بدأت من فورك توقعه فى أحابيلك : « هيه ؟. اذن فانت تريد ان تكون ممثلا ؟!. لك حق ، وانت بهذا الوجه .. دعنا نرى الصورة الجانبية ... آه ، نعم ، هو (بروفيل) رائع !. امامك مستقبل فنى عظيم فى انتظارك ! » .. « المشكلة يا مستر بناجوليس هى اننى لا أعرف أحدا ، لا احد بالمرة » .. « لا تدع هذا يقلقك .. والآن قل لى : هل أنت متأكد حقيقة انك تريد أن تكون ممثلا ؟. هى مهنة عظيمة فعلا : كل النساء اللاتى تطلبهن ، الفيللا التى بها حمام السباحة ، البلايين !. على أنها فى البداية تتطلب كثيرا من التضحيات .. بل ان بعض الرجال جازفوا بحياتهم لكى يصبحوا ممثلين : فكر فى لورانس أوليفييه وما فعله من أجل تشرشل ! » .. « ما الذى فعله ؟ » .. « هى حكاية طويلة .. سأقولها لك يوما من الايام .. وفى خلال ذلك دعنى اسألك سؤالا .. هل درست فن التمثيل ؟.. « نعم ، وانا صبى » .. « هذا أفضل شىء ... التمثيل مثل اللغات .. اذا تعلمت وانت طفل ، فلن تنساها بعد ذلك أبدا .. هل انت (فوتوجنيك) ؟. « يعنى صالح للتصوير الفنى ؟ » .. « آه ، نعم .. لكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟ » .. « لأن بامكانى مساعدتك » .. « هنا ؟. مع وجودك هنا ؟. » .. « ليس تماما .. سنتكلم عن هذا غدا .. والمهم بالنسبة لك الا تقول كلمة واحدة عن هذا لزاكاراكيس .. انه يكره الممثلين ، والمسرح ، والسينما !. هو حسود » .. « لا تقلق يا مستر بناجوليس » .. « بامكانك ان تنادينى باسمى الشخصى » .. « لا تقلق يا اليكوس » .. « جميل .. غدا تحضر لى صورك الفوتوغرافية » .

وفى اليوم التالى : « درجة أولى .. لا شك فى هذا .. انت (فوتوجنيك) فعلا !. ارحم !. هل ذهبت مرة الى روما ؟. » .. « أبدا » .. « مدينة مدهشة .. ان اعز أصدقائى كلهم فى روما ..

ان صوفيا اعتادت أن تقول لي دائما .. » .. « صوفيا ؟. صوفيا من ؟. » .. « لا تقاطعني .. صوفيا لورين طبعا .. في روما اعتدت أن أقيم في جناح في قلعتها ... آه ، نعم !. هنساك حيث اعددت لعملية الاغتيال ، لكن لا تقل هذا لأي أحد !. ان زوجها ، تصور ، ساعدني فعلا في تجهيز الألغام !. وفي مقابل هذا طلب مني فقط أن اكتب له سيناريو فيلم » .. « سيناريو ؟. انت كتبت سيناريو لصوفيا ؟ » .. « ليس لصوفيا ، انما لكارلو !. كارلو ، زوجها ، المخرج ! » .. « أوه ! » .. « باسم مستعار طبعا » .. « أوه ! » ... « ما هو الغريب في هذا ؟. هل كان بامكاني أن ارفض عمل معروف لصديق جازف بدخول السجن من أجلي ؟. « لا .. لا !. » ... « نعود الآن الى ما كنت اقوله .. ان روما هي المدينة المثالية لاقتحام السينما .. هي المدينة الوحيدة .. حتى مارلون براندو هذه الايام ، اذا اراد أن ينتج فيلما ، فلابد له من الذهاب الى روما ... ارحم !. دعني أرى هذه الصور مرة ثانية » .. « هاهي ».. « رائعة .. الانف ممتاز !. وكذلك بروفيل الوجه الايمن !. اما البروفيل الايسر فليس جيدا مثله .. يا للغرابة !. تماما مثل لورانس أوليفييه !. ذكرني أن أحكي لك حكاية تشرشل ولورانس أوليفييه !. لا باس ، نعم !. أعتقد أن بامكاني أن أوصي عليك صوفيا ، أو بالأحرى كارلو ... ان صوفيا في هذه النواحي لا تهم ... على الأكثر اذا اتفق كارلو معك بعقد ، فقد تطلب هي أن تعمل معها كنجم بطل !. بسبب تقاطيعك القوية ، الرجولية » .. «ماهذا الذي تقوله يا اليكوس ؟. أحقا ؟. » .. « اهدأ يابني !. انت لا تظن بأمانة أن عندي عصا سحرية ؟. وفضلا عن هذا فان كارلو حريص ... انه يدع سنة تمر قبل أن يعطيك دورا مع صوفيا ... انه سيعمل لك اختبارا ، وسوف يكلفك ببعض الاعمال في التليفزيون » .. « بالنسبة لي فان التليفزيون لا باس به ايضا » !. « نعم ... لكنني لا اريد أن تحلق مع الآمال .. ان التليفزيون لا يقدم نفس المال مثل السينما .. وسوف تكون محظوظا اذا هم اعطوك ما يقدر بخمسين الف دراخمة في الشهر » .. « خمسون الفا ؟ » .. « هذا يبدو ثروة لك ، هيه ؟. لا باس . كمال ، هو مجرد حمص !. لكن فيما بعد ، يمكنك أن تنال حتى خمسمائة الف ! » ..

وهكذا ، فانه يوما بعد يوم غدا أكثر انفعالا ، وجعلت انت تنتظر

اللحظة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية اليه ... وقد جاءت اللحظة عندما سألك أن تكتب خطابا الى كارلو وصوفيا ... « هل انت مجنون ؟. هل تريدنى أن اقضى على اصـدقائى ؟. الرجل الذى ساعدنى فى اعداد القنبلة ؟. الا تعرف انه يعمل مع الامريكيين ؟.. الا تعرف انه اذا ضل الخطاب طريقه ، فيمكن أن ينتهى به الأمر الى السجن ايضا ؟. بالاضافة الى هذا فهل يبدو لك أن ذلك هو نوع الجميل الذى يمكن ان تطلبه فى خطاب ؟. لابد لى أن أكلمه شخصيا بالطبع !. لابد لى من الذهاب الى روما معك !. هذا هو ما يبـدو واضحا امامى !. اذا لم تمد يدك لى وتساعدنى على الهروب ، فكيف يمكننى ان أساعدك لكى تصبح ممثـلا ؟. « هروب !. لكن هـذا صعب يا اليكوس !. هذا خطر » .. « صعب ؟ خطر ؟ يا ربى !.. انه حتى لورانس أوليفييه نجح مع ونسـتون تشرشـل !. أبله !. مغفل !. لماذا لا تدرس التاريخ ؟. انت لا تعرف حتى أن ونسـتون تشرشل هرب من سجن النازى لأن لورانس اوليفييه سـاعده !. ولورانس أوليفييه لم يكن حتى حارسا !. كان مسـاعد طبـاخ !. وبالنسبة له كانت العملية صعبة فعلا وخطرة ... لكن تشرشل لم ينس ابدا ذلك الصنيع ... وعندما أصبح رئيسا للـوزراء جعلهـم كلهم يستأجرون أوليفييه ... قال لهم تشرشل : انا اعرف أن احد جانبى وجهه ، ليس هو البروفيل المضبوط فنيا ، لكن لارى صديقى، بروفيل أو لا بروفيل ، اريد أن يصبح لورانس أوليفييه ممثـلا !. الحقيقة أن لورانس أوليفييه كان شخصا جسورا ، أما انت فلا !. اننى ضيعت كل هذا الوقت مشغولا بحكايتك ، وانظر ما الذى أخذته منك !. « اخرج !. اخرج !. لا أريد ان أرى وجهك أبدا ! » .. « لا يا اليكوس !. اصغ لى .. » .. « اخرج !. اخرج !. » ..

وطوال أسبوعين تصنعت التضرر ، وعبثا كان يستعطفك أن تصفح عنه ، مبينا ان ترديده كان لحظة ضعف ، وان هذا لن يحـدث مرة ثانية !. « اننى أرفض أن أصغى اليك ! » .. ولم تكلمه الا بعد أن ارتمى على ركبتيه أمامك وتوسل اليك ان تسمح له بمساعدتك على الهروب : فأنت أمله الأوحد ، وان أحدا آخر لن يمد له يدا لكى يصبح ممثلا ، ويتابع هوايته !. ولو تهيأ له ان يذهب الى روما بدونك ، فان كارلو وصوفيا لن يتعطفا حتى بالقاء نظرة عليه !. فتقبلت عرضـه وكأنك تمن عليه بفضلٍ عظيم !. لكن عليه أن يفهم شيئا واحدا بوضوح:

وهو أنك لم توافق الا بسبب ضعف لعين فى شخصك ، اسمه الكرم وحب الخير !. والحقيقة أنك لم تفهم لماذا تتجه اليه بما طلبت وليس الى لورانس أوليفييه ، ذلك الانسان الجسور المقدام الذى اتصل بوالدتك تليفونيا عارضا عليها خدماته !. « لورانس اوليفييه ، حقا وصدقا ؟! » .. « طبعا .. وليس معنى هذا ان لاري يفعل اى شيء بلا مقابل ، لأنك تعرف جيدا أنه يعرض عليك خدماته لكي يستدرجك الى لندن ويستحوذ منك على نص مسرحية (أوديب ملكا) ، غير أنك لا تحب لندن ، التى يكثر فيها الضباب والحديث عن الاسرة المالكة !. واذن .. » .. « سأفعل ما تريد !. لنبدأ فى تنظيم الخطة » ..

كانت الكسوة العسكرية المعتادة ، والساعة الليلية المعتادة ، وبعد ذلك سوف تجد وسيلة للخروج من البلاد ... اما بخصوص الحراس الستة عشر الموجودين حول المقبرة ، فانهم لا يشكلون عقبة تشغل بالك ، وسوف تجد الحل المناسب : طالما أن (عملية صوفيا) قد وضعت خطتها بعناية !. وفى تلك الفترة كانت وجبة العشاء لا تزال يؤتى بها اليك على يد اثنين من الحراس فقط ، وغالبا ما كان الممثل الطموح أحدهما .. اما الآخر فكان فتى محدود التفكير لا يؤبه له كثيرا . ولم يكن يكلفك سوى أن تطيش صوابه بضربة خاطفة ، ثم تخلع كسوته ، وتربطه فى السرير ، وتغلق فمه بضمادة لاصقة ، وبعدها تلبس كسوته : « فقط أريد منك ان تأتى بحبل وضمادة لاصقة يا بنى » ..

وفى اليوم الثانى جاءك الممثل الطموح بالحبل والضمادة ، قائلا : « هذه الليلة سأكون أنا وهو فى النوبة » .. « بديع » .. وقد أخفيت الحبل خلف المرحاض ، والضمادة تحت ابطك ، وجعلت تنتظر ... غير أنك لم تشعر بأى حماس ، كما بينت لى هذا فيما بعد ، وحين أرخى الليل سدوله انتابك نعاس قاهر : فاستسلمت للنوم ، وحلمت باستحواذك على امرأة ... بعد الليلة التى حلمت فيها بمثل هذا فى جزيرة ايجينيا حدث ذلك لك هذا نحو أربع مرات ، وفى كل مرة كان الحلم قصيرا جدا ، لان خوفك من قرب اقتيادك للوقوف امام فريق الاعدام بالرصاص قبل حدوث النشوة قد ظل ماثلا لعقده .. أما هذه المرة فقد كان حلما طويل الأمد ، كثير المباهج ــ لولا أن قطعه عليك صوت يقول : « استيقظ يا اليكوس !. استيقظ !. انا هنا ... نحن هنا !. » ... واذا الممثل الطموح يهزك بكلتا يديه ، ونظراته

تلمح ، وتستعطف ، وتوميء الى الزميل الذى يفترض انك ستنقض عليه ... فما كان منك الا ان نظرت اليه باهتياج : « يا ابن الحرام !. لم تتركنى أنتهى !. لم تتركنى انتهى !. » .. وطردته طردا ، مطوحا صحفة العشاء من خلفه .! فخرج ينتحب وهو يردد : مجنون !.. مجنون !.. انهم كانوا على حق عندما ألبسوك قميص المجانين !. وبعدها رجا زاكاراكيس نقله من العمل فى مقر زنزانتك ، ولم تره قط بعد ذلك ... كما انك لم تكترث ... فان سريرك لم يعد لديك ذلك المضجع المقض ، ولا زنزانتك ذلك المحبس المطبق .. فالآن قد تعودت على القبر !.

★★★

العادة هى أشد الامراض معابة ، لأنها تجعلنا نتقبل اية مصيبة ، اى الم ، اى موت !. عن طريق السعادة نعيش مع اناس مكروهين ، ونتعلم احتمال السلاسل والقيود ، والخضوع للمظالم ، والمعاناة ، ونروض انفسنا على الاستسلام للحزن ، والعزلة ، ولكل شيء !. ان العادة هى أشد سم لا يرحم ، لانها تنفذ الينا ببطء ، وصمت ، وتنمو شيئا فشيئا ، متغذية على ما فينا من اللاوعى ، وعندما تكتشف أنها استقرت بداخلنا ، وان كل نسيج قد تفاعل معها واشرب بها ، وان كل فعل لنا قد تكايف بها ـــ فلن يوجد دواء فى الوجود يمكن ابراءنا منها !. ان ما حدث فى الليلة التى نبذت فيها محاولة جديدة للهروب كان شيئا ما كان يمكن أن تعتقد قط فى احتمال حدوثه : فانك لم تعد تفتقد الفراغ الطليق ، والعشب المخضر ، والسماوات الزرقاء ، والناس !. وفى الصيف عندما كانت الشمس تتسرب من خلال سقف ردهة الزنزانة مشكلة بقعة محكمة من الضياء على الارض ، كان الوهج يبعث فيك أشد الضيق حتى لتلوذ منه وانت تطرف بعينيك بأظلم ركن فى زنزانتك وتظل قابعا فيه حتى المغيب !. ولو أن زاكاراكيس قد ابتنى لك نافذة لكى تبصر السماء نهارا والنجوم ليلا ، لبادرت فحجبتها برقعة من احدى الصحف ... ومع ذلك فان شيئا قد بقى ماثلا مما لم يقدر اعتياد الظلام وافتقاد الفراغ المكانى والملل على أن يطفئه : ذلك هو مقدرتك على الحلم ، والتخيل ، وترجمة الحزن، والغضب ، والاخطار ، الى اشعار ... كنت كلما تكايف جسدك واوغل فى الخمول ، كلما ازداد عقلك مقاومة ، وخيالك انبعث طليقا لاستيلاد قصائد الشعر ... كنت دائما تنظم الشعر ، منذ نعومة

اظافرك ، ولكن فى هذه المرحلة فقط تفجرت فيك ابداعات الشعر ، غلابة ، متدفقة ... عشرات من القصائد الشعرية : لا تبكوا من أجلى/ اعلموا اننى بماقضى نحبى / لا قدرة لكم على مساعدتى/ لكن انظروا الى تلك الزهرة / الزهرة التى هى بسبيل أن تذبل وتذوى / ازووها ... أو : (لقد أحببت الضياء كل الحب / حتى ليمكن أن أضىء منه شمعة / لكننى بددت ذلك الضوء المعتم الكليل / قبلما استمتعت به / فقد استشعرت فى يأس / ظلاما ثقيلا منبعثا من مكان آخر / لأن ذات الضياء الذى اكننته / جعل ظل جسدى / يملأ بالظلام شعاب طريقى) ـ كنت تكتب هذه الاشعار حتى برغم أن زاكاراكيس كان يصادر أوراقك لهذا الغرض ، فتقطع بها معصمك الايسر ، وتغمس عود ثقاب أو مسواك أسنان فى القطع ، وتكتب بالدم فى كل ما يمكن أن تجده : غلاف ضمادة ، خرقة قماش ، علبة سجائر فارغة !. وكنت تنتظر حتى يعيد اليك زاكاراكيس الورق والقلم ، فتنسخ ما دونت بخط رقيق جدا ، متحرزا الا تبدد مليمترا واحدا من الفراغ ، ثم تطوى الورق فى رقاع ضئيلة ، ثم تبعث بها الى الدنيا لكى تحكى قصة رجل لا يريد أن يستسلم حتى لحكم العادة ... وكنت تحتال بشتى الحيل : فتلقى بأشرطة الورق الصغيرة فى القمامة ، حتى يتهيأ لحارس مصاحب أن يستخلصها ويدسها فى ثنيات بنطلوناتك التى كانت ترسل الى البيت لغسلها ، أو امرارها الى أمك عندما تأتى لزيارتك .. لكنك كنت، تحرص أول كل شىء على حفظ الاشعار عن ظهر قلب تفاديا لضياعها أو اتلافها ... ويا لتلك المناقشات التى كانت لك مع زاكاراكيس عندما كان يطلب منك أن يقراها ، رقابة عليها أو اجازتها .. « أين وضعتها ؟. اعطنيها !. الا تعرف أن القومندان لابد أن يفرض رقابته على اى شىء يكتب فى السجن ؟. » .. « أعرف ... لكن لا يمكننى أن اعطيك اياها يا زاكاراكيس !. اننى اغلقت عليها بالقفل فى مستودعى » .. « اى مستودع ؟. اريد أن أرى المستودع !» .. « هاك هو يا زاكاراكيس ! » .. واشرت الى دماغك .. « أنا لا اصدقك ، وانت الكذاب اللعين ، انا لا أصدقك ! » .. لكن كان يجدر به أن يصدقك ، لاننا بعد سنوات كنا واجدين فى ذلك المستودع كل القصائد الضائعة أو المتلفة : لنشرها فى كتاب راى فيه عديد النقاد بداية عمر ادبى !.

والواضح أن المشاحنات لم يكن سببها القصائد فقط ... فقد

تضمنت الصفحات التى كان زاكاراكيس يصر على اخضاعها للرقابة ، احيانا ارقاما غريبة الى جانب الكلمات ، حسابات غامضة : وكأنك استأنفت دراسة الرياضيات ... « قل لى ما هذه ؟ » .. « هى نظرية يا زاكاراكيس » .. « اية نظرية ؟ » .. « حتى لو اخبرتك ، فلا يمكن ان تفهم » .. « لاننى ابله ، هيه ؟ » ... « نعم .. هكذا انت !. فاقفل فمك اذن ودعنى وشأنى » .. فكان عموما يتراجع ، مدحورا بجهله .. واحيانا اخرى كان يلجأ الى العناد ، فتنشب معارك حامية بينكما ، وتثور ازمات مرجعها الى عهود حروبكما الطاحنة !. كانت فى الواقع مسائل رياضية ادت الى نشوب الصراع الذى قدر ان يسمم الشهور الاخيرة من وجودك فى بوياتى ... كان الوقت هو ربيع عام ١٩٧٣ ، يوم ان عاد زاكاراكيس للبحث عن المستودع الذى اخفيت فيه قصائدك الشعرية !. « اين هو ؟ قل لى اين هو ؟ » .. « قلت لك يا زاكاراكيس ،المستودع فى دماغى » ... « هذا غير صحيح .. هذا غير ممكن !. لا يمكنك ان تستوعبها كلها فى ذاكرتك ! » ... وفجاة وقعت نظراته الفاحصة على قصاصة ورق كتبت فيها المعادلة الجبرية (اكس + واى + زد) فانقض وامسك بها قائلا : « وما هذه ؟. اننى لا ارى اية ارقام هنا .. آه !. هذه شفرة سرية يا ابن الحرام !. » ... « ليست حقا ؟. هل تريدنى ان استدعى البريجادير جنرال ؟. هل تريده ان يجبرك لكى تخبره من هو (اكس) و (واى) و (زد)؟. وحروف (ان) ؟. من هم اصحاب هذه الحروف ؟ » .. فاشرت له الى السرير ، ودعوته الى الجلوس قائلا : « تعال هنا يا زاكاراكيس » ... « لا ... والا نزعت بنطلونى وحاولت ان تهتكنى مثل المرة الفائتة » .. « لن اهتكك يا زاكاراكيس .. هذا وعد منى » ... « وستخبرنى من هم (اكس) و (واى) و (زد) ؟. ومن هم اصحاب (ان) .. « سأخبرك يا زاكاراكيس .. ان حروف (ان) هى ارقام .. و (اكس) و (واى) و (زد) هى مقادير مجهولة » ... « ابن حرام .. كذاب !. تظن انك تستطيع ان تهزأ بى ، هيه ؟. سوف اكتشف ماذا تكون هذه المقادير !. » ... « اذن فتكون عبقرية حقيقية منك يا زاكاراكيس ، لانه ما من احد قد نجح قط فى ان يفعل هذا ، منذ ثلاثمائة سنة » .. « ثلاثمائة سنة ؟!. هل رايت ؟. انت تهزأ بى فعلا !. يا حراس !! اربطوه !. » ... وربطوك فى السرير ، ومن عجب انك ابديت خضوعا غريبا ... بعكس زاكاراكيس الذى

تزايد احتدامه قائلا : « الآن ستتكلم ، هيه ؟. ستتكلم !. » ... « سأتكلم يا زاكاراكيس ، واذا لم تفهم ، فحالما تفك قيدى ، سوف انزل بنطلونك » .. « تكلم ! » .. « لا بأس ... حاول أن تتابعنى !» .. وانشأت تشرح له التفاصيل الرياضية ولكن بلغة مبسطة ، ولكن سرعان ما صرخ قائلا : « كف عن هذا ! » .. وخرج ودموعه تكاد تجرى .. لقد أمسك بالورقة فى يده وقرر أن يميط اللثام عن المؤامرة ... اذ لا يمكن ان يكون هذا الا مؤامرة وحق يسوع ، مؤامرة للهروب مرة أخرى ... ولابد أن يقضى عليها فى المهد !.

ولقد ظل زاكاراكيس ليالى وهو يدرسها ، مصمما أن يستأثر بالمديح من جانب يوانيديس ... وكان بامكانه طبعا ان يلجأ الى مكتب مكافحة التجسس (كى . واى . بى) ، ولكن كان معنى هذا أن يقدم للآخرين فوق صحفة نصرا كان حقيقا ان يستأثر به لنفسه !. ودون أن يستشير أحدا ، توصل الى النتائج التالية : الى (ان) الثلاثة هم ثلاثة جنود ضالعون فى المؤامرة لمساعدتك على الهروب !. ومستر (اكس) ومستر (واى) ومستر (زد) هم ثلاثة مدنيين يعملون من الخارج !. و (اكس) هو أول حرف من اسم اكسرستوس أو اكسرستوبولوس أو اكساكالوبولوس !. الا اذا كانت الأحرف الثلاثة بدلا من ان تكون أوائل اسماء أشخاص ، تشير الى اسماء اقطار او مدن !. وفى هذه الحالة فان (اكس) يمكن أن تشير الى اكسانيا (خانيا) عاصمة جزيرة كريت ، و (واى) تشير الى يمن ، و (زد) الى زيورخ ... أم أن (اكس) تشير الى اكسرستوجينا ، اى كريستماس ؟. نعم !. ان كريستماس اى عيد الميلاد هى ما تعنيه : فبمساعدة الجنود الثلاثة تنوى الهروب يوم عيد الميلاد الى مدينة زيورخ بطريق اليمن !. وهكذا عاد زاكاراكيس اليك قائلا : « كنت تظن اننى غبى ، هيه ؟. اننى اكتشفت المسألة كلها » ... « كلها ؟! لا يا زاكاراكيس ، لا .. هذا غير ممكن !. اقسم لك أن هذا غير ممكن » .. « بل هو ما اقول .. لقد عرفت من هو (اكس) ، ومن هو (واى) ، ومن هو (زد) !. انك أردت الهروب الى زيورخ ، هيه يا ابن الحرام ؟. « وماذا كانت (زد) تشير الى زاكاراكيس ؟. » .. لقد تلا سؤالك هذا صمت مأساوى !. وتطلع اليك زاكاراكيس فى شبه غيبوبة !. رحماك يا يسوع !. انه لم يفكر فى هذا حقا !. اذا كانت (زد) تشير الى اسمه ، فلا معنى لهذا سوى شىء واحد : وهو انه

بمشاركة الجنود الثلاثة مع من يدعي مستر (واى) ، فانك تنوى قتله فى عيد الميلاد !!. « تريد قتلى ، هيه ؟. كان يجب أن أتصور هذا !» .. « لا يا زاكاراكيس ... انت مغفل كبير !. ان قتلك خطأ قادح .. فاننى سأشعر بملل فتاك بدونك !. اقسم لك انك لست المعنى بهذا .. هو (فيرمات) » .. « من يكون ؟. أنا لا اعرفه !. » .. « ولا يمكنك أن تعرفه يازاكاراكيس.. انه عاش منذ ثلاثمائة سنة،انه كان عالم رياضيات ، وكان أيضا مهتما بالسياسة والادب، وكان بصفة خاصة خبيرا فى حساب التفاضل وفى حساب التكامل.. ان هذه النظرية ــ » .. ومرة أخرى جرى الى الخارج ولم يمهلك وقتا لكى تشرح له أن النظرية موجودة ... انها أشهر نظرية أخيرة (لفيرمات) ، وقد اقام البرهان عليها ولكن نصها الأصلى قد ضاع ، وهكذا فعلى مدار ثلاثة قرون ظلوا يحاولون فك رموزها وفهم مضامينها ، ولكن لم ينجح أحد ، وقد خصصت الاكاديمية البريطانية للعلوم جائزة لذلك ، وكنت انت الآن تريد أن تحاول الفوز بالجائزة ، ليس من أجل المال وحده بقدر ما كنت تلتمس لذة فضح واخجال أولئك الذين عملوا على ابقائك فى هذا القبر !. بيد أن شيئا اسوأ من هذا حدث : فقد أصدر زاكاراكيس اوامره بمصادرة اوراقك وقلمك ، وكان عليهم أن يفتشوا بدقــة ، والا تترك ومعك حتى عقب قلم ، أو رقعة ، او ضمادة .. انهم فتشوا جيدا ، بل انهم عثروا على شفرة الحلاقة الصدئة .. وبدون الورق والقلم ، وبدون حتى الشفرة لقطع معصميك لاعتصار الدم واستخدامه بدل الحبر ، فان حل النظـرية أصبح مشروعا مسـتحيلا .. لقــد حاولت .. فكنت كانك تمسك ثعبانا مائيا بيديك العاريتين ... فكلما استوعبت فى ذاكرتك جزءا من النظرية ، كانت تفلت منك على الاثر ، فهناك فارق بين ان تطبع فى ذهنك بعض الاشعار وبين أن تطبع فيه حسابات رياضية .. ومع ذلك فقد حدث يوما بعد الظهيرة أن بدا لك انك اهتديت الى الحل .. وبكل الانفعال تعلقت بالقضبان وصرخت : « ورق !. قلم !. من فضلكم !. أتوسل اليكم ! » ... لكن ما من احد رد عليك ، وعندما رد اليك زاكاراكيس الورق والقلم ، كان ذلك بعد فوات الأوان .. فقد نسيت كل شيء !.

فيما بعد ذلك بسنوات ، كنت ما زلت تتحدث عن هذا بمرارة .. أو بالاحرى كنت تبدأ فى سرد القصة ضاحكا ، وقرب النهاية كان صوتك يتحول الى المرارة ووجهك الى تجهم مستطير .. وقد درجت

على القول بأن هذه الحلقة قد جرحتك بأكثر من عديد مرات الضرب ، وأنك بعدها قد اكننت احساسا غريبا لزاكاراكيس ، كان لونا من التسامح الذى قوض اصرارك على مسئولية الفرد وحده .. لأن اثبات ما اذا كانت (اكس) و (واى) و (زد) ترمز الى اكسربستوس أو اكسرستوبولوس او اكسانيا او اكسرستوجينا ، وان (واى) ترمز الى اليمن ، وان (زد) ترمز الى زيورخ او الى اسمه شخصيا ـ عند ذاك اتجه زكاراكيس فى الواقع الى جهاز مكافحة الجاسوسية (كى.واى. بى) ... واذا الـ (كى . واى . بى) قد ردت عليه فى تفكه مهين بانك محق ، وأن المسألة ليست مؤامرة ، وانما هى النظرية الاخيرة المشهورة لفيرمات ، عالم الرياضيات الفرنسى فى القرن السابع عشر : وما على القومندان المحترم الا ان يتحاشى الاخطارات والبلاغات المضحكة !. ورايته يرجع اليك مليئا بالجزع ، وقد امسك فى يده بمفكرة وقلمين فاخرين احدهما احمر والثانى ازرق ، قائلا : « اننى ... اننى جئت لكى أقول اننى آسف ، اذ وجدت أن من سميته (فيرمى) مات فعلا » !. « ليس اسمه فيرمى يا زاكاراكيس ، بل (فيرمات) !. « فيرمى أو فيرمات ، كلاهما سيان عندى ... هاك قلمان فاخران ومفكوة » !. « أنا لم أعد فى حاجة اليهما يازاكاراكيس . لا يمكننى ان أتذكر ما توصلت اليه » .. « ربما تتذكر من جديد » .. غير انك استوقفته وهو لدى الباب قائلا : « اسمع يا زاكاراكيس ! » .. « نعم ـ » .. « اصغ الى يا زاكاراكيس ... لقد قلت لك فى أول لحظة تلاقينا فيها ، وأكرر الآن ما قلته : أنت خروؤ لا يتصوره أحد ، ولكن لا حيلة لك فى هذا .. وعندما تقف فى قفص الاتهام وآتى للشهادة ضدك ، فسوف أقول بالضبط : هو خروؤ لا يتصوره أحد ، ولكن لا حيلة له فى هذا ... ولسوف أطلب ان يحكم عليك فقط بقضاء أسبوع هنا » ... « أنا الرأس الاكبر هنا !. أنا القومندان ! » .. « انت لا شىء يا زاكاراكيس !. لا شىء سوى رمز القطيع الذى يدين بالخضوع ويطيع على الدوام أيا من كان صاحب الأمر والنهى !. أنت لا تساوى اى شىء ، وستظل أبدا لا تساوى اى شىء ، ولسوف يمتطيك دائما كل انسان آخر ، يا زاكاراكيس المسكين ، سواء اردت هذا أو لم ترد !. هنا بيت القصيد : سواء أردت هذا أو لم ترد » ...

وعلى الاثر تمددت فى السرير لكى تسترخى وتتامل فى حقيقة آسية لا مراء فيها : ان مقتك له الآن غدا يكلفك جهدا .

***

كان يوم أحد ، التاسع عشر من شهر اغسطس عام ١٩٧٣ ... كانت الليلة الفائتة شديدة الحرارة والرطوبة الى حد لم تستطع معه أن تنام ، وكانت الزنزانة متلظية مثل فرن : فقمت ملتمسا نسمة من هواء ، وفى الحال ارتميت على السرير من جديد مكدودا منهكا ... كان ثمة موكب من النمل يزحف على الارض فى خط عجيب ... كان آتيا من الردهة ، مارا تحت البوابة ، مجتازا الزنزانة بانحراف ، ومنتهيا تحت دورة المياه ، فى شريط متماسك ... انك لاحظت هذا النمل منذ اسبوع ، واردت أول الامر ان تقتله ، بيد انك تذكرت الصرصور الذى مات تحت حذاء الجندى ، فأمسكت ... واعتزمت ان تكون حريصا لكيلا تدوس هذا النمل ، وفى كل مرة كنت تذهب فيها المرحاض أو تروح وتغدو ، كنت تخطو من فوقه ... كان هذا النمل يستحق اتم التقدير : ذكاء غاية فى الأدب ، ولم يتسلق قط على سريرك ، وكان يبهجك أن تراقبه .. ولقد عددت النمل : كان تعداده مائة وستا وثلاثين نملة ، وكانت النملة السادسة والثلاثون بعد المائة تجر خصلة من شجرة سرو ... شجرة السرو !. الى اى حد لابد انها نمت فى هاتيك الاعوام !. انك لم ترها منذ ذلك اليوم الذى عدت فيه من العيادة الطبية فى جودى ، بعد الحريق ، واليس من السخف ان تعيش قرب شجرة لا يمكن رؤيتها ؟. ان شجرة هى افضل من موكب نمال ، وافضل حتى من صرصور ... متى مات الصرصور ؟. فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٦٨ !. منذ خمس سنوات تقريبا ، شىء لا يصدق !. ترى كم طعنت فى السن فى خلال تلك السنوات الخمس ؟. لم تستطع أن تعرف ، لان زاكاراكيس لم يسمح لك بأن تقتنى مرآة ، اذ خشى أن تستخدمها كسلاح ، وقال أنه جارك كثيرا حتى الآن باعطائك الكوب الذى عزفت عليه مقطوعتك الموسيقية الصغيرة ، وكان عليك لكى ترى وجهك ان تنتظر حتى يحضر الحلاق لقص شعرك او حلق ذقنك ... غير أن الحلاق نادرا ما كان يحضر مرآة ... وفى عيد الفصح أحضر مرآة ، فالقيت فيها نظرة ، وشد ما روعت !. انك لم تعرف نفسك فى ذلك الوجه الصغير الضعضع ، والخدين الغائرين بالتجاعيد المدفونين تحت الشارب ،

والبشرة المتقعة باخضرار : فقد بدوت كمن هو فى سن الخمسين ، وانت لم تتجاوز الرابعة والثلاثين !. ولم تتمالك ان قلت للحلاق : « هل يبدو شكلى هكذا دائما ؟. » فرد عليك بقوله : « لا .. لا .. ».

وتثاءبت .. ثم تناولت كتاب قواعد اللغة الايطالية وعكفت على تصريف الافعال حينا .. ثم انك بعد حكاية (فيرمات) لم تعد تشعر باية رغبة لكى تنور نفسك بالرياضيات ... وفيما يتعلق بقصائد الشعر ، فقد بدات بشمت بها ايضا ... كان العام الخصب هو عام ١٩٧١ ، وبعدئذ كتبت القصيدة التى كنت اشد فخرا بها ، (الرحلة)، والقصيدة المهداة الى جورج ، ثم المهداة الى موراكيس ، ثم المهداة الى جوزجازيس ، ثم الموشحات السداسية ... وفى عام ١٩٧٢ كتبت (رباعيات الخريف) ، وغيرها من القصائد ، وكلها جيدة ولكن قصيرة: كانت سنة عجفاء ... وفى هذه السنة لم تنتج اكثر من نحو ثلاثين بيتا من الشعر ... انتاج ضئيل !. والواقع هو انه كانت تلم بك أسابيع من التململ المطبق ، ايام كان فيها الجسد لا يستجيب الى نشاط الذهن ، وحتى القلم بدا ثقيلا فى يدك ... هكذا القيت جانبا كتاب قواعد اللغة الايطالية ، وتناولت صحيفة قديمة ... كنت تعرفها عن ظهر قلب ، ولكنك مع ذلك لم تتعب قط من تكرار قراءتها ... كانت تتضمن التمرد الفاشل للاسطول والاعتقال القصير الامد للوزير السابق ايفانجيلوس أفيروف ... انك لم تكن تحب أفيروف هذا ... قبل حركة الانقلاب لم تكن تحبه لأنه كان من انصار الملكية ومن الرجعيين ، والآن كنت تكرهه لأنه أطلق سراحه من السجن بأسرع مما يجب حقا !. رجل يعترف بأنه اشترك فى مؤامرة لقلب نظام الحكم، ثم لا يلبث أن يعود الى بيته دون أن يلمسوا شعرة واحدةمن رأسه؟. « تفضل يا مستر أفيروف ، من هنا ، هذا باب الخروج ، مع أصدق تقديرنا وأطيب أمانينا » !. اللهم الا اذا ــ ألم يكن هو الذى فكر فى سياسة الجسور الممدودة ، المزعومة ؟. « لبناء جسر بين الهيئة الحاكمة والمعارضة » .. المعارضة !. اية معارضة !. معارضته هو ؟!. نعم ... ان اطلاق سراحه كان يخفى فخا : حتى وانت فى جوف قبرك هذا امكنك أن تشم رائحة فخ !. وما كان يمكن أن تدهش أن يعمد بابادوبولوس ، بمساعدة مباشرة أو غير مباشرة من أفيروف ، الى القيام بخدعه ، كايجاد ديمقراطية زائفة مثلا ، تضفى الشرعية على نظام حكمه ، وصبغه بصبغة الدستورية ... والواقع انك لتراهن على أى

شيء لاثبات أن الادلة على كل هذا موجودة ماثلة ... آه لو تهيأ لك ان تضع يدك على الأدلة ، على الوثائق !. ان تكون فى موقف يمكنك ذات يوم من اماطة اللثام عن الحقيقة ، وبيان أن الجناة الحقيقيين هم أولئك الذين يختفون خلف ستار من المسئولية ، هم السادة الاجلاء الذين يستغلون اى انسان ويبرزون دائما الى القمة ، مهما تكن نظم الحكم التى ترتقى الى السلطة ، ومهما تكن نظم الحكم التى تهوى !. انهم افيروف واضرابه ... انهم (القوة) التى لا تبيد أبدا ، التى تتزيا فى كل الالوان ، وتطالع الناس بكل صور الزيف والبهتان !.

ولقد استحوذ عليك غضب جائح ... وسرى فيك النشاط مجددا ... فجلست معتدلا فى الفراش ، وبقلم زاكاراكيس الأحمر كتبت على الحائط : « سوف أجمع بالوثائق » !. وفى نفس اللحظة ارتج سكون يوم الأحد بصيحات محبورة تهتف مهللة : « يعيش !. يعيش !... هوراه !. هوراه !. » ... فلم تتمالك أن وثبت من السرير وتعلقت بالقضبان ، لكى تحسن السمع .. منذا الذى يهتف بمثل هذا ، أهم السجناء أم الجنود ؟. يعيش !. يعيش !. هوراه !. هوراه !. » .. كان الهاتفون هم السجناء .. وفى مثل لمح البصر فهمت ... هناك شيء واحد فقط يهتفون له هتاف الفرحة فى سجن : العفو العام !. اذن فان ما كنت تخشاه قد حدث فعلا : ان سياسة الجسور الممدودة قد آتت ثمارها !. لقد أدركت (القوة) ان الحبال المشدودة يجدر أن ترخى ، وقد أقنعت بابادوبولوس بمنح عفو عام لـكى يتهيـأ لها أن تتشدق بسهولة أكثر عن التطبيع والعودة الى الديمقراطية !. اللهم الا اذا كانت الدكتاتورية قد هوت من عرشها وكانت الهتافات تشـير الى المعجزة !. وانتظرت مجيء الحراس بوجبتك : « ما هذا ؟. لماذا هم يهللون فرحا ؟ » .. « انهم سـعداء ... غدا سـيعودون الى بيوتهم ! » .. واذا انت تنكس رأسا ، مسحوقا بهذا التأكيد ... وماذا لو انهم أطلقوا سراحك انت ايضا ؟. يا يسوع !. ليكونن هذا معضلة حقا !. بعد هذا منذا الذى يكون قادرا على الكلام عن الطغيان الحقيقى ؟. خل عنك هذا !.. سيقولون ان بابا دوبولوس ليس رجل سوء الى ذلك الحد : فهو لم يعدم با لرصاص من تصدى لاغتياله على الرغم من ان الرجل ابى أن يطلب العفو ، وها هو ذا الآن يطلق سراحه فعلا !. وكذلك تغدو سنوات نضالك الخمس ، وتضحيتك ، ومعاناتك، وقد ذهبت سدى !. كلا !. انك لا تريد منهم أن يطلقوا سراحك !.

انك لا تريد أن تصبح أداته ،وشريكه فى أوزاره !. شىء أن تكسب حريتك بالهروب ، ولكنه شىء آخر أن تتلقاها كمنحة من غريمك !. قلت هذا لنفسك ورحت تغدو جيئة وذهابا ، فدست على النمل سحقا ، ناسيا وجوده !.

لقد لبثت طوال الليل تفكر فى العفو العام ، تصدقه حينا ، وتنكره حينا آخر ... وعندما كنت تنكره ، كان الصفاء يخـامرك ، فاذا صدقته ، انشطر ضميرك نصفين ... الانسان هو الانسان ، والانسان مفطور على الأريحية والانانية ، على الشجاعة والضعف على التماسك والتخاذل : ولو انّ نصفك أمل الا يحدث هذا ، فان النصف الثـانى يشتهيه بجنون !. انت شاب وحق يسوغ !. انت حى ولا يمكنك أن تطيق البقاء أكثر من هذا فى ذلك القبر !. لا ترى الشمس ابدا ، ولا ترى السماء ابدا ، عاجز عن ملامسة امرأة ، تغازلها ، تقول لها احبك !. وحيد دائما ، وحيد ، وحيد ، لا تتحرك الا فى نفق سعته متر وثمانون سنتيمترا فى تسعين ، مدفون بغير موت !. وفى الخارج الحياة ، والفضاء ، والضياء ، والناس ، والحب ، والغد !. ما أشق ان تكون بطلا !. ما أقسى هذا وأبعده عن الكينونة البشرية ، وما أشد بلادته وأقل جدواه !. هل يتهيأ لأحد قط أن يثنى عليك لأنك برهنت على انك بطل ؟. هل يمكن أن يقيموا لك نصبا ، ويطلقوا اسمك على الشوارع والميادين ؟. واذا هم فعلوا ذلك ، فما الذى يجدى عليك من هذا ؟. هل لنصب أو شارع أو ميدان أن يعيد اليك شبابك المضيع، وحياتك التى لم تعشها ؟. كلا !. كف عن هذا ... انه لكفران !. فانت لا تؤدى واجبك لمجرد أن يلقاك انسان بالحمد والشكران ، وانما تؤديه بدافع العقيدة ، لنفسك ، ولكرامتك الذاتية !. من يدرى كم من الكائنات البشرية ، من الشرق والغرب ، فى غياهب السجون ، فى المعتقلات الانفرادية ، مدفونين أحياء بسبب كرامتهم الذاتية ، ودون ارتقاب لاى شكر ؟! منهم اناس لا تعرف حتى اسماؤهم ، ولن تعرف أبدا !. أبطال مجهولون ، لا يشاد بهم ، وهم أيضا متعطشون للشمس، والسماء والحب ، ورفقة الناس ، مضطهدون كذلك ، محرومون من الفضاء والضياء ، معذبون أيضا بزبانيـة من أمثـال زاكاراكيس ، يعاقبونهم بتجريدهم من الأحذية ، والسجائر ، والكتب ، والصحف، والأقلام ، والورق ، ويصادرون قصائدهم الشـعرية ، ويلبسـونهم أقمصة المجانين !. « هو مجنون !. هو مجنون !. » الدنيا مليئـة

بهؤلاء المجانين !. أن خيارهم ، الموصوفين بالجنون ، ينتهي بهم المطاف أكثر ما ينتهي الى السجون ، أما الذين يتكيفون ، ويمالئون ، والذين يلتزمون الصمت ، والذين يطيعون ، ويخضعون ، ويخونون ، ويقبلون أن يكونوا عبيدا ـ فهم الذين لا ينتهي بهم المطاف أبدا الى السجون !.
هيا هيا !. لعلك تنحاز الى الاستسلام ؟. هل يكفي اشتهاء الانطلاق في المروج ، أو على شواطىء البحر ، او الاستحواذ على امرأة ومضاجعتها ـ هل يكفي لجعلك تنسى من تكون ، ومن تريد ان تكونه ؟.
لقد لبثت صامدا لألوان التعذيب ، والمحاكمة ، وانتظار حضور فريق الاعدام بالرصاص ، والوحدة المروعة في الظلام اذ قضيت خمس سنوات لم تواجه فيها سوى صرصور ونحل تعداده مائة وست وثلاثون : فما عليك الا أن تظل صامدا في وجه العفو العام ، مهما كان الثمن !.. واذا قدر لهذا الباب أن يفتح ، واذا جاء زاكاراكيس وقال لك : « أنت حر يا اليكوس » ، لأحببته ـ رحماك يا يسوع !. بماذا تجيبه ؟. لقد اغمضت عينيك ، مجهدا !. والم بك النعاس .. وكان الوقت ضحى عندما أيقظك زاكاراكيس قائلا : « قم يا اليكوس .. لقد انعم عليك بالعفو ! » ..

●●●

الصمت مديد وقد تجمد بصوت عبارة هي مناط الخوف الشديد او الاشتهاء الشديد ، أن خيرا أو شرا ، فيما الذهن راكد ، والجسد مشلول ، والقدمان لا يتحركان ولا حتى اللسان : وانما القلب وحده يخفق ... ثم من غيابات ارادة تسترجع ، ينبعث حافز ولن تعرف أبدا كنهه : فيتحرك قدم ، وتتحرك ساق ، والراس واللسان ، واذا المخ يستأنف التفكير ... لقد نهضت قائما : « اي عفو ؟. انا لم اسأل احدا اي عفو يا زاكاراكيس » ... « انت لم تسأل عفوا ، ولكن الرئيس انعم به عليك » .. « رئيس ! . رئيس أمثالك ! . » ... « يا ابن الحرام !. اقول لك انك راحل غدا ، يا ابن الحرام ، لا يمكنك أن تفهم ؟!. انت راحل !. ان عبئك سينزاح عن ظهري !. » ... « وماذا اذا لم أرغب في هذا يا زاكاراكيس ؟. » ... « سنحملك الى الخارج ، حملا ، حملا !. » ...
عندئذ اسندت ظهرك الى حائط المرحاض ، ودسست يديك في جيوب بنطلونك ، ووضعت ساقا على ساق بحركة استفزازية ، قائلا : « اذن فلابد لكم أن تحملوني الى الخارج حملا ، لانني لن اتحرك من هنا يازاكاراكيس ! » .. « سوف تتحرك يا اليكوس ، سوف تتحرك

... انت تتكلم لكى تسمع نفسك وانت تتكلم !. انت لا تعـرف ما تقوله !. متى اصبحت فى الخارج ، فسوف تغير رايك ... سوف تدرك ان الحياة حلوة هناك و ـ » ... « وانت ، وانتم كلكم ، سوف تدركون أن ادخالى الى هنا ، أسهل من اخراجي من هنا !. » ...

فى هذه المرة لم يرد زاكاراكيس ، وخرج هازا كتفه : تاركا البوابة الداخلية مفتوحة ... ترى هل كان ذلك عفوا أو عن قصد ؟. لقد ناديته قائلا : « البوابة يا زاكاراكيس !. انك نسيت اغلاق البوابة ! »

... مرة ثانية لم يرد زاكاراكيس ، وتابع سيره الى الباب ... ومع ذلك فعند هذا الحد لمعت فى خاطره ومضة عبقرية ، اذ انه بعد لحظة تردد خرج تاركا هذا الباب ايضا مفتوحا ... فما كان منك الا ان ناديته مرة أخرى قائلا : « الباب يا زاكاراكيس !. انك نسيت اغلاق الباب !. » ... وبقيت لا تتحرك .. بل لم تهم بحركة شطر الردهة، والمدخل ، والفناء ... كنت فى الحق تتوق الى هذا من أعماق قلبك ، وان تعترف لى بهذا الاحساس ذات يوم !. كنت تريد ان تفعل هذا اكثر من اى شيء آخر فى الدنيا !. ومع ذلك لبثت بلا حراك !..

وبعد ساعة ، عندما عاد اليك زاكاراكيس ، كنت لا تزال فى مكانك : ظهرك مستند الى الحائط ، ويداك فى جيوبك ، وساقاك ملتفان ... هكذا خبت فيه ومضة العبقرية !. وانشـأ يصرخ ــ يا جاحـد ، يا مجنون ، يا وغد !. ثم اغلق جميع الاقفال ، وامضيت ليلتك الاخيرة فى بوياتى مثل سابقاتها ...

●●●

ان الاجراء الذى يواكب الافراج من السجن بسبب العفو العام ان الخاص يتضمن حفلا نظاميا بحضور المدعي العام الذى يتلو المرسوم الصادر بذلك وسلطات السجن التى يقف افرادها وقفة انتباه ، مع جندى يحمل العلم ، وكوكبة تحمل السلاح لمصاحبة التنفيذ ... كنت تعرف هذا ، وهكذا فان ما حدث يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر اغسطس لم يكن فى نظرك عفويا ... ففيما عدا مسألة المقعد ، كان كل فعل من جانبك ، وكل كلمة ، جزءا من السيناريو الذى قدرته سلفا الى أدق تفصيل ... وبادىء ذى بدء ، فقد كنت مكانك تنتظر وانت بالملابس الداخلية عندما اقبل زاكاراكيس لمصاحبتك ... « ما هذا ؟.. انت لم تلبس حتى ملابسك الكاملة ؟. » ... « لا .. ولماذا ؟. » .. « لان هناك الحفل » .. « أى حفل ؟. » .. « حفل الافراج !. » ... « أنا لم أفرج عنك يا زاكاراكيس ... انت لا تزال

سجينى !. » .. « ليس الافراج عنى ، بل عنك !. هل تلبس ملابسك الكاملة أو لا تلبسها ؟. » .. « لا .. اننى افضل ان اخرج بملابسى الداخلية » .. « اصغ الى يا اليكوس !. انك نلت انتقامك ... الآن كن طيبا ، ولا تجعلنى اضحوكة امام المدعى العام !. لا يمكنك ان تخرج بملابسك الداخلية !. » .. « بل يمكننى » .. « اننى اتوسل اليك ، راكعا على ركبتى يا اليكوس !.» .. «على ركبتيك ، حقيقة ؟». « نعم ، اذا لبست ملابسك كاملة ، فسأركع على ركبتى » .. « لا تتكلم هذا الكلام البذىء يا زاكاراكيس !. اننى لا أحب رؤية الناس راكعين على ركباتهم ، حتى لو كانوا باسم زاكاراكيس !. » .. وبكل تباطؤ لبست بنطلونك ، وقميصا أزرق من نوع (كى) ... وبعدها: « أوه !. ذقنى !. بسرعة ، نفذوا !. » .. « ولماذا السرعة ؟. انا غير مستعجل » .. « أما أنا فمستعجل !. ان المدعى العام ينتظـر !. والقومندان ايضا !. الجهات الرسمية كلها هنا ! » ... « وماذا يهمنى من الجهات الرسمية ؟. اننى أحب أن أكون على راحتى مع الحلاق».

وجاء الحلاق .. وحلق ذقنك .. ولم يكف هذا .. فقد أردت ان يقص شعرك ايضا !. ولم يكف هذا مع ذلك : فقد أردت أن ينمق شاربك بالمثل !. وكان ذلك اكثر مما يطيقه زاكاراكيس ، اذ قال : « هل انت الآن مستعد ؟... لا .. لا توجد كولونيا .. » .. وماعلاقة الكولونيا بما نحن فيه .؟ » .. « انها حيوية !. انا لست كريه الرائحة مثلك .. اننى أستعمل الكولونيا» .. «يا بناجوليس !. لا تستفزنى؟» ... « واذا انا استفززتك ، فماذا ستفعل يا زاكاراكيس ؟. هل ستلبسنى سترة المجانين ؟. هل ستضربنى ؟. هل ستجرجرنى الى حفلك فى سترة المجانين ، أو على نقالة ، مخضبا بالدم ؟. » .. « هاتوا له الكولونيا !. » ...

وجاءوك بها .. فلم تعجبك : « هذه ليسـت فرنسية !. أنا أستعمل الكولونيا الفرنسية فقط » .. « ابحثوا له عن كولونيـا فرنسية !. » .. ولكن ما من احد كانت عنده كولونيا فرنسية !. غير أن أحد الضباط كان لديه نوع انجليزى ، وبعد أن ألقيت محاضرة طويلة عن الفرق بين الكولونيا الفرنسية والنوع الانجليزى ، تعطرت بهذا الرشاش ... وأخيرا ، حوالى الظهر ، كنت مستعدا ، وخرجت من مكانك !. لكن كان قد مضت ثلاث سنوات وخمسة شهور منذ أن خطوت فى الردهة ، وما أن خطوت ثانية حتى دار رأسك ، واشتد

بك الدوار حتى اضطروا أن يحملوك عائدين بك الى الزنزانة لـكى تستلقى فى السرير مدى دقائق معدودة .. وبعدها استغرقت عشرين دقيقة لاجتياز المسافة الى مقر القومندان ... وكان يسندك رقيب لاضطرارك الى اغماض عينيك نصف اغماضة لان ضوء الشمس كاد أن يحرق حدقتيك ...

وفى مقر القومندان كان ثمة لفيف محدود من ذوى الزى العسكرى ينتظرون متبرمين ... ولدى دخولك وقفوا وقفة انتبـــاه بحـركة مفخمة ، وعندئذ وقع نظرك على المقعد فجلست فيه ، صاما أذنيك عن احتجاجات زاكاراكيس : « هذا مقعد المدعى العام !. » .. «لماذا، هل أشتراه ؟. » ... « هات الكرسى !. » .. « لا » .. فتكلم المدعى العام قائلا : « يا بناجوليس ، قم ! » .. « لماذا ؟. على اى حال لن أعطيك الكرسى » .. « لأننى سأتلو المرسوم الرئاسى » .. « ربما يكون مرسوما رئاسيا فى نظرك ، أنت يا خادم عصبة الانقلاب !. أما فى نظرى فهو فقط ورقة مهرج !. بالاوراق الصادرة من بابا دوبولوس هذا امسح اليتى » !. « يا بناجوليس !. انك تتمادى كثيرا جدا !. » ... « اذن فاعتقلنى !. أعدنى الى زنزانتى » .. « هذا شىء لا يمكن عمله !. فقد صدر عفو عنك !. » .. « هذا ما تقوله .. انا لا أقبل اى عفو » ... « هيا ، قف » .. « كلا ، حتى ولو قتلتنى !. » ..

خيم صمت محير : ما العمل ؟. المجازفة بحدوث مشاحنة اذ يجبرونك على الوقوف ، او يتظاهرون بعدم المبالاة ويســـمحون لك بالبقاء جالسا ؟. من الافضل أن يدعوك جالسا ، فهذا هو الأصوب !. وهكذا قال القومندان : « فلنبدأ » ... فرفع الجنود السلاح ، ورفع الجندى العلم ، وتلا المدعى العام السطور الاولى من المرسوم ... وفى غضون ذلك تمددت أنت فى المقعد ، وتثاءبت ، وصفرت دون أن تتوقف عن حك نفسك !. خصوصا كعبيك !. فقطع المدعى العـام التلاوة قائلا : « ما هذا الذى تفعله ؟. » .. « أحك نفسى !. » .. « ما الذى تحكه ؟. » .. « أحك خصيتى !. انهما جمدتا من الضيق الى حد أنهما تدلتا الى كعبى ! » ..

لقد احمر وجه المدعى العام ، وصر زاكاراكيس على أسـنانه ، وابدى القومندان ايماءة تشف عن التأفف ، ثم استؤنفت التلاوة ... وعند اتمامها وقد تنفس الجميع الصعداء الا أنت ، دعوك مرة اخرى للقيام : « هيا يا بناجوليس ! » .. « الى اين ؟. أنا مبسوط هنا !.

انا احب هذا الوضع ، وفضلا عن هذا فانني متعب » .. « لابد أن تعود الى زنزانتك الى أن يحضر اللفتنانت ــ كولونيل» .. «احملوني! .. كيف ؟» .. « بالطريقة التى يحملون بها البابا ويطوفون به فى مقعده لكى يمنح البركة للشعب ! » .. الآن كان قومندان المعسكر يضحك ؛ بينما هتف زاكاراكيس : « هل رأيت يا سيدى ؟!. هل رأيت ؟.. أربع سنين ونحن على هذه الحال !. قلت انه مجرم !. مجرم !. ».. فوجهت كلامك الى زاكاراكيس قائلا : « اصرخ وابك يا زاكاراكيس !. ابك !. اننى لن أتحرك من هنا !. » .. وتشبثت بالكرسى بيديك ، ولففت ساقيك حول قوائمه ... فلم يجدوا مناصا من حملك والسير بك انت والكرسى معا ، وهم فى ارتباك وحرج متزايدين ، فيما تكلفت فجأة الوقار والرصانة ، تماما مثل بابا !.

لكن ما أن حانت لحظة مفادرتك الزنزانة حتى أعدت الكرة من جديد ، مع اللفتنانت كونيل هذه المرة اذ قال لك : « اجمع متعلقاتك يا بناجوليس ، فانت الآن حر » ... « لن اجمع اى شىء ، اجمعها أنت » ... « الا تريد أن ترحل ؟. » ... « لا .. قلت لكم جميعا الف مرة اننى مبسوط هنا !.. اننى أفضل البقاء هنا » .. « فى الخارج سوف تغير رأيك » ... « وانا سأكتشف أن الحياة حلوة : ان زاكاراكيس يقول مثل هذا !. احمل أشيائى اذن » .. وبين الاحساس بالتفكه والامتثال حمل اللفتنانت كولونيل متاعك : حقيبة طيران مليئة بالقواميس والمبادرة ... كانت المبادرة مخبأة فى مقبض الحقيبة ، فقد وضعتها هكذا من قبيل الدعابة ، وعلى أى حال فانها الآن نوع من التذكار ... « هيا بنا يابناجوليس » ... « لا بأس ... هيا بنا » ..

والقيت نظرة اخيرة على الزنزانة ، نظرة غريبة جدا جمعت بين الحزن والاسف ، وحدقت مليا بامعان أليم الى الكلمات التى سطرتها على الحائط : « سوف أجمع الوثائق » ، واخيرا خرجت ووصلت الى الفناء فى الممر الصغير الذى ينعطف الى اليسار ثم الى اليمين ، وهو الممر الذى كان زاكاراكيس ينتظرك فيه ليلة هروبك الثانى ليضحك منك ويتهكم عليك ... كنت تسير منكس الرأس وعيناك نصف مغمضتين كما حدث عندما مشيت الى مكان الحفل ، متحاشيا بعزم وعناد النظر الى السماء ، ذلك والحراس يجدون مشقة فى اسنادك وانت متكىء بثقلك عليهم ... لقد كنت فى أشد التعب ، فقد نهكتك

ونالت منك مهزلة الاستفزاز والقحة التى طالعتهم بها ، وكنت تسائل نفسك لدى كل خطوة ما الذى انت فاعله متى وصلت الى البوابة الخارجية ، حيث يتركك الحراس ، دون أن تلوح فى وجهك أدنى بادرة للفرح ... وفى النهاية كنت لدى البوابة ، وتقدمت مبتعـــدا عن الحراس ، واجتزت المدخل ، ولم تتمالك ان غمغمت متحيرا : « أواه يا ربى !. يا ربى !. » ...

لقد امتد أمامك فضاء سحيق بلغ من ترامیه وعمقه وخوائه حدا جعل مجرد النظر اليه يصيبك بالغثيان ، حتى كدت تقىء ... فى جوف القبر نسيت ما هو الفضاء !. كان هذا شيئا مروعا !. فلم يكن ثمة جدران تحده ، ولا سقف يعلوه ، ولا باب يوصده ، ولا قفل ، ولا قضبان !. كان فاغرا حواليك مثل محيط خفى ، ولا دلالة فيه سوى الارض التى كانت تنبسط خلال الوادى صعدا الى ما فوق التلال ، لا يكاد يتخللها سوى رقاع من الحشائش أو الشجر المتناثر ، اقرب فى اشكالها الى ما يبدو فى الكواليس المرعبة ... اما أسوأ شىء فكانت السماء ... فى داخل القبر كنت قد نسيت أيضا ما هى السماء ... كانت خواء ملطقا ، شديدة الزرقة ، كلا ، بل صفراء ، كلا ، بل بيضاء !. انها أحرقت حدقتى عينيك بأسوأ من حامض ، وأكثر من نار !. وهكذا أغمضت عينيك لئلا تصاب بالعمى ، وبسطت ذراعيك لكيلا تسقط !. ولفورك استحوذت عليك فكرة الزنزانة ، مقترنة بحنين غلاب ، ورغبة قاهرة لكى تعود اليها ، ولتجد الملاذ والحمى فى ظلامها ، وفى رحمها الضيق الآمن كرحم أم !. زنزانتى !. ردوا الى زنزانتى !. ان الضابط الذى كان يحمل الحقيبة وبها قواميسك قد فهم ، فأدركك ، ولمس منكبك قائلا : « تشجع !. تجلد !. » .. ففتحت عينيك من جديد وانت تطرف ، وتقدمت خطوة ، ثم اخرى ، ثم ثالثة ، ثم رابعة ... ومرة أخرى توقفت .. لم تكن مسالة تشجع ... بل حفظ توازن .. ان المشى فى كل هذا الفضاء ، وكل هذا الضياء ، ووحدك لم يكن مثل المشى فى مسالك السجن ، محشورا بين حارسين يسندانك من المرفقين : كان أشبه بتحسيس حوافى جرف عميـــق !. وحتى المشى فى طريق مستقيم كان أمرا شاقا ، لأنه بدون حوائط او عوائق ما كنت لتدرى ما هو الطريق المستقيم او المعوج ، وما هو الأمام ولا الخلف ، وما كنت تعرف سوى ما فوقك وما تحتك ، سوى السماء ، والارض ، والشمس الخاطفة للبصر !. ولكن شيئا فشيئا ، عنـدما

انقشعت عينك غمامة الغثيان والدوار ، وسرى اليك التماسك ، لم تلبث أن الفيت نفسك من جديد .. ثم تميزت شيئا .. ما هو ؟. كان ثمة ظلال وأشباح على البعد ، نقاط تتحرك !. كانت قادمة نحوك، تهتز ، وتلوح !. اشكال غريبة بدت أول الامر مثل اجنحة ، ام كانت اذرعا ؟. أطيــور أم بشر ؟. لابد أنهم أناس ، لانهم كانوا يصــدرون أصواتا غريبة كان لها رنين النداء : « أليييكووس !. اليييكووس !». يا له من جهد رهيب اذ تتقدم فى هذا الاتجاه !. « اليييكووس !. اليييكووس !. » .. فجأة برزت نقطة بين الآخرين : قوام قصــير أسود .. ثم تحول الى امرأة فى ثوب أسود ، وجوارب ســوداء ، وحذاء أسود وقبعة سوداء ، ونظارة سوداء .. لقد راحت تجرى نحوك بذراعين ممدودتين ، واصابع مبسوطة ... امك !. فارتميت فوقها !. واذا الجميع يرتمون عليك : أصحاب ، واقارب ، ومندوبو صحف ، يلمسونك ، ويحتضنونك ، وينادونك حتى لا تعود تأسف على زنزانتك !. والواقع انك فجأة لم تعد تأسف عليها .. وشعرت بسعادة لا توصف : ذلك وان خامرك ميل شديد للبكاء .. لم تكن تريد أن تبكى ... كنت تريد أن تقول شيئا هاما ، تاريخيا ... ولكن كلما ساءلت نفسك ما هذا الذى كنت تريد قوله ، غالبتك الرغبة فى البكاء ، وتعاظمت ، حتى استحالت الى غصة فى الخلق ، وغشاوة من الماء فوق العينين !. ان الحيرة التى انتابتك لدى رؤية الفضاء الشامل قد استحالت الآن الى ادراك كلى بأن الحرية بالنسبة اليك ستعنى معاناة جديدة ، وأسى جديدا !.

وذلك هو الرجل الذى قدر لى ان التقى به فى اليوم التالى ، اخيرا ، مصطدمة به اصطدام قطار بآخر يندفع فى الاتجاه المضــاد على نفس الخط !.

القســم الثــانى

(١)

ان انكار القدر لهو تكبر وعجرفة ، والزعم باننا وحدنا المتصرفون فى وجودنا والمشكلون لحياتنا لهو جنون .. واذا انكرنا القدر ، فان الحياة تصبح سلسلة من الفرص المضيعة ، وتحسرا على ما لم يكن ان يعمل ، ويغدو الحاضر ضياعا وانحرافا الى فرصة أخرى مضيعة ... وبأسى وتحسر قلت لى : « لماذا لم نتلاق من قبل ؟. اين كنت عندما قمت بتفجير الالغام ، وعندما كانوا يعذبوننى ، وعندما حاكمونى وحكموا باعدامى ، ثم زجوا بى فى ذلك القبر ؟ . » .. اننى لم أجبك قط بأننى كنت حيث اراد القدر ، لأن هذا القدر ذاته قد حتم أن نتلاقى فى هذا اليوم الموعود ، وهذه الساعة المقررة ، وليس قبــل ذلك !. الى أن يحين ذلك اليوم ، وتلك الساعة ، فان طريقينا كانا من شدة الانفصال والتباعد الى حد أن أعتى ارادة حديدية ما كان يمكن أن تجعلهما يتقاطعان !.

اننى لم آت اول الأمر للقيام بأية محاولة للاطلاع بصورة وافية على قصة لم اعرفها الا لماما ... وكنت قد اطلعت على محاولة الاغتيال فى فترة متأخرة جدا من خلال احدى وكالات الأنباء بينما كنت اقوم بأعمالى الصحفية فى فيتنام : كانت بضعة سطور عن ضابط يونانى أراد ان يقتل الدكتاتور الطاغية ... ولما قراتها قلت لنفسى : « لا بأس ... هناك بوادر تنذر بتقلبات كثيرة فى اليونان » !. ثم لم البث أن نسيت ... ففى فيتنام كانت أمة بكاملها تحتضر ، تتخلص من ظلم لكى تخضع لظلم آخر !. وكانت رائحة الجثث المتعفنة تفسد الهواء الى جانب روائح البطولة الحابطة ، وفى كل تلك المأساة لم يكن ثمة مكان لك اذ ذاك ... على اننى اطلعت فيما بعد على انباء محاكمتك والحكم باعدامك عندما كنت فى المستشفى بعد جولة صحفية محفوفة بالمخاطر أصبت فيها برصاصة فى ساقى اليسرى واخرى فى ظهرى ... قال النبأ وقتها « ان المتهم بمحاولة اغتيال بابا دوبولوس سوف يعــدم بالرصاص » ... وقد اضافت الصحيفة انك نفسك طلبت اعدامك ... والواقع لقد اكربتنى هذه القصة .. ثم علمت فيما بعد أن الحكم

لم ينفذ ، فساورنى احساس بالفرح لهذا النبأ ... وعلمت عفوا انهم عذبوك فى السجن تعذيبا فوق طاقة البشر ، مما أثار غضبى بنفس القدر من احساسى الأول ... ولو كان القدر غير موجود ، ولو لم يكن مقدرا لى أن أصير اداة لقدرك انت ، لكان علينا ان نسائل نفسينا لماذا ابرقت لك فى ذلك اليوم من شهر اغسطس ، ثم أهرع الى اثينا بتعجل انسان يطيع نداء طال انتظارك ، ولماذا ساورنى هاجس داخلى فى اللحظة التى وصلت فيها الى مدينتكم بأن شيئا يوشك أن يصدمنى ، يصدمنا معا ، شيء لا سبيل الى دفعه !.

كان الحر شديدا جدا فى اثينا ، حتى أن حذاء الانسان يكاد يغوص فى الاسفلت الرخو ، والهواء الساخن يكاد يخنق الأنفاس ... وما أن خرجت من المطار حتى ركبت سيارة اجرة لم يستطع سائقها ان يهتدى الى العنوان الذى زودته به الا بعد طواف كثير ... واخيرا وقفت السيارة عند رصيف تصطف بطوله أشجار الزيتون أمام حديقة صغيرة من أشجار البرتقال والليمون قام وراءها بيت صغير أصفر اللون اخضر النوافذ ، تحف به شرفة اكتظت بأناس تبدو عليهم طوالع الانفعال ، تتقدمهم امرأة عجوز فى ملابس الرجال ...

ولم يكن عندى أقل فكرة عن شكلك ، اذ لم اطلع على أية صورة فوتوغرافية لك ، ولم أفكر مرة ان كنت شابا او مسنا ، وسيما أو دميما ، طويلا أو قصيرا ، أشقر أو اسمر !. ترى أى طراز من الناس انت ؟. هذا ما كنت أسائل به نفسى وانا أشق طريقى بين الجمع الذى ازدحمت به الشرفة ، حتى الفيتنى فى صالة صغيرة مليئة بأشخاص منفعلين ، أفضيت منها الى غرفة جلوس رثة تطن بأصوات رجال ونساء جلسوا فى صفين منفصلين طبقا للتقاليد الشرقية .. كان الرجال متشابهين حتى تعذر على أن أميزك بينهم .. لكننى عرفتك من أول نظرة حالما تلاقت عيوننا ، خصوصا عندما قلت لى : « هاك !!.. هاقد جئت !. » .. كان صوتا له رنين خاص ما كدت أسمعه حتى أحسست اننى فقدت سكينة النفس الى الأبد !.

●●●

« اننى كنت فى انتظارك » !. وامسكت بيدى وسرت بى بعيدا عن الجمع فى ممشى الى غرفة نوم امتلأت بالايقونات تمثل المسيح والعذراء والقديسين الى جانب الشموع الموقدة والمباخر ... وفى الجانب المقابل قام سرير تعلوه كتب باللغة اليونانية ، وفوق الكتب مجموعة

كبيرة من الورود الحمـراء وسرعان ما اطبقت على الورود بســعادة وقدمتها لى قائلا : « هذه لك » .. « لى أنا ؟. » .. « نعم ... لك انت » ... ثم ناديت بلهجة الآمر : « اندرياس !. » .. فتقدم الشاب الذى ناديته وكان فارعا انيقا يرتدى بذلة زرقاء وقميصا أبيض ووقف وقفة الانتباه وهو يصغى الى ما قلته له بلغتك ، ثم ترجمه الى اللغة الانجليزية ... قلت انك تعرف اللغة الايطالية ، بعد أن درستها فى السجن ، لكنها كانت مقصورة على الاسلوب المدرسى ، ولذلك فضلت ان يكون الشاب كمترجم بيننا ... رحت تعتذر قبل كل شىء عن استقبالك لى فى غرفة نوم ، وهى غرفة امك ، ولكنها المكان الوحيد المناسب لكى نتبادل الحديث دون مضايقة ... وقلت ان تلك الكتب هى مؤلفاتى مترجمة الى اللغة اليونانية .. وأما الورود الحمراء فهى عنوان حفاوتك بى وكنت قد أوفدت بها اثنين من أصحابك الى المطار لتقديمها نيابة عنك ، لكنهما لم يجدانى فى المطار لأن برقيتى اليك لم تبين موعد وصول الطائرة القادمة ، وهكذا فهو يقدم الورود سعيدا مرحبا ... والحقيقة ان هذه البادرة أثارت قلقى بدل أن ترضينى ، وشعرت انه لابد لى من المبادرة الى ايضاح الموقف وان أمامى مهام صحفية فى اماكن أخرى تقتضينى ان أعمل باتمام هذا اللقاء الصحفى ... وقبل أن أسائل نفسى اذا كنت بهذا الاسلوب احرج مشاعرك ، شكرتك باقتضاب ، ثم وضعت الورود جانبا واعددت جهاز التسجيل فوق منضدة واطئة وطلبت منك أن تجلس فى مواجهتى وبدأت أوجه اليك الاسئلة الصحفية بأسلوب مهنى .. غير أننى فى نفس الوقت كنت اتفحصك بجنون واستماتة محاولة تفسير الاستهواء أو بالأحرى السحر الذى كان يلفك ويكتنفك !. قلت لنفسى ان فى ذاتك شيئا يجذب اليك وينفر منك فى آن واحد ، شىء بالغ التأثير مذك للردع !. كمثل من يطل من أعلى ناطحة سحاب : فيشعر انه كمن يحلق ، ولكن فى نفس الوقت يبدو له وكأنه يوشك أن يغوص فى الخواء !.

ما هو اذن ؟. ربما كان الوجه ... كلا ، كلا ، فالوجه كان ابعد عن أن يكون شاذا ... كانت سمة الجمال فيه هى الجبين : كان شامخا ، عريضا ، نبيلا فى نقائه ... وكان الشىء الطريف الوحيد فى الملامح هو العينان ، لأنهما لم تكونا متماثلتين ، لا شكلا ولا حجما ، فاحداهما كانت واسعة والثانية ضيقة ، احداهما كانت مفتوحـة والثانية نصف مغمضة ... كانت العين الواسعة والمفتوحة تحـدق

اليك بما يشفي على الصرامة الشريرة ... اما العين الضيقة والنصف مغمضة فكانت تنضح برقة طفولية ، ولكنهما معا كانتا تتوهجــان كفابة مشتعلة بالحريق فى صميم الليل !. وبقية المـلامح كانت غير مؤثرة ، فيما عدا الوجنتين اللتين كانتا شديدتى الاســتدارة ولكن ممتقعتين بتأثير المحن والارزاء ... وكان الشارب والحاجبان الكثيف شعر كل منها يسبغان على الوجه مسحة خاصة ... اما عن الجسد فكان متين البنيان : كتفان قويتان مثل الخاصرتين والساقين ، أشبه ما يكون بقوام عامل متوسط الطول ، ولكنه ادنى الى الفلطة .. كلا فى البنية لم أجد شيئا يمكن أن يستهوينى أو ينحو بى الى العصبية ... اذن ما هو ؟. لعله الصوت ؟. الصوت الذى بادرتنى نبراته الاولى بما نفذ الى اعماقى كطعنة غائرة : قوى المخارج ، عميق المنبعث ، غنيا بحس دافق غلاب لا سبيل الى تحديده ! . أم لعله السلطان الذى كنت توجه به الناس وتحركهم ؟.

مهما يكن فقد اخرجت غليونك وحشوته بحركة عفوية ثم انشأت تنفث دخانه نفثات طويلة ، كرجل كهل ، وكان هذا طابعك وانت ترد على أسئلتى أثناء الحديث الصحفى بما كان يبدو أقرب الى العفوية ، وان كان فى حقيقته أبعد عن ذلك لحظة ان لمحتنى ووثبت قائما للقائى وعانقتنى !. لكن لا لزوم للتنويه بهذا ، ومن الخير ان أركز نظراتى الآن على المعصمين اللذين شوهتهما الحبال المشدودة وانت معلق فى السقف ، والى القدم المكسورة من ضرب الفلكة ، والى ندبة الجروح البادية فى عظمة الوجنة بصورة صارخة ، حتى لقد قلت لك : « انك تذكرنى يا اليكوس بالراهب البرازيلى الثائر » ... « بادر تيتو دى الينكار » ؟. « كيف عرفت قصته ؟! » .. « عرفت من رسالته ، التى نشرتها انت على لسانه فى تحقيقك الصحفى ... كنت ارجو أن تفعلى نفس الشىء لى » .. « انني لم افعل اى شىء من أجـــلك الآن » ... « هذا لا يهم .. انك انت هنا الآن » ..

وانزلت غليونك ، وامسكت بكلتا يدى ، وضغطت عليهما بقوة ، وأرسلت الى عينى نظرة نفاذة شقت اعماقى ، قائلا : « انت هنـا الآن !. لقد وجد كل منا الآخر » ..

كان شيئا رهيبا !. فقد سفر كل شىء بجلاء ، مؤكدا المخاوف التى ساورتنى لدى وصولى الى أثينا !. اذا كان على الآن ان اواجه ، فضلا عن الخلافات العقائدية ، مبارزة من نوع آخر .. المواجهة بين

رجل وامراة ، تلك المواجهة التى افضت الى غرام بين اثنين ، فى قصة حب ، بل اخطر قصة حب وجدت قط : الحب الذى تمتزج فيه المثل العليا والمذاهب والارتباطات الاخلاقية بالجاذبية الفردية والمشاعر الوجدانية ... لم اتمالك ان جذبت يدى من قبضتك واخفيتهما تحت المنضدة بجبن القوقع الذى يسارع بالملامسة الى الاختفاء فى صدفة !. وتحولت الى المقاومة العنيدة متحاشية نظراتك ومحتمية بالقاء سيل من الاسئلة الاضافية أو تكلف توجيه الأسئلة الى اندرياس بدلا منك ! . وبرغم ذلك فان الوقائع التى رحت تسردها الى سمعى عن التعذيب والمحكة وحكم الاعدام والجحيم الذى سلخت فيه سنوات دون أن تفقد ايمانك ودون أن تتخلى عن ذاتيتك ، ما لبث هذا كله أن ردنى اليك بقوة ريح عاصف يلاشى كل ارادة او مقاومة !. ومن وراء هذا كله كان ذلك الصوت ، وتانك العينان ، وتلك الأصابع التى ما فتئت تلتمس يدى بعناد واصرار !. وفى النهاية القيت سلاحى ، وتركت عينى تتلقاها حتى الاعماق ، واعدت يدى الى سطح المنضدة لكى تجدهما أمامك كلما اردت أن تمسك بهما وتضغط عليهما، وعلى هذا النحو مضت المقابلة الصحفية ساعات متعاقبة لم يكن فيها للزمن حساب حتى غابت الشمس وحل الفسق وجاءت المرأة العجوز المتشحة بالسواد واضاءت المصابيح ... بيد أنه حتى هذا لم يصرفنا عما كنا فيه .. وفجأة شعرت بالخوف الذى كان قد تبخر يعود حبنما سالتك عما تعنيه السياسة فى نظرك ، لا السياسة التى تمارس فى السر ، وتحت الارض ، وانما السياسة التى تجرى مع الحرية وتواكبها ، وأول الامر أجبتنى بانك لم تنهمك قط فى السياسة ، وانما تلاعبت مع السياسة وغازلتها ، طبقا لاسلوب غاريبالترى لا كافور ، ثم لم تلبث أن انطويت على نفسك فى صمت غير متوقع ، وفى غضون هذا الصمت رحت تحرك أصابعك ببطء نحو أصابعى ... وببطء بالغ اطبقت عليها ... وببطء بالغ قلت بلغتى : « اننى اميل الى المغازلة ، ولكننى أفضل الحب ... الحب » ..

لقد انتفضت قائمة وكأنما لدغنى عقرب ، وقلت انه لابد ان اتركك وأبحث عن فندق ... فرددت على الفور : « لن تذهبى الى اى مكان ... ستبقين هنا » .. ثم يممت شطر المرأة العجوز المتشحة بالسواد وانت تعرج فى خطوك من جراء الضرب الذى اشبعتك به (فلكة) ثيوفلياناكوس حيث كانت منشغلة فى المطبخ .. واذ ذاك كان الليل قد

ارخى سدوله وتفرق الزائرون مغادرين البيت لانصرافك عنهم ..

●●●

كان أربعة من رجال الشرطة قائمين على الرصيف ، لكن الشرفة كانت رطيبة ، والهواء يفوح برائحة الياسمين .. وقال لى أندرياس: « هل ستبقين حقا ؟ » ... « لا .. قل له هذا » .. « لابد أن تفعلى هذا بنفسك ، ولن يكون شيئا سهلا .. انه عندما يقرر شيئا يكون من المستحيل عصيان قراره ! » .. « أنا لم أجىء الى هنا لكى أطيع أمره » .. « آه ، كلهم يقولون هذا ، ثم لا يلبثون ان يطيعوه !. على أى حال يمكنك الرحيل فى الحال ، لابد أن توجد رحلة طيران ليليـــة اخيرة الى روما ... يمكننى انأحببت أنأرافقك الىالمطار» .. لماذا ؟ هل أنت قلق بشأنى ؟. هل تخشى أن يعتقلنى رجال الشرطة فى الخارج ؟ » .. « لا .. ليس رجال الشرطة » .. « لســـــت افهم اذن ! » .. « أقول أن ما حدث هنا لم يكن مقابلة صحفية ، كان امتزاجا روحيا .. ولابد له ان يظل فى حالة هدوء ، لبعض الوقت على الاقل ، فهو فى حاجة الى الراحة ... والحب ليس راحة ، وعندما يتولد من التآلف الروحى ، فيمكن أن يصير مأساة ! » .. فقلت له بحدة : « لا تبالغ ! » .. « أنا لا أبالغ ... اننا نحن ابناء الاغريق تستحوذ المأساة على مشاعرنا !. ومنذ أن ابتدعناها فاننا نراها فى كل مكان » ... « لكن ما لون هذه المأساة التى تتحــدث عنها ؟ » .. « هناك لون واحد من المأساة ، وهى مبنية على ثلاثة عناصر لا تتغير ابدا : الحب ، والالم ، والموت » ..

وفيما هو يقول هذا اندفعت عائدا الينا بعرجك الخفيف ، قائلا : « رتبنا كل شىء ... ستنامين فى غرفة الجلوس ! . انها ليست مريحة مثل جناح فى فندق (جراند بريتانى) ، لكنها افضل من فراش فى سجن بوياتى !. وبعد فترة قليلة سنأكل » .. « اصغ الى يا اليكوس » .. لكنك ذهبت تقاطع كل كلام أقوله أو اعتراض أبديه .. وفى النهاية طوقت منكبى بذراعك مستحوذا ، واستندت الى حاجــز الشرفــة وانشأت تستنشق النسيم بنهم ، قائلا : « هذه اول مرة منذ خمس سنوات وعشرة أيام أشم فيها عطر الياسمين !. انه لم يكن موجودا فى الليلة الماضية ! » .. فرد اندرياس : « بل كان موجودا » ... « قلت لك انه لم يكن موجودا ! » .. فقال اندرياس مرددا كلماته : « انه لم يكن موجودا » !.

واثناء العشاء رأيتك منتعشا عالى الروح المعنوية ... وتحدثت عن سجن بوياتى وكأنك كنت فى فندق به كل أسباب الرفاهية ، حتى لقد بدأ لى أن تمثيلية الايدى المتلامسة والنظرات الحارة كانت مجرد اظهار للصداقة وان كلمات الحب كانت أشبه بالحديث عن السياسة ، وانه يسوغ لى أن أتقبل ضيافتك وارتحل بعد ظهر اليوم التالى : فقد أخذ المعارف يتوافدون من جديد ، وهم يحيونك بالعناق ويحتفون بك ، حتى ان مشهدك وأنت تستقبلهم برصانة كزعيم عاد من رحلة طويلة قد اثار فضولى ، وخصوصا أسلوبك فى الحديث معهم وتلقينهم وتحذيرهم من الانخداع بالعفو العام الذى ربما كان خدعة سياسية وتخديرا للأعصاب وستارا لدعم الدكتاتورية وتوطيد اركانها ، فان من يخرج من السجن لا ينبغى أن يستسلم للنوم فى فراشه ناعم البال بل يظل متأهبا للكفاح من جديد ... هكذا قدرت انه يمكن أن تكون بيننا رفقة اخوية وذهبت مخاوفى حتى لقد نهضت فى نهاية العشاء لمساعدة المرأة العجوز المتشحة بالسواد ـ أمك ـ فى تسوية غرفة الطعام .. وقال لى اندرياس : « أراك أهدأ الآن ، فهل قررت البقاء؟» ... « نعم ، واقولها بصدق » .. « آه !. جميل !. اذن طابت ليلتك » ..

وهكذا انسحبت الى غرفة الجلوس واغلقت بابها على ، ولم أتمالك لشدة تعبى ان استسلمت لتوى الى نوم عميق ...

●●●

كان ما حدث فى اليوم التالى أبعد عن كل تفكير أو تصور ..

كان موعد الطائرة التى سأستقلها فى السابعة مساء .. وقد ظللت اكثر الوقت أتحاشى لقاءك على انفراد ، خصوصا وكان زائروك لا ينقطعون عن الحضور ، واذا حتم الموقف لقاءك كنت انتحل الأسئلة العابرة أوجهها اليك اكمالا للحديث الصحفي ... الى أن كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وانا مستندة الى جذع نخلة فى الحديقة ادخن سيجارة ... فما ان رفعت نظرى حتى رأيتك أمامى وجها لوجه ...

كنت تتقدم فى اشعة الشمس وقد بدا وجهك شديد الشحوب حتى كانت ندبة جرح الصدغ تتوهج كجمرة ... دنوت منى وأنت تحدق فى وجهى بشدة ، ثم توقفت أمامى مباشرة ، ودون أن تقول شيئا واطبقت على معصمى وعدت بى الى البيت ، ودون أن تقول

شيئا دفعت بى الى غرفتك الصغيرة وانا المح نظرة الارتياع التى بدت على وجه أندرياس قبل اغلاق الباب ... وأشرت الى مقعد وقلت لى: « سنتحدث ... اجلسى » ... وجلست أنت على حافة الفراش وشبكت ذراعيك قائلا : « لن ترحلى » ... « لن أرحل ؟! » ... « نعم ، لن ترحلى .. » ... « ولماذا لا ارحل يا اليكوس ؟ » ... « لأننى لا أريد أن ترحلى ... واذا كنت لا أريد ، فهذا ما يكون » !. « اصغ الى يا اليكوس .. اننى انهيت ما جئت لعمله ... ولم يبق لى سبب يدعو الى البقاء » .. « انهيت ماذا ؟ » ... « المقابلة الصحفية ... اننى جئت الى هنا من اجل هذه المهمة .. وقد اتممتها » .. « انك لم تحضرى الى هنا من أجل مهمة صحفية .. لقد جئت الى هنا من أجلى !. أنت هنا لأجلى ! » .. « من اجلك مثل باقى الآخرين الذين كتبت عنهم : فى بوليفيا ، فى فيتنام ، فى البرازيل .! » ... « كذابة ! » ... « اصغ الى يا اليكوس !. اننى لا أطوف بالبلاد بحثا عن مغامرات غرامية و ... » .. « ولا انا » ... « واذا كنا فى نفس الخط ، ولنا نفس الافكار والمشاعر ، فان هذا لا يكفى لكى نكون أكثر من اصدقاء ، رفاق ، و ... » .. « اعرف هذا » ... « ثم اننى حتى لا اتكلم لغتك و ... » .. « هذا لا يهم » ... « ولا يمكننى أن اغير حياتى من أجل .. هذا لا يهم » .. « بل كل هذا يهم ... وفجأة انتفخ صدره ، وقال فى غضب جائح : « اننى أحبك ! » ..

كانت صرخة حيوان جريح مهان !. كانت فورة عارمة تجلت فى الذراعين الممدودتين لتطويقى وشل حركتى فى مقصة حديدية !. الانفاس الحارة ، والفم النهم ، والعينان اللتان بدتا لى من قبل كبار مشتعلة فوق قمة غابة !. فى مدى لحظة عابرة كدت انحو الى الاعتذار والاعتراف بأننى أيضا احبك ، حتى لو كنت لا أريد هذا .. بيد انى لم ألبث ان واجهت تينك العينين ، واذا الرعب يستحوذ على قلبى !. فقد توسمت الموت فى العينين ، والنذير بكل ما قدر ان يحدث فى الأعوام المقبلة والذى ما كان يمكن أن يحدث بدونى ، لو لم اكن الاداة والعجلة الدائرة لمصيرك وقدرك ، الذى سطر تسطيرا ، وكان قدرا مقدورا !. كان فيهما المصير الحابط الذى ولد معك ، واللغة التى كتب أن تطاردك الى أن تحل ليلة فى شهر مايو فتقذف بك فى حفرة سوداء على (طريق فوليامينى) ! . وكان فيهما العذابات والاسترقاق تسلطها على تسليطا

وتصليني بها نارا حامية حتى تسلبني كينونتي وحياتي !. كانت كارثة ماساوية ان اتقبل حبك وان احبك : لقد عرفت هذا يقينا فى مدى لحظة واحدة .. وسرعان ما خلصت نفسي من عناقتك ، من فمك ، منك كليا ... واندفعت الى الغرفة المجاورة ، والقيت ملابسي فى حقيبتي ، وناديت اندرياس وسألته ان كان يمكن أن يرافقني الى المطار : اذ لابد أن توجد رحلة جوية حوالى الساعة الخامسة ، وأن أدركها مع الحظ فى غضون عشر دقائق !. فرد اندرياس بأن هـذا ممكن وخف للعمل .. أما أنت فقد وقفت مستندا الى الحائط ويداك فى جيوبك وتحت شاربك ابتسامة غامضة ورحت تراقب هذا المشهد فى صمت دون أن تفعل شيئا لوقفى أو تهدئتي ... ولكن بعد ان ودعت أمك ، اذا بك تهتف قائلا : « سأذهب انا ايضا » !. وصحبتني الى السيارة حيث جلست بجانبى متمالكا دون ان تقول اكثر من : هيا بنا ... وطوال الطريق لم تقل شيئا ، ولم افتح انا ايضـا فمي بكلمة ..

وعند وصولنا الى المطار ترجلت وودعت أندرياس وصافحتك ، فصافحتني قائلا : « وداعا » .. غير انني ما كدت اخطو خطوات قليلة حتى سمعت صوتك يستوقفني بلهجة الأمر الجازم ، ولما تلفت رأيت يدك ممدودة من السيارة وقد رسـمت بسـيارتك واصبعك الاوسط علامة النصر وعلت محياك ابتسامة ودودة ساخرة وقلت : « سوف تعودين !. ساكون انا الفائز !. ستعودين ! » ..

ولقد عدت سراعا ... فى اليوم التالى تلقيت البرقية الأولى بهذا النص : « أنا فى انتظارك » !. وبعد يومين كانت البرقية الثانية تقول: « ماذا تنتظرين ؟ » ... وجاءت الرقية الثالثة بعد أربعة أيام بهذه الكلمات : « أنا آسف جدا لأنك ما زلت تفتقدين الشجاعة !. » ... وفى الاسبوع التالى عندما كنت فى مدينة بون تلقيت رسالة قلت فيها انك ستدخل المستوصف الصحى بشارع ساكراتوش ... وكانت الرسالة مرفقة بقصيدة قصيرة عنوانها (أفكار منسقة عن الحب) قال انها مهداة لى ... وكان مقررا أن اسافر من بون الى نيويورك .. فالغيت رحلتي وبحثت عن رحلة مباشرة الى اثينا ... كانت هناكَ واحدة من فرانكفورت بعد الظهر ، ولكن اذا استاجرت سيارة تقلني الى فرانكفورت يمكن الوصول فى الوقت المناسب ... وما هى الا ساعات قلائل بعد ذلك حتى كنت اهبط فى موطنك ، يدفعني ذلك

القدر المحتوم الذى لا قبل لى بعد ذلك بالهروب منه !. لإنه غلاب يقهر حتى غريزة الحياة ذاتها واغراءات السعادة المتوسمة !.

★★★

السعادة ضحك يتفجر فى التاسعة ليلا عندما تتوقف بى سيارة الأجرة أمام المستشفي ويندفع شبح من الظلام ويفتح الباب ويرتمى فوقى ويقول للسائق : « الى جريجوريا !. بسرعة » ... كنت عندما وصلت أولا وجدك فى غرفة صغيرة فى عنبر الفحص العام يحوطك الاطباء والعقاقير وبدوت كأنك أسقم رجل فى العالم : فقد قلت لى فى صوت متخاذل : عودى فى الساعة التاسعة ... أنا مريض !. مريض جدا !. » ..

أما الآن فهأنت ذا ، فى تمام النشاط والعافية ، تحتضننى فى سيارة الأجرة ، وتأمر السائق أن يسرع الى جريجوريا ... « ماهذا ؟. ماذا تفعل ؟. ما الذى أصابك ؟. » ... « اننى هربت !. » ... « ماذا تعنى هربت ؟. » .. « أعنى أننى قمت ، ولبست ، وضربت المرض على راسه ، وجئت الى هنا لكى أنتظرك !. » ... « ضربت المرض على رأسه ؟! » ... « نعم .. انه لم يرد أن يدعنى أخرج !. قال انه لا يمكن عمل شيء كهذا !. فوضعته هناك وقلت له أن يراقب وينظر كيف يمكن أن نعملها ! » ... « وضعته اين ؟. » ... « فى السرير !. انه سيبقى فيه حتى صباح الغد عند الساعة الخامسة !. ولابد أن اعود فى الخامسة وافك رباطه !. » ... « تفك رباطه ؟. » ... « نعم ... كان لابد أن اربطه ، واضع أيضا شريطا لاصقا على فمه !. والا صرخ واستنجد » .. « أنا لا أصدقك ؟ » ... « اننى على حق ... ليس هذا هو الحقيقة .. الخطة لم تكن مبنية على القوة ، وانما على الذكاء .. قلت له متى تبدأ نوبتك ؟. فقال فى التاسعة ... ومتى تنتهى ؟. فقال فى الخامسة .. فقلت له هل تقيم بعيدا ؟. فقال بعيدا جدا .. فقلت له هل تحب أن تنعم بنوم مريح ، دون أن تحتاج الى الذهاب الى بيتك ؟. فقال هذا مؤكد ... فقلت له حسن جدا ، هذا فراشى ، وهذه بيجامتى ... سآخذ حذاءك .. ودفعته فى كرسى وخلعت حذاءه ، وخرجت !. هو ساذج ، ولن يتحرك من الغرفة الى أن أعود !.

لم أتمالك أن ضحكت ، وضحكت ، ناسية كل تردد ، وكل خوف ، مسرورة أننى اكتشفت فيك عنصرا لم اكن اعرفه ، وآنس

فيك الدعابة والمرح ، وخلو البال !. وقد شاركتني ضحكي ... واعترفت لي بانك استغفلتني ، فلم يكن بك مرض ، وكنت تتصنع ، فادخلوك المستشفى لاجراء الفحوص ، وهذا كل ما هنالك ، وغدا سيخلون سبيلك !.

ومضى بنا السائق وهو يشاطرنا الضحك الى المطعم الذى قدر فيما بعد ثلاث سنوات ان تاكل فيه لآخر مرة ، قبيل وفاتك ... لكن اذا كان للآلهة ان تنبئنا أن هذا هو قدرك ، قدرنا ، مكتوب سلفا ، لما صدقنا ، ولقلت ساخرة أن هذا غير ممكن !.

مهما يكن فقد قلت اننا ذاهبون الى مطعم تساروبولوس الساحلي، حيث ناكل السمك ... هل تحبين السمك ؟. « نعم » ... « أنا لا احبه .. فى ليلة تنفيذ عملية الاغتيال ذهبت الى هناك واكلت سمكا » .. « فلماذا اذن نذهب اليه ؟. » .. « لانني فى هذه الليلة استطيع أن اتحدى حتى السمك !. » ...

كان المطعم حافلا بالرواد الذين لم تخف عنهم شخصيتك ، وكثر التهامس ، وشخصت الابصار .. لكننا انتحينا مائدة منعزلة فى ظل شجرة برتقال وارفة الازاهير ، وحين دنا منا بائع زهور احدب رايتك تختطف مجموعة كبيرة وتلقى بها فى حجرى ... كانت كل حركة منك ايماءة حب ساذجة وقد ذهبت عنك جراتك المعهودة فى غمرة المشاعر اللافتة التى كانت تعتمل الآن فى قلبك ... ولما وقعت منك الشوكة ثم الملعقة الفيتك تحمر خجلا مثل طفل برىء !. بيد ان كل اطوارك وانفعالاتك كانت مثار سعادتى ...

والسعادة هى الاستسلام الذى يقودنا فى منتصف الليل الى البيت الذى بحديقته اشجار البرتقال والليمون حيث ندلف اليه على أطراف اصابعنا متجاهلين الحراس الاربعة الذين كانوا يتابعون كل تحركاتك ... وهى خاتمة المطاف فى الغرفة الزرية الاثاث الذى لا القى اليه بالا ما دمت انت فيها ... وهى فى القبلة العذرية المفاجئة التى لثمت بها جبينى ، وفى الدمعة التى انحدرت فجاة على وجنتك وانت تقول لى : « كم كنت وحيدا فى حياتى !. لن اريد بعد الآن أن ابقى وحيدا !. ثم ادنيت وجهك الرصين من وجهى ، وغرقت عيناك المولهتان فى عينى المولهتين ، والتمس ذراعاك المهتزتان ذراعى المهتزين وكاننا صبيان فى مواجهتهما الغرامية الاولى !. كان صمتنا طويلا مهيبا عندما تلامست شفتانا دون تردد ، واشتبك جسدنا دون خوف ، وغمرتنا نشوة

ما بعدها نشوة حتى خلت أنها ستدوم الى الابد ... وما لك الا تخال هذا ولم تكن أمامك كتيبة الاعدام توشك ان تنفذ فيك قضاءها ؟. ولم تتمالك ان هتفت تقول لى ورأسك ملاصق لرأسى فوق الوسادة : « انني أحبك الآن وسأظل احبك على الدوام !. قوليها ! » .. فقلتها همسا ، لكنني أضفت : « لكن ماذا اذا لم يدم الحال على هذا المنوال ؟ » ... « لكن لا شيء يدوم يا اليكوس ... عندما تكون عجوزا . » .. « لن أكون عجوزا أبدا !. سأموت قبل هذا بزمن طويل !. وعند ذاك سيكون عليك أن تحبيني الى الابد ! » .. « هل تتكلم جدا ، ام انك تمزح ؟ » .. غير انك لم تجب فى نشوة السعادة المتجددة التى كانت تلم بك بين فينة واخرى ..

والسعادة هى أن أفتح عينى على صوتك وهو يهتف بى فى انبهار: « كم انت جميلة !. » .. واذا بنا نشعر ان الساعة تشرف على الخامسة صباحا ولابد لك أن تسارع برد الحذاء الى المرض المحتجز !. فلا نجد مناصا من الخروج فى الصباح البازغ الرطيب متجاهلين الحراس الاربعة الذين يتابعوننا مرة اخرى الى موقف سيارات الاجرة ، حيث أصحبك الى باب المستشفى ونحن متعانقان طوال الطريق ، ونفترق مؤقتا على لقاء أكيد فى البيت ذى حديقة البرتقال والليمون .

وعند عودتك تبلغنى بلهجة الفوز والانتصار أن أحدا لم يفطن الى هروبك الليلى ، وان الاطباء صرحوا باخلاء سبيلك دون تعقيدات بعد ان اتضح من الفحوص وأشعة اكس عدم وجود أضرار خطيرة ، وان التعذيب والسجن كان لهما تأثير على حالتك الصحية ولكن قلبك سليم ورئتيك بحالة ممتازة ، وشيئا فشيئا يمكنك استعادة قواك ، ولا يبقى الا أن تتعود العودة الى الحياة الطبيعية ...

كان اليوم مشرق الشمس والسماء الزرقاء صافية الأديم ، فاستقر رأينا على أستكمال سعادتنا بالذهاب الى البحر ... لقد لبثت خمس سنوات لا ترى البحر ، وكم حلمت أن ترى البحر من جديد !. وهكذا قصدنا الى شاطىء جليفادا ... ولكنك ترددت عند اقترابك من المياه ، ووقفت فترة خافض البصر تطرف بعينيك تلوح على وجهك سمات لم أفهم مدلولها ، أهى الفرح أو الخوف ... ثم فجأة وثبنا الى الأمام وجريت الى الماء وأنت تصيح : الحياة !. الحياة !. الحياة !. وما أن انغمرت بين الأمواج حتى استدرت نحوى

مبتهجا وناديتنى وذراعاك ممدودتان لى .. فلحقت بك وأنت تضحك فى أتم سعادة وبهجة .. اليوم ليس هناك من ياتى لمطاردتك فوق الصخور !. اليوم لم يعد البحر يضمر لك الشر والسوء كما كان فى صباح يوم من شهر أغسطس لا تريد أن تستعيد ذكراه المشئومة !.

وانشأنا نسبح جنبا لجنب فى المياه الدافئة الهادئة ، وبين آن وآخر كنا نتوقف ونتبادل قبلة تخالطها ملوحة البحر !.

ولدى الخروج من المياه استلقينا على رمال الشاطىء فى الشمس وقد تشابكت أيدينا ونال منا الجهد ، ولكنك مع ذلك سعيد قرير العين تفكر فيما ينتظرك من المباهج لدى عودتنا الى البيت ... ترى هل يوجد حقا دكتاتور طاغية اسمه بابا دوبولوس ؟!. هل يعرف احد شخصا باسم يوانيديس ؟. وثيوفلياناكوس ، وهاذيزيكيس ، وزاكاراكيس ؟! لم تسمع بهم قط !. وفى مدى أسبوع على الأكثر ستغيب عنا أسماؤهم الى الابد !. ان السعادة هى لون من النسيان يدوم هذا المدى !.

ان هذا الاسبوع الحافل الذى سأستعيده فى ذاكرتى على الدوام ونحن فى عزلة عن كل شىء استغراقا فى نفسينا وفناء فى حبنا وسعادتنا ــ كان هو النعيم الآبد والنشوة القصوى !. ومع ذلك تخللته فترات كان لابد ان نناشد فيها أشياء يسيرة نسترد فيها الحياة اليومية العادية ... مثل ان اعلمك كيف تعبر الشارع من جديد بغير فزع من ان تدهمك السيارات ، وأن تمشى على الارصفة دون أن تصطدم بالمارة وتفزع من صدماتهم !. وكنت فى النهار تعزف عن مغادرة البيت ، أو لا تغادره الا فى حمى سيارة ، فاذا هبطت من السيارة تملكك الخوف من كل شىء !. وهكذا كنت فى الصباح اصحبك الى المدينة فى الشوارع المزدحمة وأسير بك وانت متعلق بذراعى ، حتى تهيأ لك بغير جهد وتكرار المحاولة ان تستعيد عاداتك الذاهبة ، وتمضى فى الاستمتاع بحياتك الجديدة دون قيود ولا حدود !.

ثم فجأة تغير كل شىء .. دون سابق انذار ولا نذير ، فى اليوم الذى قصدنا فيه الى جزيرة ايجينا ...

(٢)

لم تقل لى اننا ذاهبان الى ايجينا ، وانما قلت ببساطة اننا ذاهبان الى جزيرة ... فتركت نفسى انعم بمتاع رحلة سعيدة تنتظرنى !.

وكانت فى الحق رحلة بديعة فى السفينة التى كانت تتبعها الدرافيل وكأنها تحرسها ... ولما وجهت نظرك الى هذا قلت انك لا تبصر شيئا !. « .. فيومها أرقدونى على أرضية السفينة » .. « أرضية السفينة ؟!. أنا لا أفهم ما تقصده يا اليكوس !. » .. « اننى أتكلم عن اليوم الذى اخذونى فيه الى ايجينا لكى ينفذوا فى حكم الاعدام بالرصاص » !. وعلى الاثر أطبقت شفتيك ولم تقل شيئا حتى هبطنا فى الميناء الى داخل سيارة الأجرة التى دفعتنى اليها دفعا وأمرت السائق بالاتجاه الى المكان المقصود !.

لقد ظللت صامتا متجهما عابس الوجه طيلة الرحلة الشاقة فى طرق جبلية وعرة لا تنبت فيها غير نباتات الصبار وأشجار الزيتون والفستق المتناثرة ... وكنت أظن انك تريد أن تفرجنى على السجن الذى لبثت فيه ثلاثة أيام وثلاث ليال توطئة لتنفيذ حكم الاعدام .. بيد أن السجن كان قريبا من منطقة الميناء وقد تجاوزناه وأخذت السيارة تدرج مهتزة .. متطاوحة فى دروب جبلية الى حيث توقفنا عند بقعة تحوطها الاسلاك الشائكة تحت لافتة بهذه الكلمات (منطقة عسكرية . ممنوع الدخول) ... وهنا فقط ترجلنا ، وعاد اليك انسك وبشاشتك ...

كنا الآن عند أعلى قمة فى الجزيرة ، ومن تحتنا ينحدر الجبل راسيا الى خليج رائع المشهد ... وحيثما ادار الانسان بصره لم يشهد أمامه سوى الصخور الصلدة والبحر ، ووحشة تلقى الرهبة فى النفس ..

وهنا فقط خرجت عن صمتك ، ومددت ذراعك الى بقعة مثلثة عند أسفل الجبل تبدأ عند الشاطىء وتنتهى بسور منخفض : « هنا مكان ضرب النار !. المكان المعد لقتل أولئك الذين يحكمون عليهم بالموت !. هنا كانوا سينفذون فى حكم الاعدام بالرصاص ، وظهرى الى الحائط !. » ..

وتوقفت برهة ، ثم استطردت : «طوال خمس سنوات كنت احاول ان اتخيل المكان ، ولم اعرف الا انه من هذا الموضع يمكن ان نراه على الطبيعة !. » ... ومرة اخرى توقفت ، ثم عدت تقول : « ياله من مكان رائع يموت فيه الانسان !. خليج سارونيك يمتد امامه ، والزرقة الصافية فوقه ومن تحته .. واثينا !. انظرى ... الى اليمين اطلال المعبد !. وقبلها مباشرة مقر بابا دوبولوس فى فيللا لاجـونيسى !. وبعدها بقليل القنطرة المقبوة التى وضعت فيهـا اللغم ! » .. ثم شاطىء جليفادا حيث يوجد بيتى !. وعند الطرف الآخر ميناء بيريه الذى يشرف عليه الاكروبول ... تصورى !. لو كانوا اعدمونى وانا اشرف على معبد الاكروبول وبيتى والموضع الذى حاولت فيه ان اقتل الطاغية !. كم كانت منيتى تكون جميلة !. » ..

لكأن الموت على مشهد من الاكروبول وبيتك ومكان محاولة الاغتيال اشبه بامرأة فاتنة طالما كنت تشتهيها وافلتت منك قبل لحظة من الاستحواذ عليها !.

وعلى الاثر ذهب عنك الشحوب والقطوب ، وسرى التورد الى وجنتيك وشفتيك واذنيك .. وبادرتك على الاثر قائلة : « لنعد الآن .. لنعد بالله بعيدا عن هنا !. » ..

وكان الوقت مساء عندما عدنا الى البيت بعـد هـذه الرحلة الغريبة !.

★★★

فى اليوم التالى فاجأتنى قائلا : « سنقوم اليوم برحلة ممتعة الى (كيب سونيون) » .. « وماذا يوجد فى كيب سونيون ؟. » .. « معبد جميل جدا ... معبد (بوزيدون) » .

كان الوقت مشرقا صحوا بعد الظهيرة .. ولاحت اطلال المعبـد بيضاء ناصعة فى الفضاء والبحر يبدو صافى الزرقة .. وكان السياح الاجانب يتناجون مغتبطين مبهورين ... وسرت الى جانبك قريرة العين بهذا الصفو الذى شملنا وهذه السكينة التى كانت طابعك هذا اليوم ..

وشعرت فجأة فى تجوالنا أن شيئا قد دس فى الحقيبة المدلاة من كتفى ... فقلت لك : « ما الذى وضعته فى الحقيبة يا اليكوس ؟. » .. فأجبت ضاحكا : « حجران اثريان تذكارا للرحلة ! » .

غير اننى ارتبت فى الأمر .. فانك لم تتحرك مبتعدا عنى طوال

الطريق ، ولم أرك تنحنى لـكى تلتقط اى شىء ... وازاء ارتيــابى والحاحى أضفت قائلا : « لا تفتحى الحقيبة ... هيا نكمل المسيرة ، وتظـاهرى بالبراءة !. نحن عاشـقان يسـتمتعان بالمشـاهد الأثرية والطبيعية !. هكذا !. » .. ودســست ذراعك اليسرى فى ذراعى اليمنى والحقيبة بيننا ، ودفعتنى الى ربوة بمعزل عن جمهور السياح ... ولم يكن عن كثب منا سوى شاب فى قميص ذى مربعات بدا أنه يتفرج على العمود الاثرى الذى حفر عليه الشاعر الانجليزى بيرون اسمه ، ولكنه كان فى الواقع يتطلع نحونا !. ولما ابتعد الشــاب فى النهاية جلسنا عند طرف الربوة وقلت لك : « الآن أرينى ماذا وضعت فى الحقيبة !. » ..

وما أن فتحت الحقيبة متلهفة حتى زالت الابتسـامة عن شفتى ، فقد وجدت بداخلها علبتين من الصفيح خضراوين ، فقلت لك : «ماذا بهما يا أليكوس ؟. » .. « تبغ فرجينيا ، كما هو مكتوب عليهما !.» ... « تبغ ؟!. من أعطاهما لك ؟. » .. « صديق فى قميص ذى مربعات » .. « متى ؟ » .. عندما كنت أروى لك تاريخ المعبد .. اليس هذا خفة يد ؟ » .. « وهل جئنا فى هذه الرحلة لهذا الفرض ؟» ... « الظاهر .. ان المتـآمر الحقيقى يحب دائما الآثار القـديمة ومواقعها ..! » .. لكننى لم اقتنع بهذا الكلام المعسول ، وفتحت غطاء احدى العلبتين ، وسرعان ما تأيدت شكوكى !. فقد عرفت فى الحال حقيقة المادة الحجرية الصفراء التى كانت فى العلبة .. فان ما وضعته فى حقيبتى لم يكن أثرا تذكاريا ، وانما اصبعان من مادة (تى . ان . تى) الناسفة !.

قلت لك وقد استحالت الشمس فى مغيبهــا الى كتلة من اللهب قانية : « ما الذى ستفعله بهذا يا اليـكوس ؟ » .. فـرددت على بسؤال : « اخبرينى ، ما هو الحب ؟ » .. « ربما كان حمل اصبعين من (تى . ان . تى) فى حقيبتك !. » .. « حسن .. حملهما أو الائتمان عليهما !. اننى ائتمنتك عليهما عن قصد وعمد ، لكى أبين لك ان الحب هو صداقة ، ورفقة ، ومشاركة فى السراء والضراء !. الحب هو رفيق تشاركه فراشا واحدا لأنك تشاركه فى حلم والتزام .. انا لا اريد امراة اكون سعيدا معها !. الدنيا مليئة بالنساء اللاتى يمكن ان تسعد معهن ، اذا كانت السعادة ما تنشده ... والحق اننى عرفت نساء كثيرات فى حياتى حتى اننى اعد سنوات السجن الخمس بمثابة

راحة !. لكننى لم أجد قط رفيقة ... وانا اريد رفيقة .. رفيقة تكون لى ، صاحبة ، صديقة ، شريكة فى السراء والضراء ، انا ... انا رجل مناضل .. وساظل هكذا على الدوام ... ساكون هكذا فى اى مكان مهما يكن .. ولا اتصور أسلوبا غير هذا لحياتى .. ولو افترق الناس جميعا عن النضال الا واحدا ، لكنته انا ، ولرفعت وحدى راية النضال !. ان مادة الـ (تى . ان . تى) لا صلة لها بهذا الأمر ... هى لخطة فقط فى وجود رجل فى المعركة .. وبهـذا فاننى لا احب الـ (تى . ان . تى) ... اننى لا أحب العنف ، ولا اى لون من العنف !. انى لا اقوى أبدا على نسف أوتوبيس بالاطفال كما يفعـل بعض الناس من اجل بلادهم أو معتقداتهم المزعومة كما يدعون !.. انا لا اؤمن بالحرب !. انا لا اؤمن بالثـورات الدموية !. انا مقتنع بانها لا تنفع الا فى تغيير أشخاص الطغاة !. انا لا احب اطلاق الرصاص والمتفجرات !. قلت لك من قبل اننى افضل اسلوب كافور . لا اسلوب غاباالدى .. لكن اذا كان الامر يتعلق بالحرية ، والشىء الوحيد الذى يهم هو الحرية ، عندما .. » .. « ما الذى تنوى ان تفعل بهـذه المادة يا اليكوس ؟ » .. « ماذا ؟ اصيغى الى !. يمكن أن تفعلى بقدر محدود منها أشياء كثيرة .. وكل ما تحتاجين اليه هو مفجر ، وفتيل ، وشىء من القصور .. وكذلك رفيق للمعاونة ... انا فى حاجة اليك .. بامكانى أن أستخدمك » .. « لكى اذهب معك فى نزهة والتقط علب (التبغ) دون لفت الانظار !. « كلا .. احتاج اليك لاكثر من هذا .. لكى لا أكون وحدى ... اذا ساعدتنى ، واذا لم تتركينى وحدى ، فساقول لك ما الذى اريد أن افعله بها » ..

يالذلك الصوت ! . يالتلك العينين ! . لكأن شيطانا كان فيهما!. لكانها فورة عارمة استحوذت عليك وفى سبيل ما تؤمن به يمكن أن ترتكب أى فعل خارق وأن تدمر حياتك وحياة الآخرين وتضـحى بمشاعرك ومشاعر الآخرين !؟ بيد ان كلماتك كانت تنضح باشد آيات الحب ... انها كانت تساوى الف عناقة فى الفراش ، والف ليلة حب ... والى هذا كنت انسانا وحيدا .. بل من فرط الوحدة الى حد أن الضن عليك بما يريد انما يكون عملا خسيسا !. « رفيقة تكون صاحبة ، صديقة !. شريكة فى السراء والضراء ... فهل تساعديننى؟» ... فكان ردى عليك : « طبعـا » .. « بديع .. الآن الى خطـة الاكروبول » ..

كانت خطة الاكروبول جنونا مطبقا ... كانت تقوم على احتلال المنطقة الاثرية فى فترة اغلاقها للجمهور ، ثم رفع العلم الاحمر فوق (البارثينون) .. لا لانك تحب (كليشيه) العلم الاحمر ، ولكن اللون الاحمر يغيظ الهيئة الحاكمة ، ويبدو بارزا ازاء بياض المبنى الرخامى، وبعد ذلك تتخذ من (البارثينون) رهينة تحت التهديد بنسفه » .. « اليكوس !. ان اصبعين من (تى . ان . تى) « يكفيان لنسف حتى عمود واحد .! » .. « طبعا .. لكنهم لن يعرفوا ان معنا اصبعين فقط .. وبعد أن أشعل اصبعا منهما ، كدلالة للتأكيد .. » ... « انهم لن يصدقوك » .. « انهم سيصدقوننى .. لانهم يعرفون اننى اقدر على كل شىء ، حتى نسف (البارثينون) » .. « وهل تنوى أن تنسفه حقا ؟. « كلاوحياتك ! » ..

وزدت الخطة ايضاحا ، فقلت ان احتلال (البارثينون) والتهديد بنسفه وهو رمز للجمال والثقافة سيكون مرادفا لفقدان رمز الحضارة: فان العالم كله سينهض للدفاع عن أعمدته الستة والاربعين ، وسيحمل السفارات كلها على التدخل لدى الهيئة الحاكمة للتوسط فى قبول شروطك وتلبية مطالبك !. ولما سألتك ماهية هذه المطالب قلت : « فى نظام حكم دكتاتورى لن تنعدم المطالب ، ولدى مطلب احرص عليه قبل سواه .. تصورى العلم الاحمر وهو يرفرف فوق البارثينون مدى يومين أو ثلاثة بلياليها ، حيث يشاهده الناس من كل أطراف المدينة !. ان مصورى التليفزيون ومندوبى الصحافة والمصورين سيتوافدون من كل بلاد العالم مما يجعل الطاغية اضحوكة ويضطره الى التسليم » .. « من تقصد بالضبط ؟. » .. « عجبا لسؤالك !. انه يوانيديس بالطبع .. يوانيديس هو من أعنيه ... ان بابا دوبولوس لا يهم فى اى وقت ، وعاجلا أو آجلا سيتمكن يوانيديس من ازاحته .. « وأين تريده ، ولأى غرض ؟. » .. « لاملاء شروطى .. وفى موقع الاكروبول ذاته .. انه سيضطر الى صعود الاكروبول ذاته و ــ » .. « اصغ الى يا اليكوس !. ان يوانيديس لن يقبل بالحضور أمامك » .. « أصغى أنت الى !. انا أعرف يوانيديس .. وأؤكد لك انه سيأتى .. لأنه شخص جسور .. ولانه يكرهنى » ..

كان يقينك من امكان نجاح الخطة ثابتا لا يتزعزع الى حد أن كل محاولة لاقناعك بالمنطق وثنيك عن عزمك وقعت على اذن صماء !.

لقد رحت تؤكد بيقين راسخ أن يوانيديس سوف يصعد الى

الاكروبول وانك ستستقبله فى داخل البارثينون بشحنة من (تى.ان.تى) فوق جسدك .. سوف تقول له : « أهنئك يا بوانيديس .. انك لم تخيب ظنى فيك أبدا !. منذ خمس سنوات ، قلت انك لم تصادق الا مرة واحدة فى مدى مائة الف مرة رجلا يرفض أن يتكلم ويعترف !. واليوم انا الذى أقول انى لم أصادف الا مرة واحدة فى مائة الف مرة جنرالا يقبل مثل هذه الدعوة التى وجهتها اليك !. وعلى اى حال ففى ذلك اليوم كنت البس القيد الحديدى فى يدى يا بوانيديس !.. واليوم عليك ان تلبســه أنت .. أو بالاحرى سنلبس القيد معا !.» .. وبهذا تضع القيد حول معصمه الايمن مقترنا بالقيد حول معصمك الايسر وتقول له : « هل ترى هذا اللغم المتفجر يا بوانيديس حول جسدى ؟. انه متصل بفتيل شديد الالتهاب .. فاذا أبديت حركة نسفنا معا !. » ..

قلت لك : « أنا أصدقك يا أليكوس .. لا يمكنك ان تفعل هذا » ... « بل سأفعل ... سأفعل .. لو لزم الامر لفعلته .. انتظرى وانظرى » .. « بعد ذلك ؟ » .. « بعدئذ سأعرض مطالبى ، ونذهب الى جزيرة ايجنيـا » ... « ايجنيـا ؟! » .. « نعم » .. « من الاكروبول رأسا ؟. » .. « نعم » ... « مع بوانيديس ؟. » ... « هذا واضح .. سنأخذه رهينة ، مقيدا الى معصمى الايسر ... سأصر على طلب طائرة خاصة لنقلنا وحدنا و ــ » ... « ماذا لو كان بوانيديس مستعدا للموت ، لكى يمنعك من تنفيذ ما تريد ؟ » ... « جائز .. لكن مؤيديه لن يقبلوا ... فهو الرجل الأقوى فى نظـام الحكم ، ومن ورائه جزء كبير فى الجيش يؤيده ... ان اقليم أتيكا معه قلبا وقالبا .. ان كل من يريد التخلص من بابا دوبولوس لن يسمح له ان يموت ، وبهذا سوف يقبل مطالبى ... ولهذا فاننى سأجعل المفجر ، معدا دائما ... اذا لزم الامر سأموت معه ، مثل الجنرال الالمانى الذى اراد ان ينسف نفسه مع هتلر .. » .. « أنت مجنون يا اليكوس !. « ربما .. .. لكن المجانين هم الذين يصنعون التاريخ !. » ...

ان الدور الذى كنت تنوى ان تعهد به الى فى اعداد هذا العمل الجنونى الاحمق لم يكن واضحا تمام الوضوح .. وبدا لى أحيانا أنه مجرد تأييد معنوى ... وأحيانا اخرى كنت تريد ان ألعب دورا له اهمية استراتيجية !. والاغرب من ذلك انك تابعت تفصيل الخطة

قائلا : « لو انني وضعت ثلاثة رجال من مؤيدى عند الطرف الشمالى، وثلاثة عند الطرف الجنوبى ، واربعة بين البوابة ومبنى (بروبيلايا) ، فسابقى مكشوفا عند البارثينون ولن أجد أحدا يراقب عند المؤخرة ... هل يمكنك استعمال مدفع رشاش ؟ . » والواقع ان فكرة ممانعتى لاى شيء ، كاستعمال المدفع الرشاش مثلا ، لم تدر بخلدك قط .. بل انك لم تكن مهتما اذا كنت أوافق على الخطة من أساسها ، فانك منحتنى ثقتك المطلقة ولم تعبأ بما عدا ذلك ! .

كانت النقطة الوحيدة التي استغرقت اهتمامك وانت تمضى فى تفصيل الخطة هى ايجاد الرجال المنشودين الاثنى عشر وانت لا تنتمى الى حزب او جماعة وليس لديك أيديولوجية خاصة .. وهكذا امضيت اياما فى البيت عاكفا على دراسة الاسماء لاختيار من تطمئن اليهم .. واخذت تقابلهم فى البيت على انفراد وتسبر أغوارهم شخصيا دون أن تفصح عن الغرض من المقابلة ... كنت تجتمع بكل منهم فى غرفتك حيث تدير بعض أشرطة اغانى المقاومة بصوت عال ... وكانت هذه طريقتك لفهم الرجل الذى تتقابل معه ... فاذا أبدى قلقا وقال ان بعض الاغانى خطرة رفضته فى الحال ... أما اذا ظل هادئا مضيت تتفحص شخصيته ودرجة ذكائه وقوة احتماله للخاطر ... ولكن ذلك كله مضى دون نجاح ... وفى النهاية عندما استخلصت الخمسة الذين قدرت أنهم سيشكلون نواة الطريق ، اعتذر ثلاثة منهم بانهم تنقصهم الشجاعة ، وانتحل الباقيان أعذارا شتى ..

واذا كان ذلك قد صدك عن تصيد مزيد من الرجال ، فانه لم يثن عزمك عن تنفيذ خطة الاكروبول : لا استحالة جمع الفدائيين الذين يساعدونك على التنفيذ ، ولا تعاقب الايام بما تحمله من مفاجآت وشواغل .. ومع ذلك فقد فاجأتنى صباح يوم مقدمك لى : « اننا سنذهب الى جزيرة كريت » .. « ولاى سبب ؟ . » .. « لاقتناص فدائيين سوف نعثر عليهم فى كريت » ..

لقد حرصت أشد الحرص على اتمام الرحلة الى كريت فى تكتم، حتى انك لم تذكر أمرها الا لعدد محدود من الرفاق الموثوق بهم .. ومع ذلك كان هناك احتمال بأن الشرطة قد يتعقبوننا عندما نغادر البيت الى المطار ، وان لم نلاحظ احدا يتبعنا عندما تركنا البيت الى المطار ، وحتى عند صعودنا الى الطائرة لم يهتم بنا ، أحد اهتماما غير عادى ...

لكن سرعان ما تبخر هذا الوهم عندما احتوتنا الطائرة فعلا ... فانهم لم يغفلوا عنا لحظة واحدة ، وقد دبروا كل شيء بحيث يمكنهم احصاء حركاتنا وسكناتنا ، بل انفاسنا !.

مثلا ، كان المقعدان المخصصان لنا في الطائرة آخر مقعدين الى اليسار ، وبينهما وبين الجدار الخلفي فراغ بقدر متر ... في هذا الفراغ وقف رجلان بالملابس المدنية على الاثر ، ولم يكتفيا بهذا ، بل وقفا ملتصقين بظهر مقعدينا ، ورائحة الثوم تفوح منهما ، ولم يحاولا اخفاء حقيقة انهما وضعا في هذا المكان من أجلنا فعلا !.

ولكنك تغاضيت عن هذا ولزمت الصمت طيلة الرحلة الى أن وصلت الطائرة واستقبلنا صديقك فيبو وزوجته ماريون ... كانت صديقة عزيزة لك من أيام الدراسة ، وكان هو من رجال المقاومة وقد أفرج عنه في العفو العام ... ولما ركبنا سيارة الصديقين الى الفندق تحققنا ان أحدا لا يتبعنا ... غير أننا ما كدنا نصل حتى فوجئنا بوجود سيارة شرطة بيضاء مرابطة عن كثب ... وكانت الغرفة المحجوزة لنا جميلة تطل على البحر ... فخرجت الى الشرفة وسرعان ما عدت الى الداخل قائلا بصوت أجش : « اطفئي النور بسرعة !. » ... « لماذا ؟ » ... « انظري » ... فنظرت دون أن أرى شيئا سوى الليل الساجي في ضوء القمر والامواج الفضية تتراكض على شاطيء الميناء ... لكن لم ألبث أن شعرت بتقلص في معدتي ، فقد ابصرت ما كنت تشير اليه : زورق مرابط على مسافة عشرين مترا من الشاطيء ... وفي الزورق ثلاثة رجال يراقبوننا بمنظار كبير !.

كان الزورق يظل مرابطا طول الليل ثم ينسحب في النهار ... وبدا انهم يعملون جهارا لمضايقتنا بهذه المراقبة الاستفزازية السافرة !. ومما زاد الموقف سوءا أنك رفضت أن تغير الغرفة أو الفندق كله ، أو حتى اسدال الستائر ، اذ قلت ان هذا عمل من أعمال الضعف والاستسلام ، وان علينا أن نتصرف كأننا لا نلاحظ شيئا ، أو اننا لا نبالي ... وعندما كنا نعود الى الغرفة ليلا كنت دائما تقبل التحدي وتفتح النافذة على سعتها ، فكنا نتحرك في مجال النور الساطع ، وان كان أدراكنا بأننا مناط المراقبة والتجسس يثقل على اعصابنا !. بل ان هذا الارهاق العصبي بأن الغرفة تخفي ميكروفونات دقيقة للتصنت ، جعلنا نكثر من تغيير مواضع المقاعد والاثاث ونفتش الادراج ونجس المراتب ، بل ونتبادل الحديث معي بمذكرات صغيرة مكتوبة ثم نتخلص

منها بحرقها فى منفضة السجائر !. فاذا ضمنا الفرش بعد اطفاء النور لم يكن هذا كافيا لجعلك تنسى الاحساس الكريه بأننا رهن التجسس، وكنا نعزف حتى عن تبادل الحب اى عزوف !. وما اظننى كنت مخطئة فى الاعراب عن شكوكى فى جدوى هذه الرحلة ، اذ ما كنا نغادر الفندق فى الصباح لاستئناف اتصالاتنا مع الفدائيين المطلوبين حتى كانت سيارة الشرطة البيضاء تتبعنا دون هوادة ... وقد حاولت ان تجعل هذه اللقاءات تتم فى المطاعم على صورة دعوة للعشاء يجرى فيها تبادل الاحاديث ، بيد أن الاحاديث مع الفدائيين المرشحين كانت بالضرورة تجرى على اساس سطحى بعيدا عن لب الموضوع !. وعلى هذه الوتيرة بلغ منك الضيق غايته حتى هتفت مرة متبرما : « هذا مضيعة للوقت ... هذا مضيعة للوقت !. » ..

على أنك ما لبثت أن فاجأتنى فى صباح اليوم الخامس من بقائنا فى مدينة خانيا هذه بقولك وقد عاد اليك تمام الهدوء والصفاء : « صباح جميل !. هل تمتعت بالنوم ؟. يا للشمس المشرقة !. هل تعرفين الى أين أصحبك هذا اليوم ؟. الى مدينة هراكليون » .. « وماذا فى هراكليون ؟ » .. « أنت تعرفين هذا تماما .. معبد كنوسوس .. » .. « ماذا غير معبد كنوسوس ؟. » ، « هناك شخص اريد أن أجتمع به » ...

واستدعيت فيبو وطلبت منه أن يقلنا فى سيارته الرينو ، وأخذنا الأهبة للرحيل وقد عادت اليك طلاقتك وسكينتك ...

كانت بداية المسيرة طيبة خلوا من المتاعب ، خصوصا ، وقد لاحظ فيبو أن السيارة البيضاء لم تكن فى اثرنا هذه المرة ، وعقب على هذا قائلا : « ربما قرروا أن يدركونا أثناء الطريق ... أو لعلهم قرروا ان يدعوك فى سلام !. » ...

كانت الرحلة شاقة بين الجبال ، وان كانت مشاهد الطبيعة الساحرة قد انستنا وعورة الطريق حتى ذهبنا نتسامر ونتبادل الذكريات ... بيد أن فيبو ما لبث أن هتف فجأة وقد شحب وجهه: « يا أولاد الحرام !. » .. « ماذا جرى يا فيبو ؟.. لقد انخدعنا !. انهم فى اثرنا !. » ..

ادرت راسى لكى انظر ... كانت فى اثرنا سيارة تتعقبنا فعلا ... لكنها لم تكن السيارة البوليسية البيضاء ، بل كانت سيارة زرقاء اللون ... وكان مؤكدا انها تجد فى اثرنا لان الطريق الجبلى كان خلوا

من كلّ سيارات أخرىَ ولو فى الاتجاه المضاد ، وكانت تتمهلّ كلمـا تمهلت سيارتنا ثم تعود سيرتها الاولى من الاسراع فى اثرنا ...

سمعتك تقول بلهجة تشف عن الحقد : « كنت اتوقع هذا طول الوقت !. السيارة ليست بوليسية وركابها من المدنيين ، ولكننى اتوقع كل شىء !. او اسوأ شىء !. » .

وكأنك كنت تتنبأ سلفا !. فقد كانت سيارتنا تجتاز منطقة من الطريق بين حائطين من الصخور يشرفان على الوادى ، وفجاة ضاعفت السيارة الزرقاء سرعتها حتى بدا جليا انها تريد الاصطدام بنا ودفعنا الى ناحية الصخور لكى تحطم سيارتنا او تهوى الى الوادى !.

بيد أن فيبو ضاعف السرعة حتى اجتزنا المنطقة الصخرية الخطرة وبدا الطريق مستويا عن الجانبين ، وعندما وقع المحذور واصطدمت بها السيارة الزرقاء دارت سيارتنا عدة دورات كانت خطرة فى الواقع ، ولكن سيارتنا لحسن الحظ لم تنقلب بفضل ثبات فيبو ومهارته وقوة تشبثه بعجلة القيادة !.

وعندما توقفت سيارتنا كنا ننظر الى بعض مشدوهين غير مصدقين أن هذا حدث ، واكتشفنا بعد ذلك اننا لم نصب بسوء ، واننا فى طريق مقفر تماما ... أما السيارة الزرقاء فقد اختفت تماما ... وسمعتك تقول بهدوئك المعهود : « الآن يمكننا أن نستمتع بوقت طيب فى هراكليون !. » .

★★★

ادركنا اننا لن نستمتع باى وقت طيب فى هراكليون لحـظة ان ظهرت السيارة البوليسية البيضاء قبل دخولنا الى المدينة ببضـعة كيلو مترات ... كانت قادمة من الاتجاه المضاد ، آتية ببطء وحذر كمن يبحث عن شىء أو شخص وكان مجرد رؤيتنا لها مثيرا للغيظ والسخط : فهل كانت آتية للبحث عن ثلاثة افراد أحياء أو ثلاث جثث صريعة فى المنخفض الارضى ؟!.. لم يكن ثمة ريب فى أنها تبحث عنا : فبعد أن مرت استدارت فجاة واخذت تتعقبنا فى اتجاه المدن ... وهنا انضمت اليها سيارة حمراء مملوءة برجال بالملابس المدنية ، وهكذا اخذت المراقبة تتخذ ابعادا مقلقة ... وعنـدما توقفنا عند احـدى الحانات للأكل ، وقف شرطى لدى الباب ، وآخر لدى المنفذ الخلفى للمبنى !.

كان من الصعب أن نحملك على التزام الهدوء ومغادرة الحانة دون

أن نعيرهم أى اهتمام ، متظاهرين بأننا سياح فى رحلة ... بيد انك خرجت عن هدوءك واشتد بك الغضب الذى جعلك تتحفز للاشتباك بأحد الرجال ذوى الملابس المدنية بعد أن أشبعته سبابا ، ولولا أن تدخل أحد الشرطة المسلحين لقبض عليك ..

كان الاصوب هو أن نعود الى العاصـمة خانيـا فى غير تلبث ولا ابطاء ... لكن كيف يمكن هذا دون أن نستهدف مرة ثانية للخـطر الذى صادفناه فى رحلة القدوم ؟. اذ بعد انهم قرروا أن يتخلصـوا منك فى الطريق الجبلى ، فمن المؤكد أن يكرروا المحاولة وقت الغروب فى ثنايا الظلام !. ودارت بيننا منافشة ، فقلت انه يمكن ان نستعين بالشرطة الرسمية فى قلعة كنوسوس السياحية ، واذا أبلغناهم ، بما حدث لنا هذا الصباح فلا شك انهم سيساعدوننا ... غير انك قابلت هذا الاقتراح بالرفض البات التى صرخت قائلا : « أنا ؟. أجعل رجال الشرطة يحموننى !.. أنا بناجوليس !. » ... وفى النهـاية أبدى فيبو خطة لا بأس بها : هى أن نتصرف بطريقة تجعل الشرطة لا يدعوننا نغيب عن أعينهم لحظة ... وفعلا شرع فى تنفيذ الخـطة » فبـدأ يسلك بالسيارة الطرقات الضيقة الملتوية وخصوصا المسارات ذات الاتجاه الوحيد لكى يعود بالسيارة مرة أخرى ، متظاهرا بأنه يحاول أن يزوغ منهم ، حتى جعـل السيارة البوليسـية تتعقبنا باستمرار واصرار من هراكليون الى (خانيا) دون حادث غادر !.

وفى البيت ذى حديقة اشجار البرتقال والليمون رحت أسـير فى الحديقة ذهابا وجيئة وانا اتأمل فيما وقع لنا ، فأثارت تأملاتى اسئلة وأجوبة لا حصر لها .. منذا الذى استأجر الرجال فى السيارة الزرقاء ؟. ومنذا الذى أمر بالاقدام على عملية قتل تمر كأنها حادث اذا نجحت ؟. أهو بابا دوبولوس ؟. ربما .. لكن كان من المفيد له ان يبقيك على قيد الحياة اذا أراد لمهزلة التسامح السياسى ان تكسب مصداقية !. أهو يوانيديس ؟. ربما .. لكنه كان يريد لك الاعدام رميا بالرصاص ، لا ان تلقى حتفك فى سيارة رينو بحادث !. أهو ثيوفلياناكوس أو هازيزاكيس ، من أفراد العصبة التى كانت ترتعد خوفا من الثأر لدى النبأ السىء للافراج عنك من السخب ؟. ربما ... لكن بدا لى شيئا مستغربا أن يخاطروا باستئجار سيارة خاصة ذات لوحة معدنية زائفة !. أهى اذن المباحث السرية ، أو بعض الشخصيات الهامشية المنضوية تحت لواء النظام الحاكم ؟. ربما .. من الواضح

انهم كلهم مريبون !. بيد أن شيئا واحـدا كان مؤكـدا : ان الأمر بالتخلص منك صدر عن أناس فى مراكز القوة !. والا فليس هناك تفسير لارسال السيارة البوليسية البيضاء الى (هراكليون) قبـل مغادرتنا لمدينة خانيا ، ولا لوجود الزورق فى الميناء الصغير ثلاث ليال بأفراده المتجسسين بالمنظـار المكبر دون أن يعترضـهم معترض !. ولماذا عمدوا الى محاولة العدوان عليك فى جزيرة كريت بدلا من أثينا ؟. هل كان السبب جغرافيا ، أو بالاحرى استراتيجيا ، أو ان خطـة الأكروبول قد اكتشف أمرها ؟. وبافتراض اكتشاف امرها ، فهل من المقصود أن مثل هذه « الخطة » المتسمة بالدعابة الجنونية والتى لم تتعد حدود خيالك يمكن أن تروعهم الى حد الرغبة فى موتك ؟!. الم يكن أيسر لهم أن يستبقوك ويأخذوا عليك السبيل بتشديد الرقابة عليك والحماية للقلعة الاثرية ؟!. ثم جاء الرد الذى ابحث عنـه ، رويدا ... كلا !. ان خطة الاكروبول لا علاقة لها بهذا ، أو هى علاقة ضئيلة ... ان ما كانت تخشاه (القوة) لم يكن بضعة اصابع من (تى . ان . تى) واستغلال الواقعة فى التأثير المشهدى الذى كنت تنوى استغلاله : وانما كانت تخشى شخصيتك .. والاضطراب الذى تثيره فى كل مكان وفى كافة المناحى !. فانك لم تخلد الى السكون ثانية واحدة منذ يوم خروجك من بوياتى ... أحاديث وتصريحات للصحافة العالمية ، ومقابلات صحفية ، واحتجاجات ، واشكالات قضائية !.. بل انك نازعت فى موضوع العفو العام ، مبينا أن المرسوم غير قانونى منذ انسحابه أيضا الى القائمين بالتعذيب !. هل يمكن منح العفـو العام لأولئك الذين لم يواجهوا المحاكمة ولم تصدر بشأنهم أحكام ؟. والى ذلك المواقف التى وقفتها علنا مثل المكالمات التليفونية النابية مع ادارة المباحث العامة (اى . اس . ايه) .. والشعبية المستفيضة التى ظفرت بها !. فانك ما كنت تمشى فى الشـوارع دون اجتـذاب الاهتمام ... اما أن هناك دائما أفراد بلغت بهم الجراة الى حـد استيقافك ومعانقتك !. وكان هذا لم يكن كافيا ، حتى لقد أفردت الصحف مساحات كبيرة من اجلك !. ثم ان علاقتنا التى ما كان يتنبأ بها أو يتصورها أحد أثارت نوعا من الاهتمام السقيم ، حتى كنـا اثنين تتركز حولهما الانباء ، مما جعل أمرك أدعى الى مزيد من المضض ... وفوق هذا كله كان هناك جموحك ، وحررك وخيالك ، فما كان لهم أن يتكهنوا قط بما يمكن ان تفعله فى دقيقة آتية او غد قريب ،

وكان كل انسان يلقى على نفسه مثل هذا السؤال مقضى عليه ان يغدو مثل زاكاراكيس اذ يستيقظ فى صميم الليل صارخا : « أين هو ؟. ماذا هو فاعل ؟. » .. فى مواطن ومجالات أخرى يمكن ان يكون هذا باعثا على التفكه والتسنية !. اما فى المجالات السياسية ــ وأسوأ منه فى النظم الدكتاتورية ــ فالحكم فيه يكون بموت غير مكتوب !.. ولا مفر لك الآن من أن تغادر اليونان على الفور ...

« ما الذى يشغل بالك ؟. » ... فجأة ظهرت من خلفى وتطلعت الى وكأنك سمعت كل كلمة جالت فى خواطرى . فقلت لك : « لم يشغل بالى شىء .. كنت فقط افكر أن .. » ... « فهمت .. كنت تفكرين أنه عاجلا أو آجلا سيتولى أحد توجيه ضربة قاضية الى !.. لعلك تتساءلين من منهم يتكفل بهذا ، وهذه هى المعضلة فى نظرك !. انسى كل هذا ... هى معضلة لا اهمية لها !.. سوف أظل على الدوام مبعث ضيق وازعاج لأى انسان ، فى أى لحظة ، فى أى قطر ، تحت نظام أى حكم !. والذى سيتكفل بتوجيه الضربة القاضية لى لن يكون أحدا ممن تفكرين فيهم !. » ... « يا اليكوس ... كنت افكر فى أن ــ » ... « ... أن انزع خطة الاكروبول من دماغى ؟!. كلا !.. انها فكرة ممتازة !. ولا يمكن أن اتخلى عنها !. وفى الأسوأ ، اذا لم أجد أحدا يساعدنى ، يمكننى أن أعدلها : اقصرها على عمل رمزى ... لا (تى . ان . تى) ، ولا أسلحة ، ولا رهائن !. فقط شعارات رمزية تحطها على اكياس من القماش بعدد أعمدة الاكروبول !. وفى الليل لايرانا أحد .. » !. « بل يروننا يا اليكوس ... فى الليل يضاء البارثينون بالانوار الكاشفة ..» .. « يمكننا أن نفعلها فى الفجر» ... « ويمكنهم أن يزيلوا كل شىء قبل أن تستيقظ المدينة » ... « اذن بدل القماش ، يمكننا استعمال الطلاء .. لا تهمنا الاعمدة الرخامية المقدسة !. » ... « وكل ما نأخذه معنا الى المعبد هو رشاشة طلاء !. » ... « اصغ الى يا اليكوس .. عليك أن تنزع هذه الفكرة من رأسك !. لابد لك من مغادرة اليونان » .. « آه !. هذا اذن ما كنت تريدينه لى ؟!. خير من هذا لى ان أعجل بنسف نفسى ... أمام البارثينون !. » .. « ما كان لانسان على قيد الحياة ان يتكلم كميت !. انت مخطىء يا اليكوس !. الموتى دائما صامتون ، منسيون !. فى أول الامر يبدو أن من المستحيل نسيانهم ، وانهم سيخلدون الى الابد !. وما هى الا فترة حتى ينسى الناس ،

انهم كانوا موجودين !. » ... « ليس هذا صحيحا !. » ... « بل هو صحيح يا اليكوس !. صحيح لسوء الحظ !. ان الميت يعتمد على الحي فى كل شيء » ... « انت مخطئة » ... « كلا . يا اليكوس !. كلا !. الموتى هم دائما المخطئون ... لانهم أموات ... لابد لك أن تحيا يا اليكوس !. تحيا !. ولكي تبقى على قيد الحياة لابد أن تغادر اليونان !. » ... « سمعا لك !. » ...

وعدت الى داخل البيت على الاثر ، واغلقت على نفسك باب غرفة نومك الصغيرة ... وعندما خرجت منها ثانية بدا أنك استرخيت .. وقلت : « تعرفين ماذا ؟. ان حكاية الاكروبول هـذه سخافة ... لا أريد ان أسمع كلمة أكروبول أو بارثينون مرة ثانية !. سوف أبتكر شيئا آخر » ... « مع الـ (تى . ان . تى) ؟. » ... « آه !.. ذاك .؟ انني تخلصت من الـ (تى . ان . تى) فى الليلة الماضية ، بعد عودتنا من كريت مباشرة !. أعدتها الى الشخص الذى جاءنى بها ... قلت له : خذ ... استمتع انت بهذه الالعاب النارية !. أملى أشياء أهم من هذا أقوم بها » ..

شد ما تنفست الصعداء عندما خطر لى أن مناقشتى العقلانيـة هى المسئولة عن هذا التطور المفاجيء !. وكان هذا هو نفس ما حدث بصدد اقتراحى ان تغادر اليونان ... فذات ليلة وأنا نائمة نوما هادئا بجانبك ، ايقظتنى بهزة وأنت تقول : « افتحى عينيك !. افتحى عينيك !. » ... « ماذا جرى ؟. ماذا هنـاك ؟. » ... « لقـد وجدتها !. » .. « وجدت ماذا ؟. » .. « لابد ان أسـافر الى الخارج !. » .. « الى أين ؟. » .. « الى ايطاليا .. أوربا .. بعيدا عن اليونان » .. « آه !. » .. « انت لا توافقين ؟. اذا كنت لا توافقين فانت مخطئة ... لا يمكننى أن أحقق اى شيء هنا الآن.. فان يدى أصبحتا مقيدتين ... انهم يفرضون على مراقبة شديدة ، والناس فى خوف : فهم جميعا يتراجعون ... أما فى الخارج فسيكون الامر مختلفا ... سيكون بامكانى تنظيم نفسى ، وتشكيل مجموعات عمل ... بين طوائف المنفيين ، كما تفهمين !. ان أوربا مملوءة بهم ... وعندئذ يمكننى ان اعود سرا ، أو بالاحرى أعود واذهب ... و ... غدا سأطلب جواز سـفر ... ان بابا دوبولوس لن تقـوى أعصابه على رفض الجواز لى ... » ... « وماذا عن يوانيديس ؟. » ... « يوانيديس قد يرفض » ... « واذا فعل هذا ؟. » ... « فى بعض المواقف تبقى الكلمة الاخيرة لبابا دوبولوس » !.

(٣)

لكى تطلب جواز سفر عليك قبل كل شيء ان تقدم شهادة ميلادك ... ولكنهم في مركز سجلات جليفادا قال الموظفون انهم لا يمكنهم اعطاءك الشهادة : فان الصفحة التى بها اسمك مفقودة من السجل !. مفقودة لسبب عارض ، أم مزقت من السجل بأمر من يوانيديس ؟. بدا السجل سليما ، وكانت الصفحات الاخرى المتضمنة لأسماء باقى أفراد عائلتك كاملة ، ما عدا الصفحة المتضمنة لاسمك !. وقال الموظفون متلعثمين أن معنى هذا من الناحية القانونية أنه لا وجود لشخصك !. جاءت بهذه الكلمات أمك ، بعد أن ذهبت فى كامل ملابسها السوداء التقليدية لطلب الشهادة !. قالوا لها انك لم تولد ، لان اسمك ليس فى سجل المواليد !.

كان هذا شيئا لم تتوقعه ابدا !. رغم كافة الاساءات والاستفزازات التي نلتها على أيديهم ، كان هذا أسوأ كل شيء ، حتى رحت تصرخ بصوت ارتج له زجاج النوافذ : « انا لم أولد !. انا لم اولد !. لا وجود لشخصى ؟! اذن فكيف أرادوا اعدامى رميا بالرصاص ، وكيف يمكن أن يعدموا شخصا لم يولد ، ولم يوجد !!.. » ..

لتذهبى اليهم فى مركز السجلات وتضربيهم واحدا واحدا ، ابتداء من العمدة الى أصغر كاتب !.

كان من أشق الامور أن أعمل على تهدئتك ، مؤكدة لك انهم يرومون استفزازك ، استدراجا لخطوة طائشة من جانبك ، وأن من الافضل أن تتظاهر بأن ما حدث هو من قبيل خطأ غير مقصود ، وأن تعاود المسعى ...

وتكررت المساعى للبحث عن الصفحة المفقودة ... ولكن دون جدوى ... وكان من المستحيل قبول طلب استخراج جواز السفر بغير تقديم شهادة الميلاد ..

وفى خلال ذلك رأيتك ذات مساء تبسط امامى خريطة مكبرة فوق مائدة الطعام قائلا : « تعال الى هنا والقى نظرة » ... فاقتربت منك وقلت مرتابة : « ماذا هناك ؟ » ... « شيء كنت أدرسه منذ

فترة بعد أن وجدتهم يصرون على أننى لم أولد ولم أوجد !.. هو مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية .. » .. « آه !. كلا !. » .. « بل نعم ... الآن انصتى » ..

قلت ان هناك وسيلتين لذلك ، الاولى بطريق البر والثانية بطريق البحر .. ومن الميئوس منه التفكير فى الطائرات ... ومن الناحية النظرية فان طريق البر يسهل امكانيات الهروب الى احدى البلاد الاربعة التى تشترك فى حدودها اليونان الى الشمال الشرقى والشمال الغربى : بلغاريا وتركيا والبانيا ويوغسلافيا ... ولكن تركيا يجب استبعادها لان التوتر بين انقرة واثينا يجعل من المستحيل اجتياز الحدود بينهما ... ولنفس السبب لابد من تحاشى بلغاريا ... وعن البانيا فانها ترفض دخول الغرباء ... وقد أبدت أنك تفضل طريق يوغسلافيا قائلا : « ... لانه سيكون من السهل أن أجتاز الحدود عند (ايزفونى) ، وطلب اللجوء السياسى ايضا ... لكن المشكلة ليست فى مجرد اجتياز الحدود ، وانما فى الوصول الى (ايزفونى) .. فان المسافة من اثينا اليها تستغرق على الاقل ست ساعات بالسيارة أو القطار ... وسوف يتسع هذا الوقت لمطاردتى والقبض على أو توجيه رصاصة الى راسى !. وهكذا فاننى افضل طريق البحر ، الى خليج (فولياجمونى) الذى لا يبعد أكثر من نصف ساعة من جليفادا هنا ، وهو ميناء صغير ، ويمكن هناك الوصول الى عرض البحر بسرعة ... لكن فى هذه الفترة من العام لا توجد هناك يخوت كثيرة راسية فى الميناء ، وربما يؤدى يختك الى اثارة الشبهات » ... «تقول يختى ؟. اى يخت ؟ » .. « اليخت الذى ستتوصلين اليه .. يخت أجنبى يستقله اربعة او خمسة من السياح الذين تلوح عليهم ظواهر اليسر والرفاهية ويستعدون للقيام برحلة بحرية فى بحر ايجه !. » ... « واين يمكن ان أجد يختا تنطبق عليه هذه المواصفات العجيبة؟!» .. « فى ايطاليا على ما أظن .. وكيف لى ان اعرف ؟ لا تقاطعيننى ؟.» .. « اليكوس !. » .. « أريد أن ابحر فى ظرف أسبوع » ... « اسبوع ؟! » .. « لتكن عشرة ايام .. » .. « لكن معقولا يا اليكوس .. ان اليخت ليس كسيارة يمكن طلبه توا ، وعملية ايجاد اربعة او خمسة سياح كالذين تشير اليهم على استعداد للقيام برحلة بحرية زائفة لاخراجك الى عرض البحر ليست بهذه البساطة !. » ... «بل هى غاية فى البساطة .. وسوف تجدينهم ، لانك اذا لم تحدثنهم ،

فسأضطر الى اجتياز الحدود اليوغسلافية واتلقى فى دماغى تلـك الرصاصة قبل الوصول الى (ايزفونى) !. » ..

ان فكرة ان تطلب منى شيئا مستحيلا لم تخطر قط ببالك !.. او انها خطرت ببالك ولكنك لم تبال بها !. وهكذا كان من العبث ان اصر على ان عملية هروب كهذه تتطلب على الاقل شهرا لاعدادها ، وان طلب انجازها فى عشرة ايام لابد له من مصباح علاء الدين !.. وكالعهد بك دائما اذا شغفت بحلم ، فان تفاؤلك يعميك عن العقبات ويصمك عن سماع بذاءات العقل والمنطق ، وكل معارضة لى كنت تقابلها بصرخة مؤثرة : « انت لا تحبيننى !. » ..

ثم كانت المفاجأة التى بدلت كل شىء .. ففيما كنت احزم حقائبى للسفر الى روما ، دوت صيحة فى البيت هزت اركانه !. ورأيتـك تندفع نحوى وبيدك ورقة تلوح بها عليها اسمك : « ابشرى !.. انا من المواليد !. انا من المواليد حقا !. » .. سرعان ما فكت الحقائب والغى سفرى الى روما : فقد غدا طلب استخراج جواز السفر أمرا ممكنا ، يتم حسب اللوائح والاجراءات ... وطبعـا فان الصـفحة الضائعة من سجل المواليد لم توجد بالصدفة !. ولابد ان بابادوبولوس قد سمح باستخراج الجواز !. لكن يبقى الآن ان ننتظر المـدة التى تستغرقها العملية لكى يفرض رغبته على يوانيديس !. فقد قلت ان يوانيديس .. يمكن ان يفعل كل شىء لكى يمنعك من مغادرة البلاد .. وكنت على حق فى ذلك : فقد لاحظنا على الاثر بعد التصريح باصدار الوثيقة ان المراقبة حول البيت ضوعفت ... اذ زيد اثنان من الشرطة عند ناصية الشارع ، وثلاثة آخرون فى الشارع الجـانبى ، وخلف نوافذ شقة مجاورة كان ثمة من يتجسس عليك بلا انقطاع !. وعلمنا ان ضابطا من ادارة المباحث (اى . اس . ايه) قد حذر أناسا كثيرين من مشاهدتهم معك !. والواقع انهم لم يكونوا فى حاجة الى ذلك ... فمنذ عودتك من جزيرة كريت اقيم جو من العزلة حواليك ، وأصبح الذين كانوا يأتون لمقابلتك يعدون الآن على أصابع اليـد الواحـدة ، وكذلك اولئك الذين كانوا يدعونك الى العشاء فى بيوتهم .. بل حتى اشد المتحمسين لك والمعجبين بك والمجاهرين بصداقتك ممن كانوا يبتكرون الف ذريعة لمقابلتك ـ اصبحوا يقولون : « وددت ان القاك دائما ولكنى لا استطيع !. فانا رب اسرة كما تعلم ، وتفهم » !.

★★★

« لابد ان يذهب أحد لاستعجال استخراج جواز السفر !. هل

ذهب احد وتأكد من سير العملية على ما يرام ؟. » .. هكذا كنت دائم الالحاح فى السؤال والاستعجال وانتظار اللحظة التى يقول لك فيها الموظف المختص : « هذا هو الجواز !. اتمنى لك رحلة سعيدة » .. والواقع أننى كنت أشاطرك مشاعر التلهف والقلق حتى اعود الى دنياى السابقة والى استئناف مهامى الصحفية بعيـدا عن المتـاعب المتكاثرة والانفعالات العنيفة !. ثم انك بلغت من الضيق ونفاد الصبر حدا جعلك تقول اخيرا انك تلعن نفسك للتخلى عن خطة اليخت ، وانك لن تنتظر بعد الآن اى جواز سفر ، وانهم لو اعطوه لك فى النهاية فسوف ترفضه وتهرب عن طريق يوغسلافيا ، فاذا تلقيت رصاصة فى راسك اثناء الطريق فهذا خير وابقى !..

وحدثت أعصب لحظة فى هذا الموقف المتأزم عندما أعلنت لى فى الليلة الاخيرة انك سوف تستقل القطار الى (ايزفونى) ظهـر اليوم التالى ، مهما تكن النتائج !. ففى ابان انهماكنا فى اتخاذ الاستعدادات الاخيرة للرحيل ، حدثت المعجزة ، وتم تسليم جواز السفر على غير انتظار ، ولم يبق الآن سوى حجز تذاكر الطائرة !.

★★★

فهل كففت عما درجت عليه من التشاؤم ازاء كل خطوة ؟.

قلت لى بصوت يقطر اهتياجا وأنا أناولك تذاكر السفر : « انهم لا يريدون أن يتركونا نسافر .! » .. « وماذا يجعلك تقول هذا ؟.» .. « اننى اشم رائحة الثوم !. لابد انه يوجد حولنا عشرون شرطيا على الاقل ، بالملابس المدنية !. » .. ادرتُ النظر حولنا لكى أرى ما يبرر كلامك ... كانت غرفة الانتظار فى المطار تبدو كالمعتاد دائما : مسافرون مستلقون على المقاعد فى حالة استرخاء ، وأطفال يتراكضون هنا وهناك فى مرح صـاخب ، وسـياح منهمكـون فى شراء الهـدايا التذكارية ، ولا أحد بينهم يمكن أن تنطبق عليـه مواصـفات المخبر السرى !. فقلت لك : « اننى لا اراهم يا اليكوس !. » .. ألم تعرفى بعد كيف يمكنك التعرف عليهم ؟. هذا الرجل واحد منهم !. وهذا !. وهذا !. وهذا !. » .. « وكيف يمكنك ان تميزهم ؟. » .. « من احذيتهم !. انهم جميعا يلبسون أحذية ذات أربطة .. بما فيهم ذلك الفتى ذى البنطلون (الجينز) !.

جعلت افحص الذين اشار أليهم .. كانت لهم جميعا سـمات البراءة كانهم اناس لا يعنيهم شيء ومنصرفون الى ما يشغلهم ، وكانوا

بأحذية ذات أربطة !. فقلت له : « اصبت .. لكننى لا افهم كيف يمكنهم منعنا من السفر .. اننا اتممنا اجراءات فحص جوازات السفر ، وتسلمنا بطاقات ركوب الطائرة : ولو كانوا ارادوا وقفنا لفعلوا هذا قبل الآن !. » .. « قبل الآن كان هناك مندوبو الصحف » ... هذا صحيح .. فان نبأ رحيلك قد بلغ الصحافة فى الحال ، والى اللحظة التى توقفنا فيها لفحص الجوازات كنا فى حماية مندوبى الصحف والمصورين ، يمطروننا بالاسئلة ويلتقطون الصور ... ولو كان رجال الشرطة قد أوقفونا قبل ذلك أمام شهود العيان هؤلاء لكان هناك تشهير ما بعده تشهير !.

قلت لك : « صحيح ... لكننى ما زلت لا افهم يا اليكوس كيف يمكنهم وقفنا فعلا !. » .. « ستفهمين عاجلا » ..

وفيما كنت تقول هذا أعلن مكبر الصوت ان الطائرة المتجهة الى روما متأهبة لاستقبال المسافرين ، ويرجى منهم أن يدخلوا من البوابة رقم اثنين ... فاتجهنا الى البوابة مصطفين وقد ابرزنا بطاقات الصعود ... فاذا مضيفة مذعورة تدفعنا الى الخلف قائلة : « لا ... انتما لا !. » .. « نحن لا ؟! ولماذا ؟. » ... « ارجعا الى الخلف !. » ... « الى الخلف ؟! .. لماذا ؟. » .. وفى لحظة تقدم نحونا اصحاب الاحذية ذات الأربطة وايديهم فى جيوبهم وأسنانهم مطبقة وأحاطوا بنا فى حلقة غير عابئين باحتجاجاتى ... لكنها قوبلت منهم جميعا بالصمت ، حتى سمعت صوتك يقول مشحونا بالاهتياج : « لا فائدة من المحاولة معهم !. لا تفاهم مع الأوساخ !. » وهنا تقدم أحدهم نحوك يهم بالاعتداء عليك ، لولا أننى حذرتك قبل اقترابه ، ولولا انك تمالكت أعصابك بارادة فولاذية !.

قلت لك : « ماذا سنفعل يا اليكوس ؟ » .. « اليس هناك مانفعله سوى الانتظار ولكى نرى من ينتصر : بابا دوبولوس أو يوانيديس ».

وفى خلال ذلك كانت المضيفة المذعورة ماضية فى جمع بطاقات الصعود الى الطائرة والمسافرون يمضون واحدا بعد الآخر ، حتى لم يبق سوانا نحن الاثنين ، محتبسين فى نطاق لابسى الاحذية ذات الأربطة !.

توالت الدقائق حتى جاوزت العشرين والطائرة على اهبة التحرك، ولكن لم يقفل باب الصعود بعد ولم يبتعد السلم المتحرك ... ومر بقربنا موظف بالمطار ، ولما استوقفته وسالته ان كان السلم لا يزال

باقيا وباب الطائرة مفتوحا فى انتظارنا ، قال نعم همسا ، لكن لا أحد يدرى متى يستمر هذا .. فسألته مرة ثانية اذا كان منعنا من السفر نهائيا ، فأجاب بالسلب همسا كذلك ، واضاف أن هناك مكالمات تليفونية دائرة فى هذا الشأن ، وأنهم يتشاحنون فيما بينهم ، وعندما فطن الى جراته أسرع بالابتعاد !.

مضت عشرون دقيقة ... وبعدها عشر اخرى ... وعلى الاثر عاد موظف المطار قائلا : « استعدوا ... انهم يخاطبون رئيس الجمهورية .. واذا أصدروا الموافقة النهاية فسنمكنكما من الصعود حالا قبل صدور أوامر مضادة أخرى !. » ... « اوامر مضادة ؟! » ... « كان هناك ثلاثة اوامر مضادة حتى الآن !. مهلا لحظة » .. وتقدم الى رجال الشرطة ودارت بينه وبينهم مناقشة حامية سمعناه يقول فيها انه ينفذ الأوامر الصادرة اليه ، ثم عاد الينا وهو محمر الوجه واخذ تصاريح الركوب قائلا : « اسرعا !. الى الطائرة !. » ... وقبل أن نتاكد اننا على متن الطائرة راينا بابها يغلق فى النهاية ، فقلت لك : « نجحنا اخيرا يا اليكوس !. » ... « ربما » .. « لماذا تقول ربما ؟. » ... « لان الطائرة لم تدر بعد محركاتها .. » ..

وتعاقبت الدقائق ثقيلة متباطئة ... عشر دقائق ... عشرون .. خمس وعشرون .. ثلاثون .. خمس وثلاثون ... أربعون !. هل صدر فعلا أمر مضاد .؟ لابد أن هذا ما حدث فعلا .! من نافذة الطائرة راينا موظف المطار الذى سهل لنا الصعود بمثل هذه السرعة يلوح بذراعيه كأنما يبدى الأسف ... فى هذه اللحظة ضغطت على يدك ، فاذا العرق قد كساها حتى انزلقت من يدى !. بل كان جسدك كله يتحلب عرقا !. اكان ذلك بسبب الحر أو الجهد العنيف الذى كنت تبذله للسيطرة على اعصابك ؟. بل انك لم تحاول حتى ان تتكلم، بينما كنت اقول لك .. « سوف تتحرك الطائرة قطعا يا اليكوس ... لا يمكن أن يجسروا على انزالك منها !. لو تم ذلك لكانت فضيحة ما بعدها فضيحة !. » ...

وفجاة دوت فرقعة محببة ، فقد دارت المحركات ، وتحركت الطائرة ، ودرجت فى خفة ويسر ! وعندما وصلت الى المدرج توقفت برجفة بدأت تزيد وتتعالى حتى صارت هديرا راعدا ، ثم اخذت سمتها السوى ، وتسامت الى رحاب الفضاء !.

رفعت كاس الشمبانيا الذى قدمته المضيفة وسمعتك تردد :

« انني قطعت شوطا / فى سفرة الموت / وما زلت مرتحلا / فى فترات معينة / خلت انني بلغت خاتمة المطاف / ووصلت الى نهاية الرحلة / لكنني كنت مخطئا / لم تكن تلك سوى أحداث عارضة / على امتداد الطريق » .. يبدو أنها قصيدة شعر ؟ » .. « هى كذلك .. قصيدة قديمة نظمتها فى بوياتى ، منذ سنتين ، عندما انتهت المهلة السابقة للاعدام » ... « لكنها قصيدة محزنة !. » .. « كل تأجيل يبدو محزنا اذا عرفت انه موقوت بأجل » .

هكذا أيقنت أن ارتحالك من اليونان لن يكون ذا جدوى ، وأن هذا الهروب ليس أكثر من تأجيل موقوت ... أو محاولة يائسة لابقائك على قيد الحياة الى اطول مدى ممكن !.

القسم الثالث

(١)

ان ماساة انسان مقدر له ان يكون شاعرا ، بطلا ، اى مستهدفا للمكابدة والمعاناة والعذاب ، يمكن أن تقاس ايضا بانحياز اى شخص يسعى بدافع محبته له الى انقاذه من قدره ودوره : اذ يحاول انقاذه وصرفه عن وجهته بمغريات المحبة ومفاتن الترف والاخلاء الى الراحة والاستجمام حتى حين ... فالحق أن من يحبه عزيز عليه أن يسلمه للموت ، جدير به أن ينقذ حياته ، أن يطيل أمدها الى درجة ما ، متوسلا الى ذلك بكل سلاح ، وكل حيلة ... وفى هذا المقام ما كان لاحد ان يفهمك اكثر منى ، ولا أن يحاول اكثر منى ، لانقاذك من قدرك ودورك ... خصوصا لدى وصولنا الى ايطاليا ، عندما لم أكن بعد مذعنة لحقيقة ان التحدى الدائم هو طعامك ، والخطر المتواصل هو شرابك !.

انك ادركت ذلك فور ان هبطنا فى جناح الفندق الذى وقع عليه اختيارى فى روما ولم تفعل شيئا لكى تخفى عنى هذا الادراك ... لقد دخلت ورحت تفحص بعناية الغرف الثلاث والشرفة المطلة على الميدان، والاثاث الانيق ، والسجاجيد النفيسة والثريات البللورية ، ثم توقفت امام سلة الأزهار البديعة الموضوعة فوق خوان الى جوار اناء فاكهة وآخر به زجاجة نبيذ وثلج ، وسألتنى : « هل الأزهار لى أو لك ؟ » ... « لك أنت .. كلها لك يا اليكوس » .. « مفهوم » ...

وخيم صمت مطبق ... وجلست تحشو غليونك وتشعله فناولتك زجاجة النبيذ قائلة : « افتحها » ... فأخذتها ورفعتها الى مستوى راسك ، ثم أسقطتها على الارضية « الباركيه » حيث تهشمت بصوت مسموع !. ثم انهمرت دموعك ، ورحت تردد بلهجة مؤثرة : « ليس هذا مكانى !. ليس هذا مكانى !. سأرحل !. سأرحل !. أنا عائد الى اثينا !. لنعد الى اثينا !. » ...

مهما يكن فقد عملت على تهدئة ثائرتك ... وما زلت بك حتى اقنعتك بأنه خير لنا أن نمضى أياما فى ربوع اقليم توسكانيا للاستمتاع بمجاليها الخلابة ... ورغم ذلك فلم تمض سوى ايام قلائل حتى

الفيتك تلزم غرفتك وتعكف على الوحدة غير ملق سمعا الى اعتراضاتى قائلا : « لا .. لا .. دعينا من هذه الجولات المتعبة .. لنبق فى البيت ... تعالى واجلسى بجانبى » .. « لكن يا أليكوس ... ان العيش على هذه الصورة أشبه بالعيش فى السجن !. » ... « وهذا ما يحببنى فى هذا العيش ... الم اقل لك مرارا أن الانسان فى السجن ينعم بحرية مطلقة ؟. ان الفراغ يهيىء له أن يفكر .ويتأمل ما شاء له التفكير والتأمل ... أما فى خارج السجن فلا يمكنه ان يتأمل الا فى الفترات التى يسمح له بها الآخرون » ... « لكن انت هكذا لا تفكر ولا تتأمل ... أنت فى نوم وسبات » ... « بل انت مخطئة » ..

وفى النهاية استحالت حيرتى من امرك الى لون من اللامبالاة ، فانصرفت قائلة لنفسى أننى لا يمكن أن اكرس كل دقيقة من وجودى لتحليل أطوارك المتناقضة ومسالكك الغريبة ، فضلا عن أننى كنت مشتغلة بتأليف كتاب تركته مؤقتا فى زيارتى العاجلة لك فى أثينا ، وكان عسيرا على أن اتقبل مقولة أن الاخلاد الى السكون يغذى الفكر ويبرز الموهبة !.

فى تلك الفترة كانت أثينا تموج بالاضطرابات والمظاهرات الهاتفة بسقوط بابا دوبولوس الطاغية ... ولم تكن انت غافلا عن هذا خصوصا وان منهم من كانوا يهتفون باسمك ، فما معنى هذا الجمود المحير ؟!.

من غرائب المصادفات ان طرق بابنا فى هذه الفترة طارق فى الخمسين من عمره اسمه نيكولاس بدا أنك عملت معه فى ماضى صباك ... وسرعان ما دب اليك النشاط ، ورحت تخرج معه الى الحقول والحدائق فى جولات مفعمة بالمناقشات الجادة ... لكننى عندما سألته عن مدار هذه الاحاديث أجابنى بما جعل ركبتى تهتزان بالخوف: بعينه !. بل هو انتحار مؤكد !. انهم هناك يعتبرونه المحرض على « سيدتى ... ان ما يفكر فيه هو الجنون المطبق !. عودة فى الخفاء ، مهاجمات للثكنات ، المقاومة المسلحة : بمفرده !. هذا هو الجنون بعينه !.. بل هو انتحار مؤكد !.. انهم هناك يعتبرونه المحرض على تلك الأفعال !. ولا شك انهم سوف يقتلونه ككلب !. » .. « يعود الى اليونان فى هذه الظروف ؟ والآن ؟ » .. « نعم .. وهو يفكر ان تكون عودته يوم ١٧ نوفمبر ، ذكرى صدور الحكم عليه بالاعدام !.» .. « دون أن يخبرنى بهذا ؟؟ » .. « كما يظهر » .. « فى أثينا

لم يكن يخفى عنى أسراره !. » .. « فى أثينا لم يتحقق أن هدفك هو الابقاء على حياته ، ودفع الأذى عنه .. اما الآن فقد تحقق من هذا ، واليوم الذى سيذهب فيه ، سيكون ذلك مفاجأة لك ... انه سيخرج من المنزل قائلا انه سيشترى سجائر ، وبدلا من ذلك سوف يمضى الى اليونان ، بجواز سفر زائف !. » .. « ليس مع جواز مثل هذا !. » .. « سوف يتمكن من ايجاد جواز كهذا » .. « هل حاولت اقناعه بالعدول عن هذا العزم ؟ » .. « بلا شك .. قلت له أن التضحية بنفسه كفرد لا تكفى ... وبينت أن الاضطرابات الحالية لن تحقق شيئا وسوف يقضى عليها باراقة الدماء ... وقلت له أن دوره اليوم مختلف ... بينت له أن يستغل شعبيته ويقوم بالعمل خارج اليونان ... لكنه من النوع الذى اذا أشرت عليه بأن يفعل شيئا بعينه فهو يفعل عكسه ، ولا يؤدى الالحاح عليه الا الى عناده !. هناك شيء واحد يصرفه عن فكرة بعينها ... لقنيه فكرة اخرى بعدها من بنات افكاره ... كيف أمكنك أن تجيء به الى ايطاليا ؟. » ... « بمحاولة من هذا القبيل » .. « حاولى مرة اخرى !. اجعليه يعقد الزم على شيء آخر ... سافرى به الى مكان بعيد !. » ..

★★★

« اليكوس ... لابد لى من السفر الى امريكا ... سأغيب اسبوعين أو ثلاثة » ... « الى أمريكا ؟! أسبوعين او ثلاثة ؟!. » .. « نعم .. لابد لى من هذا .. من سوء الحظ أنك لا تسافر معى .. ليس فى اجازة ، ولكن لعمل اتصالات ، والبحث عن المؤيدين » .. ... « مؤيدين فى أمريكا ؟. مع رئيس اسمه نكسون ، ووزير خارجية اسمه كيسنجر ، ومخابرات تدبر المؤامرات الدولية ؟. هل نسيت من ساعد بابا دوبولوس ، ومن يحميه ، ومن هو صاحب المصلحة العليا فى تربعه حاليا فى الحكم ؟. » .. « لا يا اليكوس ... امريكا ليست كلها نكسون ولا كيسنجر ... هناك ايضا كثير من الطوائف التى تناهض الامبريالية وتناصر مبادئك فى الديمقراطية والحرية ، ولا تنس مئات الالوف من اليونانيين الذين يؤازرونك فى غير عناء كثير .. » .. بهذا سنضرب عصفورين بحجر واحد ، برحلة واحدة !. » ..

بعد صمت طويل فاجأنى قائلا : « انا على استعداد للذهاب لا الى امريكا وحدها ، بل الى روسيا ، والصين ، وحتى القطب الشمالى !»

... « لكن ليس معك تأشيرة دخول الى امريكا » ... « من السهل الحصول على مثل هذه التأشيرة .. » لمن تقدم الطلب ؟. « أعتقد ان ميلان هى أقرب مكان لتقديم الطلب » .. « بديع .. أعدى حقائب السفر ... الى ميلان أولا .. ثم الى أمريكا !. نعم .. اننى اريد أن ارى أمريكا !. اريد أن أقاتل اعضاء الكونجرس الذين نسمع عنهم فى كل وقت ، وطوائف الشباب الذين يتكلمون اليونانية ، ويوثانت أمين عام الامم المتحدة أيضا !. واى فرد مستعد لمساعدتى فى مساعى الوطنية !. انها ستكون رحلة نافعة !. كيف لم افكر فيها من قبل ؟! ».

ولكن كان للقدر شأن آخر غير الموقف من أساسه ... ففيما بين السفر الى ميلان ومحاولة الحصول على تأشيرة الدخول الى امريكا دارت تحريات سرية فى القنصلية الامريكية عن نشاطك أدت الى رفض منح التأشيرة لاعتبارات سياسية مما اغضبك واثار صياحك حتى تطور الأمر الى اشتباكك مع الموظف المختص فى القنصلية وتشويه جواز السفر فى محاولتك لاسترداده بالقوة ، حتى لم يعد صالحا بصورته الحالية !. وعندما هرعت الى نيكولاس فى زيوريخ للاستعانة به فى هذا الموقف المعقد حل يوم ١٧ نوفمبر ذكرى يوم صدور الحكم عليك بالاعدام دون أن تكون فى اثينا كما كنت تقدر ، حيث كان يوانيديس ينتظر عودتك لتنفيذ وعده السابق لك : « سوف اقتلك بالرصاص يا باناجوليس » !.

ففى خلال يومين اثنين تفاقمت الحالة فى اثينا الى حد اعلان الاحكام العرفية كما جاء على لسان بابا دوبولوس شخصيا على موجات الأثير .. وما ان علمت هذا حتى هدأت سورة غضبك ، وقلت فى جلسة صمتنا مع نيكولاس : « اذن فان بابا دوبولوس يتوعد والمسدس مصوب الى صدغه !. مسدس يوانيديس !. هكذا فشلت خطته فى اعادة الحكم الديمقراطى .. وبابا دوبولوس الآن ما هو الا دمية فى يد يوانيديس ... ان نظامه أوشك على النهاية ، مع محاولة تقنينه بمهزلة أجراءات الانتخابات ... أن الجيش قد انقلب عليه !. والدبابات التى تحاصر أثينا ليست تحمل امرته ، بل هى خاضعة ليوانيديس ... ان يوانيديس هو الذى عمل على تفاقم الاضطرابات ، بان سمح بها اولا ، ثم قمعها بوحشية ... ان يوانيديس اشعل الاضطرابات لكى يبين ان بابا دوبولوس ماهو الا حاكم ضعيف عاجز !. ان يوانيديس هو الحاكم الفعلى اليوم، تؤازره الفئاتالمتشددة .. »!.

وهنا قال نيكولاس : « اذا عدت الآن الى أثينا ، فلن تدوم حياتك اكثر من خمس دقائق منذ لحظة وصولك اليها !. » ..

وابتسمت ابتسامة مقتصة وأجبت محزونا : « لا حاجة بى الى العودة الآن .. لن تثمر هذه العودة شيئا سوى نقلى الى الزنزانة المجاورة لزنزانة بابا دوبولوس !. » .

فقلت لك : « ما هذا الكلام ؟. ماذا تعنى ؟. » ... « اقول اننا كلنا كنا مخطئين فى تقديراتنا !. فلم يكن ما حدث حركة شعبية ، بل كانت انقلابا داخل الانقلاب ... فى هذه المرة كان يوانيديس هو صانع الانقلاب : لاقصاء بابا دوبولوس عن الحكم وتثبيت الدكتاتورية، او بالاحرى لكى يقيم دكتاتورية عسكرية مرة أخرى ... ولن يمضى أسبوع حتى يكون هذا علنيا ورسميا » ..

ولقد صحت هذه النبوءة ... فبعد أسبوع تمكن يوانيديس من اعتقال بابا دوبولوس فى بيته ، ووضــع مكانه جنــرالا يدعى فايدو جيزيكيس فى منصب رئيس الجمهورية ... وهو نفس جيزيكيس الذى وقع فى عام ١٩٦٨ المرسوم القاضى باعدامك ، ثم فى العام التالى جاء لزيارتك فى زنزانتك بسجن جودى لكى يحثك على الاكل بعد اضراب عن الطعام ، اذ قال لك : « أرجوك يا مستر باناجوليس ... كل شيئا !. » ... « بدون سكين ولا ملعقة يا جنرال ؟!. انا لســت كلبا !. » .. « أنا معك فى هذا يا مستر بناجوليس ... لكن لابد أن تفهم نقمتهم عليك .. ففى اللحظة التى يعطونك فيها الملعقة ، سوف تستخدمها فى ثقب حائط الزنزانة !. » ..

قلت لى بعد أيام فى معرض التعقيب على تلك التطورات : « منذ اليوم سأكون فى عداد المنفيين !. وهذا خير وأبقى ... لاننى لم أعد اؤمن بعد الآن بالقنابل ، والمفرقعات ، والاسلحة !. فى مقدور اى متهوس أن يضغط على الزناد ، ويشعل الفتيل ، ويقتل عددا من الرجال ، حتى الطاغية !. ثم ماذا بعد ؟. ما الذى سيتغير ؟. اذا مات طاغية ، أقاموا مكانه طاغية آخر !. كلا !. ليس بنثر الجثث والاشلاء يمكن للانسان أن يصلح الدنيا !. انما يتأتى هذا بالأفــكار !. ان القنابل الحقيقية هى الافكار !. آه يا الهى !. ياللتلك الاعوام التى ضيعتها هدرا !. لقد حان الوقت لكى آخذ فى التفكير ... لكن بعد ان اخلد للراحة الى حين !.

(٢)

فى منتصف شهر يوليو ايقظتنى من النوم فجاة وقلت ان حكم الطغيان يوشك ان ينهار ، كما تراءى لك فى حلم عاصف !..

ومن عجب انه لم تنقض أربع وعشرون ساعة حتى وقع الانقلاب فى قبرص ، ومحاولة اغتيال مكاريوس ... والغزو التركى للجزيرة !. وبعد أسبوع استدعى القائمون على الحكم الزعماء السياسيين الذين اقصاهم بابا دوبولوس وعهدوا اليهم بمسئولية تشكيل حكومة يمكن ان تنقذ البلاد من حرب مع تركيا !. لكنك لم تفرح بهذا ... وانما غمغمت قائلا : « ان أمس الطغيان ما زال رغم ذلك متربعا فوق قمة السلطان !. متى تسافرين الى أثينا ؟. » .. « متى أسافر الى اثينا ، أو متى تسافر ؟! » ... « أنت ... أما انا فلن أسافر » ... « ولماذا ؟. اننى لا أفهم !. » ... « سوف تفهمين عندما تسمعين الصوت الرقيق يرحب باستقبالك : مرحبا بصديقتى العزيزة ، الصحفية الشابة النابهة عالميا !. ياللسرور بلقائك !. اننى أقرأ كل مؤلفاتك ، ومقالاتك ، وتحقيقاتك الصحفية ... اننى من المعجبين بزميلة مثلك ، فانا اكتب واحرر ايضا ، كما تعلمين !. » ... هكذا سافرت وحدى !. وعلى الرغم من اننى لم أفهم كلماتك ، فقد بدأت استشعر معانيها ومراميها حالما هبطت فى مطار أثينا ، اذ الفيتنى فى شبه اعتقال لوجود اسمى فى القائمة السوداء .. وقد مضت فترة طويلة دارت فيها المداولات بين من يستطيع رفع الاسم من القائمة : هل هو وزير الداخلية او ادارة المباحث ؟. فى الليلة الفائتة عاد كرامانليس من المنفى واقسم اليمين كرئيس للوزراء ، وشكلت الحكومة من المدنيين ، واغلب اعضائها من الذين اضطهدتهم الحكومة الدكتاتورية ... بيد أن جيزيكيس ظل فى منصبه رئيسا للجمهورية ، وبقى يوانيديس مسيطرا على الجيش وادارة المباحث ، ولم يعتقل فرد واحد من أركان الحكم الزائل ، وظل السجناء السياسيون فى السجون ... وحثيما توجه الانسان بفكره الى مسار الامور ، واجه الغاز كوميديا غامضة ... وهكذا كان كل فرد يقول انه لا وضوح لشىء بعينه ، وأن المؤكد هو أن نظام الحكم لم يسقط : وانما تنحى فقط !.

ولم يحدث هذا التنحى بمحض ارادته الحرة ، ولكن بأمر الامريكان، الذين عارضوا فيما يظهر نشوب حرب بين اليونان وتركيا ؛ وهمـا عضوان فى حلف الاطلنطى ! .. غير أن نظام الحكم الذى يتنحى لايكون دائما نظاما ميتا ، واذا لجأ الى التنحى مع الاحتفاظ بقواعد الحكم الاساسية لرئاسة الجمهورية والهيمنة على الجيش والبوليس ، فان فى مقدوره فى الواقع استرجاع السلطة فى مدى ليلة واحدة ... وهكذا فان الموقف يمكن أن يتغير مرة ثانية فجأة .. وكل شىء يتوقف الآن على يوانيديس ... ولم يكن سرا أنه رضخ فقط عندما وجه اليـه سفير الولايات المتحدة الانذار الذى أصدرته واشـنطن ، وان كان لا يزال حانقا مما عده خيانة ، متهما المخابرات الامريكية بأنهـا هى التى استدرجته الى القيام بغلطة الانقـلاب فى قبرص ، حتى صرح برنداهرورا : « انهم استغلونى !. كم كنت ساذجا !. » .. أما الآن فلم يعد نفسه مهزوما ، واخذ يلمح باستمرار الى القوات التى يمكن أن تدافع عن شرفه ، والى الدبابات التى يمكن أن يدرأ بها كل عدوان عليه !. ذلك والناس فى خـوف وبلبلة ... فما أن هـدأت موجـة الحماسة الاولى حتى لزموا بيوتهم تفاديا للتورط ، ولم يعد أحـد يتكلم عن الحرية : على الاكثر كانوا يتكلمون عن رائحة حرية !. وكان كرامانليس ذاته وهو دائما متوتر منحرف المزاج يبدو وكأنه يتوقع الأسوأ !.

أما الشخص الوحيد الذى كان فيما يظهر لا تساوره المخاوف او القلق ، فكان وزير الدفاع الجـديد ايفـانجلوس توسيتسـاس افيروف : الرجل الذى رحب بى الآن بصوته الناعم قائلا : « مرحبا بصديقتى العزيزة ، الصحفية الشابة النابهة عالميـا !. يا للسرور بلقائك !. اننى اقرأ كل مؤلفاتك ومقالاتك وتحقيقاتك الصحفية !. اننى من المعجبين بزميلة مثلك ، فانا اكتب واحرر أيضا ، كمـا تعلمين » !..

★★★

لقد جاءنى فى غرفتى بالفندق ، يحرسه ضابط فى البحرية ما لبث ان صرفه باشارة بعد أن شد على بحرارة مرددا كلماته السابقة !. كان فى حوالى الستين من عمره ، نفذت نظرات عينيـه السـوداوين الزئبقتين الى عينى ، كمنوم مغناطيسى ، وان شفتا عندهاء مستتر !. فقلت له : « تفضل يا سيدى ... اننى لم أتوقع أن تتجشم عنـاء

الحضور الى هنا ، وكان الواجب ان أحضر اليك بعد ان سمحت بالمقابلة !. » .. « يا صديقتي العزيزة جدا !. ان الانسان المهذب لن يسمح قط باقلاق سيدة وحملها على الحضور اليه ، خصوصا اذا كانت سيدة ممتازة مشهورة !. لو انني لم أحضر شخصيا ، لكنت مثلا في قلة الذوق والفظاظة !. هل تفهمين لهجتي في الايطالية ؟. » ..

كان يتكلم الايطالية باتقان بالغ ، فقلت له : « أن أسلوبك آية في الفصاحة لفظا ومعنى !. ان باناجوليس نفسه لا يضارعك في هذا !.».

لقد ذكرت اسمك عمدا لكي أتلمس رد الفعل ، بيد أنه لم يبد ماينم عن شيء من هذا ، وكأنه لم يسمع الاسم ... وانما قال : « يا سيدتي الشابة العزيزة ، انني تعلمت الايطالية في ايطاليا ذاتها ، حينما كنت أسير حرب في ريميني » ... « ريميني ؟. ان زاكاراكيس نفسه كان أيضا أسيرا في ريميني » .. « من هو زاكاراكيس .؟ » .. « قومندان معسكر بوياتي ، حيث كان باناجوليس مسجونا » ... ومرة ثانية لم يتلقف اسمك ، وقال : « ريميني ... روما .. كانت أوقاتا مذكورة ... اننا جميعا تعلمنا الايطالية خلال تلك الاعوام .. » ... « الا زاكاراكيس .. بالمناسبة يا صاحب السعادة ... ما الذي حدث لاناس مثل زاكاراكيس ، وثيوفلياناكوس ، وهازيزيكيس ؟. أم يجب أن أستفهم أولا عن يوانيديس ؟... ان هذا هو ما يتساءل عنه كل انسان ... اذا كان نظام الحكم لم يعد مستحوذا على السلطة ، فان الناس يتساءلون : لماذا بقي يوانيديس على رأس المباحث العامة (اى . اس . ايه) ؟.

تنهد الوزير ، وتململ في مقعده الوثير ، وأغمض عينيه ، ثم فتحهما ثانية ، وفي النهاية انشأ يعرض لمقدمة لا يعرفها أو خلفية قال ان أحدا لا يعرف شيئا عنها : أكثر الناس كانوا يعتقدون أن سبب التغيير كان قبرص ، الانقلاب الغبي في قبرص ... « كلا يا صديقتي العزيزة ، كان ذلك هو البداية فقط ... ان ما جعل الهيئة العسكرية تتخلى عن الحكومة في البلاد هو اكتشاف أن الكارثة ستجيء من بلغاريا » .. « من بلغاريا ؟. » .. « أجل ياصديقتي العزيزة ، أجل !. من جانب الشيوعيين .. ان اصبعهم دائما مدسوس في كل شيء .. في الواقع ماذا فعل الشيوعيون البلغاريون لحظة أن بدأت متاعبنا مع تركيا وقبرص ؟. انهم حشدوا عشرات الالوف من الجنود عند الحدود ، وهبطت خمسمائة طائرة مقاتلة سوفييتية في المطارات

الحربية البلغارية ... وقدم الى بلغاريا الفان من المستشارين الفنيين الروس ، آتين من رومانيا ... وقد تولى الفزع نفوس قادة الهيئـة الحاكمة ، وهو فزع دام ستا وثلاثين ساعة ... كانت فى الحق ارهب ست وثلاثين ساعة فى حياتهم لأن ــ لا باس ، لانهم وطنيون ، وطنيون بالثلث ، وفى عدادهم يوانيديس ــ يوانيديس اولهم ، وفى مقدمتهم !. فجمع جيزيكيس أساطين الحكم وأركان الحرب وقال فيهم : « ايها السادة : الأمة على وشك الضياع !. ولانقاذها فان السبيل الوحيد هو نقل السلطة الى المدنيين » ... فقام باستدعائنا على الاثر !.».

واخلد الرجل الى التأمل برهة ، ثم استطرد يقول : « والآن يا صديقتى العزيزة ، دعينى أشرح لك كيف كان مسلك جيزيكيس ورؤساء أركانه حيالنا كسادة أفاضل ... من هـذه الناحيـة فان مسلكهم معى كان متسما دائما بالتنصل ... من المؤكد انك تعرفين اننى كنت متورطا فى حركة التمرد الفاشلة فى الاسطول البحرى فى الصيف الماضى ، وقد اعتقلونى ... لا بأس .. انهم لم يلمسوا شعرة فى راسى ... وبالامس ــ تصورى يا عزيزتى ، لقد وصلنا واحدا بعد الآخر ، فاستقبلنا جيزيكيس واقفـــا بادب وترحاب ، ثم دعانا الى الجلوس وقدم لنا عصير البرتقال والقهوة ... وبعد ان اكتمل جمعنا راح يقول بكل بساطة ان البلاد كانت على وشك مواجهة كارثة نهائية، ولانقاذ البلاد قررت الهيئة الحاكمة كلها التخلى عن كل سلطاتها فيما عدا القيادة العسكرية .. وبعد ذلك استدعى كافة رؤســاء الأركان واخذوا واحدا واحدا يرددون نفس الكلام ... ثم بدأت المناقشات بيننا ... فتكلمنا عن المسئوليات ، وهنا كان جيزيكيس رائعا ، فقال أنه يقدم نفسه كبشا للفداء : (اننى أدرك ان انتهاء نظام الحـكم يتطلب كبش فداء ، واذن فانا اتقدم بهذا الوصف !. اننى لم ارد أن أكون رئيسا للجمهورية ايها السادة ، غير أنى وافقت على قبــول المنصب ، ومن الحق ان أدفع الثمن) .. ولا لزوم لكى أضيف فى وصفى لما حدث أنه لم تكن ثمة فكرة لتسوية الحسابات الماضية ، واخذنا انفسنا بهذا الالتزام ... وفى النهاية واجهنا المسالة الحاسمة: وهى اختيار الرجل الذى يعهد اليه بتشكيل الحكومة ... فكانت الاغلبية تريد كنالوبولوس ، لكننى أردت كرامانليس » ... « لماذا كرامانليس يا سيدى الوزير ، لا سعادتك انت ؟. » ... فقال باسما: « لسبب بسيط ، بسيط جدا يا سيدتى .. لاننى لا يمكن ان اتخلى

عن وزارة الدفاع ... فى اليونان من يسيطر على الجيش ، يسيطر على اليونان » ... « ومن يسيطر على اليونان الآن يا صاحب السعادة ؟. » فقال وقد دبت البرودة اللاذعة فى نظرته : « ومن تظنين يا صديقتى العزيزة ؟. » .. « منذ ساعة فقط كنت اظن انه بوانيديس يا صاحب السعادة » ... « يا صديقتى العزيزة ... اننى أنا الرجل الذى يتلقى البريجادير جنرال بوانيديس الأوامر منه !. أنا الرجل الذى يهيمن على الجيش » ... « ومن يسيطر على الجيش فى اليونان ، يسيطر على اليونان !.. أليس ذلك صحيحا يا صاحب السعادة ؟. » ... « من يقول هذا ؟. » .. « باناجوليس » ...

وثب الوزير قائما : « ان الالتقاء بك كان مبهجا ، ومن المؤسف انه لابد لى الآن من الانصراف !. » ..

واتجه الى الباب ، واحتوى يدى فى راحته الطرية كالرخويات ، قائلا : « اننى أؤمل أيضا ان التقى بصديقك ... أبلغيه هذا ... وبالمناسبة متى يعود الى أرض الوطن ؟. » .. ومضى دون أن ينتظر الجواب الذى كان فى الحق يشغل بالى ..

ومهما يكن فلم يمض سوى يومين حتى بدأ المسجونون يغادرون سجونهم ، واخذ الناس ينحازون الى الاستبشار ، وبدأت رائحة الحرية تتخذ تدريجا شكل الحرية !.

ماذا لو كنت مخطئة ؟.

★★★

قلت لى وأنت تبتسم متهكما : « ان أساطين (القوة) التى لا تزال متربعة فوق قمة الجبل ليست شريرة بالضرورة ... واذا لم يتم اخلاء السجون من السجناء السياسيين ، فماذا يكون معنى الكلام عن الحرية ؟!. اراهن انها تمثيلية من الروائع أعدها أفيروف قبل تنحى السلطة العليا عن الحكم !. » ... « مهما يكن فقد قال انه يؤمل ان يراك قريبا » .. « ابن الحرام ! » .. « وبعدها تسألنى متى ستعود الى أثينا ؟. متى ستعود فعلا ؟. » ... لكنك لم تجبنى ، ويممت شطر النافذة تطل منها !.

الفيتك تحدق فى فتى وفتاة جلسا فى المشرب المواجه للفندق وما زلت الح عليك بالسؤال عن سر اهتمامك بهما حتى قلت انهما يراقبان تحركاتك منذ أن افترقت عنك فى مهمتى الاخيرة ، وانك تشك فى انهما من أفراد المخابرات الايطالية التى تتعاون مع المباحث اليونانية

فى عمليات مشتركة ... فقلت لك : « لكن ما الذى يدعو هذه الجهات الى مراقبة تحركاتك وتعقبك فى الوقت الحالى ؟. ان رجلا له ماضيك وله ... » ... « هناك اناس لا يهمهم ماضى بقدر ما يهمهم حاضرى، او بالاحرى مستقبلى !. » ...

مستقبلك !. ان هذه الكلمة كانت تعذبنى منذ سقوط الطغيان ... فما الذى يمكن أن تفعله الآن بمستقبلك ، بحياتك ؟. قلت لك وانما أتفرس فى عينيك : « حسن يا اليكوس ؟. متى تنوى ان تعود الى وطنك ؟. » ..

ومرة أخرى زغت من الجواب ، وأشرت الى الفتى والفتاة قائلا : « أراهن أن هذين الاثنين يودان أن يعرفا ذلك ايضا !. اراهن أن رؤسائهما يسعدهم أن أعود الى اليونان فى تابوت !. » ..

ومرة أخرى لم تجب على سؤالى ..

ولكنك فاجأتنى ذات مساء بقولك : « لقد حزمت امرى ... انوى أن أعود الى أثينا فى يوم ١٣ اغسطس ، ذكرى موعد محاولتى اغتيال بابا دوبولوس .. » .. « اذن هذا ما كنت تنتظره ؟.» ... « ليس هذا تماما .. وان كانت فكرة احياء بعض الذكريات تنعش خاطرى ... وعندما اقول بعض الذكريات لست اعنى فقط يوانيديس او أفيروف ، وانما أعنى أيضا بعض الرفاق السابقين هناك ، أولئك الذين لم يفعلوا شيئا قط » .. « يا اليكوس ، ماذا تعنى بقولك (ليس تماما ؟) » ... « معناه ــ هل تتذكرين سؤالك لى اذا كنت أفضل غاريبالدى أو كافور ؟. » .. « نعم .. وقد أجبتنى بانك تفضل كافور .. » ... « يعنى انتهاج أسلوب السياسة ... اننى غير متأكد من اننى أحب هذا اللون من السياسة .. والعودة الى اليونان معناها العودة الى ذلك اللون من السياسة !. على كل حال لكل شىء وقته . فلننظر ، ولنرقب !. » ...

(٣)

كانت مفاجاة قاسية لى وانا أتلقى فى نيويورك مكالمتك التليفونية من اثينا بعد أن اتفقنا على اتمام مهمة صحفية لى تقتضى وجودى فى امريكا مدى أسبوعين تعود فيها الى بلادك يوم ١٣ اغسطس ، لكى تستقبل فيها استقبال الابطال المحررين !. فان ما قلته لى كان له وقع ضربة اليمة على الراس ... ان صحفا قليلة نشرت النبأ فى سطور معدودة !. وكان المستقبلون القلائل الذين انتظروك فى المطار هم من الاصدقاء والمعارف والاقرباء !. ورفع أحدهم فقط لافتة بهذه العبارة : (تحيا الحرية) ، وصفق بعضهم تصفيقا تلاشى سراعا فى ارجاء المطار !. ثم اختفيت فى داخل سيارة ولم يشاهدك أحد حتى اليوم التالى !.

قلت لك : « وماذا فعلت يا اليكوس ؟. » .. فاجبت بحرارة: « سكرت مثل خنزير !. وامضيت ليلة حمراء مع بغى !. » ... « ما هذا الكلام يا اليكوس ؟. » .. « انها فازت بى فى مسابقة بين المعجبات المفتونات بالبطولة الخائبة !. » ...

قلت لك وأنا أعذرك فى صدمتك : «اهدأ يا اليكوس.. اهدأ !.».

لكن مما لا شك فيه أن صدعا شديدا قد حدث فى نفسك ازاء تلك العودة الهابطة الى اثينا ، عندما اكتشفت أن يوم ١٣ اغسطس لم يكن له معنى خاص فى البلد الذى كافحت من أجله ، وان الالوف قد هرعوا لاستقبال كرامانليس وغيره من ضحايا الدكتاتورية ، وليس الرجل الذى تحدى المستحيل وحكم عليه بالاعدام ، مما أسلمك الى هذا التمرد اليائس رغم علمك بحقيقة الواقع : فلو أنك كنت فى جانب كرامانليس ، واندمجت فى صفوف اليمين أو اليسار واجتذبت المذاهب التى تقسم العالم وتصف جموع الناس طوائف مثل لاعبى فرق كرة القدم ـ آلان لكانت الصحف قد نشرت نبأ عودتك فى صدر صفحاتها ، ولتذكر الجميع أن يوم ١٣ اغسطس هو ذكرى محاولة اغتيال بابادوبولوس ، ولهرعت الألوف

للحفاوة بك ! .. ذلك لانهم عند ذاك كانوا يرسلون صفوفا كما يرسلون من اجل كرامنليس وغيره !.

قلت لك مرة أخرى عبر التليفون : « لكن ألم يكن هناك ناس كثيرون ؟ » ... فانفجرت مثل القنبلة قائلا : « الناس !؟ الناس الذين يستغلونهم ويسوقونهم كالقطيع !؟ ... الناس في الحقيقة هم القلائل الذين يكافحون ويأبون الخضوع ... اما الآخرون فليسوا ناسا ... انهم قطيع ! ... قطيع ! ... قطيع ! » .

ثم كتبت اليك رسالة ، وهي واحدة من تلك الرسائل القليلة التي درجنا على تبادلها منذئذ ... قلت لك ما حدث قد أحزنني ، دل على أن تفكيرك رغم ماشابه من مرارة والتواء لم يذهب سدى .. الم يتهيأ لك الآن أن تعرف حقائق معينة ؟ ... الم تقل في قصيدتك التي كتبتها في سجن بوياتي : هم دائما بلا تفكير بلا آراء تنبعث من ذواتهم / مرة تراهم يهتفون بحياة انسان/ ومرة أخرى يصيحون : « اقتلوه ، اقتلوه ! » ... الم نتناقش مطولا في أمر هؤلاء الناس الذين يذهبون دائما الى حيث يراد لهم أن يذهبوا ، ويفعلون مايطلب اليهم أن يفعلوه ، ويفكرون كيفما يشار اليهم أن يفكروا ، وهم فريسة كل سلطان قائم ، وكل مذهب ، وكل كنيس ، وكل نمط سائد ، وهم دائما معفون من كل جرم وجبن بتبرير من الديماجوجيين الذين لا يعبأون بهذا وفي تبريرهم لهم لا مستهدفون سوى استعبادهم ليزيدوا من استغلالهم لاغراضهم ؟ ... الم نتفق أن الناس عند اولئك الديماجوجيين هم مجرد كينونة عددية لفصل الفرد عن هويته ومسئوليته ، بينما الحقيقة الوحيدة هي كينونة الفرد بذاته ، وان كل فرد مسئول عن نفسه وعن الآخرين ؟.

ومهما نكن فعندما كلمتني تليفونيا في المرة التالية كانت لهجتك ادنى مرارة وادل على التغيير ، اذ قلت لي : « ستحدث انتخابات قريبة ، فهل تصدقين انهم سيحتاجون الي ويطلبونني : كرامنليس ومن معه ، وحتى الشيوعيين واتحاد الوسط ؟ .. » .. «يستحيل» ... « بل هي الحقيقة ، كل شيء في عالم السياسة جائز وممكن ! .. في عالم السياسة اي انسان يجري استخدامه ، حتى لو كان معنى هذا منحه مقعدا في البرلمان ! » ... « وماذا يخطط لعمله يا اليكوس ؟ » ... « سأسالك بدوري : هل تعرفين طريقة للدخول في السياسة دون مشاركة السياسيين ؟ .. ستكون السياسة عندي سلاحا في الكفاح .. ما فائدة الكفاح من اجل الحرية اذا كانت

هناك حرية محدودة لا تستخدمها لاتمام رسالتك ؟ .. انني حاولت قتل دكتاتور طاغية حتى يمكننا رسم سياسة .. ودخلت السجن وانتقلت الى المنفى حتى يمكن رسم سياسة : فهل يمكن أن اعتزل الحياة العامة الآن ونحن نوشك أن يكون لنا برلمان ؟ ... لابد من دخولي ذلك البرلمان ؟ .. » .. يعنى بعبارة اخرى : حزب ؟ » ... « نعم .. حزب .. وماذا هناك ؟ » ... « هذا مثل خضوعك للضغط يا اليكوس » « أنني سامضي وفق طريقتي الخاصة ... وفضلا عن ذلك فلم يعد لى خيار الآن ... والمشكلة الوحيدة الآن هي — الى المكالمة القادمة ... ان الحديث فى هذه المسائل يكلف كثيرا بين اثينا ونيويورك ! » ...

ما أن وصلت الى اثينا حتى كانت مفاجاة اخرى فى انتظارى ...

رايتك فى حالة اضطراب بين ... ولما سالتك عما جرى قلت لى بصوت تشوبه نقمة وحزن : « الحقيقة انني ضللت طريقى وتنكبت الصواب ! » ... « ضللت الطريق ! ... كيف ذلك ؟ » .. « لأن مسالة الانتخابات هي فى الحقيقة مهزلة ... تحت واجهة زائفة لكلمة الحرية » ... انتخابات فى حين أن بوانيديس لا يزال على راس المباحث العامة (اى . اس . ايه) ... فى حين ان ثيوفلياتاكوس وهازيزيكيس وماليوس وباباليس ومن هم من طينتهم يروحون ويغدون احرارا بلا حياء ولا رادع ، وفى حين ان بابادوبولوس يعيش منعما فى الفيللا الخاصة به فى لا جوس ! ... واذا رفع احد صوته وقال (هذا خداع) ، ردوا عليه قائلين : (ماذا تعنى ؟ .. عندنا الآن ديمقراطية ، عندنا حرية ... الانتخابات قريبة ... حتى اليكوس بناجوليس مرشح فى الانتخابات !.) ... انني لا اريد أن اكون شريكا فى هذه المهزلة ! .. انني اخطات عندما قبلت ... اخطات عندما رجعت الى هنا ! ... انني راحل ! ... راحل ! ... » ... « والى اين ترحل ؟ ... » .. « الى حيث كان يجب الذهب عندما تنحت الطغمة الحاكمة عن السلطة !... الى شيلى !... الى الباسك ! ... الى حيث الكفاح هو الكفاح ، لا ملاكمة مع اشباح!..» ... « لا اعرف ماذا اقول لك يااليكوس .. » .. هذه هى الحقيقة .. لكن حلمى بنا الآن » ...

فقد صحبتنى الى المكتب الذى اتخذته لك فى شارع صولون ... دخلنا ، ودلفنا الى المصعد ، ووقفنا عند باب يعلوه اسمك ، وسرعان ما بدرت منى صيحة مخفتة ... فقد راينا تحت اسمك

صليبا كبيرا ، وتحت الصليب تاريخان : ١٧ نوفمبر ١٩٦٨ — ١٧ نوفمبر ١٩٧٤ ... « ما معنى هذا ياأليكوس ؟ .. » ... فغمغمت قائلا : « معناه ان شخصا ساءه انني بقيت على قيد الحياة منذ ست سنوات ، ويريد أن يراني ميتا فى ١٧ نوفمبر القادم ... » ثم اضاف بعد دفقة حيوية مجددة : « تعرفين ما ألذى قررته ؟ .. لن ارحل ... كلا ! .. لن أتخلى عن ترشيح نفسى فى الانتخابات ! ... سأصمد !.. ياليت الانتخابات تتم فى ١٧ نوفمبر !. » ..

وكما لو كان كاتبوا هذا التهديد الضمني يعرفون ، فقد تقرر ان تجرى الانتخابات يوم ١٧ نوفمبر ، اذ اذيع النبأ بعد فترة قصيرة ...

***

والواقع ان هذا التطور أثار حماستك من جديد وأزكى خيالك ، حتى قلت لى منتعشا : « خطرت لى فكرة ... ان التاريخين اللذين رأيناهما تحت علامة الصليب قد أوحيا الى بفكرة ! ... سأقوم بطبع عشرة آلاف بطاقة تحمل هذا الشعار : (فى ١٧ نوفمبر ١٩٦٨ حكمت السلطة على ألكسندر بناجوليس بالاعدام — وفى ١٧ نوفمبر ١٩٧٤ سوف ينتخبه الشعب عضوا فى البرلمان) .. وليس هذا فقط ... اريد أن أوزع الف نسخة من ديوان شعرى المطبوع، مما يساهم أيضا فى نشر الثقافة .. » .. « نعم ياأليكوس .. لكن من سيدير حملتك الانتخابية ؟ الحزب ؟ » .. « ألحزب ؟ .. وماشأن الحزب بأى شيء ؟ » .. « أن الحملة الانتخابية تتطلب مالا » .. ورجال ؟ .. أى مال ؟ » .. « المال لطبع تلك الملصقات واللافتات، ولشراء تلك الألف نسخة من ديوان شعرك .. » .. « سنشترى نسخ الكتاب بالخصم ، وسنطبع الملصقات واللافتات بأيدينا بكيفية أو بأخرى .. لن اقبل اى شيء من الحزب » — « ثم الندوات الانتخابية !؟ أنها تتطلب مالا أيضا ، واناسا للاشراف عليها و .. » « عندى أصحاب .. » .. « وستحتاج الى مكتب » .. « عندى مكتب حاليا » .. « ذلك الجحر فى شارع صولون ؟! .. ان حجمه لا يزيد عن حجم زنزانتك فى سجن بوياتى !! اصغ الى يا أليكوس .. » .. « لا .. لن أصغى اليك .. لانني لو اصغيت اليك ، فسوف تستخدمين المنطق ، والمنطق يثبطني ! .. واذا ثبطت ، فلن انجح!.. سوف نجد المال ... واذا لم نجده ، فسيكون هذا من سوء الحظ ! .. سوف امضى بدون مكاتب ، وبدون سيارات ، وبدون

تليفونات ! .. سوف أشتري عدة علب طلاء ، وبعض الفرش ، وسأكتب بالفحم ايضا . صوتوا لى ! » ..

وما كان لعقبة أن تثنيك أو تروعك ، بل بالعكس كانت تذكى كبرياءك ، واعتدادك بنفسك ، وخيالك : فى هذا رحت تقول اذا كانت ممارسة الديمقراطية تتم باسلوب خاطىء ، فلماذا لا نبدأ بنبيذ الاساليب الخاطئة ؟ ... وأضفت الى هذا قولك : « انهم ينفقون البلايين لتحويل الاجتماعات الانتخابية الى مهرجانات وموالد !... انهم يقطعون غابات كاملة لصنع الورق الذى سوف يبدد فى الملصقات ! .. أنهم يحرقون أنهرا من الجازولين فى نقل المرشحين بالسيارات ! ... أن المرشح الأمين يجب أن يستغنى عن هذا باستخدام دراجة وميكروفون ! .. » ..

وعندما اقتنعت فى النهاية أنه بدراجة وميكروفون لن تحقق شيئا ، ولا بكتابة « صوتوا لى » بالفحم على الحوائط — قررت أن الملصقات لابد منها ، ولابد من مكتب أرحب من الجحر الذى فى شارع صولون ... وآذ اعتزمت الا تقبل درهما واحدا من مواطنيك، فقد عينتنى أمينا لصندوقك الشخصى فى الخارج ، وأوفدتنى الى ايطاليا لطلب المساعدة لدى الفئات المتعاطفة معك ... فتعددت الاكتتابات لهذا الغرض .. ولما كانت مدينة البندقية قد دعتك لحفل افتتاح بينالى البندقية والمهرجان الملحق به ، فقد كان هذا مناسبة لحضورك فى غير عناء ، وجمع الحصيلة التى توافرت من هذا وذاك ، قد بلغت عشرة آلاف ليرة ، رحت تعدها فى غرفتك بالفندق مبتهجا ..

فقلت لك ! « هل هذا هو المبلغ الذى كنت تحلم به لمواجهة تكاليف الحملة الانتخابية يا اليكوس ؟ » ... « نعم .. أنه يوازى مبلغ الخمسة ملايين دراخمة الذى نوهت عنه !.. تصورى .. خمسة ملايين ! ... تعرفين كم من الأشياء يمكن ان احققها بخمسة ملايين ! » ..

بقيت مشكلة تحويل هذا المبلغ الى اليونان خصوصا ازاء صرامة القوانين الايطالية حيال تهريب العملة.. لكنك لم تتقاعس عن تذليل هذه المشكلة ... وقد تحققت من هذا عندما رافقتك الى المطار وخلوت الى نفسك فى غرفة (التواليت) ، ثم خرجت بعد نصف ساعة وانت تمشي بخطى أثارت ارتيابى ؟.. الفيتك تتحرك بصورة غريبة كما لو كنت تمشى على رجلين من خشب ، دون أن تحنى ركبتك ، وتجر قدميك على الأرض بتصلب حركات

(الروبوت) ، الانسان الآلى ! .. فقلت لكَ : « اليكوس .. ماذا فعلت ؟ » .. « ايه ! .. نصف مليون فى (فردة) الحذاء ، ونصف مليون فى (الفردة) الثانية ! ... ومليون حول الساق اليسرى ، ومليون حول اليمنى ، والباقى فى الملابس التحتية ... الى اللقاء! » ..

وبابتسامة عجيبة تقدمت الى مكتب الشرطة حيث تحسسك المختص من تحت ابطيك حتى خاصرتيك بحثا عن أسلحة ... وفتح حقيبتك مفتشا بين أوراقك وفحص حافظة نقودك قائلا : « لا عملة ايطالية ؟ » .. « ولا ليرة ! » ... « رحلة سعيدة ، شكرا » ... وتقدمت الى مكان الطائرة بخطوات الروبوت ، حاملا الكنز الذى لا يمكن ان يقبل بنك فى أثينا استبداله بالصورة التى آل اليهـــا اذ يقال لك : أهذه نقودك ، أم جوارب قذرة ؟ .. غير انك استطعت تحويلها الى دراخمات ، وبجزء منها أمكنك أن تستأجر مقرا جديدا سميته (المقر الادارى) ! ..

كان (المقرر الادارى) غرفتين فسيحتين تضمان من الاثـــاث المتواضع منضدتين خشنتين ، ومكتبا معارا ، وثمانية مقاعد متهالكة تبرع بها عدة أشخاص من مؤيديك ، مع كرسى ذى مسندين أعرج ، وأصيص زهور ، وادوات عمل القهوة ! ... أما الشـــعار فكان قبضة مرفوعة تمسك بغصن زيتون وحمامة بيضاء ، فضلا عن عدة تليفونات ! ..

وكان القائمون بالعمل من غير ذوى الخبرة السياســـية ... كانوا زمرة من الشباب مزيتهم الوحيدة التفانى الاعمى ، ومن الفتيات المفتونات بكَ ، والاقارب الأوفياء لكَ ... وكلهم كانوا يعملون متطوعين بلا مقابل ! ... وعلى الرغم من انهم كانوا يعملون فى حماس وانبعاث ذاتى ، الا أن الحملة كانت هزيلة لا تبشر بخير ، خصوصا فى قصور الملصقات والاعلانات اليدوية ، كما ان ديوان الشعر ظل محجـوزا فى الجمارك بسبب رسوم جمركية باهظة رفضت دفعها ! ..

اما الصحافة فلم تنوه باسمك فى عداد المرشـحين ، انصرافا الى الاعلانات المدفوعة الأجر عن المرشحين من مختلف الاحزاب ! ..

وكانت خطبك الانتخابية موسومة بالاستحياء والفتور، ومما زادها سوءا انكَ كنت تكره الاجتماعات الانتخابية أساسا وتعدها مناسبة للتفاخر الأجوف والوعود البراقة الكاذبة ... وبدلا من الانسياق فيها والمشاركة فى مآتمها ، الفيتك تجاهر بنقائضها فى صراحة باترة ، منددا بالايديوجيات الضالة ، والمذاهب المتعصبة ، وخنوع الجموع

التى تقاد كالعمى ، والمبادرات المشبوهة ، والوعود المعسولة التى سرعان ما تتبخر فى الهواء ، والتمسح الكاذب بالاشتراكية ...
وفى هذا كنت تقول : « ما هى الاشتراكية ؟ ... اليوم كل انسان يتكلم عن الاشتراكية ، حتى أصبحت كلمةالاشتراكية (صلصة) كل طبق ، وشعار كل كذب ، و (موضة) كل متشدق !.
هل نسينا أن موسولينى أيضا كم ثرثر عن الاشتراكية ، التى نبت من صفوفها وقام نظامه الفاشستى على انقاضها ؟.. ومثله هتلر !.. اليست النازية فى تعريفها ، اختصارا لعبارة (الاشتراكية الوطنية)؟ ... وكلمة الثورة التى يستخدمها اصحاب الانقلابات زيفا وتغريرا : ألم يصف بابادوبولوس حركته الانقلابية باسم الثورة ؟..
احذروا الذين يعدون بالمعجزات ، أولئك الذين يقولون انهم سوف يغيرون كل شىء فى غمضة عين ، مثل ساحر ! .. السحرة لا يوجدون ، والمعجزات لا تجدى !.. واذا لم تلزموا الحذر واليقظة والتفطن ، فلن تساعد هذه الانتخابات سوى خلفاء الطغمة المستبدة وورثة حكم الطغيان ! .. لأن حكم الطغيان لم يسقط ، وانما غير (التكتيك) فقط ، ونقل سلطته الى الرقعاء المتـزيين فى زى الليبراليين ، وللخنازير المبهرجين مثل ايفانجلوس توسيتشس افيروف ، والى جناح اليمين القذر الذى ظل يمسك بصولجان الحكم طوال قرون ، الذى ظل حتى الأمس يرقص على عزف بابادوبولوس ويوانيدس ، والذى سوف يرقص غدا على عزف عياد كل نظام شمولى ! .. وانتم لا تفطنون الى هذا لانكم لا تفكرون ! .. هناك دائما من يفكر لكم من يقدر لكم : (سيدى ، قل لى ماذا يجب ان افعل ؟ ... قل لى ماذا يجب أن أفكر فيه ؟) ! ..
كان الناس مستمعين وهم حينا فى احباطه وحينا فى التأذى أو الحيرة ، قائلين : عجبا ، ماذا يقول هذا الرجل ؟ لماذا يؤذىالمشاعر ويثبط الآمال ؟ .. انهم كانوا يشهدون هذه الاجتماعات نشدانا لبعض الأمل ، لا لكى يتلقوا التعنف والزجر ! .. ومن ثم كانت تنفض بفتور ، أو فى القليل بتصفيق يسير مبتسر !!.
ومنهم من كانوا يقولون : « دعوه يتكلم ! .. انه لا يعرف ما يريد !.. هو شخص جلف ، خيالى ، مفجر ديناميت فاشل !.. ماهى مزاياه على كل حال ؟. انه زرع لغمين ، واحدهما لم ينفجر ، والثانى لم يحدث سوى حفرة فى الأرض ! » ... كانت هذه التعليقات تطعنك فى الصميم ، وان كنت لا تبدى ما يعتريك وتمضى غير هياب فى مجاهرتهم بآرائك القاسية اللاذعة ، موقنا من الفوز

فى النهاية « الناس يفهموننى فى اعماقهم ! .. انهم سيصوتون من اجلى ! ... »

الى ان حل يوم الانتخابات ...

كنت فى خلال ذلك اشفق عليك من النتائج .. متوجسة الا تكون فى صالحك ... حتى اننى تشاغلت عنك بدعوة مفاجئة تلقيتها لمقابلة صحفية فى الخارج ، وفكرت ان ألبيها حتى لا اشهد اعلان النتيجة ! .. وفيما كنت أتهيأ للخروج اذ دق جرس التليفون ، فعدت ، واذا صوتك يرن فى فرحة غامرة « هذا انا !.. انا نائب محترم ! .. انتخبونى رغم كل شيء ! » ...

كانت معجزة حقا ، وان تبين ان نجاحك لم يكن الا نتيجة تسوية انتخابية فى الاصوات الفائضة بين الاحزاب المتنافسة !.. ولكن ذلك لم يمنع أن تمضى فى فرحتك ، قائلا : « اننى الآن سوف أصول وأجول فى مضمار السياسة ! .. الآن يمكننى أن أبدأ عملية البحث عن الوثائق .. » .. « اية وثائق ؟ » .. « وثائق ادارة المباحث (اى . اس . أيه) ، الوثائق الدامغة للأوغاد ! انها سوف تستغرق بعض الوقت ، لكننى سانجز هذه المهمة ! انتظرى لترى العجب العجاب ! » ..

القسم الرابع

(١)

قلت لى : « منذ الآن فصاعدا سأركز كل نشاطى ضد التنين « ايفانجلوس أفيروف » .. « وماذا عن الاخرين ياااليكوس؟» ... « اى آخرين ؟ » .. اساطين الديماجوجية ، ايديولوجيو الطغيان ، الثوريون الكاذبون ؟ » .. « سوف أهتم بالآخرين فيما بعد ، اذا بقيت على قيد الحياة ... واذا لم ابق على قيد الحياة — وهو أمر سيء ، فسوف يتكفل احد بتسوية حسابهم مكانى ! .. ان المرء لا يمكن أن يقاتل معركتين فى نفس الوقت على جبهتين متعارضتين ، خصوصا اذا كان بمفرده ! ... لا مناص له من مقاتلة العدو الاعجل ، العدو المباشر ، حسب الفترة الزمنية التى يلابسها ! .. بالامس كان عدوى اسمه بأبادوبولوس ، وأسمه بوانيديس ! .. اما اليوم فاسمه افيروف ! .. هم يسمونه جناح اليمين — اليمين المتغطرس الملتاث ، الذى يلتحف بشعار (الحرية) ، ويستغل الديمقراطية لابقائنا فى قبضته !.. واذا انا لم أركز معركتى معه ، فما فائدة دخولى البرلمان ؟! ... وفضلا عن هذا فان حركة الانقلاب القادمة ستكون بمؤازرة أفيروف نفسه ، الذى يحلم بان يصبح سيد اليونان كلها ، ويعيد ملكيته الى البلاد ! ...

وهكذا بدأت تمطر أفيروف بالاسئلة البرلمانية والاتهامات بلا هوادة ولا توقف : « لماذا لا يعيد سعادة الوزير تعيين ضباط الجيش الديمقراطيين الذين فصلتهم حكومة الطغيان ؟ .. هل يضايق الوزير ان يبقى رجال شرفاء فى الجيش ؟ .. لماذا يسمح الوزير لاتباع يوانيديس بقيادة فرق وألوية يمكن أن تزحف فى اية لحظة على اثينا وتقوم بحل البرلمان مرة اخرى ؟ .. هل يحب الوزير فكرة انقلاب جديد يمكن أن يستغله أولئك الذين يلوحون براية الليبرالية ؟ .. هل يدرى الوزير أن البريجادير جنرال يوانيديس

مستمر فى سجن كوريدالتوس فى سيطرته على اتباعه القادرين على تنفيذ ذلك الانقلاب ؟ » ...

هكذا لم تهادنه لحظة ، وذهبت تلاحقه كزنبور نحل طنان كلما حاول الانسان التخلص منه كلما زاد اصرارا على اللدغ !.. وكنت اظن ان أول الأمر انك تلاعبه وتتفكه على حسابه ، ولكننى عندما زرتك فى البرلمان اقتنعت بانك بعيد عن هذا .. بل كنت فى مواجهتك للوزير تبدو عابسا متجهما أجش الصوت ؟ ... أما هو على العكس من ذلك فكان يبدو هادئا رابط الجأش ، أذ يرد عليك قائلا ان الزميل الباسل لابد أن يتذرع بالصبر والتفهم ، لان الموقف دقيق وصعب ، وان السبب فى عدم استدعاء ضباط الاحتياط للخدمة لا يمكن بيانه والكشف عنه ، ولابيان الاسباب التى من أجلها لم يتم فصل اتباع يوانيديس ! ... وكل ما يمكن أن يقوله هو أن الامور ستجد طريقها الى التسوية شيئا فشيئا بما يؤدى الى ارتياح الجميع ؟ .. وهو يعرب عن شكره للزميل الشاب الباسل من اعماق القلب ، واذ أتاح للمجلس الاطلاع على مثل هذه المشكلة الخطيرة ! .. اما بصدد مسألة الانقلاب التى كررت ذكرها ، فلم يفه عنهـا بكلمة واحدة ! ..

وفى النهاية فان السؤال عن شقيقك جورج وموضوع وفاته ظل شغلك الشاغل ، وكنت على استعداد للتضحية بسنة من حياتك لمعرفة من الذين حرضوا الاسرائيليين على القبض عليه وتسليمه الى حكومة الطغيان ! .. كنت تريد أن تسترد الملف الذى لوح به ثيوفلياناكوس فى وجهك اثناء التحقيق معك ، اذ قال لك : « هذا هو الملف الخاص باخيك جورج ! .. هاهوذا ! .. الا تحب أن تقرأ ما هو مدون فيه ؟ » .. وكم كنت تود أن ترى رتبته العسكرية كملازم تعاد اليه بعد موته ، اذ أنهم جردوه منها بعد فراره من الجيش ! .. وبهذا تؤكد مبدا ان الهرب من الجيش فى بلد مظلوم بدكتاتورية عسكرية ليس بجريمة ، بل هو واجب !.. ومن ثم فانك جابهت افيروف فى هذا الموضوع بصوت أشد غلظة من المعتاد ووجه أكثر عبوسا وتجهما ؟ ولم يكن هذه المرة من قبيل السؤال بل كان بلهجة الامر : لابد أن يتتبع الوزير ملف الملازم جورج بناخوليس الذى استخدمت حياته ثمنا لمقايضة بين بابادوبولوس وبين الحكومة الاسرائيلية !.. لابد أن يرد الوزير الى الملازم جورج بناخوليس

الرتبة والاعتبار اللذين انكرتهما عليه حكومة الطغيان ! .. ولابد ان ينعى ذكرى هذا الضابط من المساءة والغبن ! ...
وقد طلب افيروف مهلة للبحث عن الملف ، ثم أجاب بعد ذلك انه لم يمكن العثور عليه ، أو بالاحرى انه لم يوجد ، ولكن حتى لو وجد فلا يمكن ان يعلن على الملأ ، لأن الوثائق السرية يجب صيانتها؟ .. وهنا فقدت السيطرة على اعصابك ، رفعت أصبعك صائحا فى وجهه ان شقيقك أصبح هاربا لكى لا يخدم الطغيان ، وان مثل هذا لايمكن ان يقال بالنسبة لاولئك الذين اليوم كانوا فى الحكومة لغرض التستر على المجرمين واخفاء جرائم أصدقائهم القدماء ، وانه فى ظل حكم ديمقراطى حقيقى يجب الا تكون الوثائق سرية ، وانه سيأتى يوم تتمكن فيه من ايجاد الوثائق ودمغه بالكذب هو وحكومته ! ... أو بالاحرى فانك سوف تجد الكثير ، من أمور تتعلق به عن كثب ، وعندئذ ستحدث (واترجيت) يكون لها دوى ! ..
لقد كان ردك عليه عنيفا بلا ترفق ، شديد الوعيد الى حد أنه انزعج وروع ترويعا ، حتى انه فى اليوم التالى عندما التقى بك خارج القاعة تقدم نحوك بذراعين ممدودتين قائلا : « يا صديقى العزيز ، ياصديقى الكريم ، هناك سوء فهم بيننا لابد من توضيحه ، فلماذا لا نتبادل العشاء معى ونتحدث فى الموضوع مثل الناس المتحضرين؟ .. أن زوجتى تود جدا أن تلقاك أيضا ، وابنتى هى من أشد المعجبات بك ! ... لكنك تظاهرت بعدم رؤية الذراعين الممدودتين واضعا يدك فى جيبك وممسكا بالغليون فى اليد الثانية ، وقلت له وانت تلوح له براس الغليون : « أصغ الى بعناية يا افيروف .. عندما يوجد برلمان فان اوصاب البلاد تناقش فى البرلمان : لا أثناء العشاء بين المشويات والحلوى ! » ...
وبعد أيام قلائل ، فى يوم ٢٤ فبراير ، قام الضباط الذين لم يعمل افيروف على تطهيرهم حقيقة بالمحاولة الانقلابية التى نوهت عنها ...
كانت خطة انقلاب ، لا محاولة انقلاب فعلية ، كما أكد الكثيرون ، ولم يكن من الصعب أحباطها ! .. ولكن بعد أسبوع عند عودتى الى اثينا الفيتك مازلت مشتت البال ، وأعطيتنى عشر ورقات مكتوبة بخط اليد قائلا : « اقرئى » .. « ماهى ؟ » .. « مادة لمقال أريد نشره فى ايطاليا » ... « ولماذا فى ايطاليا وليس اليونان ؟ » .. لأن احدا فى اليونان لن يقبل نشرها لى » ! ..

كان مقالا يدين افيروف بتدبير مؤامرة الانقلاب بالتعاون مع المخابرات الامريكية بقصد احكام سيطرته على البلاد والتخلص من المناوئين له ، مع التاكد بأن أفيروف سيكون الدكتاتور فى اليونان !.

قلت لك فى حيرة وانا أرد اليك الاوراق : « هل انت متأكد انك تريدنى أن أعد لك مقالا من هذه الأوراق ؟ » ... « كل التأكد » .. « وهل تدرك انهم سيطلبون منك ما يثبت صحة ما تقول ؟ » ... « عندى على ذلك أدلة مادية أدلة مستمدة من وثائق المخابرات (اى . اس . أيه) ذاتها ، وسأزودك بها بعد أيام معدودة » ... « حسن ، لنبدأ العمل فى مهمتنا اذن » ..

ونشر المقال بعد أسبوع تحت عنوان (أفيروف دكتاتور اليونان المقبل) ... غير أن فريقا من الناس لم يعجبهم المقال ... وكانت النتيجة أن الزائر الخفى الذى رسم صليبا على باب مكتبك مشفوعا بالتاريخ الذى يقول (١٧ نوفمبر ١٩٦٨ — ١٧ نوفمبر ١٩٧٤) — ترك هذه المرة على باب مكتبك الجديد فى شارع (كلوكترونى) ، رسالة اشد نذيرا ! ...

انك قد اخترت هذا المكتب الجديد فى عيد الميلاد لكى يكون مقرا ملائما يصلح لعملك ولاقامتك فى المدينة ، فضلا عن قربه من البرلمان ... وكان فى الطابق الرابع من بيت من الطراز القديم ، يضم خمس غرف مع مطبخ وحمام ، خصصت ثلاث منها مكاتب وغرف انتظار للقادمين اليك ، والرابعة مكتبا خاصا لك به دولاب بادراج سرية لحفظ الوثائق الهامة التى كنت تحرص عليها ، أما الغرف الباقية فقد افردت للنوم والجلوس ...

وفى هذا المساء كنا عائدين الى البيت بعد العشاء فى المطعم ونحن نتسامر راضيين ، فما أن خرجنا من المصعد فى طريقنا الى الشقة الوحيدة فى الطابق حتى فوجئنا برؤية صورة جمجمة كبيرة سوداء مرسومة على ورقة ملصقة على البيت تحت اسمك ! ..

اننى اتذكر جيدا انطباعاتك وقتها ... فقد جذبت ذراعك من فوق منكبى ووقفت بضع ثوان متحجرا ، ثم ابتعدت عنى ونزعت الورقة ووضعتها فى جيب سترتك ...

وبعدها وضعت المفاتيح فى القفل ، ودلفت على أطراف اصابعك الى داخل الغرف للتأكد من ان احدا لا يختبىء فى الداخل ، وبعد ذلك اقفلت الباب الخارجى واخذت تقول كما لو كنت تحدث

نفسك : « هذه مسألة غريبة ! . . . . اننا خرجنا فى الساعة العاشرة، وفى الساعة العاشرة يغلق باب المنزل ! . . . وهكذا فان شخصا دخل البيت قبل هذا الموعد وانتظر خروجنا . . . أو هو شخص عنده مفاتيح المنزل ! . . . وفى الحالتين هو شخص يدبر أمرا ! . . لابد أن أغير قفل الباب ! . . ولابد أيضا أن أتأكد ألا يفاجأنى أحد بمفردى ، خصوصا بعد حلول الظلام ! . . علينا فى مساء الغد أن نوجد ثلاثة او اربعة أفراد يحضرون لتناول العشاء معنا ! . . . لابد أن يوجد دائما شهود معى ! . . ليس واحدا فقط : ثلاثون أو أربعة أفراد يحضرون لتناول العشاء معنا ! . . لابد أن يوجد دائما شهود معى ! . . . ليس واحدا فقط : ثلاثة أو أربعة على الأقل ! » . . . « شهود على ماذا ؟ » . . « حادث ، تحرش ! . . لنفرض أن يهاجمنى سكير أو مدعى السكر وأنا أمشى فى شارع مهجور ، أو يحاول شخص مداهمتى بسيارة ، أو يقذف بى من فوق كوبرى ، أو طريق علوى ! . . ! . . فاذا لم يكن معى أى شهود ممن يمكن أن يثبت انني كنت ضحية تحرش أو مهاجمة ؟ . . يمكن أن يقولوا انه مجرد حادث ! . . واذا كان معى شاهد واحد فقط — أنت مثلا — ومات هذا الشاهد معى ؟! . . ثم يجب أيضا أن أعود الى البيت ليلا فى وقت متأخر . . لا أعود أبدا فيما بين منتصف الليل والثانية صباحا ، فهذه الفترة هى أخطر الساعات! . . وبعد الساعة الثانية صباحا يتعبون ويظنون اننى لن أعود فينصرفوا ؟ . . وفى حالة الخروج نترك أنوار الشقة مضاءة حتى يظنوا أن هناك أشخاصا فيها ! . . . ولابد من مراقبة السلالم ، لأنها أسوأ بقعة و . . » . .

كنت أنصت اليك غير مصدقة : فانك لم تتأثر قط مثل هذا فى أى وقت سابق ، حتى تخطط لاتخاذ الاحتياطات بمثل هذا التفصيل ، متفكرا فى كل منفذ ومصدر للاعتداء عليك ! . . فهل كان معنى ذلك أن الخطر لم يعد فجاة يستهويك ، ولم يعد مبعث حيويتك وقوام وجودك ؟ وبدونه تذوى وتفتر ؟! أم هى أزمة عارضة ؟! أجل ؟ . . لابد انها أزمة عارضة ! . . . بيد أنك فى اليوم التالى أخذت بهذه التحوطات فعلا ، ولم تتخل عنها الا قبل أيام قلائل من مقتلك ! . .

ولقد تغيرت بعد مناسبة الجمجمة فى كل أحوالك . . . وصرت تتأثر بصورة تبلغ حد الهستيريا وتنحو الى الغضب بأشد مما

يقتضيه الموقف ، وتتعذب عذابا يثير الاشفاق ، بل تتهادى فى نوبات من العناد تتركنى فى حيرة وبلبلة مما يعتريك ! ...

وابعث من هذا على الغرابة انك قلت لى يوما بعد زيارة سرية الى قبرص اجتمعنا فيها مع الأسقف مكاريوس : « لا تنسى أن تضمنى أسرة الينا مكاريوس فى الكتاب ! » ... « أى كتاب ؟ » .. « الكتاب الذى ستكتبينه بعد موتى ! » ... « أى موت ؟ انك لن تموت ، ولن أكتب انا أى كتاب ! » ... « قلبى يحـــدثنى اننى سأموت ، وسوف تكتبين ذلك الكتاب » « وماذا لو اننى مت قبلك أو معك ؟ » « لن تموتى معى أو قبلى ! .. والأيام بيننا ! » ...

(٢)

كنت تحس أن ذلك الصيف قدر أن يكون آخر صيف فى حياتك ! .. فكل ألوان الاحداث وقعت فى غضون ذلك الصيف المستطير ! ...

كانت محاكمة بابا دوبولوس وبوانيديس وأفراد حكم الطغيان قد بدأت فعلا ، مترامنة مع محاكمة ثيوفلياناكوس وهازيزيكيس وعصبة المعذبين ، وما أن عدنا من قبرص حتى وجدنا أثينا تمزقها الاضطرابات التى أشعلتها النقابات والاتحادات بصورة غريبة وغير مواتية ، اذ انها قامت فى ذات الأيام التى كان ينبغى للمدينة أن تستقبل فيها بالفرحة رؤية الطغاة السابقين امام المحكمة ، ولاسيما أن المظاهرات اقترنت بأعمال العنف ، والقمع المضاد من جانب السلطات ! ..

على أن موقفك من هذه المحاكمات كان متسما بغرابة مسلكك حيالها الى حد بلغ مبلغ النقائض لقد حالت أعمالى الصحفية دون مرافقتى لك الى المحكمة فى يوم ذهابك اليها ... وما أن تلاقينا فى نهاية اليوم حتى الفيتك بادى الانفعال والتأثر ، وهتفت تقول لى : « اننى رأيته ! .. رأيتهم كلهم ! » ... « وهل رأوك هم أيضا ؟ » ... « نعم ... وأول من أبصرنى كان لاداس ــ وهو الذى ظن اننى جورج أخى صباح يوم الاقدام على محاولة الاغتيال وقال لى : (اصغ الى أيها الملازم ، انا أعرف أخاك الكسندر ، وهو انسان نبيه ، ولو كان هنا ، لنصحك بالا تتلاعب أمام لاداس) .. وما أن لمحنى هذه المرة حتى وثب فى مكانه كأنما لدغته نحلة وقد اصفر وجهه ! .. ثم وضع يده على كتف بوانيديس وهمس له بكلام ! ... فتلفت بوانيديس حوله ، تلتمس عيناه عينى ، وسرعان ما نقل النبأ الى بابا دوبولوس ! .. أما بابادوبولوس فلم ينزعج ، بل ظل فى جلسته مشدود القامة ! ... وما لبث أن حرك حدقتى عينيه يشير دون أن يتململ أو يحرك رأسه قيد أنمله ودون أن تختلج قسمات وجهه ! .. ثم أبصرنى ! .. فشعرت بالتأذى ... »

... « شعرت بالتأذى ؟! » ... « نعم ... كانت نظراته جامدة خامدة كنظرات محتضر ، ولونه مغبرا ، وان حرص على أن يبدو معتدا متعاليا محتفظا بوقاره وكرامته ! ... فكرت لحظتهـــا فى موقفى وأنا مثله أمام المحكمة ، ولكن مقيد اليدين ، فى حراســـة جنديين ، تعلونى كهسوة فضفاضة ، فى حين جلس هو بادى الاناقة ، فى ملابسه المكوية وبوجه حليق وشارب منمق ! .. ورغـــم ذلـــك شعرت بالرثاء له فى هذا الموقف المذل ، ونسيت اننى كنت أســـعى لاغتياله ، وبدا لى أن اعتباره عدوا لى أصبح لا يثير اهتمـــــامى ن ! ...

« وماذا عن يوأنيديس ؟ » ... « آه ، يوأنيدس هو دائمـــا يوانيديس ... بارد ، غير مكترث ، واثق من نفسه ، له ذلك الوجه المنغلق المتكبر كرهبان محاكم التفتيش ! ... أنه لن يستســـلم قط ، انه لن يستسلم قط ، انه لن يسلك قط مسلك رجل ممتهن مدحور ! ... أننى أفهم فى قرارة نفسى طبيعة يوأنيدس ... فمـــا هو الا ثمرة الطبقة السياسية التى انجبته : فى عماها ، وجهالتها ،و ولا شعورها بالمسئولية ، وأكاذيبها ، ونفاقها ! .. كلا ! .. حتى يوانيدس أيضا لا أعده الآن عدوا لى ! ... اننى لم أعد أهتم بمعاملة يوانيديس كعدو لى ... »

ولقد كنت تريد حقا أن تكلم الاثنين ، لتعلم منهما مكان اخفـــاء ملفات المخابرات (آى . اس . ايه) ، ولتحـــوذ على الأدلة التى تدين افيروف ... ولم يكن عسيرا عليك فى الواقع أن تدنو منهما، فلم يكونا مع بقية المتهمين فى قفص الاتهام ، بل كانا فى وســـــط قاعة المحاكمة ، فى نطاق دائرة من الحرس المخفف ... غير ذلـــك ما أن دخلت وشعرت بانك هدف أضواء مصورى الصحف وتعليقات الصحفيين وتهامس الجمهور اذ يقولون : هذا هو ! ... انه هنا ! .. حتى انتابك الحياء ، وانكمشت خلف عمود فى القاعة ، ولم تتقـــدم خطوة اخرى ! ... خصوصا وقد ارتفعت صيحة من امرأة بين الحضور تصرخ : « بابادوبولوس قاتل ! ... يوانيديس سفاح ! ... بالديدان القذرة ! .. الموت لهم ! .. »

بل اقرب من هذا انك قلت لى : « أنا لا أشمت فى اناس زال عنهم السلطان ، حتى ولو كانوا طغاة من قبل ! .. اننى لن أعود الى قاعة المحكمة مرة أخرى ! » ...

وكنت عند وعدك ، حتى لقد رفضت ايضا شـــــهود النطق

بالحكم قائلا : « أنني سمعت مرة النطق بالحكم ، والقاضي يتلو حكم الاعدام ! ... فأنا أعرف ما معنى أن يحكم على انسان بالاعدام !»..

انني ذهبت الى المحكمة مكانك ، وفى ذهنى أن استخلص حقيقة الحال ، خلافا لاسلوبك الذى يخلط الواقع بالتصورات والانفعالات ! ... كنت موقنة أول كل شيء أنه لا أحد بين المتهمين مستهدف للوقوف امام كتيبة الاعدام : فقد كان حتى الاطفال يعرفون أن الحكم بالاعدام لن يكون الا اجراء رسميا ، وبعد ساعة من صدرى سيصدر كرافليس أوامره بالعفو عن المحكوم عليهم ! ... والواقع ان محكمة (كوريدالوس) كانت تبدو أقرب الى مسرح تدور فيه مسرحية معروف ختامها سلفا ! ... حتى لقد كان المهتمون يتبادلون الضحك الخافت وهم أبعد ما يكون عن التأزم والجد ! ... بل انهم راحوا يتسلون بالتطلع الى فى فضول ولسان حالهم يقول : (انه لم يحضر ... انما حضرت هى !) ... أما يوأنيديس الصارم فما لبث أن نهض من مكانه وشبك ذراعيه خلف ظهره وتقدم نحوى فى مكانى المنعزل خلف منصة المدعى العام بخطوات (الروبوت) ... ثم توقف رافع الصدر فى صورة عسكرية عدائية ، وراح يحدق الى بنظرات قارسة من عينيه الزرقاوين !... فقابلت تحديقه بمثله ، ودام ذلك هنيهات مديدة الى أن غمغم بلغته كلمات لم أستطع أن أفهمها ، وفى النهاية غض بصره واستدار عائدا الى مكانه بارز الصدر مشبك الذراعين من خلف !...

قلت لك وقتها : « ترى ما الذى قاله وقتئذ ؟ » ... فقلت مبتسما : « أنا أعرف » ... « لا يمكن ، فلم يكن أحد منصتا عن كثب » .. « رغم ذلك فأنا اعرف » ... « أحقا ؟ تكلم اذن .. ماذا قال ؟ » .. « قال — بلغيه سلامى » ! ..

وصحبتنى الى المطعم لتناول العشاء ، ولا حديث لك الا التنديد بحكم المحكمة !...

***

لقد تحير الناس فى فهمك ... وما كان لأحد ان يقر الموقف الذى اتخذته حيال الرجال الذين أرادوا أن يعدموك والذين تعاملهم الآن بالرحمة والرفق ! ... منهم من قال : أنه يستطيب أن يسلك مسلك التناقض ! ... هو نفسه لا يعرف ماذا يريد ! ... وكثيرا ما فكرت مثل تفكيرهم ، فى ذلك الصيف : فما من مرة قبل ذلك الصيف

استشعرت بأتم الوضوح دراما المصاحبة فى تيه الصحراء لرجل يدق عنا كنهه لأنه يضم فى شخصه كينونة رجال عديدين فى وقت واحد، ومع ذلك فكلهم غير مترابطين ولا متجانسين ، وكلهم تلفهم النقائض التى تتسم بالازدواجية بين الصفاء واللبس ، بين الحسن والقبح، بين الخير والسوء ، بين وجه طفل برىء ووجه عجوز مرذول ، بين عقل متعلق بالماضى وعقل مستشرق للمستقبل ! ... وانما تأتى بعد موتك فقط وأنا بسبيل اعادة بناء لبنات شخصيتك ـ ان استطعت أن افهم أن كل فعل من افعالك حسبته انا أو غيرى متسما بالابهام والالتواء كانت له علته ، وان الصورة كلها كانت مركبة فى نهج واحد دقيق لاعدج فيه ... ومثال ذلك مسلكك حيال محاكمة ثيو فلياناكوس وهازيزيكيس وزمرة أبالسة التعذيب ! ... أن هذه المحاكمة لم تستنكرها ، مما كان مفارقة صارخة بين موقفك منها وموقفك من محاكمة بابا دوبولوس ويوانيديس وأعضاء طغمة الطغيــان !... ولم يكن ذلك لأن المحاكمة الجديدة كانت مستندة الى جــــرائم ثابتة لا نكران لها فقط ، وانما كذلك لكى تكون نذيرا لتلك البــلاد التى تستخدم التعذيب نهجا ! ... ومع ذلك فقد دعيت للمثول أمام المحكمة ثلاث مرات للشهادة ، وثلاث مرات توسلت بشــتى المعاذير للتخلف عن الحضور : « أنا مريض بالحمى ... انا مشغول ... أنا فى أيطاليا » ! ..

لم أتمالك أن قلت لك أخيرا : « لكنك اهم شاهد يااليكوس ! ... أنت الانسان الذى أثار أشد الاهتمام ! » .. « عارف » ... « متى تذهب اذن ؟ » ... « لا أعرف » ...

ثم فجأة دق جرس التليفون حيث كنت موجودة وقلت لى : « هل ستأتين معى ؟ » غدا سأذهب الى المحكمة » ...

كان قرارك هذا بسبب الشائعة التى تواترت بانهــم يريدون أن يقللوا الى أدنى حد الاعلان عن ظهورك أمام المحكمة واداء الشهادة، وانه فى اليوم الذى ستحضر فيه فان القاضى سوف يمنع دخــول مصورى الصحافة والتليفزيون ... فقلت لك : « غير معقول ! ... من يمكن أن يطلب منه أن يفعل شيئا كهذا يا اليكوس ؟! » ... « هو ... هو ؟ » .. « من ؟ » .. « افيروف ! .. انهــا محكمة عسكرية والمحاكم العسكرية تخضع لوزير الدفاع !.. » .. « وماذا ستفعل لمنع هذا ؟ » .. « لا شىء .. يروق لى انيفعلوا ذلك!».

عجبت كيف يروق لك هذا ، بيد أننى لم البث ان زال عجبى حين تقدمت فى قاعة المحكمة الضيقة بخلاف القاعة التى حوكم أمامها بابادوبولوس وطغمته ، ووقفت أمام المنصة تضبط وضع الميكروفون قائلا لرئيس المحكمـــــة دون ان تلقى نظرة على ثيوفلينـــانا كوس وهازيزيكيس وباقى المتهمين التسعة والعشرين : « لابد أن أطلب من هيئة المحكمة .. » ... عندئذ رأيت وجوه القضاه الجامدة تلتهب ذهولا ، بينما بادر كبير القضاة يقول وقد شحب وجهه : « لن تطلب أى شىء ! ... أن المحكمة هى التى تطلب ! أذكر فقط متى أين سجنت !! .. وقائع ، لا آراء ! .. مفهوم ؟ » ...

لقد حبست أنفاسى ، فى انتظار الانفجار ...

رأيتك على الأثر ترفع ألفليون الفارغ من فمك وتشهره كحربة وانت تقـــول : « اننى سجنت منذ ٣١ أغسطس ١٩٦٨ حتى ٢١ اغسطس ١٩٧٣ ياصاحب الفخامة ، وسأذكر حقائق محـــددة ، وحقائق فقط ياصاحب الفخامة ، وهى مع ذلك معروفة فعـــلا للمحكمة ... وتوفيرا للوقت ما عليكم الا أن تقرأوا المساوىء التى نشرتها منذ سبع سنوات ، والتى تجاهلتها الجهات القضـــائية العاملة فى خدمة بابادوبولوس ! .. أن هذه المساوىء موجـــودة فى الملفات هنا تحت انفكم ! ... غير اننى اضع شرطا واحدا لتكرار بيان هذه الحقائق : وهو أن تخاطبونى بادب وباســـمى ولقبى ، ومناداتى بالسيد أو النائب المحترم ، وأن تفسروا لى السبب فى منع مصورى الصحافة والتليفزيون من حضور شهادتى ... هل أمر وزير دفاعكم ، ايفانجلوس افيروف بأن تفعلوا هذا ؟ » .. « أيهـــا الشاهد ! » ......

وبلا اكتراث بصيحة رئيس المحكمة ، لوحت فى الهواء مرتين بفليونك قائلا : « اننى أكرر السؤال ياصاحب الفخامة : هل أمر وزير دفاعكم ، ايفانجلوس افيروف بان تفعلوا هذا ؟ ... » ... « أيها الشاهد ! أنا الذى يوجه الاسئلة هنا ! » .. « وانا ســـأرد عليها ، بشرط أن تفسر ما تريد » ... « أيها الشاهد ! ... انك تنسى اين أنت ! ... » .... « أنا لا أنسى هذا ... انا امـــام محكمة عسكرية لكي اشهد على جرائم رجال كافحتهم طوال سنوات مديدة ، فى حين كانت هيئات قضائية مثلكم تخدم تحت امرتهم ! .. انا أمام محكمة يحاكمون فيها جلادى تعذيب أصدرتم الاحكـــام

على ضحاياهم ، مطبقين قوانين الدكتاتورية ـ محكمة أعامل فيها باقل من الاحترام الذى عوملت به من قضاة بابادوبولوس .. »
... « الزم الهدوء ! » ... « مرة أخرى تخاطبنى بغير احترام ياصاحب الفخامة ! » ... « الزم الهدوء ! » ... « انك لازلت تخاطبنى بغير احترام ، واذا استمررت فى هذا يا (افيروفاكى) الصغير ، فاننى ساخاطبك بالاسلوب الذى خاطبت به معا قضاة بابادوبولوس ! ... »

كان القضاة بزيهم الرسمى ينصتون الى هذا فى دهشة متزايدة، بثيابهم الفرق لكل جملة ! .. وبدأ المتهمون متحجرين ، ومثلهم محاموهم ! ... اما الصحفيون فذهبوا يكتبون ويكتبون وقد اعتراهم انفعال غامر ، حتى كنت اتساءل فى نفسى متى تكون مهادنة ! ... لكن المهادنة لم تحدث ... واستمرت المعركة مضطرمة بين الصياح والجلبة وتقارع الأصوات المحتدمة ـ المعركة التى كنت تخطط لها وتنتظرها ! ..

« أيها الشاهد ! .. اننى أريد أن أسمع ماذا حدث بعد القبض عليك ! ... هذا ، ولا شيء آخر ! » ... « ليس قبل أن تفسر يا) افيروفاكى (لماذا منعت حضور مصورى الصحافة والتليفزيون الى هنا ! ... ليس حتى تخاطبنى باحترام ! » ... « ان اسمى ليس (افيروفاكى) ! ما معنى (افيروفاكى) ؟ « انت تعرف هذا تماما (افيروفاكى) ! ... معناها خادم افيروف ! » ... « المحكمة تتعرض للسب هنا ! سكوت ! » ... « تقول (سكوت) لى يا (افيروفاكى) ؟ انهم لم يستطيعوا اسكاتى بوسائل تعذيبهم، وبكتيبة اعدامهم ، وانت تريد أن تضع كمامة على فمى ؟ أنت ؟ .. « انا لا أضع كمامة على فمك ! .. انا استجوبك طبعا للاجراءات المقررة ! » ... « الاجراءات المقررة لا تسمح لك بمخاطبتى كطفل ، يا (افيروفاكى) ! ... « الحقائق ! .. أريد الحقائق ! ... » ... « اطلع عليها فى الملف امامك ، يا (افيروفاكى) ! ... » ...

لقد رضخ ... ربما لأنه لا يستطيع اعتقالك دون موافقة البرلمان ، أو لأن الفضيحة قد تضر به ، وربما لأنه بدأ يتعب ويدرك بانه لن يقوى على الصمود هكذا ، فرضخ ! .. »

لقد جلس فى مقعده منكمشا على نفسه ، وما لبث الآن ان خاطبك بلهجة رسمية ، فقال باستعطاف . « اناشدك أن تهدأ يا مستر

بناجوليس ... لا تأخذ الكلام على هذا المحمل ، وتفضل بالاجابة على السؤال الذى وجهته اليك ، كرما منك » ..

فكان ان تقبلت استسلامه ، وتخليت عن محاولتك حمله على الاعتراف لماذا منع مصورى الصحافة والتليفزيون من دخول القاعة وعلى كل حال فقد قلت ما كنت تريد أن تقوله .. وهكذا انزلت فليونك ، واخرجت يدك من جيبك ، وبدأت تسرد الوان التعذيب الذى وقع عليك فيما بين ١٥ اغسطس ١٩٦٨ و ٢١ اغسطس ١٩٧٣ — ولكن فى نبرات مملولة واهنة ، وكأنك تؤدى دورا فرض عليك ولا ترى له ضرورة ، حتى ركزت فى نصف ساعة ما كان غيرك يستغرقه فى ساعات ، وحتى ان القاضى قال يستحثك بعد أن لزمت الصمت قائلا بلهجة اقرب الى المودة : « أستمر من فضلك » ..

« كلا ! .. هذا يكفى ، وليس عندى ما اضيفه » ..

خيم على القاعة صمت لا يصدق ! ... وبدا كأن القضاة والمحامين ومندوبى الاعلام تسمروا من فرط الدهشة والذهول ، حتى قال رئيس المحكمة يستحثك مرة اخرى : « ربما تكون قد نسيت شيئا ؟ » ... « أنا لا انسى أبدا ... ولكن يكفى هذا ، كما قلت ؟ » ...

وساد الصمت مرة اخرى .... فقال القاضى : « هل يرغب اى واحد أن يوجه اسئلة الى الشاهد المحترم ؟ » ...

عندئذ تحرك ثيو فليناكوس متثاقلا بقوامه الضخم ، متكئا على ظهر المقعد الذى جلست فيه زوجته المحامية ، ووجه كلامه اليك قائلا بصوت مفعم بالأسى : « اليكوس !.. اليكوس !.. عندى لك كلام خاص ! ... » فنهره القاضى قائلا : « الكلام يوجه الى المحكمة، وليس الى الشهود ؟ » ..

فاطرق ثيو فليناكوس متنهدا ، ثم انشأ يقول « أن اليكوس ، النائب المحترم بناجوليس ، لم يقل كل شيء كان يمكن أن يقوله ... وان ما قاله لهو صحيح ... وأرجو منه أن يصدق اننى آسف ، واننا آسفون لاننا عاملناه المعاملة التى عاملناه بها ! ... اننى لأرجوه ان يصدق اننى احترمه كل الاحترام ، واننى كنت احترمه دائما ، وكنا نحترمه جميعا احتراما تاما ، لأن ! .... » وهنا تقطع صوته، ثم استطرد على الاثر باشد قوة : « ... لانه ايها السادة هو الانسان الوحيد الذى كان ندا لنا ! ... الانسان الوحيد الذى لم يحن رأسه ابدا ! » ..

إنك لم تبد أدنى علامة على انك سمعت ، ولم تختلج قسمات وجهك أدنى اختلاج ... ولبثت على هذه الحال تنتظر أن تأذن لك المحكمة بالانصراف ... وعندما اذنت تركت منصة الشهود وسرت في المشي بخطاك الوئيدة موليا ظهرك نحو ثيوفلياناكوس الذى لم يظفر منك حتى بنظرة واحدة ، وذراعك الايسر مثنى عند قلبك ، ويدك قابضة على الغليون ، وراسك شامخ ، وعيناك محدقتان ، حتى غادرت قاعة المحكمة بخطى رتيبة وانية ! ...

وتتابعت المحاكمات واحدة تلو الاخرى ، وعلى هذا النحو توالت شهادتك عن المتهمين واحدا واحداً ، في ايجاز بالغ ، وكنت أقرب الى الدفاع عن المتهمين خصوصا أصاغرهم ، باعتبارهم انما ينفذون الاوامر الصادرة اليهم من رؤسائهم ، حتى أن ثيوفلياناكوس هتف امام المحكمة .. « برافو اليكوس !. » تهانى لك يا اليكوس » .. ولم يتمالك عندما أذنت لك المحكمة بالانصراف أن اندفع نحوك قائلا : « اسمح لى أن أقدم اليك زوجتي يا اليكوس ؟ » .. واذا الزوجة الشقراء المصبوغة الشفتين تعترض طريقك مادة اليك يدها اليمنى ... فلم تردها في النهاية ... وقبل أن تدرك ماحدث شعرت في مكان أصابعها الرقيقة أصابع ثيوفلياناكوس الغليظة وهو يقول لك « عزيزى اليكوس ... اسمح لى أيضا أن أصافح يدك ! » ....

لقد حيرني اتجاهك الغريب في التماس الاعذار للمهتمين ! ... وعندما فاتحتك في هذا قلت لى بابتسامة غامضة « كم من الغرائب والطرائف يحدث في مثل هذه المحاكمات ؟ ... والايام كفيلة بجلاء كل غموض ! » ....

ولم تشأ أن تزيد بيانا ! ..

القسم الخامس

(١)

طالعنا فصل الخريف ، وعدت الى اثينا بعد انتهاء المحاكمات ومازلت فى حيرة من تصرفاتك المتناقضة .. وكثيرا ما تملكنى خلال تلك الأشهر الأربعة عشر من حياتنا المشتركة الضيق والكلل من السير فى بيداثك الملتوية المسالك والدروب ، أخفف من وحدتك دون أن أنال نصيبى من راحة البال ، حتى لم أجد بدا من الابتعاد عنك فترة انهماكا فى مهامى الصحفية فى مختلف عواصم العالم من لندن وباريس ونيويورك ـ فترة لعينة استسلمت فيها للافراط فى الشرب والمجون مع رفاق السوء وحثالة الغوانى ـ الى أن ابرقت لى تدعونى بالحاح الى العودة لأمور جسام ... فلم أملك الا ان البى الدعوة اشفاقا عليك وانقاذا لك من التردى فى مباذل لا تليق بمثلك ! ...

والآن ونحن متعانقان فى الفراش ، لقيتك ترمقنى بنظرات معنوية كانما تريد أن تفضى الى بشىء خطير .. وأخيرا رحت تقول : « انه ذلك العقرب ! .. هو ليس رجلا ، بل عقرب بمعنى الكلمة ! » .. « من هو الذى تتكلم عنه ؟ » .. « اننى اتكلم عن هازيزيكيس ... عن الميجور نيكوس هازيز يكيس ... أن ثيوفلياناكوس كان ملاكا صغيرا بالقياس اليه ! .. أن ثيوفلياناكوس كان يضربنى فقط ويعذب جسدى فقط !.. لكن ذلك العقرب !.. انه كان يلدغنى بزبانه فينفذ سمه الى روحى ! .. » .. « ياأليكوس .. لماذا تفكر من جديد فى هذه الأمور ؟ » .. « .. وأسلوبه فى التهكم على بعد أن حكموا على بالاعدام ! .. كانت الدموع تغالبنى من فرط العذاب النفسى ، وما كان ابشع ان ابكى امام عقرب ! .. لقد فقدت أعصابى وصرخت فى وجهه . (اننى لن أموت ياهازيزيكيس ! .. وسيأتى يوم ينتهى بك الأمر الى السجن ، وفى السجن ساضاجع زوجتك ياهازيزيكس حتى ينزف دمها وتبرز أحشاؤها ! .. ولن تستطيع شيئا يا هازيزيكيس الا أن تبكى كما أبكى الآن !) .. » « يا أليكوس !.. »

.. « فما كان الا أن ضحك ، وقال انه غير متزوج » .. « الا تريد يا اليكوس أن تقول لى لماذا تفكر فجاة فى هذه الأمور ؟ .. » .. « لأن .. هل تتذكرين عندما قلت لك كم من الغرائب والطرائف تحدث فى مثل تلك المحاكمات ؟ .. ؟ » .. « نعم » .. « حسن .. لقد تحققت أن مفتاح الموقف هنا .. أن المحامين المدافعين عنه كانوا يتصرفون بوقاحة شديدة .. كانوا يهددون دائما بكشف أسرار ، ملوحين بأوراق لم يقدموها للمحكمة كادلة ... فقمت بتحريات خاصة تبين منها انهم كانوا يعاملونه فى السجن معاملة خاصة : مع راديو ، وتليفزيون ، وزيارات من الأقارب والأصدقاء ، من بينهم من يدعى كونتاس وهوبليونير يقوم بتمويل الجماعات الفاشية ... وكان كل من الزائرين يأتى بمجموعات من الأوراق المصورة كان الميجور يدرسها باهتمام ... كانت صورا من وثائق المخـــابرات (اى . اس . ايه) ... وهى الوثائق الى أريدها » .. « آه ! » .. « ولسوف أحصل عليها » .. « وهل تعرف أين يحتفظ بها » « كلا ... لكنى أعـرف من يحتفـــظ بهـــا » ... ... « من؟ » ... « زوجتـــه » ... « قلت انه غير متـــزواج ؟! » ... « غير متزوج وقتها .. أما الآن فهو متزوج .. متزوج وعاشق .. هى فتاة حسناء كما يبدو .. أصغر سنا منه بكثير ! .. ابنة مقاتل فى (المقاومة) ، تصورى ! .. لقد تقابلا عنـــدما كان والدها فى السجن ، وتزوجا منذ ثلاث أو أربع سنوات » .. « هل تعرفها ؟ » ... « لا .. لم ارهاقط » .. « والآن ماذا ؟ » .. « المســـالة بسيطة .. ساعمل على معرفتها ! » ... « واذا لم ترد هى أن تعمل على معرفتك ؟ » .. « سوف تفعل .. سوف تفعل ! » ... « واذا لم ترد أن تخبرك أين تحتفظ بالوثائق ؟ » « ســـوف تخبرنى ! ... سوف تخبرنى ! .. بكافة الوسائل ، مشروعة أو غير مشروعة ! » ... « اليكوس ! ... » .. « الم يقبل سارتر فى مسرحيته (الايدى القذرة) .. : لا شىء غير مشروع اذا كان الهدف مشروعا؟ » ... « اليكوس ! » ... امامى مهمة شائقة ! .. ساقول لك هذا فقط : هناك مسالة واحدة تقلقنى بشان هذه المهمة : عدم وجـود وسيلة انتقال تحت يدى ، لكى أكون قادرا على التحرك كلما احتجب، بدلا من اضطرارى الى الاعتماد على سيارات الاجرة أو السيارات الخاصة المستعارة .. حتى صاحبك دون كيشوت لم يسع ابـدا على قدميه ! ... وهكذا فأنا بحاجة الى حصان ، أعنى سيارة ! .. فهل تزودينني بسيارة ؟ » ...

كان حديثك عن المهمة السرية واقترانهـــا بزوجة هازبزيكس واشارتك الي مسرحية (الايدى القذرة) وتكليفي بايجاد سيارة لك ــ كان هذا كله مثار ضيقي الشديد بل .. وحنقي ايضا خصوصا لما تضمنه من تلميحات شائنة وغمزات فاضحة ، حتى لم اتمالك ان جعلت استعرض علاقتنا المشتركة وما تسببه لي من مآزق لا تقف عند حد ، ومن ثم قررت ان ابتعد عنك فترة حتى تثوب الى نفسك وتكف عن هذه المزالق الخطرة ، وهكذا انتهزت فرصة ذهابك الى البرلمان لحضور جلسة خاصة علي حد قولك واعتذرت عن مرافقتك اليها ، وما أن غادرت انت الشقة حتى جمعت امتعتي في حقيبـــة كبيرة وقصدت الي المطار للسفر الى نيويورك بأول طائرة دون ان اترك رسالة الا مفاتيح المسكن ...

وفي انتظاري باستراحة المطار لموعد قيام الطـائرة ، فوجئت برؤيتك امامي فجاة في حالة مروعة من الغضب والتحفز وفي يدك مفاتيح الشقة التي تركتها لك تصلصل قرب اذني وصوتك يتردد في حشرجة : « ماذا فعلت ، وماذا صدر مني ؟! .. » ..

في الحق انني جمدت مكاني وقد تملكني الخوف من هياجك المتنمرة ولهجتك النارية حتي لم احر جوابا ! .. فرحت تقول : « لا اريد سيارة منك ولا من غيرك ! .. لن احتاج الى احد او اى شيء ! ... ثم ، قفي عندما اخاطبك ! » ..

بقيت جالسة وانا احدق اليك ... وفي هذه اللحظة ارتفـــع نداء رقيق يدعو ركاب طائرة نيويورك الي باب المسافرين ، وكان علي ان اتحرك ... غير انني اعتزمت الا اذعن لأمرك بالوقوف امامك مهما يكن ! .. ورايت وجهك يمتقع ، وسددت الى حلقة المفاتيح قائلا : « اذا تحركت ، اذا ركبت تلك الطائرة ، فسأقتلك ! » ..

وهنا نهضت ، واخذت حقيبتي ، وخرجت عن صيحتي قائلة : « لتحل علي وعليك اللعنة اذا انا وطئت قدماي هذه المدينة القذرة مرة اخرى ! »

ثم ادرت لك ظهرى واتجهت الي باب المدرج ، وما كدت ادرك صف المسافرين حتى شعرت بقبضة تلطمني في رئتي لطمة عنيفة مشفوعة بصوتك :« قفي مكانك فورا ! » .. فتابعت خطوالي ، وفي التو شعرت بلطمة ثانية علي ذات الرئة ، وكانت من الشدة هذه المرة بما جعلني اشهق واهتز في مكاني ، الى حد ان احد المسافرين

خف الى جانبي يروم مساعدتي ، بيد أنني اوقفه باشارة ، وتطلعت الى وجهك بنظرة صارمة .. كانت قطرات العرق تنحدر على جبينك وانفك وشاربك .. وبدت عيناك مفجعتين بالجزع كأنك توشك على البكاء .. ومضت ثوان معدودة قبل أن افوه بتلك الكلمـــات التى اعتملت فى صدرى ، ثم لفظتها فى النهاية : « أتمنى لك الموت !..» وبهذه الأمنية اتجهت الى الطائرة دون أن انثنى ! ..

كنت موقنة أن عودتى الى نيويورك واستئناف ما انقطـع من حياتى فى مسكنى الأنيق فى المدينة المتلألئة والانهماك فى أعمـــالى الصحفية ، كل ذلك كفيل بان ينسينى صحبتى المثيرة معك ، حتى امضيت اسبوعين كاملين انعم فيها بالحياة الوادعة المترفة البعيـدة عن المغامرات السياسية العاصفة الحافلة بالمخاطر والأهوال ! ..

وشد ما كانت المفاجاة عندما استيقظت فى فجر اليوم السادس عشر على رنين جرس التليفون وعلى صوتك يقول : « هذا انا !..»..

أن من المفاجآت ما يفقد الانسان كل توازن ويستل منـــه كل عزم ، وسرعان ما ينقلب كل شىء راسا على عقب ، ويتحول من النقيض الى النقيض ! ..

الفيتنى اقول وانا اموج فى دوامة عاتية من المشــاعر المختلطة المتشابكة : « ماذا تريد ؟ .. اين انت ؟ » .. « انا هنا ، فى مدريد ... أسمعى ! .. انا واقع فى ورطة ! .. ومحتاج الى المساعدة!» ... « فى مدريد !؟ .. وفى ورطة !؟ .. انا لا أصدقك ! » .. « لابد أن تصدقينى ياحبيبة الروح ! .. كلامى حقيقى ! .. كلامى حقيقى ؟ .. هى ورطة شنيعة .. شنيعة فعلا ! .. ولماذا اتكلم تليفونيا اذا لم تكن المسالة هكذا ؟ .. اصغى الى ! .. » « من اخبرك اننى فى نيويورك ؟ » .. « لا أحد .. انا خمنت .. انـــا حاولت .. لا تضيعى الوقت فى الكلام الكلام ياحبيبة الروح ليست امامى سوى دقائق قليلة ! .. أصغى الى » ... « لاباس ... انا مصغية » ... « الورطة هى اننى جئت الى مدريد بجواز سفر زائف ! .. وقد نسيت حافظتى مع جواز السفر الحقيقى فى مركز شرطة المطار » .. « ماذا تقول بحق الشيطان ؟ .. » .. « ما اقوله .. ؟ تقاطعينى ياحبيبة الروح ! .. ولم الاحظ هذا الا عنـــدما استدعونى بواسطة الميكروفون وجاء أحد رجال الشرطة الى هنـــا فى قاعة انتظار الطائرات ..

وكان يحمل معه حافظة أوراقي ! فماذا كان على أن أفعل ؟! ... هل كنت اتركها معه ؟ .. انني اخذتها فعلا ! .. أما الآن فسيعرفون اذا لم يكونوا اغبياء انني أنا ، وانني هنا ! ... مفهوم ؟ .. ثم ان سفرى الفي بسبب تعطل محرك الطائرة ، ولابد من انتظار طائرة اخرى ، وقد عرضوا علينا أن يعودوا بنا الى المدينة ، ولكن الافضل لى أن ابقى هنا ... والآن سأقول لك ماذا يجب أن تفعلى .. » .. « أنا يا اليكوس ؟! وماذا يمكن أن افعل من نيويورك ؟ » هل تدرك أن المحيط الاطلنطى يفصل بين مدريد ونيويورك ؟ » ... « طبعا ادرك ياحبيبة الروح ، لكن لايهم ! .. دعيني أتكلم ! .. اصغى الى » ... « حسن .. أنا مصغية » ... « لابد أن تأخذى الطائرة التالية المسافرة الى أوربا والتى تتوقف فى مدريد .. من نيويورك هناك طائرات كثيرة تتوقف فى مدريد .. وأنا لن أتحرك من قاعة الانتظار هذه الا اذا اعتقلونى ... وسأعتمد على الارتباك السائد الآن فى المطار والذى سوف يستمر حتى صباح الغد ، لانهم يقومون بالغاء سفريات كثيرة ، وأن كنت لا أعرف السبب ؟ .. ان قاعة الانتظار هى أيضا صالة (الترانزيت) ، وعند وصولك تتجهين الى هذه الصالة ... وبغير لفت الأنظار اليك تأتين الى مكانى وتدسين فى يدى بطاقة (الترانزيت) الخاصة بك ! .. وعندما تستأنف طائرتك رحلتها سوف استقلها مكانك ! .. بينما تذهبين انت الى (تواليت) السيدات وتبقين بها الى أن ترحل الطائرة ! .. ثم تدعين انك فقدت بطاقتك وتتظاهرين بانك منزعجة ! .. هل فهمت ؟ » .. « موقف سخيف فعلا : أن تضطرنى الى الحضور من نيويورك ! .. لماذا لا تبحث عن شخص آخر فى مدريد أو أوربا ؟ » ... « من فى مدريد ؟ أو أوربا ؟ ... » ... « ولماذا لا تأخذ أول طائرة مسافرة ؟ » .. « لماذا ؟ ولماذا ؟ ... هل تظنين ان هذا الوقت مناسب للاكثار من الاسئلة يا حبيبة الروح ؟ .. هل تريدين أن اذهب الى السجن ؟ .. « لا يااليكوس ! ... ساحضر » .. « حالا ؟ » .. « حالا » ... « اذا لم تجدينى ، فلا تفضحى نفسك ! .. سيكون معنى هذا أنهم قبضوا على ! ... وعندئذ واصلى رحلتك ، واذهبى الى روما حيث تقصدين الى السفارة مباشرة ، ومن هناك تتصلين بأثينا ليعرفوا مكانى ... مفهوم ؟ .. « نعم ! .. لكن اية حكمة فى ذهابى الى السفارة فى روما اذا قبضوا

عليك فى مدريد ؟ .. الا يكون الأفضل ان .. » .. « لا تناقشى » ياحبيبة الروح ! .. لا تناقشى ! .. عندما أطلب منك أن تفعلى شيئا ، فمعنى ذلك أن تفعليه كما أطلب منك ! .. لا يمكننى أن اتكلم ! .. انني تكلمت كثيرا حتى الآن ! .. اذا لم تجدينى ، فلا تفضحى نفسك ، وواصلى السفر الى روما ... هذا رجاء ! » .. « حسن .. أنا آتية ! .. الى اللقاء ! » ..

وضعت سماعة التليفون ، تتنازعنى أفكار متضـــاربة ... لنفرض انك بعد صدمة رحيلى عنك ، قررت أن تتخلى فجأة عن السعى الى الاستيلاء على الوثائق السرية التى تنشدها ، كما يحدث منك أحيانا ، مثل خطة الاستيلاء على (الاكروبول) ! ... عندئذ ينتابك الاحساس بفراغ غريب والرغبة فى الاقدام على خطة اخـرى أشد خطرا ، لا فى اليونان ، ولكن فى بلد تسوده الدكتاتورية مثـل اسبانيا ، مما يعرضك لمأزق أخطر !؟ .. وأذن فلابد من انقـــاذك من هذا المطار ، مهما تكن المسافة بيننا بعرض الاطلنطى ، واخراجك من هذه الورطة ! .. وبفكر مشتت رحت أبحث عن طائرة مسافرة الى روما عن طريق مدريد ، حتى وجدتها ، فحزمت حقيبتى على عجل ووضعت فى أصبعى خاتم الزواج الصورى الذى كنت نزعته ، وبعد ساعات معدودة كنت على متن الطائرة ! ..

فقط وأنا فوق الاطلنطى لمعت فى خاطرى فكرة اطارت النعاس من عينى .. ! من المؤكد انها فكرة غريبة أن تضطرنى القـــدوم من قارة الى قارة بهذا الاسلوب ، وهو ما كان يمكن لأى أحد آخر أن يقوم به فى مدريد ذاتها فى مدى ساعات قلائل ؟! .. فهل كان ذلك ذريعة لكى تحملنى على العودة اليك ؟ ... انك أهل لكل شىء ، حتى لعمل دعاية غير عادية على حسابى ! .. وهذا ما جعل وجهى يحمر انفعالا وخجلا ! .. لكن فات الوقت لاستدراك الموقف ... ولم يفارقنى هذا الشعور الا بعد أن غلبنى النعاس ، حتى وصلت الى مدريد ...

وفى صالة (الترانزيت) لم اشهد لك اثرا ! .. فلم أجد مفرا من متابعة الرحلة الى روما لكى أصل اليها بعد ساعتين ... وكان على أن انفذ تعليماتك حرفيا لكى أذهب الى السفارة اليونانية ـ فأسرعت الى الفندق الذى اعتدنا أن ننزل فيه لكى أضع حقيبتى ، وهناك فاجأنى موظف الفندق بوصول لفافة لى أودعت فى الغرفة المخصصة لنا ... ولما دخلتها الفيت الستائر مسدلة ، غير اننى

استطعت ان اتبين فى العتمة سلة كبيرة من زهور حمراء ، وهو النوع الذى أحبه ، مع اناء جميل مملوء بالفاكهة ، تفاح ، وخوخ ، وبرتقال ، وعنب ، وفواكه مسكرة .. ! ترى من يمكن أن يكون مرسل هذه الهدايا ، اذ لم يكن أحد يعرف بوصولى ؟! ..

فكرت مقطبة ... وعلى الأثر تحرك شبح فى الفراش ؛ ورن ذلك الصوت الذى أعرفه جيدا يقول قائله: «هل أحببت الرحلة؟!..»

★★★

بعد أن تناثرت الورود وانواع الفاكهة فوق الفراش وفى جوانب الغرفة مقترنة (بفردة) حذاء قذفتك بها جميعا فى ثورة غضبى وانفعالى من دعابتك القاسية ، بعد أن حبست الكلمات النارية فى حلقى عجزا عن مزيد منها وانت تقابل هذه الثورة بابتسامة صابرة — قلت لك مغلوبة على أمرى : « دعنى اسمع تفسيراتك ! .. » .. فبدات تقول هادئا وانت تقتطف حبات العنب من العنقود الذى توج راسك : « أولا — كنت حقيقة فى مدريد ، بجواز سفر زائف ! .. وهذا هو ! .. كنت اريد الاجتماع ببعض افراد (المقاومة) الاسبان لكى أتعرف على معلومات عن بعض الجماعات الفاشية فى اليونان ، وفى اسبانيا ، وفى المانيا ، وفى ايطاليا ، وهى معلومات ذات صلة بالانشطة الوطنية فى اليونان ! .. ثانيا — اننى نسيت فعلا حافظتى وجواز سفرى الحقيقى ونقودى ، اذ كنت متعبا وغاضبا لأننى لم أتمكن من الوقوف على ما كنت أسعى اليه ؛ وهكذا تركتها على مكتب الشرطة ! .. وهم فعلا نادونى من ميكروفون المطار وجاء شرطى فعلا وأعادها الى ! .. ثالثا — ترتب على ذلك الغاء سفريتى ، وكلمتك تليفونيا من المطار فى فترة انتظارى لسفرية اخرى ! .. وفى هذه الظروف ساءلت نفسى ما الذى يمكن أن اخترعه اذا هم شرعوا يحققون فى هذه المسألة ، فخطرت لى الفكرة ! .. انها استهوتنى ، وقد نفذتها لحملك على العودة !.. ولو اننى لم أفعل هذا لما كان يمكن أن تحضرى الى هنا ! .. ثم اننى بحاجة اليك ! » ... « لكى أشترى سيارة لك ؟ » .. « لا .. لاكثر من هذا ! .. اكثر بكثير !. » ..

ولاحت عليك علائم الجد ، واخذت تقول : « عاجلا سوف اجعلهم جميعا يقفون ضدى : اليمين ، واليسار ، والوسط .. ان تلك الوثائق لن تسر احدا !.. من الواضح انه ليس هو الوحيد الذى تعاون مع الخونة ، فهناك خنزير من اعضاء حزبى بينهم ! ..

وساكون وحيدا بل اكثر من وحيد حينذاك و .. » .. هل قابلتها ؟ »
... « قابلت عشيقها « لها عشيق » ... « ومتى سيقابلها ؟.. »
.. « قريبا .. حالما أعود الى اثينا .. لكن لابد لي أن التزم الحذر،
فهناك أمور غريبة تحدث الآن منذ حوالي عشرة أيام ... وعندى
انطباع ، نعم ، بانني تحت مراقبة خاصة ! .. هناك من يتعقبني
غالبا ويعرف ما أقوم به ... هي عملية خطرة ! .. » .. « وانت
تخطط لكي تمضى فيها على اى حال ؟ » .. « بالطبع ليست هذه
هى المشكلة ... المشكلة كما قلت هى انني لا أستطيع الاعتمـــاد
على اى أحد ، حتى ولا على الحزب ، وساكون وحيداً اكثر من اى
وقت مضى ! » ..

وعند هذا الحد تبخرت كل مرارة في نفسى ! .. فاخذت اجمع
ما تبقى سليما من الورود المتناثرة في ثورة غضبي ونسقتها في زهرية،
وأعدت الفاكهة الى الاناء ، ثم قلت لك : « لنفكر الآن فى مســألة
السيارة المطلوبة ! » ..

وبهذه الكلمات استسلمت للدور الذى اختارته لى الآلهة قبل
ان يقدر لى لقاؤك : ان اغدو الاداة لمصيرك وقدرك ، أو بالاحرى
شريكة متواطئة في مماتك ! ..

(٢)

مثل قارب تتقاذفه التيارات عدت الى وجودك خلال هذا الخريف ... ان معركتنى ضد حبك قد خسرتها خسرانا مبينا ! .. ذهب هروبى منك سدى ! .. ان مسألة ايجاد السيارة باتت لديك ضرورة ملحة لابد منها : « لا يمكننى ان استخدم سيارة أجرة او انتظر امام بيت هازيزليكس أو تعقب محاميه الفانتاكيس !. وسائقو سيارات الاجرة كثيرا ما يكونون مرشدين للشرطة ! » ... بل كنت تلح الحاحا فتمضى قائلا : « ولا يمكن أن استعير سيارات الغير ، أو استأجر سيارات ! .. ولابد لى أن أتحرك على الدوام ، متنقلا من أول المدينة الى آخرها ! » ..

هكذا غدت السيارة شغلك الشاغل ، وانحصر حديثنا فى مسألة تدبيرها ، حتى لم نعد نتحدث فى مسألة غيرها ! .. اما المهمة التى كرست نفسك لها والتى لم اكن اعرف شيئا عنها ، فقد اصبحت فى المرتبة الثانية ، خصوصا بعد أن نذرت الا اعود الى (المدينة القذرة) مرة أخرى ! .. وهكذا كنت تأتى الى ايطاليا ، واذا سألتك كيف تسير الأمور ، كنت تتحاشى الجواب قائلا : « سأخبرك فى الوقت المناسب ، أما الآن فلا اريد أن افكر فيها ... السيارة قبل كل شيء ! » ..

وجاءت السيارة ! .. اشتريناها خضراء اللون استهوتك ايما استهواء حتى ذهبت تقودها أغلب الوقت فى ضواحى روما وانت فى مثل مرح الاطفال وانا الى جانبك أحاول عبثا أن أحد من انفعالاتك الفوارة !.. ولم تكن تتوقف الا لدى محطة بنزين أو محل لبيع العرائس ... وكنت اقول لك : « ماذا جرى لك يا اليكوس ؟ .. لمن ستعطى هذه العرائس ؟! » .. « للأطفال ، للكبار ، للناس ! » ... « للناس ؟! ليلعبوا بها ؟! » .. « العرائس ليست لعبة ... هى تذكارات يتذكرون بها من يعطيهم اياها ! » ..

وبعد ايام فاجأتنى قائلا : « سنذهب الى اثينا .. لا اظن انك ستحذفين أثينا من خريطتك ! » ..

فتركت نفسى اقتنع بما طلبت ، وبعد ساعات وساعات من

الطواف بالسيارة الخضراء اتجهنا الى ميناء برنديزى بحمولتنا الغريبة من العرائس ؛ واقلتنا السفينة بالسيارة الى كوريتث ومنها الى أثينا ... وهو نفس الطريق الذى قدر أن يسلكه (ميشيل ستيفاس) بعد اربعة اشهر فى سيارته البيجو - لكى يقتلك ؛ بمساعدة شريكين فى سيارة حمراء طراز (بى . ام) !! ..

★★★

كنت فى أول الرحلة بادى المرح منشرح الصدر ، ولكن ما أن وصلنا الى البيت فى شارع كلوكترونى حتى انتابك الوجوم ... وعندما سألتك فى هذا وعما اذا كنت تشكو وعكة نفيت ذلك بلهجة غامضة ... والفيتك لا تلتزم حذرك السابق فى التأكد من خلو الطريق من أحد يراقبك كما كنت تفعل فى الماضى ، وقلت معقبا : « وما الفائدة من التحوط على اى حال ؟ ...ما قدر أن يحدث فسوف يحدث » ! ... وفى النهاية ذهبت الى غرفة النوم والمكتب ؛ وبعد أن اسدلت الستائر اخرجت من درج سرى فى المكتبة علبة معدنية مسطحة صغيرة بحجم الحافظة ، ثم وصلت بها سلكا فى طرفه نوع من زر ، وبعدها ادخلت السلك الى كم سترتك الايسر ؛ وثبت الزر فى كم قميصك ! ... واخيرا دفعت هذه الاداة الغريبة فى جيب سترتك الداخلى ؛ قائلا : « الآن هل يمكن ان يخمن احد اننى احمل حولى جهاز تسجيل ؟ » ... « كلا . لكن من هو الذى ستعمل على - » .. « لابد أن اتعلم كيفية استخدامه ... هو جهاز دقيق وعلى اى حال فقد جاء بنتائج ! » .. « مع من ؟ » .. ودون أن تجيب عدت الى الدرج واخرجت رسالة بخط رقيق مؤرخة بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٧٣ ... « من كتبها ؟ » .. « كتبها هازيزيكيس .. الى زوجته فانى .. غدا ساعمل صورة فوتوغرافية منها ؛ لكى تحتفظى بها فى ايطاليا » ... « اهى هامة الى هذا الحد ؟ .. » .. « نعم ؛ وساترجمها لك فيما بعد ... انه كتبها فى السجن ليخبرها أن محاكمته هى من تدبير افيروف ، لكى يتخلص منه ومن آخرين ، حتى لا ينازعه أحد فى الاستئثار بالحكم ؟ مؤكدا لها انه رغم ذلك سيخرج سالما فى النهاية » .. ثم اضفت قائلا بعد هنيهة : « ان افيروف مخادع كبير ! .. وبعد أن تمكن من خداعنا فانه يعمل الآن على خداع الشعب ! .. ولهذا لابد من مقاومة هذا (التنين) والقضاء عليه ! » ..

اذن كان خوف افيروف من هازيزيكيس وغيره من اعضاء الطغمة،

الحاكمة المستبدة هو الذى جعله يلفق التهم لهم ويقـــدمهم الى المحاكمة !! .. لكن هذه ليست سوى البداية ، ومقدمة لما لا يعلم الا الله ما يخبئه من مكائد ! ... ترى كيف استطعت أن تستدرج من أعطاك هذه الرسالة ؟ ... هل قدمها « فانى » اليك شخصيا ، أو هو عشيقها ؟! .. لكن سواء كان هذا او ذاك ، فمن غيرك يمكن أن يدفع الثمن ؟! .. كدت أحبس انفاسى وأنا أفكر فى هذا ! .. ولم أتمالك ان تقدمت الى النافذة التى أسدلت ستائرها ونظرت الى الشارع ... فكان هذا مما ضاعف قلقى ... اذ بـدت لى سيارتك الخضراء وهى مرابطة لدى مدخل البيت بلونها البراق ، نذيرا آخر للخطر !.. كلا !.. ما كان يجب أن اشتريها لك !.. بل ما كان يجب أن أعود الى أثينا ! ... « اليكوس ! » .. فاقتربت منى وطوقت منكبى فى سخرية حانية : « ماذا ؟ لكن اذا كان ذلك يجعلك تتعذبين قلقا على هذه الصورة ، فلن اخبرك بشىء بعـــد الآن ! » ... « اتفقنا على هذا يااليكوس ، لا تخبرنى بشىء ما لم يكن لابد منه ! ... لا اريد أن أعرف أى شىء ! » ..

★★★

هكذا حافظت على وعدى ، ولبثت طوال الشهرين اللذين انهمكت فيهما فى عمليتك الخطيرة لا أعرف الى أى مدى تقدمت فيها ، بل كنت أتهـرب كلمـا حاولت أن تخبرنى بالتفاصـيل ، ولم أحاول قط معرفة الوثائق التى كنت تعهد بها الى تباعا للاحتفاظ فيهـا فى الملف الوردى ...

لكننى واأسفاه لم أفهم فى الوقت المناسب ان تلك الوثائق كان مسطورا فيها نهايتك ! .. بل لم أفهم وقتها أن كل شىء حولك بدأ يتهاوى وينهار ، مؤديا بك الى العزلة المروعة التى كانت مطبقة عليك وأنت مدفون فى بوياتى ! ..

لقد اكتملت الوثائق فى حوزتك ، بعد أن أحتلت للاستيلاء عليها بمعاونة ديمتريوس تسـاسوس عشـيق فانى زوجـة هازيزيكيس وعضو البرلمان ! .. لكنك لم تدرك الا بعد فوات الأوان أن لا مكان لك فى عالم السياسة ، وان أفدح غلطة لك كانت فى الانضــــمام الى الحزب ! .. فللحزب انظمته الدقيقة بل والصارمة ، التى تتطلب الطاعة والولاء وعدم الخروج على الانظمة والانفراد بالعمل!..

لقد روعك ان الفيت الحزب يخالفك فى وجوب نشر الوثائق فى

الحال ، مراعاة لاعتبارات سياسية وحزبية ، حتى قلت لى مهتاجا : « هل تعرفين كيف كان ردهم ؟ .. هل تعرفين ما الذى يريدون أن يفعلوه بالوثائق ؟... انهم يريدون اخفاءها !. » ... « ولماذا تستغرب يا اليكوس على هذه الصورة ؟ أن الاحزاب تتصرف دائما هكذا : انهم يريدون الوثائق للاحتفاظ بها سرا ، وعندما تجد الحاجة يستخدمونها وسيلة للابتزاز السياسى ـ اذا لم تعطنى هذا، فسوف أفضح خيانتك ، وفسادك ، وانحرافك !.. أن اى حزب يمكن أن يرد عليك بهذا الاسلوب ! .. حتى حزب أكثر احتراما من حزبك !. » .. « انه لم يعد حزبى . بعد الآن !.. اننى حطمت مقعدا فوق طاولة الاجتماع ! .. اننى قدمت استقالتى ! » ... « آه ! .. وهل قبلوها ؟ .. » .. « لا .. رفضوا قبولها ! .. لكن لن يغير أى شىء .. انها منتهية من جانبى » .. « مفهوم .. والآن ماذا ؟ » .. « الآن سأبقى فى البرلمان بصفة مستقل فى جناح اليسار » .. « بغير حزب يساندك ؟ .. أو بالاحرى مع أعداء فى الحزب الذى يستمر فى اعتباره حزبك ؟ » .. « لا يهمنى » ..

لكنك وأنت تقول هذا كانت نظرة الألم والضنى تنم عنها عيناك : فقد كنت تعلم تمام العلم انه بدون حزب خلفك ، وبوجود أعداء لك داخل الحزب ، كان يجب أن يساندوك ، فان كل شىء يعدو بالغ الصعوبة ! .. فماذا ـ على سبيل المثال ـ يمكن أن تفعل بهذه الوثائق التى من أجلها عانيت كل هذا العناء ، وعرضت الآخرين للمعاناة ؟ ... هل تسلمها للقضاء لكى يمكن أن يتجاهلها ؟ ... هل تنشرها ؟ ... تنشرها طبعا ... لكن أين ؟ اية صحيفة تكون لديها الشجاعة لذلك ؟ ..

وعندئذ بادرتنى قائلا : « أعرف ما تقولين .. يجدر أن تكون لى صحيفة وحدى ! .. ماذا لو اننى أسست صحيفة ؟ صحيفة صغيرة ! .. اسبوعية أو نصف شهرية تستمر فى الصدور مدة ثلاثة او اربعة شهور : المدة اللازمة لنشر ماعندى من الوثائق والاوراق!.. عندى مواد كثيرة جدا ! .. وما الذى ليس عندى سيكون تحت يدى عاجلا ؟ .. فهناك الى جانب ملفات المخابرات (اى . اس . ايه) ملفات مباحث (كى . واى . بى) ... لقد اكتشفت صديقا فى هذه المباحث ، وهو ضابط من الحزب الديمقراطى ورجل أمين ، وزوج فتاة ساعدتنى فى فترة محاولة اغتيال بابادوبولوس ! .. لقد قال

لى : سأعطيك حقائب مليئة بالوثائق !.. تصورى : الوثائق الخاصة بعملية حركة الانقلاب فى قبرص وصلتها بالمباحث الامريكية (سى.آى. ايه) ، وما يتصل بين (كى. واى. بى) وبين (سى. اى. ايه) !. واذا امكن ان اثبت أن افيروف كان يعلم بأمر حركة الانقلاب فى قبرص، وانه بالاتفاق بين الـ (كى . واى . بى) والـ (سى . اى . بى) قد خدع الجميع حتى يوانيديس اذن لكان هذا نصرا عظيما ! ... والمشكلة هى اننى أريد أن أضع يدى على هذه الحقيبة ، وأن كنت لا اريد أن أعرض الضابط صديقى للمشاكل ! » .. « ياالبكوس » ... « نعم ! .. صحيفة ، تنشر فى الصفحة الاولى : الوثائق الخاصة بافيروف ... بعضها تحت يدى وبعضها الآخر سأجده فى الحقيبة ! ... » ... « ياالبكوس ! ... أنسى مسألة الحقيبة ! ... هل تعرف مامعنى اصدار صحيفة ؟ .. هل تعرف كم يكلف اصدارها ؟ ... ان الذين لديهم القوة ـ القوة المالية أو القوة السياسية ـ هم الذين يمكنهم اصدار صحيفة ! ... ان اصدار صحيفة تتطلب اموالا كثيرة ، طائلة ! .. » .. « سوف اقترض المال » .. « ممن ياالبكوس ! .. » ان لم يكن لديك مال ، فلن يمكنك أن تقترض ... ان الديون هى ترف الاغنياء ! .. ولن يقبل مصنع ورق أن يبيعك الورق اللازم ! .. ولن تجد صحفيا يكتب لك ! .. ولن يرتضى اى ناشر أن يطبع لك الصحيفة وهو يعرف انك لا تملك المال .. » .. « سوف أجد هذا المال » .. « من أين ؟ من ذات الناس الذين تناضل ضدهم ؟ .. ان الحزب هو الذى يجب أن يساعدك ! .. يجب أن تتجه الى حزب آخر » ! .. « لن أنضم الى اى حزب بعد الآن .. ابدأ ! .. بل لا أريد أن اسمع كلمة (حزب) ! .. ان كلمة (حزب) تصيبنى بالغثيان ! » .. وعند هذا الحد استحال الحزن المضنى فى عينيك الى دموع انثالت على خديك ، وشاربك ، وبللت ربطة عنقك ! ..

وبعد أيام قلائل علمت أن عزلتك أدت الى نتائجها ... ففى مناسبتين تمكن زائرو الليل المجهولون من دخول مسكنك فى شارع كلوكترونى حيث تهاونت فى الإحتفاظ بالصور الفوتوغرافية للمستندات ... مرة دخلوا بينما كنت تتناول طعام العشاء فى مطعم خارج المدينة ... ومرة أخرى بينما كنت نائما فى بيتك الاول الملحق به حديقة البرتقال والليمون فى جليفادا ... وهم لم يعثروا على

شيء لأن الأوراق كانت محفوظة فى غرفة النوم الموصدة ولم يستطيعوا تحطيم القفل ... غير انهم بعثروا المكتب وراسا على عقب وتركوا لك ورقة طافحة بالسباب : « كيف تخطط للدفاع عن نفسك يا أليكوس ؟ ... » .. « لا مهرب لك ياصاح ! ... ان ما لابد منه ، لابد أن يكون ! ان مالابد أن يحدث سوف يحدث يقينا ! .. سوف يتم كل شيء عاجلا او آجلا ؟ » ..

وعند هذا الحد انبعث حبى السالف لك أشد ما يكون ... ومضينا نستمتع به مدى ثمانية وعشرين يوما .. آخر ثمانية وعشرين يوما منحتناها الآلهة ! .. آلهة تاريخنا العريق ! ..

لقد حدث شيء غريب ! .. فقد فاجأتني بالحضور الى روما دون سابق انذار ، قائلا : « انني وجدت شخصا سـوف ينشر الوثائق لي ! » .. « من ؟ » .. صاحب صحيفة مسائية ، اسمها (تا ـ نيا) .. « ومتى ! » ـ « قريبا .. في ظـرف أسـابيع قليلة .. وهو بعد الآن للنشر » ـ « حمداً لله ! . وماذا تفعل الآن في ايطاليا ؟ ... » .. « جئت لتأليف الكتاب » .. « الكتاب ؟! اي كتاب ؟ » ..

صحيح انك قلت مرة انك تود أن تؤلف كتابا عن محاولة اغتيال بابادوبولوس والمحاكمة وسجن بوياتي ، ولكن مجرد مشروع ، وفي نظري كان امنية ـ فهل يمكن أن تكون انبعثت الى هذه الفكرة فجأة، وفي حين انك كنت غارقا الى اذنيك في موضوع الوثائق ؟ ...

مضيت تقول : « هو الكتاب الذي كلمتك عنه بالطبع ... ان نشر الوثائق لا يكفي ، ولابد أن تبرز الامور أكثر ، ولابد أن أبين كيف ان رجلا بدأ بالقنابل ، ختم الكفاح بالورق ! .. اصـغي الي ! .. هناك أولئك الناس الذين ينشرون كتبا وان كان ليس لديهم ما يقولون ، أفلا يجدر بي أن أحكي القصة : قصتي المروعة ؟! .. وهكذا حزمت حقيبتي ، وهأنذا ! .. هلمي بنا الى فلورانسا .. للاقامة في الفيللا الخلوية المستأجرة باسمنا » .. « فلورانسا ؟! » .. « طبعا ، حيث لنقيم هناك بالهدوء والسكينة .. قطعا لا يمكنني ان ابدأ الكتابة في شارع كلوكتروني أو في جليفادا ، حيث المشـاكل كثيرة ، والمشاغل » .. « وكم تستغرق من الوقت ؟ » .. « ثمانية شهور ... لا أحتاج الى اكثر من هذه الفترة ... في شـهر مايو سأطلب اجازة من البرلمان ... وفي نوفمبر سأقدم أصـول الكتاب الى المطبعة ... والمهم عندي ان ابدأ في الحال ، والا يزعجني احد ، اعني لا يعرف احد مكاني ... ولنبدأ الرحلة صباح الغد » ... « اليكوس ؟ .. لا يمكنني أن أسافر صباح الغد ! .. لم أكن أعرف انك ستحضر ، وعندي ارتباطات كثيرة ! » .. « مؤكد انك لن تدعيني اذهب وحدي ؟ .. انني سأحتاج الى المشورة والاقتراحات من جانبك ! ... لا يمكنني الانتظار ، فانني في شوق ولهفه للبدء

بالكتابة ... وفضلا عن ذلكَ فلا أريد أن يعرف أحد انني فى روما، والا جاءوا فى اثرى ، وشتتوا أفكارى ! .. » ..

وعبثا حاولت اقناعك بمجرد التأجيل ، ولم يكن بوسعى ان اضن عليك بما طلبت ، وهكذا أجبرتنى على الانتقـال معـك الى فلورنسا ... « واطلبى من ألبواب ان يحجز لنا تذكرتين على الطائرة المسافرة الى باريس ، وهـكذا سـوف يعتقدون اننـا سافرنا الى باريس ! ... »

★★★

توفرت على الكتابة بانهماك شديد وتفرغ بالغ حتى نسيت كل ما حولك ، وكنت تلازم الغرفة وتغلق النوافذ ولا تبرح الفيللا حتى لتناول الطعام فى المطاعم وهى هوايتك المفضلة ، أو للتنزه فى الغابة المحيطة بالفيللا كما كان دابك من قبل ! ..

فلما كان اليوم العاشر بدأت تتوانى فى الكتابة ، وغدت الصفحات الثلاث التى كنت تكتبها يوميا صفحتين ! .. ثم صفحة واحدة ! ... ثم نصف صفحة !.. ولم اتمالك ان قلت لك : « هل تريد يا أليكوس ان اساعدك ؟ .. هل تحب أن نكتب سوياً لفترة ما ؟ » ... « لا ... لاننا حتى لو كتبنا على مهل ، فاننا سنصل بسرعة » .. « نصـل بسرعة ، الى أين ؟ » .. « الى صفحة ٢٣ .. » .. « ولماذا بحـق الله تريد صفحة ٢٣ بالذات ؟! » ... لاننى حلمت حلما » .. « اى حلم ؟! » .. « حلمت اننى أؤلف الكتاب ... وفى الحلم أنتهى الكتاب عند صفحة ٢٣ .. » .. « لست افهم ! » .. « انتهى الكتـــاب لاننى عند صفحة ٢٣ توفيت ! » .. « لكن هذا مضحك » ... اتنصرف عن كل شيء ، ثم تتوانى الآن ، بدل المضى قدما ؟! » .. « لافائدة ! .. أشعر اننى لن أتابع الكتابة بعد صفحة ٢٣ .. » .. « لا ترقم الصفحات اذن ... وبهذه الكيفية لا تشعر انك بلغت صفحة ٢٣ .. » .. « لا بأس .. سأحاول » ..

وقد حاولت ... ولكن بعد يومين ، عند عودتى الى البيت ، لم أجدك جالسا الى المكتب ، بل نائما فى الفراش ، والانوار كلهـــا مضاءة ، والنوافذ مفتوحة على سعتها ، والاوراق متناثرة على الارض ممزقة أنصاف صفحات ! .. فجمعتها .. وعددتها ، فكانت ثلاثا وعشرين ...

« ماذا فعلت يا أليكوس ؟ .. « اتممت الكتاب » ... « لم تتمه: انكَ رقمته فقط ! » .. « لم أرقمه .. ولكننى شعرت بالتوقف ؟

فعددت الصفحات ، فاكتشفت انني وصلت الى صفحة ٢٣ » .. « كن جادا يا أليكوس : ما معنى هذا ؟ » .. « معناه انه ليس هناك ما يقال أكثر من هذا » .. « كلام فارغ !. » ..

وقدمت لك الصفحة الاخيرة لكي تترجمها لي ، ولما الفيتك تمانع قلت لك : « هل الصياغة ركيكة ؟ » ... « أبدا ... انها متقنة .. ولكنني اشعر ... اشعر بالغثيان ! ... خصوصا بعد أن وصلت الى النقطة التي بلغ فيها التعذيب حدا جاوز الاحتمال ، واشرفت على الموت ! ... » ..

« ان كانت هذه الفقرة تضايقك ياأليكوس ، فيمكنك استبعادها ومواصلة الكتابة » ... « مستحيل » .. « سـساعدك » .. « لا فائدة .. ثم ان الحلم انتهى عند هذه النقطة أيضا » .. « لكنك لا تكتب حلما ... انك تكتب قصة حياتك ! » .. « ربما تكـون حياتي ستنتهي هكذا » ..

ولم تلبث ان قمت ، واشعلت الغليون ، وخرجت الى الشرفة التي كانت تغمرها أضواء الشارع الساطعة ، حتى لقد بدا شبحك فيها واضحا يستطيع كل أنسان أن يتميزه ! ..

ثم عدت تقول : « وماذا بعد ؟ » ... « ما قصـدك ؟ » .. « ستكتبين القصة بدلا مني .. اظننا تكلمنا في هذا » .. « كيف يا اليكوس ؟ » .. عديني ! .. » .. « حسن .. اعـدك » . « بديع ! .. الى أين نذهب ونتناول العشاء هذه الليلة ؟ ... أريد مطعما فاخرا ، مليئا بالضوضاء والجمهور ! .. وأريد أن أشرب النبيذ .. نبيذ كثير جدا ! .. » ..

★★★

ولقد افرطت في الشراب والثرثرة الى درجة الهذيان بعد أن فقدت اتزانك ، وافلست حيلتي لو قفك عند هذا الحد ! .. « اليكوس! .. يكفي هذا بربك ! .. لنعد الى البيت ! » .. « لا .. أريـد مزيدا من الشراب !.. » .. « لابد لنا من الانصراف : انظر !.. المطعم خلا من الرواد !. » .. لكن لابد ان اكلمك عن عبث الحياة وفساد الناس ، خصوصا أرباب السياسة ! » ... « ستحدثني غدا» ... « لا .. الآن ! .. لنذهب الى مكان آخر » .. « الوقت متأخر يا اليكوس ! .. متأخر جدا ! .. » .. « ليس متأخرا لكي نعيش فترة اخرى ! .. حتى ولو في نكد ! ... »

كان ثمة مكان تحبه .. بار صغير في ساحة ميكل انجلو ، كنـا نرتاده بعد الغداء احيانا .. وقد صحبتك اليه بعد أن عجزت عن ثنيك

عن جموحك ! .. وما ان جلسنا الى الخوان حتى قلت للساقى على الفور : « كأسان من الأوزو ، كبيران ومضاعفان ! .. لا .. اربعة كبيرة ومضاعفة ! » وصف الساقى الكئوس الاربع أمامك فى طاعة ساخرة ! .. فاحتسيت الثمالة كأسين ، واذا دمعة تنحدر على أنفك فتغرق شاربك ؟ .. « لا تبك يا اليكوس ! .. لماذا تبكى ؟ .. » « لأننى فعلت كل شيء مغلوطا ! .. وثقت بالناس ! .. غلط فى غلط ؟ .. حسبت الناس يهتمون بالحق ، والحرية ، والعدل ... غلط فى غلط ! .. اعتقدت انهم يفهمون ! .. غلط فى غلط ! .. ما الفائدة من المعاناة ، والكفاح ، اذا كان الناس لا يفهمون ، اذا كان الناس لا يهتمون ؟! كل ما فعلته كان غلطا فى غلط ! » .. « صه يااليكوس ، صه ! » .. « ما كان يجب أن اترك زنزانتى فى السجن !.. فى اللحظة التى أخرجونى فيها من الزنزانة كان يجب أن أعود اليها ! .. اعود مرة ومرات ! .. عندما كنت فى الزنزانة كان الناس يفهمون ... وبعد الخروج منها لا يعودون يفهمون ، الا بعد أن يموت الانسان ولكى يفهموننى الآن لابد أن أموت ! .. » .. « أسكت يا اليكوس ! .. اسكت ! » .. « جنازة ! .. جنازة حافلة هى ما يحتاجون اليه ! .. فيها يأتون من القرى ، والجزر ، ويسدون الشوارع ، ويقتعدون الأسطح كالغربان ! .. وعندئذ يفهمون ! .. هل رأيت ؟ .. انت لا تحبيننى ولا تفهميننى ! .. لكى يفهمك أحد لابد أن تموت ! .. ولكى يحبك احد لابد أن تموت ! » .. « أسكت يا اليكوس ، أسكت .. انهم ينظرون اليك ! .. انهم ينصتون اليك ! .. » ..

وفعلا كان الرواد قريبا ينظرون اليك ، وغمغم بعضهم قائلا : « هو سكران ! .. هو سكران ! » ..

ولكنك استرسلت تقول : « وماذا يهمنى من حفنة من البلهاء سوف يقولون الناس غدا أنهم راونى وأنا أبكى فى بار ! .. ماذا يعرفون عن بكائى ، وعن سكرى ؟.. عندهم سيارات كثيرة جدا !.. وهل تعرفين فى ماذا يستخدمون سياراتهم ؟ .. للذهاب بها الى ملاعب كرة القدم ! .. هل تدرين ماذا سيفعل هؤلاء البلهاء يوم جنازتى ؟ .. سوف يذهبون الى كرة القدم ! .. وفيما بين الأهداف سيقولون : تخمينكم من مات ؟ وبعد مباراة الكرة ربما يذهبون الى اجتماع سياسى — اجتماع لمخلوق حيوان سدد هدفا دون كفاح ودون معاناة ! .. وسوف يصفقون له بكل حماسة ! .. فى نظرهم

حتى الموت لا معنى له ! .. أنهم لا يفهمون آلا العـــاب الكـرة والسيارات !.. اننى أكرههم واكره سـياراتهم !.. الآن سـأتبول على سياراتهم !! .. » ..

ونهضت على قدميك مترنحا .. ونثرت بعض النقود فـوق الخوان ثمنا للشراب ! .. وتقدمت الى الخارج متجها الى السيارات المصفوفة في الساحة ! .. ولم تلبث أن تخلصت منى وانا احـاول أن استوقفك ، ووقفت أمام السيارات حيث فككت ازرار بنطلونك واخذت تبول على السيارات متمهلا ! .. فرحت اجذبك ، وكلما جذبت كلما زدت اصرارا على فعلتك الشائنة ، وشفعت هذا بترديد احدى قصائدك الشعرية من دعاة الهزيمة والاستسلام واعـداء الكفاح والمقاومة وعبيد الطغاة والمستبدين ، منددا بهم مشمئزا منهـم ومن سياراتهم ! ..

وكان الرجال الجالسون الى الموائد المجاورة قـد خرجوا الى الباب على استحياء أول الأمر ثم في عصبية وراحـوا يشـاهدون ما يجرى مشدوهين .. وبنظرة جانبيـة من عينيك كنت تشـعر بوجودهم عن كثب منك وتدرك ان أحدهم لو تحرك فسـيتبعه الباقون لمهاجمتك في غضبتهم ! .. لكن هذا لم يزدك الا احتقارا وغطرسة ، وفيما وقفوا مترددين تابعت القاء قصيدتك الشـعرية واستصفاء آخر مخزونك البولى وشد بنطلونك ، ثم استدرت على عقبيك آخر الأمر .. ومرت سيارة أجرة في هذه اللحظة ، فأوقفتها ودفعتك الى داخلها مهيبة بالسائق أن يسرع بالسير ... ذلـك وقد تعالت صيحة تقول : امسكوه ! .. اوقفوه ! .. بيـد أن السائق أدرك انه لابد من انقاذك ، فأسرع مبتعدا حتى وصـلنا الى الفيللا الخلوية بعد دقائق ... بل انه تطوع بمساعدتك لصعود السلم ، اذ كنت متهاويا متخاذلا ، غير اننى شكرته ، وسحبتك الى الطابق الرابع وكل خطوة منك كجبل ، وفي النهاية القيت بك في الفراش ، اذ رحت تدمدم : « انى أعطيتهم حماما ينظف أوساخهم!» ... وانقلبت تحمل على القتلة الذين يدفعون بشركائهم لقتـل المواطنين الشرفاء حتى لا يلوثوا أيديهم !.. ثم انثنيت الى تدمغنى باننى لا اعرف كيف احبك ، ولن احبك حقيقة الا بعد أن تموت ، واختتمت صائحا : « اخرجي !... لا اريد ان اراك هنا !... اخرجي ! .. اخرجي ! .. » .. وفي النهاية نفد صبرى ، اذ كان من اشد ما يوئس ان اراك في مثل هذه الحال ، بل ان فكرة النوم

معك فى فراش واحد باتت لا تطاق ! .. وعندما بدأت تغط فى النوم خرجت من عندك فعلا ... وفى صباح اليوم التالى عندما عدت ، ألفيت الغرفة أقرب الى الحطام !..

★★★

كانت الغرفة كما لو أن اعصارا انقض عليها من النوافذ فاقتلع كل شىء وقلب أثاثها رأسا على عقب ... مقاعد مقلوبة ، ومكتب تناثرت حوله الملفات مبعثرة على الأرض ، ومصباح محطم ، ولوحات زيتية مخلوعة أو مدلاة من الحائط ! ... اما انت فكنت ممددا على الأرض ، جامدا بلا حراك ، قرب موضع التليفون والسماعة ملقاة فى غير مكانها ... ترى هل وقع عراك ؟ هل قتلوك ؟ ..

وعندما قدرت انهم قتلوك وقفت أحدق اليك متحجرة ، الى أن فتحت عينيك ، وانفرجت شفتاك : « أنا آسف من أجل المصباح الذى سقط وتحطم ! » ..

لم أجب .. وحتى لو اردت ان أجيب وأن اسالك ماذا حدث ولماذا ، لما أستطعت ! .. فقد خنقتنى عبرة شلت حبالى الصوتية ... وفى هذه الغصة عدلت المقاعد والمكتب والتليفون واللوحات ، ورفعت الزجاج المهشم وألقيته فى اناء القمامة ! .. وفى تمددك على الأرض رحت تراقب حركاتى وقد انبعث الاهتمام فى عينيك عندما بدأت أجمع الأوراق والملفات ... ثم نهضت قائما ! ... كان وجهك المتقع المورم ، وشعرك المنفوش ، وسترتك المهدلة الملوثة بالقيىء ، تنبىء عن دراما تكاد تبلغ حد الجنون ! ... « أين كنت ؟ » ... « فى فندق ... فقد طلبت منى أن أخرج ! .. اذ كنت سكرانا ! » .. « حسنا فعلت ـ كان يمكن أن أؤذيك أيضا ، بعــــد تلك المكالمة التليفونية » ... « أية مكالمة تليفونية ؟ » ... « اننى أتصــــلت بأثينا ... أن جريدة (تا ـ نيا) قد أجلت نشر الوثائق ! .. هذا ما قالوه ! » .. « أجلوه الى متى ؟ » .. « الى ما لا يعرف ، الى أن أعود ! .. لابد أن أعود » .. « كنت اظن انك تريد البقاء بعيداً عن اليونان » .. « هذا ما كنت أنويه .. لكن لا خيار أمامى » ... « سأسافر معك » .. « لا .. أنا محتاج اليك هنا » .. « هنا ؟ » .. « نعم .. لأنه لو حدث لى شىء ، فلابد أن تفعلى ما يجب حيال هذه الوثائق ! » .. « أنا لا أعرف حتى مضمونها ! » .. « ستعرفين عاجلا » ...

جلست الى المكتب وامامك الملفات الوردية اللون لكى تقـــول لى فى النهاية ماذا تتضمن الوثائق ، وبدوت الآن متمالكا بعيــــدا عن الانفعالات ... هذه هى الأوراق التى نفصت طوال شــهور حيــاتك وحياتى ، ووجود الغير من بنى البشر ، أشرارا كانوا أو حمقى ، ولكنهم بشر ... فماذا قالت الأوراق ؟ .. لا شىء سوى قصة صخرة (القوة) التى تهوى من قمة الجبل فقط لكى تعود الى الجبل : مثلما كانت من قبل ، وأكثر صلابة عن ذى قبل ! ... القصـــــة المألوفة (للقوة) ، القوة الأبدة التى لا تموت أبدا ، والتى حتى اذا بدأ انهـــا تهوى ، وحتى اذا بدا انها تتغير ، فانها لا تتغير : ممثلوها فقط هم الذين يهوون ، ومحاكوها فقط هم الذين يتغيرون ، مع الكم أو الكيف للظلم ! .. كانت هكذا دائما ، وستكون هكذا دائما ، وتاريخ البشرية هو مشلاة لا تنتهى عن انظمة حكم تكتسح عن مواقعها وتبقى هى نفسها كما كان من قبل : وفى كل مرحلة وفى كل قطر تكون الأوراق والوثائق المثبتة مثيلة لهذه الأوراق والوثائق بدرجات متفـــــاوتة قلة وكثرة ــ فقط تختلف التواريخ ، وتختلف الأسماء واللغات ! ..

ورأيتك تتناول ورقة مؤرخة فى ٥ يناير ١٩٦٨ قائلا : « هذا هو الدليل الذى لبثت أطلبه من أفيروف مدى شهور ، وأفيروف يرفض على الدوام ! .. انها تثبت أن أخى جورج قد بيع الى الاسرائيليين فى مقابل بعض المشورة عن قتل أقوام آخرين ! ... انها لا تتعلق بفخامته كوزير للدفاع ، أو على الأقل تتعلق به فقط لانها تبين كيف أنه الى اى حد أراد أن يحمى ضباط الطغمة المستبدة الحاكمة ، مبقيا لهم فى مراكزهم مواصلين شرورهم ، باسطا حمايته لهم الى جانب حكومة أجنبية لم تكن بينها وبين اليونان علاقات دبلوماسية عـــام ١٩٦٨ ، ومع ذلك باعت جورج الى الطغمة مقابل ثلاثين قطعـــة من الفضة ! .. أنها سياسة التوازن الدولى المعروف لديهم ! .. وفى هذا العام فان هذه الرسالة هى بمثابة جوهرة ! » ..

ثم أخذت تترجم لى الرسالة : « الى القيادة العليـــا للجيش (عاجل ــ سرى) تنفيذا لاوامر رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، جورج بابا دوبولوس ، فان وحدة الضباط المؤلفة من ستة وخمسين ضابطا التى اختيرت للقيام بدور المستشارين للوحدات الاسرائيلية الخاصة التى تقاتل الفدائيين الفلسطينيين سوف تسافر بطائرة خاصـــــة الى تل أبيب بتاريخ ١٣ يناير القادم . ان الضباط خبراء بصـــفة خاصة فى الأنشطة التخريبية التى اكتسبوها فى جيشنا خلال حرب

١٩٤٦ – ١٩٤٩ وسوف يفيدون ايضا من الخبرة المتاحة لهم فى هذا النوع من القتال لدى الجيش الاسرائيلى ويقدمون تقريرا تفصيليا عن مهمتهم .. وقد أعطيت التعليمات اللازمة لقائد هذه الوحدة وهو الملازم انتبور متساكين بما يقضى بان تلتزم البعثة اقصى السرية . ان رئيس الوزراء ووزير الدفاع جورج بابادوبولوس قد أمر أيضا الملازم انتنور متساكين بان يعرب للمخابرات الاسرائيلية المختصة عن أحر شكر الحكومة اليونانية لقاء المعاونة الوثيقة التى أبدتها بصدد قضية الملازم جورج بناجوليس . كما طلب رئيس الوزراء أيضا من الملازم متساكين ان يجدد التعهد بأن مثل هذا التعاون سيلقى الدعم والتعزيز من أجل المصالح المشتركة للبلدين – امضاء : ف . روفوجاليس – نائب مدير (كى . واى . بى) »

وسلمتنى الورقة ويداك ترتعشان يسيرا .. ثم تناولت أوراقا أخرى قائلا : « من ناحية أخرى فان هذه الأوراق تتعلق به شخصيا .. انها تبين ان افيروف حتى قبل أن يتواطأ مع العناصر التى تحالف معها لاصطناع سياسة المصالحة توطئة للسيطرة على الحكم والانفراد به لنفسه ، كان فى حيقتته أفعى ضخمة وابن حرام بكل معانى الكلمة ؟ .. فليس صحيحا انه فى خلال الاربعينات قاتل الغازين ... فهذه الورقة الموقعة والمختومة هى تقرير مقدم بتاريخ ٢٩ أغسطس ١٩٤٤ ممن يدعى زيكى تكساس ، وهو يبين انه فى عام ١٩٤١ أصبح وزير الدفاع الحالى جزءا من الفيلق الرومانى السىء السمعة وبدأ يتعاون مع قوات الاحتلال الايطالية ! .. وهذه أيضا ورقة بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٤٤ قدمها محام من لاريسا يتهم فيها افيروف بأنه فى نفس الفترة ساعد الغزاة الايطاليين بمحاولة اقامة تحالف يونانى ايطالى مع القنصل جوليو فيانيللى ورئيس الوزراء وقتها تسالاكوجلو ، وأنه فعلا دبر مصادرة المدافع وتسليمها الى قوات الاحتلال لمكافحة المقاومة الوطنية ! . وهنا أخيرا سلسلة من الخطابات والخفايا التى تفضح ما يزعمه عن ماضيه ضد الفاشية ! .. ففى مرحلة معينة وقع أسيرا ونقل الى معسكر فيرامونتى ، ايطاليا ... وسرعان ما أصبح ضيفا مكرما اذ يقدمون اليه الدجاج والديك الرومى بدلا من التعيين المعتاد ، وتفرد له زنزانة خاصة وثيرة يمكنه ان يخرج منها وقتما يشاء ، مستخدما سيارة القومندان مع حرية لقاء من يريد ! .. وهل تعرفين السبب ؟ .. لأنه كان مرشدا ! .. فقد طلبوا منه أعداد قائمة بالأسرى الشيوعيين فزودهم بها ...

وطلبوا منه بيانا باسماء الأسرى الخطرين الآخرين ، فامدهم به ! ..
وبعد معسكر فيرمونتى نقلوه الى معسكر اريتزو ، وفيه لم تطأ قدماه المعسكر : وانما هيأوا له الاقامة فى فندق من الدرجة الاولى ؟ ..
كان أسيرا ذا صفة خاصة فعلا ؟ .. وفى مقابل خدماته عينه الايطاليون أيضا للاشراف على العلاقات مع السفارة السويسرية والصليب الأحمر الدولى ، وبهذا كان له أن يتولى توزيع المعونات العينية أو النقود ! .. وقد اضطلع بها فعلا ، فكان يكافىء فقط المتعاونين ! ..
واخيرا نقل الى روما ! .. فاستأجر شقة قرب بياتزا فنيسيا ، فاستقر فيها مع محام من ساموس كان محل الثقة كعميل للسلطات الايطالية فى اليونان فى قطاع الجاسوسية ، وقد دبر معه منع العودة الى الوطن لثلاثمائة من الأسرى اليونانيين من المنتمين الى جماعة (الحرية أو الموت) ... » .

وامتدت يدك الى أوراق اخرى وقد سرى الانفعال الى صوتك وانت تستطرد قائلا : « أن طبيعة أفيروف القائمة على الغدر والخيانة هى هى لم تتغير وأن تغيرت أساليب الانتهازية والمناورات ، مستهدفا غايته القصوى وهى الاستئثار بالحكم ولو من وراء ستار !... ولعل هذا يبدو جليا فى رسالته التى كتبها الى جيزيكيس رئيس الجمهورية بعد اسقاط الطغمة المستبدة يزكى فيها كرامنليس رئيسا للوزارة المدنية بعد تخلى الطغمة عن الحكم ! .. وكان الشىء الوحيد الذى فشل فى تحقيقه هو التخلص من بوآنيديس وهازيزيكيس وثيو فلياناكوس وباقى أفراد العصبة دون ارسالهم الى السجون : فقد فاوضهم سرا واحدا بعد الآخر فى ابعادهم الى يوغسلافيا سرا أو اعتقالهم وتقديمهم الى المحاكمة ! .. ولكن غالبيتهم رفضوا ، بعضهم اعتدادا بكرامته، وبعضهم ربما كان يساورهم الأمل بان يستعيدوا السلطة بحركة انقلابية ، وانتهى الامر بتهريبهم سرا فى اتوبيس خاص بمساعدة مدير الجوازات ميسيل كوركولاكوس كما يبدو فى هذه الرسالة السرية المرفوعة الى رئيس الجمهورية ! .. أما الذين قدموا الى المحاكمة فكانت محاكمتهم صوريه ونتائجها معروفة وهى اصدار العفو عنهم » ...

وقلت أخيرا وأنت تبتسم ساخرا : « اليك الآن هذه الوثيقة : جوهرة الجواهر ؟ .. (كوهىنور) التاريخية ! .. » .. « ماذا ؟ »
.. أنها وثيقة أبقتنى طول الليل مسهدا مدى أسابيع ! .. فيها الدليل على ان افيروف كان أيضا يتجسس لحساب الطغمة المستبدة

.. انها صدرت عن هازيزيكيس شخصيا فيما يبدو ، من بين كشوف المتعاونين مع المباحث « (كى . واى . بى) ، وكانت تضم أسماء ورد فيها اسم ايفانجلوس افيروف وأمامه هذه البيانات : (نائب سابق ـ مؤيد لسياسة مد الجسور بين الحكومة والسياسيين المدنيين: متعاون الى أقصى حد ويقدم تقارير سرية على أعلى المستويات ، وأتت دائما بنتائج ايجابية) ..

هناك مسحة خفية تلوح فى وجوه أولئك الذين يعرفون انهم ميتون لا محالة ، مسحة تتركز فى العينين ، وتنتقل الى حركاتهم ! .. بامكاننا أن نراها فى المريض الذى يبرح المستشفى لكى يموت فى فراشه ، وفى الجنود الذين يتوجهون الى معركة لا تكون منها عودة !.. وفى أول الأمر يصعب أن نستيقن ، لأننا لا نراها بقدر ما نحسها : وفقط بعد الموت ، وفى الذاكرة ، نسترجعها واضحه وضوح صورة فوتوغرافية ، وفجأة نفهم ماذا كانت ! ..

تلك كانت ذات المسحة التى انبعثت فى عينيك فى اليوم الذى غادرت فيه الفيللا الى الأبد ..

كانت الحقائب قد نقلت فعلا الى سيارة الأجرة التى كان سائقها متأهبا للسير ، والقطار قد حان موعده ، ولكنك تمهلت فى الغرفة ويدك اليسرى فى جيب معطفك والغليون بين اسنانك وراسك مطرق الى جانب ، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا فى صمت واستغراق ، ملقيا نظرك بامعان على كل شىء باسلوب من يريد أن يطبع فى ذاكرته الصور عميقا ـ حتى لم أتمالك أن قلت لك بصبر نافد : « ما الذى تنظر اليه ياأليكوس ؟ .. ما الذى تريده .. هيا بنا .. الوقت يفوت ، وسنتأخر ! » .. بيد انك لم ترد ، وكأنك لا تهتم بفوت القطار ! .. بل لم تلبث أن جلست على حافة الفراش ، وقد تقوست شفتاك بابتسامة خفية ، تظلل وجهك سحابة حزن ، ثم أخرجت الغليون من فمك وأخذت تمسح على الوسادة مغمغما .. « كنا فى نعيم هنا ! : كنا احياء حقا ! .. » .. « سوف تعود الى هنا يا اليكوس من جديد .. هيا بنا .. لنخرج ! » .. « نعم ! لنخرج ! » .. لكن قلت هاتين الكلمتين ـ كما قدر لى أن افهم بعد ذلك بشهر ـ بنبرات المريض الذى يعرف انه وصل الى النهاية ويقول نعم لاولئك الذين يقولون له ـ سوف تتعافى أيها العزيز ، سوف تتعافى ! بنبرات الجندى الذى يعرف انه ذاهب الى معركة لا عودة منها ويرد بنعم لمن يقولون له : ستعود بخير ، ستعود بخير ! ..

بل كانت هناك غرائب أخرى حدثت فى ذلك اليوم ، أشياء كانت تتكرر وتزداد فى الأيام التالية : التردد الكثير ، والتذبذب ، والتأجيل والتسويف ! .. « أريد أن أبقى فى أثينا لفترة أربع وعشرين ساعة ، وهكذا سنبقى فى روما ليلة واحدة فقط ، بل اننى لن افك حقائبى!»: هذا هو ما قلته فى القطار ..

على اننا ماكدنا نصل الى روما حتى أفرغت الحقائب من فورك، ولم تبادر بحجز مقعدك فى الطائرة ! .. « اليكوس .. لابد من حجز مقعدك فى الطائرة الى أثينا ! » .. « غدا ! » .. وفى الغد : « بعد باكر » .. وبعده : « هناك وقت » ..

تأجيل متواصل ، وكأن مشكلة جريدة صحيفة (تا ــ نيا) التى أرجأت نشر الوثائق لم تعد ماثلة ، وغدا كل عذر مقبولا لثنيك عن اعادة حزم الحقائب ، وعن حجز تذكرة الطائرة ! .. وكأنما أصبح لا يعنيك شىء من تلك الشواغل الخطيرة التى كنت من أجلها تقيم الدنيا وتقعدها ! .. وكأن المستقبل بدا لك أبدا ممدوداً لكى تنعم بكل شىء دون تعجل ولا تخوف ، وكأن التزامك بكشف النقاب عن فضائح (التنين) وحقيقة لم يعد شيئا ملحا ! .. بل ألفيتك تفاجئنى بقولك : « تعرفين ماذا أنوى أن أفعل ؟ .. سآخذ أجازة من البرلمان حالما أصل الى أثينا ! .. سأمكث هنا أسبوعين ، وبعد ذلك تنضمين الى ، ونعودالى هنا بالسيارة الخضراء » ! ..

فى الحق اننى سعدت بهذا ! .. وتضايقت فى نفس الوقت .. فقد سرنى أن أراك برئت من ذلك الاكتئاب الذى اعتراك فى الفيللا الخلوية ، وان لم أسترح فى قرارة نفسى لبعض التصرفات الغريبة التى ما برحت تصدر منك دون سابق انذار ! .. من ذلك على سبيل المثال ما حدث ونحن نهم باجتياز تقاطع الطريق يمين (فيافيتو) لحظة ظهور اشارة النور الأحمر ! .. فقد توقفت مكانى لعلمى انك تتضايق من أى انسان يعبر الطريق عند ظهور الضوء الأحمر ! .. وفجأة ألفيتك تدفعنى بعنف فى وسط زحمة المرور قائلا : « امشى ! . ما الذى تخافين ؟ .. ان أى انسان لا يستعد للعبور عند الضوء الأحمر لا يستعد للموت ، من لا يستعد للموت لا يستعد للحياة ! » .. وعندما ابتعدت عنى على الرصيف المقابل ، وكان الوقت متأخرا ليلا عندما رأيتك تعود الى الفندق وسترتك ممزقة ويداك متسلختان داميتان وكأنك اشتبكت فى مضاربة مع الاشجار الممتدة على جانب الطريق ! .. لكن لم تكن هى الاشجار التى تضاربت معها ، وانما

كان قوادا عرض عليكَ فى الطريق امراة بغيا ! .. فضربته بوحشية حتى هرع الشرطى اليك وأراد القبض عليك ! .. « اليكوس ! .. هل عدت الى السكر مرة أخرى ؟ » .. « لم أشرب ولا قطرة » .. « اذن لماذا فعلت هذا ؟ » .. « لا أدرى ! .. أقسم لك .. وانما انتابتنى رغبة لقتله ، رغبة جامحة لتفريغ الغضب المكظوم فى صدرى ! » ..

ثم اغلقت على نفسك باب الحمام مدى ساعة على الأقل ! .. ولما أزعجنى صمتك دخلت عليك لكى أرى ان كان ألم بك شيء ، فألفيتك مغمورا فى الحوض وعيناك مغمضتان وذراعاك مشبكان على صدرك : فى وضع جثة فى تابوت ! .. « اليكوس ! .. ماذا تفعل بالله ؟! .. » .. « تجريب ! .. بروفة ! .. تعرفين ان الموت ليس سيئا بالضرورة !؟ .. على أى حال فالموت هو صديق أى انسان متعب ! .. ثم هو ايضا حليف كبير للحب ! .. ان أى حب فى الدنيا لا يدوم ما لم يتدخل الموت ! .. اننى أذا عشت طويلا فسوف تكرهيننى فى النهاية ! .. لكن مادمت سأموت قريبا ، فسوف تحبيننى الى الأبد ! » ..

ثم حل اليوم الاخير الذى قضيناه معا ـ اليوم الذى ظلت ذاكرتى مدى شهور واعوام تسبر اعماقه لكى تستعيد كل دقائقه وجزئياته وكأن فى ذلك ما يمنحنى ولو قطرة مما فقدته ! ٠٠ ولكن هيهات هيهات ! ٠٠

ان ذكرى الليلة الاخيرة من ذلك اليوم ستظل باهرة السناء فى اطواء قلبى مهما تعاقبت بعدها الايام والليالى والاعوام ! ٠٠ لقد ذهبنا الى ذلك المطعم الاثير عندك فى الميدان الصغير فى روما القديمة ، فى تلك الغرفة الصغيرة ذات السقف المقبو ، والمدفأة التى تتقد فيها كتل الاخشاب بلهيبها البنفسجى ، والموائد المضاءة بشموع يسبغ ضوؤها المتراقص الخافت اطباقا غريبة فوق ملامح وجهك ، ونحن فى ركن من الغرفة فى شبه عزلة بين سياج وعمود ، وانت بادى السرقة والانعطاف فى هذه الليلة ، اذ اقول لك : « غدا ستسافر حقا ؟ » ٠٠ « نعم » ٠٠ « كنت اود أن اكون بصحبتك ! » ٠٠ « لا ! ٠٠ انا محتاج اليك هنا ، كما قلتلك ٠٠ بالاضافة الى اننا سنتلاقى قريبا ، فى عيد الفصح ٠٠ ساعود بسيارتى ، وسنعمل على تغيير لونها ٠٠ لابد من تغيير اللون ، فاذا اراد احد ان يؤذينى ـ » ٠٠ شعرت كأن طعنة اغمدت فى قلبى ،

اذ كنت اتوجس كلما عرضت لذكر السيارة وما يوحي به كلامك من تلميحات تثير الفزع في نفسي ، ولهذا لم اعقب ، وسارعت بتغيير مجرى الحديث .. وعندما لاحظت ذلك اخذت تربت على يدى قائلا : « لا تبتئسي بكلامي ! » .. ثم اشرت الى بائعة الورد التى اقبلت في هذه اللحظة واشتريت منها كل ما في سلتها من الورود والقيت بها في حجرى ! ..

ثم خرجنا من المطعم بعد العشاء واخذنا نتمشى في الشوارع الضيقة ذات الحوائط الكابية المتقادمة ووقع خطواتنا يرن فوق البلاط الصواني ! .. ويهمس في اذني واصابعك تدغدغ راحة يدى : « مهما يكن فان الحياة جميلة ! .. انها جميلة ، حتى عندما تكون قبيحة ! ..

ونصل الى الفندق ، وفى المصعد اراك تضغط على ازراره كلها قائلا : « انني اسوق الطائرة التى ستقلنا الى الفردوس ! .. » .. وفي الردهة تستل باقة الورد مني وتضع وردة في مقبض كل باب ، فاذا دلفنا الى الغرفة اخذت تنحاز الى الهدوء ! ..

وتنزع ملابسك في أناة وسهوم ، وتنطرح في الفراش مشبكا ذراعيك تحت راسك متأملا ، وفجأة تقول لى : « اين تذهب النجوم التى نراها تظهر وتختفي ؟ » .. « دعك من هذا الكلام يا اليكوس ! .. »

قولى لى ! .. في مغيب النجوم ، ماذا هناك ، عند الطرف الآخر ؟ »

فأجاريك بقولى : « اذا كانت النجوم المغيبة تلتمس عوالم أخرى ، فلابد من وجود عالم أفضل عند الطرف الآخر » ! .. « كلا ! .. هناك العدم ! .. الجزاء الاوفى لكل من يبحث عن عوالم افضل هو العدم ! لكن لعله ليس جزاء ولا عقابا : بل مكافأة ومثوبة ! .. انك لتحاولين جهدك ان تبحثي عما هو غير موجود ، حتى لتشعرين في النهاية بالحاجة الى الراحة في العدم ! » ..

وفجأة تقلبت في مكانك وانت تهمس في سمعي : « لكن دعينا من هذه السفسطة ، ولننعم بحبنا فيما اشعر أنه ليلة العمر ! » .. ثم قلت لى بلهجة مؤثرة ونحن في قمة السعادة والنشوة :

« لا تنسيني ! .. لا تنسيني ابدا ! .. يجب الا تنسيني ! »

اشد ما كانت هذه الكلمات تمزق فؤادى وتنهش ذاكرتي كلما استعدتها فيما بعد — بعد وقوع الكارثة التى لعل حسك المرهف كان يستشفها ويتأدى الى مغيباتها ! .

ولقد غادرنا الفندق في الساعة الثالثة عصرا ، قبل موعد الطائرة

بساعة ·· وكانت سيارة الاجرة تسير متباطئة حتى ذهبت تستحث السائق قائلا : « اسرع من فضلك ، والا تأخرت عن طائرتي ! ·· » · بيد انه رد بخشونة : « هذه اقصى سرعة ممكنة عندي ، وكان يجب ان تبكر في موعدك ! » ·· وفجأة عندما وصلنا الى ضواحي المدينة بدأ المحرك يحشرج ، ثم توقف ·· فقال السائق : « البنزين نفد » ·· « نفد ؟ ·· تأخذ راكبا الى المطار وليس في الخزان بنزين كاف ؟! » · وهنا تدخلت لمنع مشاجرة ، وقلت للسائق : « اسمع ! ·· هنا محطة للخدمة قريبة ، فحاول ان تصل اليها » ·· وبين التذمر واللعنات والشد والخبط وصلنا اخيرا الى المحطة الصغيرة حيث ملأ الخزان ·· لكن دون جدوى ، اذ قال السائق : « لن تتحرك السيارة ! ·· المحرك تعطل نهائيا » ··

لم اتمالك ان تطلعت اليك وانا انتظر ثورة عارمة من جانبك وانت ترقب ما يجري في صمت متحفز ، ومن عجب انك لزمت الهدوء وكأن الامر لا يعنيك ، فقلت لك : « اليكوس ، يقول ان المحرك تعطل نهائيا !» ·· « هذا خير وافضل » ·· « افضل ؟! الا تريد ان تسافر ؟ ·· قل لي ! ·· لانك اذا كنت لا تريد السفر حقا ، فلابد ان نفعل شيئا ! » ·· فلم ترد الا بغمغمة ·· والاسوأ من هذا أن السائق قطع الحديث قائلا : « سواء كنتم تريدون السفر ام لا ، فلا يمكن ان اترككما هنا ! ·· سأستدعى لكم سيارة غيرى » ·· « كما تحب » ·

فذهب السائق ، وتكلم تليفونيا ، ثم عاد قائلا : « لا يمكن ايجاد سيارة في الطريق ؟ ·· هل يمكن أن استوقف سيارة في الطريق ؟ ·· « أفعل » ·· وزرع السائق نفسه في وسط الطريق ، لكن لم تمر أية سيارة أجرة ، وكادت الساعة تبلغ الثالثة والنصف ·· « اليكوس ·· لنعد الى الفندق ·· يمكنك ان تسافر غدا » ·· « ربما كنت على حق » ·

ولكن وانت تقول هذا شعرت بارتياح وسرور ليس فقط لانك ستقضى معي ليلة اخرى بل كذلك لما اقترنت به هذه الرحلة من ظروف غريبة ـ واخيرا مرت سيارة اجرة خالية ، فاستوقفها سائقنا وانزل الحقائب متبرما ونقلها الى السيارة الاخرى وفتح لنا بابها قائلا : « اسرعوا ! ·· السيارة جيدة ، ويمكن ان توصلكم بسرعة » ··

واتجهنا الى المطار مرة اخرى وقد بلغت الساعة الرابعة إلا ثلثا ·· فقلت لك : « اليكوس ·· هل اقول للسائق أنه لم يبق امامنا الا دقائق معدودة ؟ » ··

« لا ·· لا ! لماذا تستعجل الامور ، ونغالب القدر ؟ ·· ان ما قدر ، سيكون ! ·· اذا كان مكتوبا لي ان ألحق هذه الطائرة ، فسألحقها ولو

وصلت بعد الساعة الرابعة ! ٠٠ واذا كان مكتـــوبا الا أركبها ، فلن اركبها حتى ولو وصلت فى الموعد المقرر ! » ٠٠

ثم طوقت كتفى بذراعك وقلت في رصانة : « اعرف انك تحبين ان نكون معا يوما آخر ٠٠ وانا احب هذا ايضـــا ! ٠٠ لكن يوم اكثر أو اقل ، بشهر اكثر أو اقل ، فمـــاذا يغير هذا من الامر ؟ ٠٠ اننا اخذنا الكثير ، انا وانت ،وبيوم آخر أو شـــهر آخر ، لن يمنحنا هذا ما لم ننله ! » ٠٠ « لماذا تقول هذا ؟ ٠٠ » ٠٠ « لانك كنت لى نعم الرفيق ٠٠ الرفيق الممكن الأوحد ! » ٠٠

ووصلنا الى المطار فى تمام الرابعة ، وتأهبت الطائرة للاقــلاع ٠٠ بيد ان احد موظفى المطار عرفك واعطى التعليمات بوقف تحرك الطائرة· وفى اهتمام كبير بك اخذ امتعتك واعطاك بطاقة الصعود ودفعك نحـو باب جوازات السفر : اسرع ! ٠٠ اجر ؟ ٠٠ اسرع ! ٠٠ فتبعتـه دون تعجل ، متباطئا فى كل خطوة ، كأنما تريد ان تعاند القدر ، أو كأنك الآن كرهت ان تعود الى اثينا ! ٠٠ وعند الباب الزجاجى الذى لا يسمح بعده للدخول الا للمسافرين ، لم تلبث ان توقفت لكى تعبث بالمسبحة التى فى يدك ٠٠ فقلت لك وانا ابســط يدى : « وداعا اذن » ٠٠ كنـا امام الناس لا نتعـــانق ٠٠ فاطبقت بيدك على يدى فترة مديدة وانت تتحاشى نظرتى المحـــدقة ٠٠ « وداعا يا نور عينى » ٠٠ واذا موظف الطيران يكاد يفقد اعصـــابه وهو يهتف : اسرع ، اجر ، اسرع ! ٠٠ فاومأت برأسك وتقدمت الى قسم الجوازات ، وبعده الى قسم الشرطة · وبعدهما بضعة امتار دون ان تســـتدير ، الى ان قاربت البـوابة ٠٠ وفجأة ، وبعزم انسان يستجيب لحافز لا يستطيع صده ، عدت ادراجك بينما الموظف يصيح : « ماذا تفعـل ؟! ٠٠ الى اين انت ذاهب ؟! ٠٠ » ذلك وقد تقدم شرطيان يحاولان وقفك ٠٠ فرغت منهما دون ان تنظـر اليهما ، مترفعا ، واذا انت لدى الباب الزجاجى عائدا الى ، تحتـوينى بين ذراعيك فى عناقة طويلة ، حارة ، صــــامتة ! ٠٠ ورحت تغمرنى بقبلاتك ، على فمى ، وعلى جبينى ، وعلى خدى ! ٠٠ وامسكت وجهى بين يديك وانت تقول : « نعم ! ٠٠ كنت لى نعم الرفيق ! ٠٠ الرفيق الممكن الاوحد ! » ٠٠ وبترافع اشد ، وهدوء اتم من ذى قبل ، قفلت راجعـــا مارا بالشرطيين المشدوهين وموظف الطيران المنذهل ! ٠٠ وكانت آخر صورة انطبقت عنك فى ناظرى شارب خشن اسود فى محيا شاحب ، وعينان لامعتان غلابتان تحدقان الى على البعد ، نافذتين الى اعماق عينى !

كان مقدورا الا اراك حيا مرة اخرى !!

القسم السادس

(١)

الموت لص لا يبرز فجأة ، وهذا ما كنت احاول ان اقوله لك ! ٠٠ الموت يعلن دائما عن مثوله بلون من الرائحة ، والاحساسات الخفية ، والاصوات الصامتة ! ٠٠ الموت تجلى عن ذاته لدى اقترابه ! ٠٠ وحتى عندما رحت تعانقني في المطار ، كنت تعرف انني لن اراك قط حيا مرة اخرى ! ٠٠ وانت قد غازلت الموت كثيرا بافاعيلك المتحدية ، وتغنيت به في قصائدك الشعرية ، واستدرجته اكثر في كروبك وعذاباتك بحيث لا تستطيع انكاره ، وتشممه ، واليقين بانه قادم ! ٠٠ واخالك كنت تسعى اليه كعاشق نافد الصبر ، ملهوف لأن يسمح له بانتهاب حياته ! ٠٠ فهل كان ذلك عن عمد ، وهل كان تبرما بالحياة ، وضيقا بالخسران والهزيمة ؟ ٠٠ لعلهما معا ، ادراكا منك بان كل مرحلة من اسطورتك قد انتهت بالحبوط والهزيمة ! ٠٠ فان محاولة اغتيال بابا دبولوس قد خابت ، وما اعقبها من اعتقال ومحاكمة والحكم باعدامك لم يحرك ساكنا في اليونان ! ٠٠ وفشلت محاولاتك للهروب من السجن ! ٠٠ ولكي ترى ضوء الشمس من جديد كان عليك ان تتقبل عفو الطاغية عنك ! ٠٠ وقرارك بالاندماج في عالم السياسة ما كان الا غلطة ، والحملة الانتخابية كارثة ، ومساعيك كنائب في البرلمان فشل جديد ! ٠٠ وكذلك كان جهدك للانضمام الى حزب واصرارك على اقصاء الاعضاء الفاسدين فشلا متلاحقا ! ٠٠ ومثل هذا محاولتك تأليف كتاب عن حياتك ! ٠٠

في كل ما اضطلعت به ألفيت نفسك صفر اليدين ، وكل شيء توليته حاد عن سبيله والتوى عن جادته : كمتآمر ، ونائب ، ومفكر ، وسياسي ، وزعيم ! ٠٠ قد يكون هذا قدرك ، بطلا وشاعرا ! ٠٠ ولكن دائما يأتي اليوم الذي يغدو فيه حتى البطل مهما يكن عظيما ، وحتى الشاعر مهما يكن قديرا ، وهو لا يعود يحتمل عذاب السير وحيدا في مفاوز الصحراء ! ٠٠ وتحل دائما اللحظة التي يتعب فيها بين العيش لانه تعب من الخسران ، فيقول لنفسه وقد غالبه القهر والغثيان : لابد لي ان افوز على الاقل مرة واحدة ، وفي قولته تلك يفكر في الموت (اذ

يشتم الآن رائحته) ، وكأنه ورقة رابحة ! ٠٠ فيم مداومة الجهد الذى يسمى الوجود ؟ ٠٠ المعاناة نفس الهزائم ، وتكرار نفس العثرات والاخطاء ؟! ام للتكيف مع الايام ، والذبول فى عتامة النكران والرتابة ؟! على النقيض ، فان الموت قد يهيىء معنى لتضحياتك ، وعذاباتك ، وحبوطك ! ٠٠ وعندئذ قد يصغى الناس اليك فى النهاية ويفهمونك ! ٠٠ بل ينبعثون حتى الى الاعراب عن مشاعرهم حيالك بالزهور ، والرايات ، والهتافات ، مشيدين بما قدمت من تضحيات ، وما أزجيت من مثل تحتذى ٠٠ ان تموت لكى لا تموت ! ٠٠ ان تدع نفسك تقتل لكى تفوز مرة واحدة على الاقل ـ ذلك هو الحساب المروع والباهر الذى قدرته وتدبرته ، مقدما نفسك للموت فى عناقة انتحارية ! ٠٠

ان هذا الحساب المروع والباهر قد نضج واتسق فى غضون شهر : شهر ابريل ٠٠ ففى عودتك الى اثينا ـ كما نمى الى ـ غدوت مسلوبا من كل حيوية ، لا تستقر على حال بما اعتراك من غم خفى ! ٠٠ اذ رحت تقضى الشطر الاكبر من وقتك فى مكتبك ، حيث كانت سكرتيرتك تفاجئك اكثر الوقت جامد النظرات مطبق الفم ، مشبك الذراعين ، جالسا كمن هو غارق فى فكرة مستحوذة ٠٠ بل كنت حتى لا تحرك عينيك اذا دق جرس التليفون او اذا هى خاطبتك ، فكانت تضطر الى الاقتراب منك وشد كمك لكى تجعلك تتحرك وتقول لها : « من المتكلم ؟٠ ماذا ؟ » ٠٠ وعندما كان عامل البار تحت البيت يجيىء بالقهوة ، لم تكن تلاحظ قدومه ولا الفنجان الذى يضعه على الخوان ٠٠ وكنت عندما تبصره فيما بعد تفحصه متحيرا ، كيف جاء الى هنا ، ومن الذى جاء به اليك ؟! ٠٠ وأحيانا كنت تنهض فى تباطؤ شديد متنهدا وتأخذ فى ذرع الغرف وانت مطرق الرأس محنى الكتفين ثلاث خطوات الى الامام وثلاث خطوات الى الخلف كما كنت تفعل فى سجن بوياته ٠٠ فاذا ساقتك قدماك الى مكتب السكرتيرة توقفت لكى تحدق فيها دون ان تبصرها بعينيك الجامدتين الخامدتين حتى كانت ترتاع وتقول لك : « مستر بناجوليس ! ٠٠ هل تشعر بانحراف او مرض ؟ » ٠٠ وكنت مريضا حقا ٠٠ وكنت تقول هذا لكل احد ٠٠ كنت تشكو الما فى معدتك ، وساقيك ٠٠ وكنت لا تستطيع النوم ، وتقول : « اخذت حبتين منومتين ، فلم تكن لهما فائدة ! » ٠٠ او تقول : « اننى نمت فى الساعة

الخامسة واستيقظت فى السابعة » ٠٠ او تقول : « لا اقوى على الوقوف على قدمى ! ٠٠ وحلقى ملتهب ولا اقدر ان ابتلع اى شيء ! » ٠٠ فكنت لا تأكل الا قليلا ، ولا شيء قبل المساء ، وامسكت فجأة عن معاقرة الشراب ، مؤكدا ان رائحة النبيذ تقززك ، فلم تكن تروى ظمأك الا بعصير البرتقال ٠٠ اما وقتك فكنت تمضيه فى صحبة الآخرين ، ولكن صموتا عازب الذهن ، وكأن ذهنك بعيد بالوف الاميال او مغلفا بضباب يخفى سرا خفيا ٠٠ وكنت اذا اغلقت الابواب تصفقها صفقا ، وتقود سيارتك غضوبا ، تستمد لذة من خبط آلاتها عمدا وبعث الصرير من عجلاتها فى مفارق الطرق ، معرضا السيارة للاصطدام بالسيارات الاخرى ! ٠٠ وكنت تتركها فى الخارج متسخة ملطخة بالاوحال وفى داخلها تتناثر قصاصات الورق والمجلات واعقاب السجائر ! ٠٠ بل كنت تعيرها الى كل من يطلبها منك ، مبديا لا مبالاة تامة اذا اعيدت اليك مخدوشة مرضوضة ، حتى لكأنها باتت رمزا لروحك التى دب اليها التفسخ وسرى اليها التحلل ! ٠٠

اننى لم اكن اعلم بهذا وقتها ! ٠٠ بل ما كنت ارتاب فى ان روحك بدأ التحلل والتفسخ يغشاها ، وكنت اعتقد انك فى صفاء لانك استطعت اقناع صحيفة (تا ـ نيا) باختصار فترة التأجيل ونشر الوثائق فى غضون الشهر ! ٠٠ وكان اول ما قلقت من أجله هو فى العشرة الايام الاولى من الشهر عندما اتصلت بى تليفونيا لكى تخبرنى انهم سطوا على شقتك محاولين سرقة الوثائق : « هالو ! ٠٠ هذا انا ! ٠ خمنى ماذا حدث ! ٠٠ عندما عدت الى البيت فى الليلة الفائتة ضبطت واحدا منهم بينما كان يحاول فتح باب غرفة النوم عنوة ! » ٠٠ « وماذا فعلت ؟ » ٠٠ « هاجمته واشبعته ضربا ، ثم امسكت به وقيدته وحبسته فى (البدروم) ، واننى الآن استجوبه » ٠٠ « ومن يكون ؟ من ارسله ؟ » ٠٠ « هذا ما احاول معرفته ! ٠٠ وكل ما يمكن ان اقوله لك الآن هو انه يدعى ايرودوتو » ٠٠ « ربما كان لصا يا اليكوس ! » ٠٠ « لا ! ٠٠ انه ليس مجرد لص ! ٠٠ كان يعرف ان الصور الفوتوغرافية للوثائق فى غرفة النوم ! » ٠٠ « ما هذا ؟! ٠٠ امازلت محتفظا بها هناك ؟ ٠٠ الم تضعها حتى الآن فى مكان مأمون ؟! ٠٠ » ٠٠ « واين اضعها فى فيلا افيروف ؟! » ٠٠ « اصغ الى يا اليكوس ـ » ٠٠ « لا اريد مواعظ ! ٠٠ الى اللقاء ! » ٠٠

اننى لم اقلق فقط ، بل تحيرت من امرك ٠٠ فهل كان من

المستســــاغ ان تحتفظ (بكنزك) في تلك الغرفة ، تحت رحمــة اى انسان ؟ ·· او لم يكن من الغريب ان تحدثنى عن هذه الواقعة الخطيرة بما هو اقرب الى التفكه ، اذ بدا من لهجتك انها مدعاة للتسلية ! ·· ام اننى كنت مخطئه في ظنونى ؟ ·· للتيقن من هذا ، انتظرت بضع ساعات وكلمتك تليفونيا عما انتهى اليه امر الاسير الذى حبسته فى (البدروم) « وهل تكلم ؟ » ·· « آه نعم ! ·· تكلم » ·· « ومن الذى ارسله ؟ » ·· « اف ! ·· ليست هذه مسألة للكلام عنها فى التليفون ·· على اى حال هى ليست هامة » ·· « ليست هامة ؟! ·· غريب يقتحم بيتــــك ليلا وتقبض عليه وهو يحاول فتح غرفة نومك عنــــوة ، وتبلغنى تليفونيــا لتعريفى بهذا ، ثم تقول انها ليست مسألة هامة ! » ·· « هى ليســت هامة فعلا ، لانها لا تغير أى شيء ·· أما هو زمليس أكثر من شـــخص بائس ·· ونا آســـف لاننى ضربته » ·· « الا تنـــوى ان تســـلمه للشرطة ؟ » ·· « كلا » ·· « ولا تنوى ابلاغ الصحف ؟ » ·· « كلا » · « اليكوس ·· اننى لا افهمك ! » ·· « ايه ؟ ·· ان الحياة متعبة ، ولا لزوم لتعقيدها اكثر بامور تافهة ·· اننى ضبطته ·· وعرفت ما كنت اريد ان اعرفه ·· وقررت صرف النظر عن الموضـــوع ! ·· هذا كل شيء » ··

بهذا الاسلوب اقفلت موضـوعا كنت فى الماضى تكرس لمثله الوف الكلمات وفيوضا من الغضب ، بل اننى عندما عاودت الاتصال بك بعد ايام للاستفهام عن جديد فى الأمر خاشـــنتنى فى الـكلام ورددت على بفظاظة قائلا : « لقد صدعت رأسى باسـئلتك ، ولا يمكننى ان اصغى اكثر من هذا ·· يكفى ما عندى من مشاكل ! » ··

وفى الحق ان المشاكل بدأت تتعدد من حولك هذه الايام ·· كانت اولاها مشكلتك مع الحزب الذى بعد أن رفض قبول اسـتقالتك منه ، اخذ بعض اعضائه من الانتهازيين من أمثال تســـاتسوس يحـــاولون اقصاءك من رئاسة لجنة شباب الحزب لاغراض ذاتيــة ! ·· ثم كانت هنـــاك مشـــكلتك مع جريدة (تا ــ نيا) وما تطورت اليه من عراقيل لم تكن فى الحســـبان ، منها مســـاله الاعــــلان عن النشر فى الاداعــه والتليفزيون ، اد رفضت هده الهيئات قبول الاعلان خوفا من التــورط والزج بنفسها فيما لا تحب ·· كما ان تسلســـــل نشر الوثائق اثار مشكله اخرى : اد انك اصررت ، وبحق ، ان تكون الوثائق الخاصـــه بافيروف هى فاتحه السلسله كلها فى النشر لانها اخطرها ، ولانه ــ

بغير هذا قد يتسع الوقت امامه لحماية نفســـه من خلال وســـائل قضائية ٠٠ وكان الصحفي الذى عهدت اليه بالاعداد التحريرى للنشر وهو (ايانيس فازيس) قد اصر على وجوب نشر وثائق افيـــروف فى آخر السلسلة اثارة للتشويق وتوفير الجوانب الدراميــة ٠٠ وقد لقى هذا الرأى عند فازيس الذى تميل اليه تأييدا من محرر كنت تكرهه الى حد انك اطلقت عليه اسم (زفت) ، فكان هذا من عوامل اثارة غضـــبك حتى فقدت شهيتك واصابك الأرق ! ٠٠ ومع ذلك فان هذه المشـــاكل لم تفسر عدم اهتمامك الغريب بمسألة اللص ايرودوتو واستياءك منى ، وما تلا ذلك من تبـــاعدك وانطـــوائك مثل قوقعة تنعـــزل فى قلب صدفتها ! ٠٠ ان هذا هو ما يحدث لمن يشرف على الموت فى الكدر الذى يسبق الغيبوبة ، اذ يعرض عن الاشـــخاص الذين يحبهم ، ويتجاهل الاشياء التى كانت تثير اهتماماته ، ويجرد نفسه من كل مشاعر المودة والفضول والرغائب مما يمثل القنطرة التى تربطه بالحيـــاة ! ٠٠ ومع هذا فانها لا تكون المرحلة الفاصـــلة ، ذلك لانه فى ذات اللحظة التى يعتقد فيهـــا انه تحـــرر من كل رباط وكل مبعث اغراء ـ لا يلبث ان تتفجر فيه شهقة غاضبة ، مثل حنين الى الحيـــاة ، التى هى جميلة حتى عندما تكون قبيحة ! ٠٠ ففى الحياة هناك الشـــمس ، وهناك الرياح ، وهناك الخضرة ، وهناك الزرقة ، وهناك لذة الطعام والشراب ، ومسرة القبلة ! ٠٠ هناك البهجة التى تعوض عن الدموع ، وهناك الخير الذى يعوض عن الشر ، وهناك كل شىء مما هو نقيض العـــدم ـ والا لا يبقى هناك سوى السكون ، وسوى الظلام ، وسوى العدم ! ٠٠ هكذا لا يلبث ان يستعيد الرغبة فى الحب ، وفى الاشتهاء ، وفى الكفاح ٠٠ خصوصا الكفاح ! ٠٠ انهـــا رغبة قائمة ، اليمة ، هشة مثل بلور ٠٠ وقصيرة الامد كل القصر ! ٠٠ ولكنها كافية عند البطل لكى يبذل كل الجهـــد الاخير ٠٠

★★★

ولقد بدأ الجهد الاخير فى الاسبوع الذى استخدمنى فيه القدر مرة اخرى اداة فى الجهاز ، وحلقة فى السلسلة ! ٠٠ كان الوقت منتصـــف شهر ابريل وعيد الفصـــح على الابواب ، بتاريخه المختلف فى كل من بلادى وبلادك : اذ يحل عند الكاثوليك يوم ١٨ ابريل ، وعند الارثوذكس يوم ٢٥ ـ واذا التليفون يدق وصوتك المعهود يقول لى هذه المرة منتعشا: « هـــالو ! ٠٠ هذا انا ! ٠٠ صـــباح الخيـــر يا نور العـــين ! » ٠٠

« الحمـد لله ! ‥ يبدو انك منسجم مع نفسـك اليوم ‥ الامور على ما يرام ؟ » ‥ اجبت بالايجاب ‥ اذ انك اسـتقلت من الحزب مرة ثانيه والى الابد ، ونفضت يديك من عبث السياسة والسـياسيين ‥ واسترسلت تقول لى : « انهم الآن يكرهونني بالاجمـاع : اليمين ، واليسار ، والوسط ! ‥ انني سعيد ! » ‥ « سعيد ؟ » ‥ « نعم ‥ لانني احب الحيـاة وكل ما فيها ! ‥ واحبـك انت ! » ‥ « وانا مثلك » ‥ « يضاف الى هذا ان الاذاعة في اللحظة الحالية تذيع اعلان صحيفة (تا ـ نيا) بهذه الكلمـات : (الكسـندر بنـاجوليس يميط اللثام عن الملفات السرية التى لم تستطع الحكومة التوصل اليها ! » ‥ « اليكوس ! ‥ هذا خبر عظيم فعلا ! ‥ فقد نجحت فى مساعيك ! ‥ متى تبدأ (الزفة) ؟ » ‥ « فى خلال ثلاثة ايام ! ‥ يوم الاحد ! ‥ من سوء الحظ اننى لن اكون فى اثينا يوم الاحـد ! ‥ فاننى قادم الى ايطاليا بالسيارة عن طريق برنويزتى ، وساغير لونها الى الازرق بدلا من الاخضر حتى لا يميزوها فى الظلام و ‥ » ‥ « اليـكوس ! ‥ » « وسنتقابل فى الميناء لكى نقود السـيارة الى روما ومنها الى الفيللا الخلوية فى فلورانسا ! » ‥ « اليـكوس ! ـ » ‥ « ماذا ؟ الا تحبين ان تقابلينى فى برنويزتى يوم الاثنين ؟ فى عيد الفصح ؟ » ‥ اننا كنا دائما نمضى عيد الفصح معا ! ‥ » ‥ « نعم يا اليكوس ‥ لكن كان المفهوم اننا لن نمضى عيد الفصح هذه المرة معـا ، لاننى مسـافرة الى امريكا ‥ اننا سبق ان تكلمنا فى هذا يا اليكوس ! » ‥

لقد تكلمنا فى هذا مرارا من قبل ، واخبرتك اننى سـأسافر الى نيويورك ومنها الى (مساشوستس) لالقاء محاضرة فى احدى الكليات عن فن الصـحافة وتشـكيل الضـمائر الصـحفية فى اوربا من خلال الصحافة ، حتى انك حبذت الفكرة واقترحت تطعيم المحاضرة ببيانات طريفة فى صلب الموضوع ! ‥ قلت لك : « ألا تتذكر هذا يا اليكوس ؟» ‥ « اتذكر جيدا ، حتى اننى قلت لك اننى سأصل يوم الاحد الثـامن عشر وابقى معك اسبوعا ‥ ان محاضرتك ستكون فى السادس والعشر من الشهر ، وسيكون امامك وقت كاف اذا انت سـافرت فى اليـوم الرابع والعشرين او الخامس والعشرين او حتى السادس والعشرين ! » ‥ « لا يا اليكوس لاننى ساكون فى الايام السابقة للمحاضرة مرتبطة بعدة مواعيد هامة فى نيـويورك » ‥ « المسـألة بسيطة ! ‥ الغى كل مواعيدك وارتباطاتك فى نيويورك » ‥ « هذا مستحيل يا اليكوس » ‥

« لا شيء مستحيل ، الا الموت ! » ٠٠ « اصغ الى يا اليـكوس ! ٠٠ لماذا لا تحضر عندى الآن ، بالطائرة ، وبهذا نكون معا حتى مساء الاحد او صباح الاثنين » ٠٠ « كلا ! ٠٠ اذا جئت ، فلكى اقيم اسبوعا كاملا ! ٠ واذا جئت ، فسأجيء ومعى السيارة للعمـــل على تغيير لونها ، ولكى ابتعد بها عن هنا واتفادى استخدامها فى فترة الزفة » ٠٠ « لا باس ٠٠ احضرها ، وسنتلاقى لمدة اربع وعشرين ساعة و ـ » ٠٠ « اربع وعشرون ساعة ـ لا ! ٠٠ » ٠٠ « كن معقولا يا اليـــكوس ! ٠٠ حـاول مرة ان تراعي مواعيدى ومشاكلى ! ٠٠ لا لزوم لهذا الخلاف بيننا ! » ٠٠ « انت التى تثيرين هذا الخلاف ! ٠٠ » ٠٠

وهكذا كنا اذا نشب الخلاف بيننا تطور الى خصام ! ٠٠ حتى انك صرخت لى فى النهاية محتـــدما : « اذهبى الى امريـكا ! ٠٠ اذهبى الى القمر ! ٠٠ اذهبى الى جهنم ! ٠٠ لن اجيء عندك على أى حال ! ٠٠ لن اغير لون السيارة ، وسأبقيها فى اثينا ! »

ووضعت سماعة التليفون ، تاركا اياى اتخيل مشهد انوار كاشفة امامية تقطع الطرقات نهبا ، تتعقبها انوار كاشفة داهمة : مشهد مستطير للموت فى شكل سيارة ! ٠٠ وعندئذ اخذت اقول لنفسى انه قد يمكننى تأجيل ارتباطاتى فى نيويورك واسافر لالقاء المحاضرة بعد ستة أيام من حضورك ، تحقيقا لما طلبت ٠٠ وهكذا اتصلت بك تليفـونيا لكى أقول لك : لقد كسبت الجولة يا عزيزى ، وغيرت خططى طبقا لما اردت ! ٠٠ لكن التليفون لم يرد ! ٠٠ فقد ذهبت للشراب والعربدة مع صديق لك يونانى من زيورخ تنفيسا عن غضبك ، كما علمت منه فيما بعد ! ٠٠

هكذا زاد ضيقى حتى لقد اقسمت ان اتمسك بخططى فى نيويورك، ولم نتبادل المكالمات التليفونية حتى يوم الاحـد ١٨ ابريل ـ فى بداية المرحلة الفاصلة فى حياتك ! ٠٠ اذ ذاك سمعتك تقول لى عبر الاسلاك : « هالو ! ٠٠ هذا انا ! » ٠٠ « اذن فانت لم تحضر فعـلا ؟ ٠٠ افتعلت المشاجرة بيننا وتمســكت برأيك ! » ٠٠ « كان هذا من حسن الحظ يا نور عينى ! ٠٠ لا يمكنك ان تتصورى العمـــل الذى اقوم به هنا ، والمشاكل ! ٠٠ وفضـــلا عن هذا ، فاننى لو كنت جئت لكان لابد من احضار السيارة ، وانا فى حاجة اليها لاننى لم اعد انام فى شقة شارع كلوكترونى ! ٠٠ اننى انام فى البيت القديم فى جليفـادا ! ٠٠ كيف كان يمكن ان انتقل مرتين يوميا بين اثينا وجليفادا ، بدون سيارة ؟ » ٠ « اذن هذا هو سبب عدم امكانى الاتصال بك فى تلك الليلة ! ٠٠ لماذا

لم تخبرني بهذا يا اليكوس ؟ » ٠٠ « انني ابلغتك فعلا » ٠٠ « متى ؟ »٠ « امس » ٠٠ « لكننا لم نتصل تليفونيا امس ! » ٠٠ «آه ! ٠٠ لا بأس»٠ « على اى حال ، لماذا تنام في جليفـــادا ؟ هل تكررت حـــكاية اللص ايرودوتو ؟ » ٠٠ « لا ٠٠ مسألة احتيـــاطات ! ٠٠ لقد ظهرت جريدة (تا ـ نيا) اليوم ، وبها مقال طويل ! ٠٠ ان الصفحة الاولى بكاملهـــا عن وثائقي ! ٠٠ لكن غدا سيكون اليوم الاكبر ! ٠٠ ان النشر الحقيقي سيبدأ من الغد ! » ٠٠ « بالوثائق المتعلقة بافيروف ؟ » ٠٠ « لا ، بكل اسف ٠٠ ان الصحفي فازيس لم يرضخ ، خوفا من العواقب ٠٠ وسيبدأ النشر بمذكرات هازيزيكيس ! ٠٠ تعرفين لماذا اتصلت بك اليوم ؟ » ٠ « لكي تهنئني بعيد الفصح وتعتذر عن عنادك ! » ٠٠ « لا ، لا ! ٠٠ لكي اخبرك اننا سنمضي عيد الفصح معا حسب التقـويم الارثوذكسي ، يوم الاحـــد ، في باريس ! » ٠٠ « في باريس ؟! ٠٠ » ٠٠ « نعم ٠٠ يوم الجمعة ٢٣ لابد ان اذهب الى باريس لحضـــور مؤتمر لمواطني شيلي في المنفى و ٠٠ ألم اخبرك بهذا ؟ ٠٠ وضـــحك ! ٠٠ اظنني اخبرتك ! ٠٠ على اى حال فقد وعدتهم بالحضـــــور وســـتنضمين الى في باريس ٠٠ وسنبقى هناك حتى يوم الاثنين والثلاثاء وبعدها نذهب الى قبرص » ٠٠ « الى قبرص ؟ » ٠٠ نعم ٠٠ لابد ان احصل على شيء ـ لا يمكنني الشرح في التليفون ، لكن يمكنك ان تخمني ! ٠٠ مادة من الدرجة الاولى ! » ٠ « يا اليـــكوس ـ » ٠٠ « ســـتعجبك فـــكرة باريس وقبرص ، أليس كذلك ؟ » ٠٠ « اليكوس ٠٠ غدا سأسافر الى امريكا ٠٠ هـــل نسيت هذا ؟ « الى امريكا ؟ » ٠٠ « نعم يا عزيزى ، امريـــكا ٠٠ اليس هذا هو ما تخاصمنا عنه ، منذ ثلاثة أيام ؟ ٠٠ « آه ؟ ٠٠ تذكرت الآن ! ٠٠ ولماذا تذهبين الى امريكا ؟ ٠٠ « اليكوس ٠٠ ماذا جرى لك ؟! من اجل المحاضرة الصحفية التي سألقيها في كلية (مساشوستس) ! ٠٠ هل نسيت هذا ايضـــا ؟ ٠٠ « آه ! ٠٠ تذكرت الآن ! ٠٠ اذن فلن تذهبى الى باريس معى ؟ ٠٠ » ٠٠ « لا يا عـــزيزى ، لا » ٠٠ « ولا الى قبـــرص ؟ » ٠٠ « لا يا عزيزى ، لا » ٠٠ « شيء مؤسف جدا ! » ٠٠ « اليـــكوس ٠٠ هل انت بخير ؟ » ٠٠ « نعم ! ٠٠ نعم ! ٠٠ ومتى تعودين من امريكا ؟ » ٠٠ « يوم ٥ مايو أو ٦ » ٠٠ « نعم ! ٠٠ تذكرت الان » ٠٠ « اذن سنتقابل يوم ٥ مايو ٠٠ ساحضر عندك يوم ٥ مايو » ٠٠ « لا ٠٠ ســـتحضرين عندى يوم ٥ مايو » ٠٠ « موعدنا اذن يوم ٥ مايو ٠٠ اتفقنا ، ٥ مايو » ٠

وجعلت تكرر تاريخ ٥ مايو مثل اســـطوانة مشروخة تكرر نفس

المقطع مثنى وثلاث ورباع ، وكأن استحضار هذا التاريخ يكلفك جهدا خارقا ، وكأن مجرد التفكير فيه يعنتك ويضنيك !·· ولم اتمالك ان وضعت سماعة التليفون وقد انتابني قلق فاق حتى ذهولى ! · ·

★★★

فى تلك الفترة امكنك أن تضع يدك على تلك الوثيقة التى قدر أن اتسلمها بعد وفاتك : كانت مرقومة برقم ٩٨٩٧٥ ، وفى الزاوية العلوية اليسرى من الورقة كتابة مطبوعة بالآلة الكاتبة تقول « من ادارة المباحث (كى . واى . بى) الى وزير الدفاع ايفانجلوس افيروف ـ سرى جدا وشخصى ـ عاجل » ... وكان نصها هذا : « نتشرف بابلاغكم انه بناء على أمركم الشفوى فى الأيام الأخيرة فان الكولونيل قسطين كوستانتوبولس مع ضابط آخر من الادارة سوف ينضمان الى مجموعتنا فى قبرص لاسترداد الوثائق السرية الخاصة بادارتى (اى . ايه . تى) و (اى . اس . ايه) التابعتين لاثينا ، وهى التى فى حوزة متعاون مع النائب بناجوليس · أن هذه الادارة هى رهن اوامركم وفى انتظار تكليفات أخرى منكم » ...

والواقع أنه بعد هذه الوثيقة ، وبعد عملية النشر التى تتولاها صحيفة (تا ـ نيا) ، أخذت الاحداث تتسابق ، وخاصة تلك المكالمات التليفونية التهديدية : « اذا لم تتصرف بالعقل يابناجوليس ، فسوف تندم ! ·· اذا لم تكف عن حشر أنفك يا بناجوليس فسوف تدفع الثمن » ·· ثم أعقب ذلك قيام المهمات القضائية بتكليف قاض باسم جيوفيلوس بمعارضة النشر ... كان جيوفيلوس شخصية طموحة توسم الخطر أثر اذاعة الاعلانات عن قرب نشر الوثائق ... ومن ثم سارع بالاتصال تليفونيا بصحيفة (تا ـ نيا) لجس النبض واستطلاع الأمر ، وطبعا فانك لم تحمل محاولته على محمل الجد وقلت وقتها للصحفى فازيس : « أنا مقتنع بانه لا ينوى عرقلة النشر فعلا ، وسترى » ! ·· ولكنه لم يتوقف ، وفى الايام التالية بعث بعدة استدعاءات الى فازيس واليك ايضا للحضور الى مكتبه ... ومع ذلك فلم يكن فيما تم نشره حتى الآن شىء يمس أى عضو من أعضاء الحكومة رغم الاسلوب الدرامى للاعلانات المذاعة بالراديو ... كانت الاوراق تشرح ببساطة الاساليب التى تتبعها ادارة المخابرات (كى · واى · بى) يوميا لارسال التقارير للادارة العامة (أى · أس · ايه) عن المواطنين الموضوعين تحت مراقبة خاصة ، حتى لقد شعر القراء بخيبة امل وقالوا : أهذا كل شىء ؟! ..

فلما تكررت الاستدعاءات تضـايقت وقلت : « لمـاذا يتحمس جيوفيلوس هذا على هذه الصورة ؟ .. ما ألذى يخافهمن مداومة النشر ؟ »

بيد ان الموقف تازم عند نشر الوثيقة رقم ٢٣ التى جاء بها : « ان ايفانجلوس أفيروف ، النائب السابق والمـؤيد لسياسـة مـد الجسور بين الحكومة الوطنية والسياسيين السابقين ، متعـاون فعلا ويبعث بالتقارير الى كبار الرؤساء فى ادارة (كى . واى . بى) مما كانت له نتائج ايجابية قيمة » ..

عند هذا الحد بعث جيوفيلوس يستدعيك للحضور الى مكتبه فى اليوم التالى ، ٢١ ابريل ــ فى ذكرى حركة الانقلاب التى قـام بها بابادوبولوس ، واذا بك تستشيط غضبا وتصرخ قائلا لمن حولك : « ما ألذى يريده جيوفيلوس هذا ؟ هل يريد احياء ذكرى انقلاب ٢١ ابريل ؟! ... وقـررت الا تلبى الاسـتدعاء : (واذا أراد أن يخاطبك ، فعليه أن يأتى اليك بشخصه ، ولكن مع الدبابات ، لانك لن تفتح له بابك) ، على حد ما صرحت به وقتها فى فورة اهتياجك ! .. وطلبت من الصحفى فازيس أن يحذو حذوك ..

وفى يوم ٢٢ ابريل جاء جيوفيلوس الى مقر الصحيفة ، وتكلم مع فازيس ومساعده مواجهة : على الصحيفة أن توقف النشر فى الحال ، وأن تسلم اليه الوثائق .. ان هذا هو ايضا مطلب وزير الدفاع ، فهو بحكم مسئوليته عن ادارتى المباحث المذكورتين ، المخول وحده بالترخيص لنشر مثل هذه الوثائق . واذا لم تقم صحيفة (تأ ــ نيا) باطاعة الأمر ، فسيصدر امرا بالمصادرة ...

وكلفت الصحيفة بابلاغك هذا ... فابلغوك وكان ردك القاسى : قولوا لجيوفيلوس اننى سآخذ أمره وامسح به دبرى ! ..

أجل ! .. ان روحك القتالية قد استنفرت من جديد ! ... ولكن باى ثمن ؟ .. أن المحيطين بك وقتذاك قالوا انه كان يكفى أن ينظـر الانسان اليك لكى يدرك الجهد الذى تتكلفه ، والتوتـر الذى كان يلتهمك ! .. كنت لا تلزم السكون دقيقة واحدة ! .. مرة تخلـع سترتك شاكيا من الحر ، ثم لا تلبث أن ترتديها شاكيا من البرد ! .. أخذت تشكو آلاما وتقول : أنا محموم ! .. انا مريض ! .. لا .. انها الشيخوخة ! .. واحيانا كنت تسير الى المنازل فى شارع كلوكترونى قائلا : من احد هذه المنازل يمكنهم أن يصيبونى بالرصاص بسهولة؟.. ان فكرة ان احدهم يريد أن يقتلك لم تفارقك ثانية واحدة ... فهل

كان هذا هو سبب حالات التشوش والاضـطراب التى رانت على ذهنك ؟ ... فى الليلة التى بين يوم الاربعاء ويوم الخميس ـ حين اتصلت بك من نيويورك فى اثينا وكانت عندك صباح الخميس ، وبدا وكانك تسبح فى ضباب ! .. قلت لى : « هل وصلت من رحلتك ؟ . بديع ! .. جميل ! .. انا قادم غدا ، فى الساعة الثانية بعد الظهر ، بطائرة شركة اوليمبيك ! .. هل تاتين وتقابلينني فى المطار ؟ » .. « المطار ياأليكوس ؟ اى مطار ؟ .. » .. « ماذا تقصدين ؟ باريس طبعا ! .. ومن هناك سنذهب الى قبرص و ـ » .. « يا اليكوس!.. اين تظن اننى موجودة ؟ » ساد صمت ، ثم زفرة مريرة : « اين انت؟ .. من اين تكلمينني ؟ » .. « من نيويورك يا اليكوس ! ... انا فى نيويورك ! » .. « آه ، لا ! . كنت اظن انك فى باريس ! » ـ « ماذا تقول ياأليكوس ؟ .. الم اتصل بك امس من نيويورك ؟! » .. «آه ! .. نعم ! .. لكن ماذا تفعلين فى نيويورك ؟ .. لماذا انت فى نيويورك ؟ الم يكن المفروض أن نتقابل فى باريس ، لقضاء عيد الفصح الارثوذكسى معا ، ثم نذهب الى قبرص يوم الاثنين ؟ »

كدت اصرخ ، وقلت لك : « لا يا اليكوس لا ! .. انت نسيت مرة ثانية ! » .. « نعم ! .. نسيت مرة ثانية ! » .. « ماذا جرى لك يا اليكوس ؟! » « كل شيء ! .. انا متعب ! .. متعب جدا ! .. انا شبعت .. شبعت الى آخر درجة ! .. لا يمكنني ان اواصل ! .. انهم يحفرون الارض من تحت قدمي ، كما تفهمين ! .. هذا هو ما يفعلونه ! اننى حالما انتهى من هذه المسالة ، ســاهجر البرلمان ايضا ! .. وسوف اعود الى دراسة الرياضيات ! .. بدلا من العودة الى تاليف الكتاب ساعود الى دراسة الرياضيات ! .. آن تاليف الكتب لا فائدة منه على اى حال ! .. والبقاء فى البرلمان لا فائدة منه ايضا!.. آه ! .. ياله من صداع ؟ . ياله من صداع ! .. هل استلمت الصورة الفوتوغرافية للجريدة ؟ » .. « اية صورة فوتوغرافية ؟ .. اية جريدة ؟ » .. « التى ارسلتها لك فى فلورنسا منذ يومين » . « لكن يا اليكوس ، اذا كنت فى نيويورك ، فكيف كان يمكن أن استلم صورة فوتوغرافية مرسلة منذ يومين الى فلورنسا ؟! .. » .. « معك حق! .. هل رايت الى اى حد انا متعب ؟ حالما تستلمينها ، ضـعيها فى البنك » .. « سوف نضعها سويا ياأليكوس عندما أعود » .. « نعم! .. عندما تعودين .. لكن متى تعـودين ؟ .. » .. « يوم ٥ مايو ياأليكوس ، وانت تعرف هذا ! .. اننا تكلمنا فى هذا مائة مرة ! » ..

« نعم ! .. صحيح ! .. يوم ٥ مايو .. سنتقابل يوم ٥ مايو .. هل استلمت الثلاثة أعداد من جريدة (تا ـ نيا) ؟ » .. « استلمتها أين ؟ » .. « آه ! .. نسيت مرة ثانية !! .. لا يمكن أن تكونى قد استلمتها ، لأنى ارسلتها الى فلورنسا ! .. هذا أحسن ؟ .. ليس بها اى شىء على كل حال .. انهم مستمرون فى نشر التفاهات ! .. اننى وقعت فى ايدى اناس حمقى ! .. الى اللقاء ! .. سنتكلم غدا! .. غدا ساكون فى باريس ، فى فندق سان سولبيس .. لا ! .. ليس فى فندق سان سولبيس ! .. انما فى فندق لويزيانا ! .. فى سان سولبيس أم فى لويزيانا ؟! .. لا يمكننى أن أتذكر حتى هذا ، يانور عينى ! .. ان جيوفيلوس ابن الحرام هذا تسبب فى تشـــويش ذاكرتى ! »

لقد أصدر جيوفيلوس امره يوم الجمعة ٢٣ ابريل بهذا النص : « حيث ان المحكمة العسكرية قد فتحت تحقيقا بشأن وثائق المخابرات (اى . اس . ايه) ، وحيث ان احدى الصحف تقوم بنشر هــذه الوثائق ، وحيث أن أولئك الذين استحوذوا عليها لن يسلموها الى القضاء على الرغم من مطالبتهم بان يفعلوا هذا تطبيقا للقانون ، وحيث انه لم يكن ممكنا لنا استرجاعها ، وحيث ان النشر ســالف الذكر يمكن أن يعوق سير العدالة ــ فقد قررنا حظر هذا النشر اعتبارا من اليوم » ..

وصل الأمر القضائى الى صحيفة (تا ــ نيا) فيما كنت على متن الطائرة الى باريس ، غير عالم بأن التهديد قد تحقق ، وفى الواقــع كنت موقنا انه لا يمكن أن يتحقق ! .. كنت أثناء الرحلة الجوية ــ كما نمى الى فيما بعد من مسافر كان مجاورا لك فى الطائرة وهــو رجل أعمال من اصدقاء كرامنليس ــ كنت بادى الاطمئنان .. ناعم البال ! .. رحت تجاذبه الحديث بلهجة ودية ، منتقدا مغالاة الشباب، ممتدحا حكمة الكبار ، مستشهدا بامثال متعددة ! .. بل انوجودك آنذاك فى حالة نفسية طيبة وبعيدا عن التشوش الذهنى قــد تأكد بأقوال اثنين من اليونانيين كانا بانتظارك فى مطار أورلى ، وهما من خاصة أصحابك : « صحيح انه كان شاحب الوجه قليلا ، وكانت تبدو دوائر قاتمة تحت عينيه ، وكان ضعيفا الى حد ما لأن جاره فى الرحلة جعله يكثر من الكلام كما قرر لنا ذلك ، لكنه كان منبسط المزاج .. وحول المائدة تناول طعامه بشهية وكان ضاحكا وهو يتحـــدث عن الثنائى جيوفيلوس ــ افيروف » .. ولقد كنت أيضا منشرح الصدر

عندما اتصلت بى تليفونيا لتشرح لى ان فندقك هو لويزيانا وليس سان سولبيس ، بل انك جعلت تمازحنى بشأن شرود ذاكرتك فى الفترة الأخيرة قائلا : « أراهن انك فى نيويورك فعلا ! » ... ولكن فى يوم السبت عدت تتخبط فى الضباب والشرود الذهنى ! .. كانت الساعة السابعة مساء فى باريس عندما طلبتك تليفونيا من نيويورك لكى أتمنى لك عيد فصح سعيدا وأنا أظن اننى لن أجدك غالبا ، اذ قدرت انك فى هذه الساعة ستكون فى مؤتمر مواطنى شيلى فى المنفى .. لكنك لم تكن فى المؤتمر ، بل رددت على بصوت يغلبه النوم : « نعم ! .. كنت نائما ! .. انا الآن نائم ! » .. « فى الساعة السابعة مساء ؟! » : « نعم ! » .. « وماذا عن ابناء شيلى ؟ » .. « هم بخير فى شيلى .. عيد سعيد !» .. «لا يعنينى عيد الفصح .! ولا أى عيد !. لقد أصدر جيوفيلوس الأمر ، وأوقف نشر الوثائق ! .. أمس » .. « والآن ماذا تفعل ؟ » .. « لا أعرف .. سـأقرر يوم الاثنين .. سأطير عائداً يوم الاثنين » .. « دون الذهاب الى قبرص ؟ » .. « لا فائدة الآن ! » .. وألفيتك عازفا عن الحديث ، ولم أستطع أن أجعلك تواصل الحوار ... ورفضت أن تكتب عنوان الكلية التى سأكون فيها مساء اليوم التالى ... « على أى حال لن أتصل بك هناك .. لصعوبة الاتصال ! .. اتصلى بى انت ! .. واذا لم يمكنك الاتصال بى ، فلا تشغلى بالك ! .. سوف نتقابل يوم ٥ مايو ! .. أن موعدنا يوم ٥ مايو قائم » .. كان تاريخ ٥ مايو هو الموعد الذى لم يغرق قط فى ظلام النسيان ! .. « لكن ما علاقة ٥ مايو بعنـوان الكلية يا أليكوس ؟ .. ٥ مايو موعد بعيد ! » .. « لا ! .. انه قريب ! .. قريب جدا ! » .. « لا بأس .. قريب .. الى اللقاء يا اليكوس ! .. حتى الغد ! » ...

لكن فى الغد ، عندما أردت الاتصال بك تليفونيا ، أبلغنى المختص فى فندق لويزيانا انك تركت الفندق .. « ترك الفندق ؟! » ... « نعم ياسيدتى ! .. ان السيد غادر الفندق » .. « وهل لم يترك رسالة لى ؟ » .. « لا ياسيدتى ! .. لم يترك رسالة لأحد ! .. ان السيد كان مستعجلا .. مستعجلا جدا !! » ..

(٢)

كان يوم الاحد فى نيويورك مؤذنا بالسكون الشامل والاخلاد الى الراحة ، بيد انه كان بالنسبة الى مثار قلق عميق عندما فكرت اننى ارتكبت غلطة فاحشة ، اذ جعلت المحيط حائلا بيني وبينك فى هـذه الظروف ! ... صحيح أن المحاضرة التى كان مقررا أن القيها فى اليوم التالى لا سبيل الى القائها دون أن يترتب على ذلك مسـلك متسم بالجفوة والفظاظة ... وصحيح انك قلت اكثر من مرة اننى نافعة لك وأنا بعيدة عن اليونان ... وصحيح أن وجودى فى أثينـا قد يكون معوقا لك فى نواح كثيرة ... ولكن فى كل مرة كنـا نتكلم تليفونيا ، كنت تبدو لى شديد الوحدة ، شديد الحزن ، شـديد الاضطراب ، فكيف يمكن أن أتركك فى مثل هذه الحال ؟ ..

واستبدت بى الهواجس ، وجعلت استعيد كلمـاتك فى أكثـر من مناسبة : « لا يعنينى عيد الفصح ، ولا أى عيد .. لم يبق شيء أهتم به » .. وتذكرت كلمات موظف الفندق الباريسى : « ان السيد غادر الفندق ... وكان مستعجلا .. مستعجلا جدا » .. ثم الوثيقة التى ارسلتها الى فى فلورانسا .. ماهى هذه الوثيقة ؟ ومامضمونها ؟ ثم ذلك الوداع فى المطار ، والعناق ، وتلك الكلمات الرصينة : « كنت لى نعم الرفيق .. الرفيق الممكن الاوحد » ! .. وكيف افكر الآن فى ذلك الافتراق فى المطار وكأنه وداع ؟! .. ثم تكرارك لموعد ٥ مايو وكأن شيئا معينا أو بالاحرى شيئا مكروها يوشك أن يقع فى هـذا التاريخ ؟!

لم أتمالك وقد استبدت بى هذه الهواجس أن اتصلت تليفونيا بأثينا ... فلم أجد ردا ... وعندئذ ثرت على نفسى لاستسـلامى لهذه الهواجس التى تزيد البلبلة ، وقررت أن خير ما يخلصنى منها هو الذهاب لالقاء المحاضرة انشغالا بالواقع عن الاوهام والتخيـلات

وفى خلال ذلك ، فيما وراء المحيط ، كان الموت بالمرصاد ... بالمرصاد ...

كان يقترب كالاعصار المدمر ، يجتاح بلا هوادة ، ويقتلع كل أمل وكل وهم ! ..

هى خمسة ايام فقط بقيت لك لكى تظل على قيد الحياة ! ..

الاثنين ٢٦ أبريل ــ اليوم الخامس قبل الأخير ...

كنت اشبه بطائر يخفق بجناحيه فى غرفة بلا ابواب ولا نوافذ ، كما قدر أن يقول لى الصحفى فازيس .. أخذت تخطو جيئة وذهابا، فى يأس واهتياج ، تلتمس مخرجا ، وليس الى مخرج من سبيل !..

عند عودتك من باريس فى الليلة الماضية ، اتصـــلت تليفونيا بجيوفيلوس تصرخ فيه هادرا بصوت مجلجل هز شارع كلوكتروني : « جيوفيلوس ! .. انت ايضا خادم لافيروف ياجيوفيلوس ! .. انت ايضا تتلقى الأوامر من ذلك الأفاك ياجيوفيلوس ! .. » ...

غير أن جيوفيلوس رد عليك ببرود قارس أنه يتلقى الأوامر من العدالة وحدها ، ولابد للعدالة ان تسير فى مجراها !.

وبعدها اتصلت تليفونيا بضابط ادارة (كى . واى . بى) ...: الحقيبة المليئة بالوثائق الخاصة بقبرص ــ الحقيبة ! لابد من نقلها فى الحال ، ولا وقت لكى يضيع ! .. عليه أن يرسلها اليك بأسرع ما يمكن ! .. لا .. عليه أن يأتى اليك حالا فى مكتبك ! فلابـــد أن تشرح له ما هو حادث ! .. لقد رد عليك الضابط متلعثما وهو فى اشد الذعر ان هذا لم يعد ممكنا ، وان من اشد المجازفة أن يتحرك معه ! .. ان افيروف يشك فيه ، وانه يعد لنقله الى مركز عنـــد الحدود التركية ! .. النقل ؟! .. الى مركز عند الحدود التركية ؟! هم اذن لا يريدون فقط حفر الطريق من تحت قدميك ، بل يريدون ايضا قطع يديك ، وانتزاع لسانك !.

كنت ترتعد من الغضب وانت تهمس للضابط عنوانا : هو بيت صديق لك موثوق به ... وعليه ان يلقاك هناك ! ..

ولقد جاءك الضابط فى المكان الموصوف ، وتحاورتما ساعات ، ولكن عند افتراقكما لم يتفق كلاكمـــا على شىء !.. والأسوأ من هذا انك وانت تقود سيارتك فى الظلام فى الطريق المؤدى الى جليفادا، بدا لك انك مستهدف للمطاردة من سيارتين : احداهما صفراء باهتة وكأنها اقرب الى البياض ، والثانية حمراء ! .. لقد خطر لك هذا فحسب ... لانه عندما ظهرت احدى السيارتين ، اختفت الثانية، وما كان الشك الا ظنا ! .. وبهذه الخاطرة وصلت الى بيت أمك ، واذا التليفون يدق ثلاث مرات : « اذا لم تحكم شيئا من العقل فى راسك يابناجوليس ، فلسوف تندم ! » .. « اذا لم تكف عن حشر انفك يا بناجوليس ، فلسوف تدفع الثمن ! » .. « اننا نعرف كل حركة تتحركها يابناجوليس ، وكل فعل .. ولن تفلت منا ! » ..

انهم لم يدعوك تغمض عينيك ... والآن ، وأنت منهك بالحاجة الى النوم وبالعجز عن اى شىء ـ اشبه بطائر يخفق بجناحيه فى غرفة بلا أبواب ولا نوافذ ـ كنت تضرب بجناحيك عبثا جدران وسقف مكتبك فى شارع كلوكترونى ! .. لو فقط لم تكن وحيدا هذه الوحدة المطبقة !؟ لو كان من خلفك حزب يؤزرك !؟ لو كانت الاحزاب شيئا جديا ، شيئا ذا قيمة !.. لو كان (لليسار) اى معنى ؟! ... لو كان بدل السياسيين الانتهازيين ، والمتسلقين ، والديماجوجيين ، رجال حقيقيون ، مستعدون لكفاح ، لمد يد العون اليك !؟ .. لو كان الناس يعول عليهم ، ولو استطعت أن تخاطبهم وتهيب بهم لمساعدتك ونجدتك !؟ .. ومع ذلك لابد من وجود مخرج : لقد تمكنت من الافلات من سجن بوياتى ، ويمكنك أيضا أن تفلت من هذا البيت ... بامكانك ، نعم !. بامكانك أن تكلم فرامنليس وتخبره بما عندك وبما عرفته عن أفيروف وبما يدبره ضدك أفيروف : مستعديا عليك المخابرات السرية بجميع أقسامها ، وبالاجراءات القضائية ، وبالمحاولات التأديبية ضد أصدقائك ! بامكانك أن تعرض على كرافيلس حلين اثنين : اما أن يتدخل لدى وزير حربيته لجعله يتركك وشأنك ولدى جيوفيلوس لالغاء الأمر الصادر منه ، أو المواجهة معك فى البرلمان : لكى يتعرض لأعنف ما يتعرض اليه وزير مسئول اذ يواجه بالادلة الدامغة ضده فى ساحة المجلس !.

عندئذ انحاز الطائر المختبل الى الهدوء ، وجلست الى مكتبك ، واتصلت تليفونيا بموليفياتس السكرتير الخاص لكرامنليس ومستشاره ... طلبت منه تحديد موعد لك لمقابلة رئيس الوزراء ، لشئون خطيرة عاجلة ! .. فرد موليفياتس أن رئيس الوزراء مشغول جدا هذه الأيام بسبب مشاكل مع تركيا ومع حلف الاطلنطى ، مبينا لك أن فرصة المقابلة غير متيسرة ، وان كان سيحاول ويبلغك ! ..

ترى هل كان موليفياتس هو الذى أبلغ افيروف ؟ .. فى يوم الاثنين ٢٦ ابريل بدا أفيروف مطلعا تماما على محاولتك مقابلة كرامنليس !. ففى عصر اليوم كان فى معسكر جودى لحضور الاحتفال بعيد الفصح، وكان يتحدث مع أحد الضباط حديثا خاصا ... وفى سياق الحديث عرض الضابط لاسمك ... فكأن عود ثقاب اشعل فى فتيل ! .. فسرعان ما تبخرت عن افيروف كل رقة وليونة ، واكتسى وجهه حمرة لم تكن معهودة فيه ، بل لقد نسى أن مئات من الموجودين كانوا يراقبونه عن كثب ، وصاح وقد

احتقنت عيناه : « هذا الكلب الوقح !.. ذلك الحيوان اللعين !.. سوف أسحقه ! .. سوف أسحقه ! .. سوف أسحقه ! » ..

لقد سمعه الجميع وهو يهدد وينذر ، فارتبك الضابط الذى الهب هذه الشرارة غير عامد ، وقال والحمرة تصبغ وجهه : « ياصاحب الفخامة ، أسمح لي أن أدير ظهرى نحوك ، لكي أظهر للحاضرين انني ابتسم ! .. والا اعتقدوا انني انا الذى تريد ان تسحقه ! » ..

★★★

الثلاثاء ٢٧ ابريل — اليوم الرابع قبل الأخير ...

دخلت الى مكتبك وانت تشكو انك اقضيت ليلة أخرى جهنمية، بلا نوم وانت مصدوع ! .. لم تجد الى النوم سبيلا لانك اذ كنت تقود سيارتك شطر جليفادا ، عادت الى الظهور فى الظلام السيارة الحمراء والسيارة الباهتة الصفرة كانها بيضاء ! .. وعند طريق فولياجمنتى ، قرب محطة البنزين ، كادت السيارة الحمراء تلامس سيارتك ، وكان بداخلها رجلان .. لعلهما شرطيان كلفا بمراقبة حركاتك ، أو ماجوران لمضايقتك وربما لتلقينك درسا ؟ .. عاجلا أو آجلا لك أن تواجهها فيما بعد ، لاشباع فضولك !.. وعندئذ ستفير موقفك من طريد الى مطارد ، وتضطرهما الى التوقف !.. لكن ليس الآن أوان هذا ، فالآن لديك أمور هامة تهتم بها ! ... أول كل شيء ذلك الموعد مع كرامنليس !. وعندما دق جرس التليفون اختطفت السماعة ملهوفا : موليفياتس ؟ كلا !.. انه الصوت المتهكم المعتاد : « نحن نعرف دائما الى اين تذهب وأين تكون بناجوليس ! .. ما عليك الا أن تستمر هكذا ، وسوف ترى ما نحن فاعلون بك ! » .. لقد سمعت سكرتيرتك صراخك وانت تقول : « ياجبان ! ياسافل ! .. تعال الى وقل لى فى وجهى ، اذا كانت عندك شجاعة ! .. » .. وعندها خاطبتك قائلة : « اهدأ يامستر بناجوليس ! .. من هو يامستر بناجوليس ؟ » .. « هو نفس المغفل الذى يظن انه يمكن أن يخوفنى ! » ..

ودق جرس التليفون مرة اخرى ، فاختطفت السماعة بلهفة .. لكنه لم يكن موليفياتس ... كان الصحفي فازيس ، الذى كلمك عن حكاية افيروف فى حفل المعسكر : «هل قال فعلا انه سيسحقنى ؟» .. « نعم .. قالها ثلاث مرات » .. « من كان يتصور انه سيفعل مثل هذا ؟! .. انه موقف يعجبنى : فيه دليل على ان عنده من

الجسارة أكثر مما كنت أعتقد !. الآن فانني سوف أثير جنـــونه فعلا ! .. وستكون أمامك مادة كثيرة للكتابة يافاريس ! .. رواية ياصديقي ! .. رواية ! .. » .. وكأن القصة كانت تســـلية لـك حقا ! ..

ولكن ما ان أعدت السماعة الى مكانها حتى نظرت آلى ســاعتك نافد الصبر ... ما خطب موليفياتس ؟ لماذا لم يتكلم موليفيـــاتس بالتليفون ؟!.. لن تمضى دقائق أخرى حتى تطلبه انت تليفونيا !.. وقد طلبته فعلا ! .. قال وهو يتكلف الاعتذار والتذليل انك فاجأته وهو يرفع سماعة التليفون ، وأنه كان على وشك أن يطلبك ليقول لك انه كان على حق : فان جدول مقابلات رئيس الوزراء مشـحون بالمواعيد ، وليس فيه فسحة واحدة يمكن أن يدس لك موعدا بينها؟.. ما بالك بمسألة تركيا ، وحلف الاطلنطى !؟ الأسف كل الأسف ، وليس أمامك سوى الانتظار ! .. « لا يمكننى انانتظر يامسترموليفياتس!.. يامستر موليفياتس ! .. لا يمكن أن انتظر ! .. ولا اريد أن أنتظر!»» .. « لكن حاول أن تفهم يامستر بناجوليس ، شئون الدولة .. » ... « أن موضوعى هو من شئون الدولة أيضا ياموليفياتس ! .. ابلغه هذا بالله ! » ..

« سأبلغه .. سأحاول » ..

اتراه حاول فعلا ؟ .. بعد شهور قلائل من وفاتك ، تحـــدثت مع رجل الاعمال صديق كرامنليس ، الذى جاورك فى مقعد الطائرة الى باريس ، واخبرته بهذه الواقعـة ، وطلبت منـه أن يســأل كرامنليس ، لماذا لم يستقبلك فى ذلك الاسبوع .. فقال رجل الاعمال بما طلبت منه ، وعندما قابلته مرة ثانية ، أقسم لى أن كرامنليس بدا مخلصا عندما قال انه لم يعرف قط بموضوع طلبك مقابلته ، وقالها باهتمام .. أما اذا كانت هذه هى الحقيقة فهذا ما لم أعرفه!.. ولكن الذى أعرفه ان هذا الرفض كان بمثابة ضربة قاتلة لديك!.. فقد تهاويت أمام مكتبك ورحت تردد : « لم يعد هناك احد ! .. ليس لى أحد ! .. أنا وحيد ، وحيد ، وحيد ! لا يمكننى أن أواصل بعد الآن ! » ..

ولقد تجلى هذا واضحا فى الصورة الفوتوغرافيـة التى التقطت لك فى ذلك المساء فى أحد المطاعم ... صورة رجل يتعلق الآن بالحياة بحد اسنانه ! .. بدا وجهك شديد الامتقاع بارز العظام غائر العينين، وكنت تتحدث الى شخصين كانا ينصتان اليك فى رصانة ، وقـد

بدا من أسلوبك فى تحريك يديك انك تغالب توترا عصبيا رهيبا ! ..
وكان الرجلان قد اكلا طعامهما وبدت صحافهما شبه خاوية ، أما صحفتك قد كانت لا تزال مليئة بالطعام ، وكأس نبيذك مترعا لم تمسه شفتك ! .. كان حقا انك لا تستطيع أن تواصل بعد الآن ! ..
فحيثما توجهت ، كانت كل الطرق مسدودة أمامك ، وبدا المستقبل محدقا بك احداق بيت يوشك أن يتقوض !..

★★★

الاربعاء ٢٨ أبريل — اليوم الثالث قبل الأخير ...

لم يعمل موليتفاتس — فقط على الوفاء بوعده لابلاغ كرامنليس بأنك تطلب مقابلته ، ولكنه أيضا راح يرفض الاصغاء الى مكالماتك التليفونية ! ..

لا بأس اذن ! .. لك الآن ان تنقل المعركة الى داخل البرلمان ! ..
وهكذا تناولت الورق والقلم وأعددت استجوابا موجها لكرامنليس :
« لماذا يستبقي رئيس الوزراء فى حكومته — وفى موضع له تلك الاهمية الكبرى كوزارة الدفاع — مستر ايفانجلوس كوتيتساس أفيروف — ذلك الشخص الذى تعاون مع الطغمة الحاكمة المستبدة ، والذى كان فى عهد بابادوبولوس جاسوسا لجهاز (كي . واى . بى) ، والذى عمل مع يوانيديس على فضح سلاح البحرية افشاء كل تفاصيل التمرد للمحققين ، والذى بعد سقوط حكم الطغيان ساعد مجرمى الطغمة لمغادرة البلاد ؟ ... وأننى أقدم لرئيس الوزراء الدليل على ماأسلفت ذكره : الوثائق والاوراق الخاصة بجهازى (اى . ايه . تى) و (اى . اس . ايه) التى أراد ايفانجلوس كوسيتساس افيروف استردادها عن طريق المخابرات السرية ، والتى أوقف نشرها باستغلال الجهات القضائية ، والبرلمان هو شاهدى على ما أقول ! »

لقد أخبرتنى بهذا عندما عدت من رحلة المحاضرة الى نيويورك واتصلت بك تليفونيا ، اذ قلت لى : « اننى أكتب شيئا هاما ، هاما جدا » .. « ماهو ؟! » .. « استجواب لكرامنليس !.. سأقرؤه على سمعك ! .. » .. « تعنى أن تقول انك ستقدم الوثائق اليه؟» .. « نعم .. وسوف تنفجر القنبلة فى الاسبوع القادم ! .. فى البرلمان هذه المرة ! .. وسوف تحدث دويا أشد من الدوى الذى صنعته بقنبلة بابادوبولوس منذ ثمانى سنوات ! » .. « لا تخبر أحدا بهذا يا اليكوس ! » .. « بالعكس ! .. أن شيئا كهذا لابد من اذاعته والاعلان عنه ! » ..

وبعد ذلك اخبرتنى بمسألة المكالمات التليفونية التهديدية والسيارتين اللتين كنت لا تشك الآن فى قيامهما بتعقبك ليلا : « شيء يثير الجنون فعلا !. كل ليلة فى الواقع !.. كل ليلة عند ذهابى الى جليفادا !. وخصوصا أن لون سيارتى الاخضر يبدو مثل الفوسفور فى الظلام ! .. » .. « وهل من الضرورى ياأليكوس أن تتوجه كل ليلة الى جليفادا ؟ .. » .. « هذا أفضل من شارع كلوكبرونى .. فقد وجدت أحدهم يحاول اغتصاب قفل غرفة نومى، كما تذكرين !. » .. ومن يصحبك ليلا عندما تذهب الى جليفادا ؟ » .. « لا أحد .. من تظنين انه يقبل مصاحبتى ؟ ليس لى حرس !.. أنا لست مثل أصحاب الفخامة كما تعرفين ، كالذين لهم حرسهم الخاص !. » .. « ومن تظنين يا أليكوس ان يكون فى حراستك ، هذه المرة ؟ » .. « ومن يمكن أن يكون ؟ .. شخص يحبنى ! » ... « يا أليكوس !.» .. « يا أليكوس !. أنا آتية اليك !. اننى اتممت ما كان يجب أن افعله هنا ، ولا أظن اننى أستطيع الانتظار الى يوم ٥ مايو » .. « لا ! .. سنتلاقى يوم ٥ مايو » .. « لكن لماذا انت مصر على يوم ٥ مايو ؟ .. » .. « لاننا اتفقنا على هذا ، أليس كذلك ؟ .. وهو اتفاق نهائى .. يوم ٥ مايو سنكون معا ، وسترين!» .. « لكننى أحس انك مفتم كثيرا !. » .. « هو كذلك !. أواه !. اى شيء لا أضحى به لكى أعود الى زنزانتى القديمة فى سجن بويالى ! .. » ..

★★★

الثلاثاء ٢٩ ابريل — اليوم الثانى قبل الاخير ..

حضرت الى مكتبك دون أن تلقى نظرة على أحد ، وقلت للسكرتيرة انك لا تريد اقلاقك : لانك ستعمل مكالمة تليفونية ...

كانت المكالمة الى افيروف ، فى محاولة أخيرة لمنع نقل ضابط جهاز (كى . واى . بى) ... بل انك استشرت أحد المحامين فى هذا ، واتفقتما معا فى الرأى » : فمن غير المجدى أن تتأثر بالتهديدات التى صدرت عن افيروف فى سورة غضبه بعد ظهر يوم الاثنين فى حفل جودى ، ولن يكون من جراء مقاومتها سوى التعجيل بمسألة النقل ... وانما الافضل أن تتجاهل هذه الحلقة وتسعى الى الوفاق ، وأن تقلده فى تكتيكاته المعتادة ... فان افيروف الذى كان ينتصر دائما لم يكن هو افيروف الذى طالعهم فى حفل عيد الفصح يوم الاثنين — وانما كان الرجل المؤدب المعقول ، والبارع فى فن النفاق

والمصانعة : الذى لم يقاتل بالسلاح الماضى ولكن بسموم الذكاء ! ..
واذن فقد كان عليك أن تفعل المثل تماما وأن تحذو نفس الحذو !.
وهكذا ادرت قرص تليفون وزير الدفاع ، وسألت عن فخامة الوزير
... ان فخامته لم يدع انه غير موجـــود ، ورد عليك من فوره :
« صديقى العزيز ! .. زميلى الاكرم ! .. ياله من سرور ان اســمع
صوتك ، وياله من شرف ! » .. ان التهكم كانت نبراته جلية فى
رنين الصوت الرخيم ، بيد انك لم تهن ، وشكرت الوزير ، فهـذا
تلطف كبير من فخامته ، ورجوت الا تكون مبعث أقلاق ! .. «ياصديقى
النابه ، ماهذا الكلام ؟.. ما الذى يجعلك تظن فى شىء كهذا ؟..
اقلاقى ؟! .. » .. نعم ، هو اقلاق ، كما كررت القول ، وايضـــا
لأنك ستطلب معروفا وهذه المطالب دائما تضايق !. « بالله يا صديقى
العزيز ! .. ما هو المطلب الذى تشير اليه ؟ » ... المطلب خاص
بضابط يهمك مصيره ـ هذا ما قلته ـ ضابط جهاز (كى . واى .
بى) .. الحقيقة ان زوجته كانت صديقة ساعدتك عام ١٩٦٨ عندما
هربت الى قبرص ، وفى ذلك الوقت كانت تعمل فى الســـفارة فى
قبرص ... « فهمت ياصديقى العزيز ! .. فهمت ! » .. ان هذه
السيدة تعبد مدينتها ، وهى مثل مواطنة متعلقة باثينا لا تستطيع
أن تتخلى عنها ، والمسألة هى ان فخامة الوزير قد أصدر أمره بنقل
زوجها الضابط فى (كى . وأى . بى) الى بلدة على الحدود التركية
... « استمر ياصديقى العزيز ! .. أستمر ! » .. ما هى مشكلة
السيدة التى ذكرتها ؟ .. أتترك اثينا وتتبع زوجها الى البلدة على
الحدود التركية ، أم لا تبقى فى اثينا وتعيش مفترقة عن زوجها ؟ ..
مسألة قاسية ، خصوصا لأن الاثنين متحابان الحب كله !. « واضح
جدا ياصديقى ، وأضح جداً ! .. وكيف يمكننى أن أســـاعدك
ياصديقى العزيز ؟ .. خبرنى ! » ..

لقد اصفر وجهك ، ورحت تقول : « اننى ارجو السيد الوزير
الا ينقل الضابط ! » .. « وجوابى هو اننى هنا لارضائك ياصديقى
العزيز وزميلى الاكرم !. سوف أضع الضابط فى اى مكان تحب !.
اين أضعه ياصديقى العزيز وزميلى الاكرم ؟ » ..

لعبة القط والفار ! .. هو القط ، وانت الفار ! .. لعبة لم
تعرف كيف تلعبها ! .. كان واضحا من اصفرار وجهك واحتقان
ندبة الجرح الذى فى خدك انك توشك على الانفجار ! .. وحاولت
أن تسيطر على أعصابك وانت تقول : « اننى ارغب فى بقائه فى المكان

الذى كان فيه دائما والذى هو فيه الآن ايها السيد الوزير ، فى مكتبه فى جهاز (كى . واى . بى) ، فى أثينا ! » ...

زعقة ... ثم : « ياصديقى الأكرم ! ... منذا الذى يجرؤ على ان يضن عليك بمعروف ؟ .. ان رغائبك هى اوامر ! .. ان اثينـــا مستحيلة ، كما اخشى ، لكن قل لى فى اى مكان تفضل نقله ، ولسوف اطيع امرك ؟ » ..

لقد وضعت السماعة على المكتب ، واغمضت عينيك ، وتحاملت على نفسك للتنفس !. لا مفر من جهد آخر ، من محاولة اخيرة بحق السماء ، لعله يستجيب ! ... وكذلك تناولت السماعة من جديد : « لعلى لم أكن واضحا فيما قلت يا فخامة الوزير !.. اننى طلبت منك أن ... باختصار ، لا اريد أن ينقل الضابط ، الى أى مكان!..» ... « لا تريد ، ياصديقى الأكرم ؟ .. لا تريد نقله ؟ .. » .. « كلا ! » .. « ولم لا بالله ؟ .. لم لا ، ان لم أكن مثقلا عليك؟».. « لأن المسألة ، كما كنت أقول ، هى أن زوجة هذا الضابط » ...

وهنا تصدع السد الذى كان يصد طوفان حنقك ! .. تصـدع بصرخة داوية هزت زجاج النوافذ ، وجعلت الموجودين فى الغــرفة المجاورة ينكمشون على أنفسهم ! .. « أفيروفاكى ! .. يا أفيروف الصغير ! .. اصغ الى أيها الدودة الصغيرة .. انك لست السيد الأعظم فى اليونان ! .. ولن تكـونه ! .. لأننى أنا .. انـا الـذى سأمنعك ! .. من قبرى سوف أمنعك ! .. من قبرى ! .. » ..

ثم كان أن فقد افيروف ذاته كل تبصر وحكمة ، واستســلم للغضب الذى تملكه فى وجودى من قبل ، وراح يردد نفس الكلمات، ويضيف اليها ، صائحا : « سوف أسحقك يا بناجوليس .. سوف أدمرك يابناجوليس ! .. سوف أدمرك ! » ..

اننى عرفت هذا فيما بعد على الأثر ، عندما تكلمنا تليفونيا مرة اخرى ولم اعرف صوتك ! .. بدا فى سمعى كأنه صادر من كهف سحيق ! .. « هالو يا اليكوس .. لا يمكننى أن أسمعك ! .. هل تسمعنى ؟ .. » .. « قال انه سوف يدمر ! .. سوف يسحق!..» « اشرح لى يا اليكوس ... هل انت مريض ؟ » .. « مريض جدا!.. وحزين جداً !. » .. « اليكوس ! ... كف عن هذه المسألة ! .. توقف عنها ! .. انت تقتل نفسك ! .. أنهم يقتلونك ! .. ساحضر الى اثينا ! .. ساحضر فوراً ؟ .. لابد أن اراك ! .. لابد ان آخذك بعيدا ! » .. « تعالى اذا أردت ، لكن لا يمكنك أن تفعلى شيئا ! .. سنتقابل فى أول مايو ! .. الى اللقاء ! » ..

وضعت سماعة التليفون ، وتركتني في ذهول ؟ .. هـــل قلت أول مايو ؟. هل سمعت جيدا ؟. نعم ، أول مايو ، وليس ٥ مايو ! ... الآن لم تعد تتذكر التاريخ الذي اتفقنا عليه : ٥ مايو ! ... أم لعلك غيرت رأيك ، وتريد أن أحضر عندك في أول مايو فعلا ، أي بعد غد ؟! لابد من الاتصال بك مرة اخرى ! .. لكن لا ! .. ان هــذه المكالمات لا تعدو ان تسبب عذابي ، ولا أود أن أسمع من جديد ذلك الصوت الصادر من مكان سحيق ، ذلك الصوت الذي ليس هــو صوتك ! .. لابد أن أكون في اثينا يوم أول مايو ، وعلى ان أســـافر غدا ! .. هذا هو القرار ! ..

ولقد فعلت هذا حقا ... وكنت على متن الطائرة في ذات اللحظة التي كنت تقضي فيها نحبك ! .. الساعة السادسة والدقيقـــة ٥٨ من مساء يوم الجمعة ٣٠ ابريل .. في اثينا توازي الساعة الواحدة والدقيقة ٥٨ من صباح يوم السبت أول مايو ! ... في تمام الساعة السابعة كنت على متن الطائرة ... ونظرت الى ساعتي وانا في دهشة من انتظام موعدها وكانت تتأخر في المعتاد ! ... وخلال الرحــلة كنت أشعر بقلق بالغ وتوتر عصبي مرهق لم اســـتطع أن احــدد مبعثهما !. وزاد التوتر عندما عرضوا فيلما بدا أنه ينضح بفــأل سيء : قصة شاعر مجنون وباسل ، فساء فهمــه من كل واحد ، ومتورط على الدوام في مغامرات مستحيلة ، يطارده الموت دائما ، مكسو بكفن أبيض وممسك بمنجل يستدرجه به ! .. وبين فنيــة واخرى كان المنجل يملأ شاشة العرض فلا يجد الشاعر بــدا من الجرى هربا ! .. ولكى يفلت فقد لاذ بمغامرات جديدة ، وأفعــال طائشة كان يخرج منها سالما بمعجزة ! .. بيد أنه تعب من الجــرى والهرب في النهاية ، ومن دفع غائلة الموت عن نفســه وكان يطلبــه بالحاح ، فذهب للقاء الموت وجلب القتل على نفسه ! .. واخيرا مضى الاثنان معا وهما يغنيان ويرقصان عبر مروج ممتدة ، مخضرة اخضرار سيارتك !! ..

ان آخر يوم في حياتك قد بزغ في سماء مغبرة منذرة ! .. خلال الاسبوع سادت شمس صيف ولم تغش سحابة واحدة زرقة السماء ... غير انه في الامسية السالفة اكفهر الافق فجأة بغواش من البرد والريح الفاشمة ، واصطخب البحر بموج راح يلطم الشـــاطيء ، وانحدرت عاصفة امتدت من اثينا الى كورينث ... وطوال الليـــل كان قصف الرعد البارق يشق الهواء شقا ، وانهمر المطر فاغــرق

الشوارع ، ولم تهدأ عناصر الطبيعة الا عند الفجر ، مشـــوبة بتلك السماء المربدة المثقلة ، منذرة بالسوء ! ..

وانت تبدأ عملك مبكرا ... ومن عجب انك نمت جيدا ، وعندما جاءتك امك بالقهوة كنت مستيقظا تماما تتطلع ساهما الى الحديقة والى التلف الذى حاق بالنباتات .. فان العاصفة قطعت الزهور وشوهت الأشجار ، وتناثر البرتقال والليمون فوق بساط من الأوراق والاغصان الممزقة ، كما تهاوت عناقيد رءوس الثوم التى كانت مربوطة على الدوام الى جذع نخلة البلح طردا للنحس والحظ السيء ، وتناثرت حبات الثوم فى المشى وفى التربة الموحلة ، فبدت كأنها بقايا عقــد منفرط ! ... ولم تتمالك أن هتفت : « ثومك ! » ... فنظـرت أمك ، ولم تتمالك أن هتفت مرتاعة ، فان عناقيد الثوم لم تتساقط قط من قبل ، وحتى عندما ساقوك لتنفيذ حكم الاعدام ظلت معلقة ! ... ثم ما لبثت أن وضعت الصحفة وهرولت تجمع رءوس الثـوم واحدة تلو الأخرى ، ثم عادت الى داخل البيت وأعدت حزمة اخرى من رءوس الثوم أكبر من سابقتها وشدتها بالخيط شدا وثيقا وخرجت مرة أخرى الى الحديقة حيث ربطتها بجذع النخلة ! .. كان الرباط محكما ... ولكن ما أن استدارت حتى انحلت العقدة وتهاوت رءوس الثوم مرة أخرى متناثرة مفككة صغيرة : وكأن ابليس راح يتسـلى بتأكيد بوادر النحس والفال السيء ! ..

كنت تراقب هذا المشهد من خلال النافذة بامعان ، فما لبثت ابتسـامة غامضة أن قوست شفتيك ، وقلت لها وهى تتحفز لجمـع رءوس الثوم وضمها من جديد بعناد واصرار : « لن تفلحى أبدا ، حتى ولو ثبتتها فى مكانها بمسمار ! » ..

ومهما يكن فقط اغتسلت ولبست ثيابك بعناية وكأنك ذاهب الى حفل ، كما حلقت ذقنك ونمقت شاربك ، وملأت جيوبك بالأشـياء التى كنت تحملها معك دائما : غليون ، وسيجار من النوع الصغير ، والتبغ ، والاقلام ، ومفكرة المواعيد ، وأخرى للكتـــابة ، ومقص وقصاصات صحف ! .. وفى جيبك الداخلى أخفيت وثيقـــة عن افيروف كنت مترددا فى تصويرها ، وفى هذا قلت لأحد معاونيك : « انها هامة جدا ! .. وتصويرها مخاطرة ! .. والأفضـــل أن احملها معى ! » .. وكنت تتحرك دون تعجل ، غارقا فى الفكر ، بهدوء انسان توقف عن قياس وجوده بعقربى الساعة ... وبعد أن أكملت اهبتك أخذت تجول فى أرجاء البيت وكأنك عازف عن الخروج

او كانك تبحث عن شيء ما ! ... وراحت امك تجر خطاها في اثرك وهي في دهشة من اطوارك حتى قالت لك : « ما الذى تريده ؟ » ... « لا شيء .. انني افكر .. بعد شهر ويومين سيحل عيد ميلادى .. سبعة وثلاثون سنة ، يوم ٢ يوليو !. أنا الآن رجل مسن !. » ..

وفى النهاية خرجت ، ملقيا نظرة على حزمة الثوم التى شدت الآن شدا محكما الى جذع النخلة ! .. لكن ما أن بلغت البوابة حتى توقفت ، وعدت ادراجك ، وبحركة عنيفة انتزعت حزمة الثوم وقذفت بها الى الأرض قائلا : « من الغلط أن يكون الانسان متطيرا ، مؤمنا بالخرافات » فزمجرت مروعة مهتاجة كما فعلت من قبل ، فيما جلست الى عجلة القيادة فى سيارتك الخضراء وسرت بها متجهـا الى طريق فولياجمينى : ذلك الطريق الذى زرعته ألوف المرات ، والذى كنت تعرف كل متر فيه ، وكل منعطف ، وكل حفرة ! ..

وفى الساعة التاسعة وصلت الى شارع كلوكتروني واوقفت السيارة قرب محل بيع ماكينات النسيج المجاور للباب الأمامى للمبنى الذى فيه مكتبك ... كان المحل مفتوحا ، وبداخله زبون : شـاب مستدير الوجه ، تتناثر فيه الشامات .. كان نفس الشاب الذى جاء فى يوليو ١٩٧٥ الى فلورنسا مع رفيقه اليونانى المنتمى الى النازى وأقاما هناك اسبوعا ... وهو نفس الشاب الذى سمعته فى المطعم يتفاخر بمغامراته الانتحارية (الكاميكازى) ، وبالمناورات المعقدة التى يقدر عليها بسيارته البيجو ، ارتطام بالعجلة الامامية ، وارتطـام بالعجلة الخلفية ، وأذا السيارة المستهدفة تنزلق انزلاقا خطرا ! .. وهو نفس الشاب الذى كان يعمل أثناء حكم الطغيـان فى بطـانة بابادوبولوس وأرتحل كثيرا فى البلاد التى كان يوجد فيها خصـوم لنظام الحكم لتعقبهم ، خصوصا فى كندا حيث كان يشـترك فى السباقات الرهيبة التى يكون هدفها تدمير السـيارات الأخرى بالمصادمات الفتاكة والتى يكون الفائز فيها هو الاصفى ذهنا والاحد عينا ! .. هو ميشيل شينواس .. وكان فى الوقت الحالى منتميـا الى حزب باباندريو الاشتراكى ، مشتغلا فى مصنع للملابس ، ومالكا لسيارة بيجو ٥٠٤ ، ذات لون فضى رمادى ... ويا للمصادفات ! .. انه جاء الى محل ماكينات النسيج مرات من قبل خلال الأيام القليلة الماضية !..

ودخلت الى مكتبك حيث كان المحامى فى انتظارك .. فاخبـرته بالمشادة التى حدثت مع (التنين) وقلت له « كما ترى ، فانني اتبعت

مشورتك ، ولكن من المستحيل التعامل معه ! .. والآن ليس لى خيار الا أن أمضى فى هذه المهمة الى النهاية ، مهما تكلفنى ! .. سأتقدم يوم الاثنين باستجوابى الى كرافيليس » .. « لن تجنى من هذا الا القليل » .. « أعرف هذا .. ان كرافيليس لن يسمح لنفسه بترف اقصاء افيروف ، وليس معى احد ! .. لا أحد ! » .. « واذن ماذا بعد ؟ » ... « لا شيء بعد ... هناك حالات عندما تريد كسبها لابد أيضا أن تخسر انفاسك » .. « وبعد الاستجواب ؟ » .. « سأسافر الى ايطاليا لبضعة أيام ، ثم الى قبرص .. » ..

كان المحامى يتفرس فيك عن كثب ، متحيرا : كنت فى ذلك الصباح فى أتم الهدوء والثقة بالنفس .. وحتى وأنت تروى الشتائم المتبادلة مع افيروف لم يكن صوتك ينم عن أدنى تأثير أو انفعال ... لكن ما الذى كنت تعنيه بالعبارة التى قلتها : هناك حالات عندما تريد كسبها ، لابد أيضا أن تخسر أنفاسك ؟! ..

ان المحامى الذى راودته الطفولة لم يلبث أن غير مجرى الحديث الى المكالمات التليفونية التهديدية وحوادث السيارات وعدم صواب القيادة وحيدا فى الشوارع المهجورة كل ليلة فى أثناء ذهابك الى جليفادا ... فكان ردك أن قلت له : « كم انتم جميعا متعبون ! هل تود انت أيضا منى ان اركب فى تنقلاتى تحت حراسة خاصة ، واجعل منى اضحوكة ؟ » ..

وبعدها تناولت سماعة التليفون الذى دق وقتها وتكلمت مع شخص وقد زممت شفتيك مللا .. ياللمضايقة امرأة تدعى سولزوجيو كانت تدعوك لتناول العشاء نيابة عن صهرها فكتورفوليس ، وهو يونانى من مدينة مليورن باستراليا ... وكنت قد قابلته فى رومانية ١٩٦٨ ، ومنذ بضعة أشهر عاد الى الاتصال بك من خلال هذه المرأة سولزوجيو ، وهى أخت زوجته .. والآن هو فى أثينا ويريد دعوتك للعشاء مع المرأتين .. فما كان منك الا أن قلت : « اليوم دون كل الايام !؟ أن آخر شيء أريد أن أفعله هو قضاء الأمسية مع ثلاثة بلهاء ! » .. فتدخل المحامى قائلا : « فهل تتناول العشاء معى ... سأقلك فى سيارتى ، وبعد العشاء أوصلك الى جليفادا ، وفى هذه المرة لا تقود سيارتك وحيدا فى الليل » .. « كلا ، شكرا لك ... اذا لم أذهب مع هؤلاء ، فعلى أن أتناول العشاء مع مدير شركة أوليمبك ، وهذا يحقق غرضك .. سأراك اذن غدا » .. « لا بأس .. سنتقابل غدا .. لكننى أكرر قولى لك : لا تتنقل بسيارتك وحيدا فى الليل ! ..

وقلل من ذهابك الى جليفادا ما امكن ! .. فانا غير مرتاح الى مسالة السيارتين اللتين تتابعانك حالما يحل الظلام ! » .. « ان مالابد ان يكون ، سيكون ! .. » .. وافترقتما اثر هذه الكلمات ... ثم اتصلت فيما بعد بنوليس ، واتفقت معه على ان يحضر الى مكتبك حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ، واذا تيسر لك التحلل من موعدك مع مدير شركة اوليمبك ، فيمكن ان تتناول العشاء معه ومع زوجته واختها ..

وفى غضون ذلك كان ميشيل ستيفاس قد انصرف من محل ماكينات النسيج واستقل سيارة اجرة الى (محل ازياءهيم) الذى يعمل فيه .. وهو قد استخدم سيارة اجرة لانه منذ شهر لم يكن يحتفظ بسيارته البيجو فى اثينا كما كان يقول ، وانما ابقاها فى كورنت خارج بيت ابويه ، لان لوحتها المعدنية كانت لا تزال فرنسية ، ولابد من ابدالها بلوحة داخلية ، والا تعرض لغرامة كبيرة جداً ! ..

ولقد غادرت مكتبك حوالى الساعة الثانية والنصف ، وعدت فى الساعة الثالثة لالغاء موعدك مع مدير شركة اوليمبك ، وعند هذه النقطة كانت افعالك وافعال ميشيل ستيفاس متزامنة .. وفى الساعة الخامسة جاءك فوليس واخبرته انه يمكنك مقابلته على العشاء ، ولكنك تدعوه مع زوجته واختها الى مطعم فى جليفارا .. وفى نفس الساعة ، الخامسة تماما اغلق ميشيل ستيفاس محل (ازياء هيم) واستعد للقيام بدوره ... وفى الساعة السادسة ودعت نوليس بعد الاتفاق معه على ان تقله بسيارتك قبل العشاء عند رقم ٨ بشارع الكيونيس حيث ينزل ، وفى نفس الساعة ، السادسة تماما ، توجه ستيفاس لمقابلة بازيل جيوجوبولوس : صديقه وشاهده على الوجود معه وقت الجريمة ! .. وفى الساعة التاسعة اتصلت بك مسز سولزوجيو قائلة : ان سيارته تعطلت قبل انتقالها الى شارع اليكونيس وسالتك ان كان يمكنك ان تمر بسيارتك على بيتها فى رقم ١٥ بشارع اترروتزو ؟ وفى نفس الساعة ، التاسعة تماما ، استقل ستيفاس الاتوبيس الى كورنث لاحضار سيارته البيجو الى اثينا ! .. وماذا عن اللوحة المعدنية الفرنسية التى يتحتم تغييرها ؟ والتعرض لغرامة كبيرة جدا ؟ .. قال ستيفاس رداً على هذا ان صديقه جيورجوبولوس قد عرض عليه ان يتوجها معا لقضاء يوم اول مايو مع فتاتين بجزيرة ايجينا ، مما جعله ينسى كل احتياط ! ... لكن اليست ايجينا جزيرة ؟ .. الا يذهب الانسان الى ايجينا

بالقوارب ؟ . وأى منطق فى الهرولة من اثينا الى كورنث بالاتوبيس ، ومنها يصحب السيارة البيجو غير المرخصة ، ويحضرها الى اثينا ، وينقلها فى الزورق ، ويهبط بها الى البر ، ثم يعيدها الى الزورق ، ويهبط بها مرة أخرى الى البر ، ثم يعيدها الى كورنث فى اليوم التالى ؟! .. لا منطق فى الظاهر ! .. لكن من يقول ان سيارة البيجو كانت مطلوبة فعلا لنزهة بجزيرة ايجينا مع الفتاتين ؟! .. انما يمكن أن تكون مطلوبة لشىء آخر مختلف تماما ، لعملية مثلا ، لمهمة تتطلب زهنا صافيا ، وعينا حادة ، وبراعة فى الارتطام ، والمصادمة ، وتتطلب حتى من له ماض فى العمليات الانتحارية (الكاميكازى) المدربة فى ميادين سباقات كندا ، وبسيارة متينة ، أكثر مقاومة للصدمات من سيارة معينة باهتة اللون ، اثبتت فى الايام الأخيرة عدم كفاءتها لهذه العملية ؟! ..

فى الساعة التاسعة والنصف غادرت شارع كلوكترونى للذهاب الى بيت مسز سولزوجيو ومن بعده لمقابلة نوليس وزوجته .. وفى الساعة العاشرة كنت فى شارع الكيونيس مع الاثنين اللذين استبقياك فى بيتهما الفترة اللازمة لتناول شراب من الويسكى الذى كنت مع ذلك لا تحبه وبقى الشراب فى الكأس دون أن تمسه ! .. وفى العاشرة والربع خرجت معهم .. وفى هذا التوقيت وصل أتوبيس ستيفاس الى كورنث ، فنزل منه واسرع الى الميدان حيث كان يحتفظ بسيارته البيجو ! .. وكانت الساعة العاشرة والربع عندما وصل الى الميدان ، فدلف مسرعا الى البيجو .. وكانت العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين عندما انعطف الى طريق كورنث ـ اثينا السريع! .. وفى نفس هذا الموعد أوقفت انت سيارتك الخضراء خارج مطعم تساروبولوس ، ثم دخلت الى المطعم مع نوليس وزوجته مسز سولفروجكو ! ..

ولقد طلبت العشاء وانت فى حالة من الانفعال ! .. فعلى على نحو مفاجىء ذهب عنك الهدوء الذى لازمك منذ الصباح ، وحل محله انتعاش مفاجىء ! .. فأخذت تسترسل فى الكلام وتمزق وتضحك وانت تحكى حكاية الملفات وتتحدث عن أفيروف وتساتسوس وعن الاستجواب البرلمانى الذى تنوى أن تقدمه لكرافيليس يوم الاثنين ، وعن الزلزال الذى سوف تحدثه عند تقديم الوثائق التى صدر عنها أمر الخطر من قبل القاضى جيوفيلوس ! .. بل أنك افضيت اليهم بانك قائم بتاليف كتاب ؟ أو كنت بدأته فعلا ؟ ثم جدت مشاكل

جعلتك تتوقف فترة ، ولكنك تنوى فى خلال شهر مايو أن تستأنف الكتابة وتتمه فى غضون العام ! .. فى هذا قلت لهم : « سوف أعمل بلا انقطاع خلال الصيف والخريف ، وسأذهب الى ايطاليا لكى أتفرغ تماما ، وأطلب أجازة من البرلمان ! .. انه لكتاب يبدأ بمحاولة اغتيال بابادوبولوس ، وينتهى بموضوع الوثائق ؟ .. انه قصة مجهود ، قصة انسان » .. ثم وعدتهم أيضا بانك سوف تقوم برحلة الى استراليا ، قائلا : « نعم ! .. أريد أن أتحرك ، أن أعرف العالم ! ... وحتى تم تأليف الكتاب ، فسأذهب فعلا الى استراليا » ..

لقد بدا ان أمامك مستقبلا ممدودا الى مالانهاية ، مفعما بالبشائر والنجاحات والبهجة ! .. لقد بدا ان خطتك المروعة ، وتقديراتك اللاواعية ـ أن تموت لكى تحيا ـ قد تنوسيت تماما ! .. وكانت عيناك تلمعان ، ويداك ترتعشان ، وامسيت تحت كل شىء : الرفقة، ومؤاكليك الثلاثة المسنون ، والطعام السائغ ، والجمع الطاعم من حولك ! .. وكانت السيدتان تتطلعان اليك فى صمت ، مأخوذتين! .. وكان نوليس مصغيا اليك ، مبهورا ! .. ياللحيوية الدافقة فى هذا الرجل ، يا للحرارة ، وياللجذوة المتقدة ! .. وعند مرحلة معينة وأنت تهم برفع الكأس الى شفتيك ، قلت ان صلتك بالخمر قد تضاءلت، وانك قد اكتشفت فضائل عصير البرتقال ، مؤكدا : « وانا على هذا غير آسف ، لأن الظلام ملىء بالفخاخ ، والاشباح التى تكون دائمة كامنة مترصدة ! .. على الانسان أن يحتفظ بصفاء عقله وسرعة توقى المفاجآت ! » ...

وفى غضون ذلك كان ميشيل ستيفاس يقود السيارة ، وهو يلعن المطر الذى اخذ ينهمر انهمارا فى الطريق فيما بين كورنث وميجارا ، المطر الذى منعه من الانطلاق بالسرعة التى كان يودها ! .. ولكنه مع ذلك مضى يتقدم بسرعة طيبة ، لأنه قبل منتصف الليل بعشر دقائق كان مرة أخرى عند بيت جيورجوبولوس ، شاهد وجوده لديه حتى الواحدة والنصف ... (غريب أمر عودته اليه عند منتصف الليل ، وذلك الحرص على توفير شهود عليه بالدقيقة والثانية) ... وسيارته الثانية الحمراء (بى . ام) ؟! .. لقد كانت هناك أيضا ، كانت هناك ولم تنتظر سيارة ستيفاس البيجو قبل العودة فى اثرك ! .. بعد متابعتك الى المطعم ، انطلقت لتنتظر الوقت المحدود دون لفت الانتباه وقد ادت الى غلطة لها دلالتها ! .. وحدث حوالى منتصف الليل ان مواطنا مذعورا

توجه الى الشرطة للابلاغ عن ان سيارة حمراء (بى ٠ ام) قد تبعته على مبعدة لمسافة عدة كيلو مترات فى طريق فوليا جميني ، ثم فجأة اتجهت اليه مباشرة ودفعته جانبا ، قاصدة فيما يظهر دفعه عن مسار الطريق !٠ وقد تفادى الكارثة بان تعلق بقوة بعجلة القيادة ، موقفا السيارة باسرع ما امكنه ! ٠٠ كلا ! ٠٠ لم يكن هذا حادثا عرضيا ! ٠٠ وكان بامكانه التدليل على هذا بانه وهو يلتقط انفاسه ، متسائلا عما يمكن ان يكون الدافع الى هذه الهجمة ، عادت السيارة (بى ٠ م) الى الظهور ! ٠٠ ثم توقفت ! ٠٠ وجعل الرجلان اللذان كانا بداخلها يتحققان بنظرة فاحصة منه . ومالبثا أن أبديا اشارة تنم عن الجزع ، وكأنهما قد أخطآ فى تحديد هويته ، وجعلا ينعتان نفسهما بالغباوة ! ٠٠ اذ تذكرا بانهما لو كانا قد تركاك عند مطعم تساروبولوس لما امكن ان تكون وقتها فى طريق فوليا جمينى ! ٠٠ فقد كان المواطن المذعور بشارب ، ويركب سيارة خضراء ، وهى تكاد تشبه فى الظلام لون سيارتك ! ٠٠

انك غادرت مطعم تساروبولوس بعد الساعة الواحدة صباحا بقليل ، ودارت عند باب المطعم مناقشة مسيرة : فقد اردت ان تقل ضيوفك الى بيوتهم ، بينما اصروا هم على ركوب سيارة اجرة ٠٠ فانت تقيم فى جليفادا والمطعم كائن فى جليفادا ، وقال الثلاثة انه لا معنى لكى تقطع المسافة حتى شارع الكيونيس وشارع اندروتزو البعيدين ، ثم تعود بعد ذلك الى جليفادا ! ٠٠ ورغم ذلك فانك الزمتهم بركوب سيارتك ، متوقفا اول مرة فى شارع الكيونيس لتوديع نوليس وزوجته، اذ حدث شيء غريب : فقد مرت بجانبك سيارة اجرة واعترضت طريقك عندما توقفت فى وسط الشارع ! ٠٠ فتوقفت انت ايضا ونزلت من سيارتك قائلا « حتى سيارة الاجرة ايضا ! ٠٠ اريد ان اعرف من هو »٠ ثم اتجهت الى السائق ، ورأتك مسز سولزوجيو تتجادل معه بضع دقائق ! ٠٠ ولكن بعد ان رجعت بدا انك أطمأننت : « لا ٠٠ انه لم يكن يتابعنى ! ٠٠ هو من جليفادا ، وانا اعرفه ! » ٠٠ وعدت تقود سيارتك ودخلت شارع بوزيدون وانت تقول : « الواقع اننى اصبحت اتشكك كثيرا فى السيارات ! » ٠٠ « لماذا ؟ » ٠٠ فلم تجب ردا على مسز سولزوجيو ٠٠ وربما لم تكن سمعت سؤالها ، وكنت مطبق الشفتين مقطب الجبين ، تتطلع من خلال مرآة السيارة التى تعكس المرئيات الخلفية ! ٠٠ وفجأة توقفت مرة اخرى فى شارع مجاور لمنزل مسز سولزوجيو وسألتها ان كانت تمانع فى النزول والسير الى منزلها

القريب من المنعطف ؟ .. فلم تفهم السيدة سبب هذا الطلب المفاجيء ، ولم نعرف الا بعد موتك انك لم تكن تريد السير في شارع اندروتزو وهو ضيق مظلم ، ولهذا كنت تواقا لكي تبقي بمفردك ! .. ومهما يكن فانها اجابتك الى ما طلبت ، ونزلت من السيارة دون ان تفتح لها الباب كالمعتاد ، وظلت يدك قابضة على المحرك متحفزا للانطلاق السريع ! .. وهي اعربت لك عن الشكر ، مردفة : « لكن لماذا لا تنام في شارع كلوكيتروني ؟ .. انه قريب جدا ، وهل تستأهل المسألة ان تقود السيارة مدى ثلث ساعة للوصول الى جليفادا ؟ » .. « النوم اربع ساعات فى جليفادا أفضل من اللوم ثماني ساعات فى كلوكيتروني ! » . « طابت ليلتك اذن ! » .. « طابت ليلتك ! .. ولم تنتظر حتى تعبر الشارع وتصل الى الرصيف المقابل ، قدت السيارة على الاثر ! .. وقتها كانت الساعة ، كما قالت مسز سولزوجلو فيما بعد ، الواحدة وخمسا وثلاثين دقيقة ، او الواحدة والاربعين دقيقة على الاكثر ! .. وقد اضافت ، تفسيرا لكلامها ، انها وصلت الى منزلها فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والاربعين : سيرا لمسافة مائتى متر الى المنزل رقم ٥١ بشارع اندروتزو ، وفتحا للبيت ، وطلبا للمصعد ، والصعود بها الى الدور الرابع ، ودخولا الى المسكن ـ وهو ما استغرق مالا يقل عن ثماني او عشر دقائق ! .. هذا صحيح ، ولكن في الليل ، والشوارع نصف مهجورة ، فان الذهاب من ذلك المكان في شارع (ليوفوروس سيجرو) الى المكان الذى قتلوك فيه بطريق فوليا جميني لا يستغرق الا خمس او ست دقائق ! .. وكان لابد للساعة المثبتة في سيارتك ان تتوقف ، بفعل الاصطدام ، في الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والخمسين : وهو التوقيت الذى اكده الشهود ! .. وفيما بين اللحظة التى تمنيت فيها ليلة طيبة لمسز سولزوجليو واللحظة التى وقع فيها التصادم ، كان هناك فاصل زمني يناهز ثماني عشرة دقيقة او ثلاثا وعشرين دقيقة ، ولنقل عشرين دقيقة .. وهي فترة العشرين دقيقة التى تمثل المعمعة التى كان عليك ان تخوضها مع قتلتك !!

★★★

لقد ظهروا معا ، بتوقيت واحد ، كما لو كانوا على موعد محدد .. ظهروا مباشرة وانت تنعطف الى شارع دياكو ! .. سيارة حمراء (بى . ام) ، وسيارة بيجو فضية داكنة .. ومن المؤكد انك لم تدهش . فقد ادركت ان هذا لابد ان يحدث ، في شارع بوزيدون ، عندما عرضت

ان تتوقف وتستدير بدعوى مشاربة مسز سولزوجليو كاسا من عصير البرتقال ولكنها اعتذرت لتأخر الوقت ، وقد زاد يقينـــك فى شـــارع (لوفوردس سيجرو) عندما انزلت مسز سولزوجليو من السيارة ! ٠ والواقع فان الشهود الذين رأت الشرطة فيمـــا بعد ان تتجـاهلهم او تسكتهم (باستثناء شاهد واحد لم يذعن لهم قط وهو ســـائق باسم منديس جاروفلاكيس) قرروا فى صباح اليوم التالى ان خلف سيارتك الخضراء لم تكن سيارة بيجو فقط : بل كانت هناك أيضا سيارة حمراء بلون الصدأ ، ربمـــا كانت من طراز جاجـوار او (بى ٠ ام) ! ٠٠ وقد القيت نفسك بين السيارتين مثل فأر فى مصيدة ، ومن المحتمـــل انك فكرت اول الامر ان تفلت مبتعدا ! ٠٠ ولكن سرعان ما شـــعرت بحافز غلاب لمواجهتهم ، لرؤيتهم وجها لوجه ، لاكتشاف من يكونون ، بنفس الكيفية التى واجهت مطارديك بها فى مناسبات سابقة فى جزيرة كريت وفى روما وفى اثينا ، وفى كل مرة حاولوا فيها ارهابك او اســتفزازك او قتلك بسيارة ، اذ كان الملل من الحياة يطفو الى السطح ، منبعثا من الملل من الخسران ، ومن ثم الحـــاجة الى الكسب على الاقل بعد الموت والحسبان من اللاوعى بأن البطل الحى لا يستأهل البطـــل الميت ، وهكذا بدأت المعمعة ! . . هو ذلك الضرب من المصاولات آلذى يعكس فى محظة معينة الادوار ويحيل من يطاردونه الى مطارد لهم ! ٠٠ واننى لا تصورك بعين الفكر وانت مشدود الى عجلة القيادة ، شاحب الوجه ، تطاردهم كما يطاردونك ، وتهاجمهم كما يهاجمـــونك ، فى سلســـلة مجنونة من الانحراف ، والمصادمات ـ تلك المصادمات التى ورد ذكرها فى تقارير الخبير ، والتى شاء محققو (الســلطة) الا يقبلوا بها : هى من آثار لون صدىء او ما شـــابه ! ٠٠ ترى فى أية لحظـة من هـــذه المصاولة الرهيبة بدا لك ان تعدل عنها وتمرق من الطريق الذى سلكته مندفعا الى شارع فوليا جمنتى ، حيث قرر الشهود فيمـــا بعد رؤيتهم لسيارة خضراء تندفع مارة بهم تتبعها سيارة حمراء وسيارة اخرى فضية داكنة ! ٠٠ كانوا شهودا اربعة : سائق ســيارة اجرة كان على مســافة مائتى متر من الخلف ، والراكب الذى كان معه ، وسائق ســيارة اجرة آخر كان يسبقك ، وثالث توقف عند التقاطع ٠٠ انهم تطوعوا للشهادة امام الشرطة ، وفى أول الامر لم تسألهم الشرطة حتى عن اسمائهم ، ثم سألوهم بعد ذلك ، واذا ثلاثة منهم يغيرون اقوالهم ، ناسين الســيارة الحمراء ! ٠٠ كان الشاهد منديس جاردفولاكيس وحده هو الذى اصر

على اقواله ، لكن لم يشأ احد ان يستمع اليه ، ثم تعرض للتفنيد ، والتهديد ! ٠٠ وفى الواقع انه بالنسبة لمندوبى الصحف الذين ارادوا ان يعرفوا منه المزيد ، تكلم بنضور متزايد ، بتردد هو وليد الخوف ، قائلا : « نعم ! سيارة حمراء ، واخرى بيضاء ٠٠ بيضاء لا ! ٠٠ رمادية » ! ٠٠ السيارة الاولى ، ثم الثانية ! ٠٠ عن اليمين ، ثم عن الشمال ، مروا بك وسدوا طريقك ! ٠٠ كانوا امامك ، وكان لابد ان تتفاداهم معا ، ثم تمر بهم معا ، وفى اللحظة التى نجحت فى هذا ، اخذوا يكررون المناورة ! ٠٠ بترتيب ، بدقة ، وتزامن تام ! ٠٠ « لكننى لا اعرف شيئا ياسادة ! ٠٠ بحق السماء ، لا اريد متاعب ! ٠٠ ان لى زوجة واطفالا ! ٠٠ ان لى عائلة ! ٠٠ لا تجعلونى اتورط ! ٠٠ اذا لم تجعلونى اتورط ، اذا حلفتم انكم لا تستعملون اسمى ، ساقول لكم ان السيارة الخضراء كانت على الدوام محبوسة بين السيارة الحمراء والسيارة الباهتة ، وفى السيارة الحمراء كان هناك رجلان ، وعند نقطة معينة فان السيارة الحمراء فعلت اسوأ شىء : فقد اصطدمت بالسيارة الخضراء من الخلف ، فى موضع اللوحة المعدنية بالضبط ! ٠٠ وعند ذلك انحرفت السيارة الخضراء ، ثم اعتدلت بمعجزة ، وانطلقت بسرعة فى اتجاه جليفادا ! ٠٠ لكننى لا اعرف اى شىء يا سادة ! ٠٠ اننى لم أر شيئا ! ٠٠ اننى لم اقل شيئا ، وحق يسوع ! » ٠٠ كان الثلاثة يمضون بكل سرعة ! ٠٠ مائة وعشرة كيلو مترات ! ٠٠ مائة وعشرون كيلو مترا ! ٠٠ مائة وثلاثون كيلو مترا ! ٠٠ وبهذه السرعة وصلت الى كنيسة سانت ديمتريوس : وبعدها تتناقص البيوت ، ويرتفع الشارع قليلا آلى ما يشبه الحدبة ! .. وبعد الحدبة يتسع طريق فوليا جمنتى السريع فى مسارين تتوسطهما جزيرة ! ٠٠ وبعد مسافة خمسين مترا ، الى اليمين ، يوجد جراج تعلوه لافتة (تكساكو)! ٠

ان السيارة الحمراء صدمتك فى موضع اللوحة المعدنية عند كنيسة سانت ديمتريوس ! ٠٠ وبعد حدبة الشارع مرت بك لآخر مرة ، ثم ابتعدت ، واختفت فى الظلام ! ٠٠ ولكن فى مرورها بك ثم انطلاقها لتختفى فى الظلام . هل استخدم الرجلان اللذان كانا بها مسدس الغاز او لم يستخدماه ؟ ٠٠ هو مسدس مطابق للمسدس الذى راى المحقق حفظه بلا تدقيق فى شهر اغسطس ٠٠ وكان مسجلا برقم ١٥٩٧٨٩ ومصنوعا فى المانيا الغربية ، ذا فوهة قصيرة ومقبض ثقيل ، وتحتوى

خزانته على خمس رصاصات وخمس خرطوشـــات معدنية ، وبه ثقب لاطـــلاق غاز متبخر حال اطلاقه دون ان يترك اى اثر ! ·· (واذا لم توجد آثار ، فانهم فى المشرحة لم يكلفوا انفسهم عناء البحث عنها ! ·· انهم لم يجروا أى تحليل يمكن منه معرفة وجود آثار عنــاصر مغيبة او مواد مخدرة طيارة) ·· فهل استخدموا مســـدس الغـــاز هذا او لم يستخدموه ؟ ·· ان الظروف كانت ترجح ذلك ، مذ كنت تقود سيارتك والنافذة اليسرى تكاد تكون مسدلة تماما ! ·· فاذا كانوا لم يستخدموا المسدس ، وكان ذلك المحقق على صواب فى استبعاد المسدس على نحو ذلك الاغضاء ، فما الذى دوخك ، واحتواك فى غلالة خدر ونعاس ؟ ·· ما الذى غشى بصرك وشل ارادتك ؟ لقد كنت تنحرف وتتعـرج عنـدما ادركتك السيارة البيجو ، وكنت فى حالة فقد فعلية للســـيطرة على السيارة ، وهكذا كان من السهل على استيفاس ان يتمم العملية ! ·· فأولا صدم بالرفرف الامامى الايمن الرفرف الخلفى الايسر لسيارتك ، ثم ضغط بقوة على جانبك الايسر وسحبك لبضعة امتــار ، ثم شـد على عجلة القيادة وانفصل عنك واحدث الصـــدمة المميتة ، واذا انت تنزلق كرصاصة فارغة ، فيما انحرف هو بزاوية متعامدة لدخول فتحة جزيرة المرور التى تقسم طريق فوليـا جمنتى ، بمنـــاورة قاتل انتحــارى (كاميكازى) تدرب فى ميادين سباقات كندا ! ·· اما انت فقد انحرفت بميل شديد جعلك تعتلى الرصيف المجاور للجـــراج الذى تعلوه لافتة (تكساكو) ، متجاوزا عمود انارة على قيد امتار معدودة ، وفى غمرة من غلالة الخدر او النعاس حاولت عبثا تهـدئة السرعة بالفرملة ! ·· لكن سيارتك كانت اذ ذاك منطلقة ، كانت تمرق بل تطير بلا هوادة شـــطر المنحدر المؤدى الى الجراج ، وما كان لشىء ان يصدها او يوقفها ! ·· ولو ان طيرانها كان يمتد مترين اطول ، فربما كان يمكن ان تثبت فوق فراغ المنحدر وتهبط ثانية فى دنيا الاحياء : ولأمكن ان تنجو ! ·· لكن هذا لم يكن جزءا فيما رسمته الاقدار من مصيرك المحتوم ، واذا السيارة تفقد ارتفاعها بسرعة خاطفة ، وتنخفض مقدمتها شطر الجدار الذى لم يكن منذ لحظة مرئيا وفجأة صار مرئيا ، فتمضى هاوية بسرعة مجنونة ، فكان الاصطدام العنيف فى دوى قنبلة قاصفة ، ثم النهـــاية ! ·· واذ رفعت ذراعيك فى علامة استسلام ، واذا اخذت راحتا يديك تلامســان المدخل الى العدم ، فقد حدث كل شىء كما قدر ان يحدث وكما تنبــات

بان يحدث فى حساباتك ورؤاك الباطنة ، وفى السطور الاخيرة من الكتاب الذى توقفت عن اتمامه لدى الصفحة الثالثة والعشرين ! ٠٠

★★★

كان اول شخص هرع اليك هو سائق سيارة الاجرة الذى كان يقل الراكب ، واول الامر لم يبصر شيئا سوى سحابة كثيفة منعقدة ! ٠ فلحظة ان وقع الاصطدام ارتفعت سحابة ترابية عظيمة وغطت كل شىء بظلام ! ٠٠ وقد تقدم السائق يتخبط فى السحابة ، فى الظلام ، وعندما صار عند حافة الهوة حجب وجهه غير مصدق وهو مروع : فقد بدا مستحيلا ان تندفع سيارة فى مثل هذا الحيز الصغير ! ٠٠ لقد بدت السيارة منكمشة ، متقلصة ، مضغوطة ، حتى استحالت الى كوم صغير من الحديد الملتوى ، والمعدن المتصدع الممزق ، والزجاج المهشم !٠ وفى وسط هذا كنت ملقى ، مازلت حيا وسالما فى الظاهر ! ٠٠ ولقد رفعت جفنيك ، وحركت شفتيك : « انا ٠٠ انا ٠٠ انهم ٠٠ » ٠٠ فرماك السائق قائلا وهو لا يعرفك : «اسكت ! ٠٠ اسكت ! سنخرجك!» ٠٠ وبمساعدة الراكب سنخلصك من الحطام ، وسحبك الى الرصيف !٠ وهنا عرفك ، وادرك انك غير سالم : كان الدم يتدفق من جروحك بلا توقف ، مسفوحا فوق الاسفلت ! ٠٠ وراح يتلعثم قائلا : « الى المستشفى بسرعة ٠٠ الى المستشفى ! ٠٠ » ٠٠ فرد عليه الراكب : الى المستشفى ، ام الى المشرحة ؟ » ٠٠ ورفعاك دون اقتناع من ذراعيك اللذين كسرا ، ومن ساقيك المهشمين ، وارقداك فوق المقعد الخلفى لسيارة الاجرة ! ٠٠ الآن عميت العينان ! ٠٠ الآن حاولت الشفتان عبثا ان تتحركا ، ان تقولا شيئا ! ٠٠ كان المستشفى بعيدا جدا ! ٠٠ وعلى اى حال فلم تكن هناك الآن فائدة ! ٠٠ وفى منتصف الطريق اختلجت شفتاك لآخر مرة ، وفاهتا الآن بوضوح : « اواه ياربى ! ٠٠ ياربى ! » ٠

ثم صعدت نفسا ، طويلا جدا ، وعميقا جدا ! ٠٠ وانفجر القلب بددا ! ٠٠

(٣)

انني وصلت الى اثينا بعد سبع عشرة ساعة ! . كان جمع كبير صامت واقفا خارج المشرحة !. ودفع بي الى داخل حجرة ضخمة ، ينيرها ضوء حسير من مصباح معلق بسلك ، وهي حجرة المخزن ذى الخانات المبردة ، وعلى الاثر أعمى بصري وميض الكاميرات الخاطف ، فشق السكون أمر حاد بهذه الكلمات : « أخرجوا المصورين ... ليخرج كل واحد !. اغلقوا النوافذ !. » وبعدئذ فتح احدهم بابا ، والقى نظرة على الداخل ، ثم اغلقه ثانية فى مضض : « لا !. غيرة !. نعم ، هو هذا !. » كان باب الخانة الثالثة الى اليسار ، فى الصف الأسفل ، وكان بابان آخران بجانبها ، وثلاث خانات اخرى من فوق .. كانت معدنية لامعة مصقولة !. وبدت مثل أبواب خزانة !. وانبعث صوت يسأل : « مستعدة ؟ » .. فأومأت براسى ، وانفتح الباب على سعته ، مطلقا لفحة من برودة كالثلج ... وفى الداخل كان يمكن رؤية جسم ملفوف ، فوق لوح معدنى ايضا !. وسأل نفس الصوت : « هل انت متأكدة ؟. » .. فأومأت براسى مرة اخرى ، وانزلق اللوح المعدنى الى ناحيتى ، حتى صار غطاء ملطخا بالدم ، يلف جثة ... جثتك !. كان شكل الراس يمكن تمييزه بوضوح ، واليدان المشبكتان فوق الصدر ، والقدمان !. ورفعوا الغطاء ، فشاهدتك !! ركعت لكى أنظر اليك ، غير مصدقة !. من أربية الفخذ الى الرقبة شقوا جسدك لسرقة قلبك ، ورئتيك ، وأحشائك ، ثم خاطوك ثانية بغرز سوداء شوهتك ، حتى كانت اشبه بصراصير تعلقت ببشرتك فى خط طولى لالتهامك !. وامتد جرح بليغ بشع متعرجا بطول ذراعك الايمن من المرفق حتى المعصم !. وبدا الفخذ مورما ورما شديدا بتأثير ما حل به من كسور !. غير أن الوجه لم يمسه أذى ، فيما عدا امتقاع مزرق فوق الصدغ !. ناديتك على استحياء !. لامستك فى تردد !. فرفضت باباء ، فى جمود الموت المتوقع المزدرى ، كل كلمة وكل لفتة حب : اردت أن اتقلب على الخوف من الاساءة اليك لكى امسح على الجبين القارس ، والوجنتين المثلجتين ، والشارب المتصلب المغطى بالصقيع ... ففعلت ، لكى أبعث فيك بعض الدفء !. لكن كان ذلك

كمحاولة تدفئة تمثال من رخام ، فقد كان كل ما بقى منك تمثالا من رخام فى قوام وملامح وذكرى ما كنته الى ما قبل سبع عشرة ساعة ، واذا غضب جائح يشقنى ، ويقين كان له طعم الكراهية بأنهم لم يقتلوك مصادفة ، ولم يقتلوك بحادث ، وانما قتلوك لكيلا تضايقهم بعد الآن، اكثر مما كان !.

ثم نهضت قائمة ! . ففطاك أحدهم ثانية بالغطاء وركل اللوح المعدنى الذى انزلق ثانية فى الظلمة بصرير ... ثم اغلق الباب عليك مرة أخرى ، فى لفحة ثانية من البرودة القارسة !.

خارج المشرحة كان الليل جاثما ... اخذ الناس ينفضون أدران فضولهم من حولى قائلين : « انها لا تبكى !. » .. وفى شارع كلوكبرونى وجدت قصيدتك : « أن نهايتى سوف تحل بالكيفية التى يشتهيها اولئك الذين يملكون السلطان ! » ... وكانت هناك أيضا كلمات سقراط : « ان ساعة الرحيل قد جاءت ، وكلانا سيذهب فى طريقه : انا لكى أموت ، وانت لكى تحيا ... ايهما افضل ، هذا علمه عند ربى وحده » ... ثم كان التفجع الذى لا يلبث فى النهاية ان يتفجر بصراخ كصراخ الحيوان الجريح !. بل كان هناك واجبى فى ان أعيش ، ووعدى الذى لا فكاك منه ، « سوف تكتبين القصة بدلا منى ، عدينى !. » ... « أعدك !. » ... وكان هناك انتظار يوم ٥ مايو ، اليوم المحدد لجنازتك !. « سوف نتلاقى يوم ٥ مايو ... سوف تكون معا يوم ٥ مايو » ... ولسوف يكون الضنى والكرب صباح ذلك اليوم اذ أعود الى المشرحة لكى البسك واتبادل معك الخاتمين مرة اخرى ، ولكى أواجه الاخطبوط بهديره المدوى : هو حى، هو حى ، هو حى !. وفى خلال ذلك كله يبقى سلطان (القوة) فى مربضه فوق قمة الجبل ، لا يتزحزح !. وفى خلال ذلك تستعد (الجوارح) للولوغ فى وليمتها فوق جثتك ، هاتفة تمويها بكلمتى (الشعب) و (الحرية) ، مهللة لذكرى الرفيق الكريم ، مشيدة بالخصم النبيل !. وفى كورنث كان ميشيل ستيفاس فى طريقه الى مقهاه المفضل لملاقاة أصحابه لتناول قدح من القهوة التركية وصحفة من الحلوى والفطائر !.

★★★

لم يكن من السهل بعد المصادمة الفتاكة التى أحدثها ميشيل ستيفاس أن ينحرف بسيارته البيجو ويستدير بها الى طريق فولياجمنتى !. لكنه فعلها بدربة المحترف المتمرس ، وبرودة دم القاتل

الأجير – وهى ذات برودة الدم التي كان عليه ان يكشف عنها فى الايام والشهور التالية ، مع الشرطة ، ومع الصحافة ، ومع كل احد !. وبعد المرور بثلاث نقط تقاطع فى شارع أولجا ، نزل من السيارة لتفقد العطب الذى نال سيارة البيجو ، ثم واصل سيره ، ثم عاد الى طريق فولياجمنتى ، وعند قمة المنحدر توقف لالقاء نظرة ، وللتأكد مما هو حادث !. ان ما هو حادث كان هو المفروض ان يحدث، ففى السحابة الترابية الكبرى كان يمكن تمييز رجلين يسحبان جثة معدومة الحركة ، وشخص ثالث يصرخ : « انه يموت !. انت ميت !. » ... وكانت سيارة أجرة عن كثب ، ونوافذ تضاء ، واناس يبرزون الى شرفاتهم للسؤال عمن يموت ، أو مات !. ان هذا لم يزعجه فى شىء ، وبعد دقيقتين أو ثلاث عاد أدراجه ، وجلس الى عجلة البيجو من جديد !. ان السيارة قد أدت مهمتها تماما ، ولم يكن العطب الذى نالها بالغا ، وما كان بها شىء يحول دون عودته بها الى كورنت (وماذا عن رحلة النزهة الى جزيرة ايجينيا ؟. وماذا عن جيورجوبولوس الذى كان ينتظره فى الصباح ، هو والفتاتان ؟. هل ينوى كل شىء ، والغى ؟.) .. وفى الساعة الثالثة والنصف صباحا وصل ستيفاس ثانية الى كورنث .. فأوقف سيارته فى مكانها المعتادة ثم ذهب الى فراشه حيث غرق فى النوم على الاثر !. وقد استيقظ فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، فتناول غداءه ، ونال حظا قليلا من النوم مرة أخرى ، وله الآن أن يتوجه الى مقهاه المفضل لملاقاة أصحابه، وتناول قدح من القهوة التركية السائغة ، وصحفة من الحلوى والفطائر !. كان عليه ان يظهر نفسه ، ويقدم الدليل على وجوده فى المدينة ..

وصل الى المقهى حوالى الساعة السابعة ، وجلس الى مائدة صغيرة سبقه اليها بعض الأصحاب : ابن العمدة وآخر يدعى ديمترى نيكولاوس ، وآخران اضافاه من قبل عندما ذهب الى مدينة فلورنسا، يدعيان كريستوس وكريسيوس .. وقد رحبوا به سائلين : اين كنت مختفيا يا ميشيل ؟. اننى عدت أمس من أثينا بالاوتوبيس وأنا هنا منذ أمس !. وتحدثوا ايضا عن الطقس الذى تحسن من جديد ، وهو ما يمكنهم من الذهاب الى البحر غدا !. وعندئذ جاء شقيق كريستوس قائلا : « هيه يا اخوان ، هل سمعتم الاذاعة ؟. » ... « بناجوليس مقتول ؟!. » ... ولكن ستيفانس لزم الصمت ... « من الذى قتله ؟. من ؟. » ... « انهم لا يعرفون ... انهم صدموه

وقذفوا بسيارته خارج الطريق ! . كانا اثنين فيما يظهر : سيارة مرسيدس بيضاء ، واخرى جاجوار حمراء !. » .. « ما معنى قولك فيما يظهر ؟. » ... لان هناك شخصا يقول ان السيارة الجاجوار ليست جاجوار وان السيارة المرسيدس لم تكن مرسيدس !. وعلى اى حال فانه اصطدم بسور جراج فى طريق فولياجمنتى !. ومات على الاثر !. او فى حالة موت .. ان كبده تمزق الى ١٩ قطعة ، ورئتــه اليمنى صارت خرقة مهلهلة ، وقلبه انفجــر مثــل القنبلة !. » .. واستمر ستيفاس ملازما الصمت ، هادئا ، وكأن الخبر لا يهمه !. واخيرا قال وهو يتثاءب ، بلا اكتراث : « هل قبض على احد ؟. »... « بتاتا ! » .. « لكن هل كان حادثا ، أو غير ذلك ؟. » .. « ان الجرائد لا تصدر اليوم ... أليس هو أول مايو ؟. » ... «صح» ... « من يمكن أن يكون ؟ » ... « من يدرى ؟ » ... وبهذا أقفلوا الحديث ، وأخذوا يتكلمون من جديد عن النزهة الى شاطىء البحر » ... « من سيأخذها الى هناك ؟ . »..« ستيفاس هو الذى سيأخذها، بسيارته البيجو !. بالمناسبة يا ميشيل ، أين البيجو ؟. » .. فخرج ستيفاس عن صمته ، وكان صوته هو صوته المعتاد ، قائلا : « هى هنا .. والا اين تكون ؟ ... فى موقفها المعتاد !. » ... « اذن لماذا جئت ماشيا ؟. » ... هل انكسرت ؟. هل وقع لك حادث ؟. » ... « كلام فارغ !. السبب هو اللوحة المعدنية !. اننى لم اقدها منــذ شهور بسبب اللوحة ... لا يمكنكم ان تتصوروا الغرامة التى كنت اتعرض لها ، بسبب تسجيلها !. » ... « آه !. من يلاحظ لوحات الرخصة ، فى يوم العطلة ؟. » ... « لا !. لا يمكننى اخذكم !. ».. فتطوع ابن العمدة قائلا : « لا بأس .. سآخذكم انا .. عندى أنا أيضا سيارة » ... واتفقوا على اللقاء فى العاشرة من صباح اليــوم التالى ، وفى عدادهم ميشيل !.

كانت رحلة ممتعة ، كما علمت كل هذا من كريستوس اثنــاء تحرياتى التى قمت بها فيما بعد !. وكان ميشيل صافى المزاج طوال الرحلة ، حتى كان يضحك ، ويمزح ، ويمــلأ الجو بالحــديث عن السيارات ، والملابس ، والفتيات ، خصوصا الفتيات !. ولم يذكر شيئا قط عن فاجعة موتك !. ولا ذكر الآخرون شيئا !.

وعاد ميشيل الى اثينا حوالى الساعة الرابعة بعــد ظهر الاحد ٢ مايو ، وطبقا لأقواله ، فانه ذهب الى السينما ، ثم الى بيته !.

ولكن بمن اجتمع ، وما الذى فعله بعد ذلك ، فهذا لم يعرفه أحد !. ولا من الذى حثه أو نصحه او اجبره على ان يقدم نفسه الى الشرطة بعد أربع وعشرين ساعة من ذلك !. ولكن كانت هناك حقيقة مؤكدة : فما من أحد ، ما من أحد على الاطلاق ، تشكك فى أمره !. بالاضافة الى أنهم كانوا يبحثون عن سيارة مرسيدس ، لا بيجو !. لكن شائعة مؤداها انك لم تقتل مصادفة ، وانك لم تقتل بحادث ، وانك قتلت عمدا وبأوامر من شخص ما .. هذه الشائعة راحت تتنامى مثل نهر تزخر مياهه ، منذ مدة بالخطر : فكان لابد من وقفها !. بعد ظهر يوم الاثنين قدم ستيفاس نفسه الى ادارة الشرطة بصحبة محاميه كازاليكاس ، الذى ذكر أن ستيفاس اذ يقدم نفسه للشرطة فانما يفعل هذا ببساطة كشاهد ، وانبعاثا من حبه الصادق للحقيقة ، راميا بهذا الى وقف شائعة بالتلميح بأنها جريمة سياسية !. ان ما وقع هو حادثة عادية ، من نوع الحوادث التى يكون فيها الضحية نفسه هو المخطىء !. بل ان ستيفاس ذاته كاد يتعرض للموت !. اذ كان المسكين يقود سيارته مطمئنا فى طريق فولياجمنتى ، عندما بدأت سيارة فيات خضراء تنحرف من قائدها الذى فقد السيطرة عليها واصطدم بسيارته ، مارا به من جهة اليمين !. والواقع أن ستيفاس المسكين لم يفلح الا بمعجزة لانقاذ نفسه عندما انحرف بدوره الى المسار المضاد !. وبعدها سمع صوت اصطدام ، وعند عودته شاهد سحابة ضخمة من الغبار ، ورجلين يسحبان جسم انسان فاقد الحركة ، بيد أنه فى الواقع لم يتصور ابدا انه كان يترك خلفه جثة !. ولم يعلم أن الرجل كان ميتا وان الجثة هى جثة بناجوليس الا فى صباح يوم الاثنين ، عند قراءة الصحف !. كلا !. لا قبل الحادث أو بعده كانت هناك سيارة حمراء ، فلم يكن هذا الا من تخيلات أولئك الذين عندهم دافع للاصرار على انها جريمة سياسية !! .. ولقد ابدت الشرطة انها اقتنعت ، وبدلا من القبض عليه ، فقد وضعوه تحت حمايتهم !. وان كانوا مع ذلك ، استكمالا للشكليات ، باعتبار الواقعة حادثة سيارة ، قدموا ستيفاس للمحاكمة !. وصدر الحكم بحبسه ثلاث سنوات بتهمة القتل غير العمد !. وباستئناف الحكم استبدل الحبس بتغريمه خمسة آلاف دراخمة لنكوصه عن تقديم المساعدة !. خمسة آلاف دراخمة لم يجد عناء فى دفعها ، اذا كان فى خلال ذلك كله قد غدا شريكا فى ملكية محل (أزياء هيم) وكون لنفسه ثروة !.

وفى غضون ذلك كانت تحدث أمور : مع القاضى جيوفولوس ربيب

الشجاعة والديمقراطية والحرية ، اذ صرح باذاعة الوثائق التى حظر نشرها ، طبعا تلك الاوراق التى لا تدين (التنين) ولا رفاق (التنين)!.
وهكذا ظل وزيرا للدفاع ، لا يكدر صفوه مكدر ، ولا يخدش بقاءه أدنى شائبة !. وانقلبوا بعد ذلك على شخصيا ، مهددين ، متوعدين ، بالرسائل والمكالمات التليفونية : حاولى أن تكتبى أشياء معينة ، وسوف ترين !. انشرى الكتاب الذى تؤلفينه ، وسوف ترين !. فى حين تقبل الناس هذا من جديد ، وخضعوا من جديد ، عميا ، وصما ، وبكما ، من جديد ، عجزا واستسلاما من جديد ، دون أن يجسر احد على ان يقول لهم أنتم جميعا قتلة ، قتلة اخساء ، تحتمون بأستار القانون ، والنظام ، والاعتدال ، والحرية ، والعدالة !! ..
وهكذا انتصرت (القوة) كرة أخرى !. (القوة) الآبدة التى لا تموت أبدا والتى لا تهوى من قمة الجبل الا لكى تنهض من جديد ، هى ذاتها كما كانت من قبل ، غير مختلفة الا فى اللون !. لكنك كنت قد فهمت بوضوح أن نهاية القصة ستكون كذلك !. ولو قام لديك ظل من الشك فى هذا ، فقد تلاشى لحظة أن لفظت ذلك النفس العميق لآخر مرة ، متوجها الى عالم سوف يلحقك فيه شعراء وأبطال آخرون، شعراء وأبطال الأساطير الحابطة ، والذين بدونهم مع ذلك لا يكون للحياة معنى ، والذين يدركون أن التوقف عن النضال ، هو الجنون المحض ، والذين يوقنون أن البذرة التى غرسوها فى الهباء سوف تذكو وتتشكل فى أوانها المقسوم !. ومن هنا كانت الابتسامة الغامضة التى علت قسماتك وانت تنحدر الى القبر ، والاخطبوط يهتف من حولك هادرا : اليكوس حى !. حى !. حى !!.
فلم تكن هذه آذن نهاية بطل ، ولا حلم رجل مناضل ...

تمت

رقم الايداع : ٥٢٢٦/ ١٩٩٠
I . S . B . N
977 - 07 - 0070 - X



أوريانا فالاتشى

○ كاتبة ايطالية مولودة عام ١٩٤٠ .

○ أشتهرت أوريانا فالاتشى كصحفية مرموقة تكتب المقالات السياسية وتعقد الحوارات مع أبرز شخصيات العالم الحديث . لذا سميت بـ " آل فالاتشى" .

○ من أشهر كتبها : "رسالة الى طفل لم يولد بعد" و"الأنانيون" و" لو ماتت الشمس" و"لقاء مع التاريخ" .

○ نشرت روايتها الأولى "انسان" باللغة الايطالية عام ١٩٨٣ وفى يوليو ١٩٩٠ نشرت روايتها الثانية "انشالله" عن حرب لبنان .

هذه الرواية

انسان ..

هى الرواية التى اخترناها لنقدمها فى هذا العدد الممتاز لتحمل رقم "٥٠٠" فى سلسلة روايات الهلال .. بعد أن رشحها الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين ..

فهذه الرواية قد ترجمت الى أكثر من أربعين لغة منذ صدورها فى أوائل الثمانينات وحتى الان ، كما أنها تصدرت المبيعات فى كل مرة ترجمت فيها لشهور عديدة .

انسان .. هى احدى أهم الروايات العالمية فى عقد الثمانينات ، حيث راحت تتحدث الكاتبة الايطالية أوريانا فالاتشى عن علاقة بطل المقاومة باناجوليس بتفصيل دقيق حول معاناته مع السلطة عقب القبض عليه .. فقد راح رجال السجن يعذبونه حتى حولوه الى مسخ انسانى .. لكن هذا لم ينل أبدا من كبريائه وشموخه .

انها رواية صادقة كل ما فيها حقيقى . ابتداء من أسماء الأبطال والأحداث ولذا فهى قنبلة موقوتة من الأحاسيس العميقة ..

انسان .: رواية عن العواطف النبيلة تجاه الوطن والنساء والأصدقاء ..